

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الكتاب والسنة

الإمام عبد الحميد بن باديس
ومنهجه في الدعوة
من خلال آثاره في التفسير والحديث

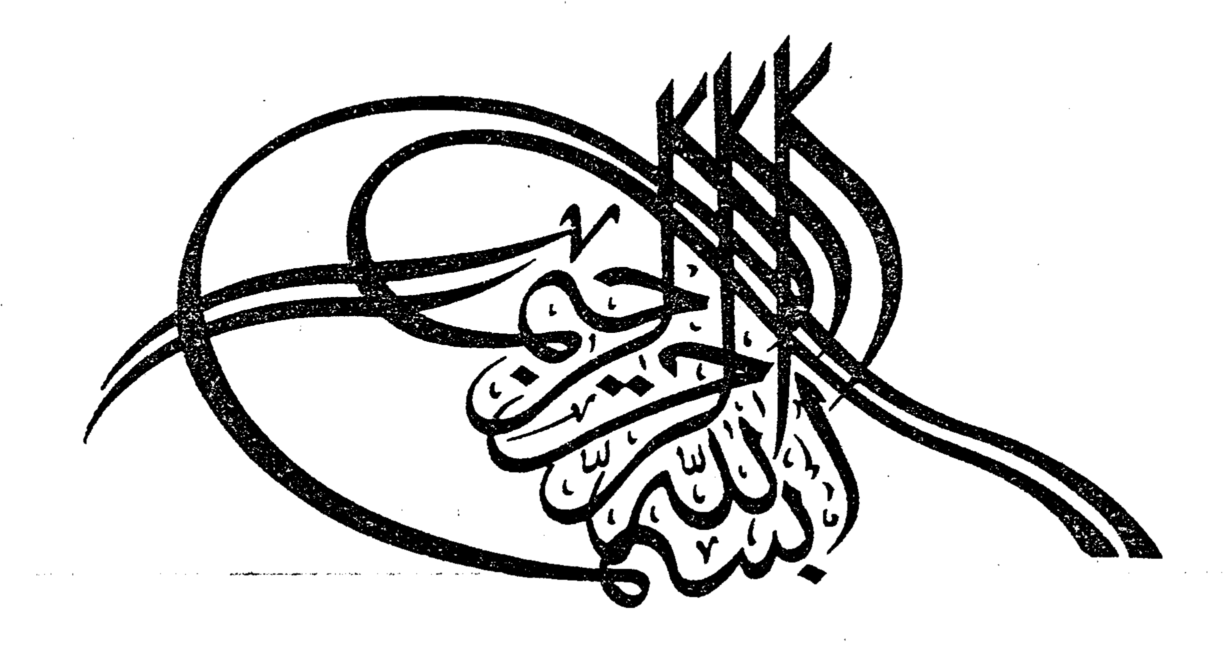
رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير

إعداد الطالب
عامر علي العرابي

إشراف الأستاذ الدكتور
سليمان صادق البيرة

١٤٠٨ / ١٤٠٩ هـ




بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وبعد :

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ لَا يَشْكُرِ النَّاسَ لَا يَشْكُرِ اللَّهَ" (١) وقال عليه الصلاة والسلام : "مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَقَالَ لِفَاعِلِهِ جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ" (٢) .

وانطلاقا من هذا التوجيه النبوي الكريم فإني أتقدم بالشكر الجزيل والدعاء بالجزاء الجميل لمعالي مدير جامعة أم القرى الموقر الذي وفر لي ولكل طلبة العلم في هذه الجامعة الجو العلمي المناسب والرعاية الكافية التي أمكنني بها من إتمام هذا العمل العلمي طيلة هذه السنوات الماضيات، ووقف بجنبي في لحظات حرجة مواقف الرجال العظماء فجزاه الله عن كل ذلك أعظم الجزاء .

وأخص بالشكر كذلك مشرفي الكريم سعادة الدكتور المفضال سليمان البيرة على رعايته الكريمة وعنايته المتواصلة وحماسه المشكور لهذا البحث مما جعلني أشعر بما له علي من عظيم المنة التي لا يقوم بها الشكر .

ولا يفوتني هنا — والمقام مقام اعتراف بالجميل وعرفان لأهل الفضل بما هم أهله — لا يفوتني أن أذكر بالخير الأساتذة الفضلاء عميد كلية الدعوة وأصول الدين السابق سعادة الدكتور : عبد العزيز الحميدي، وعميدها الحالي سعادة الدكتور : علي العلياني، والرئيس الحالي لقسم الكتاب والسنة سعادة الدكتور : منصور العبدلي ، ورئيس قسم الدراسات العليا الأسبق والأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين حاليا سعادة الدكتور : عويد المطرفي ، الذي لا أنسى له مواقفه الشجاعة وجهوده المبذولة باستمرار من أجل مواصلة دراستي .

فلهؤلاء ولغيرهم ممن ذكرت وممن لم أذكر ولكل من أسدى إلي خدمة أو معروفا في هذه الجامعة لهم جميعا ألتمس أبلغ ما يأملون من الجزاء وأوفر ما يطمعون من الرحمة والغفران عند ذي الجلال والإكرام .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

---

(١) — رواه الامام أحمد والترمذي ، وقال هذا حديث صحيح . انظر :
— احمد بن حنبل ، المسند ٢/٢٥٨، ٣٠٣، ٤٦١ .
— الترمذي ، الجامع الصحيح ٣/٢٢٨، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في الشكر ممن أحسن إليك . وقد جزم الألباني بصحة الحديث ، انظر :
— الالباني صحيح الجامع الصغير وزيادته ٥/٣٦٦، حديث ٦٤٧٧ .

(٢) — رواه الترمذي وقال : هذا حديث حسن جيد غريب . انظر : جامع الترمذي ، ك : البر والصلة ، ب : ما جاء في المتشبع بما لم يعطه ، ج ٤/٣٨٠ ، طبعة الحلبي .

المقدمـــة :-

ان الحمد لله .. نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ... ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ... من يهده الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ...

وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له .. وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .. صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فبحكم انتسابي إلى قسم الكتاب والسنة كان من المحتم علي أن يكون بحثي في أحدهما أو كليهما ، ونظرت إلى ماكتب - مما له علاقة بهذا التخصص - فوجدت أكثره دراسات عن نتاج الأقدمين أو تحقيقا له ، وهذا - لا شك - هو الأساس لفكرنا وعلمنا نحن اليوم ، فحمدت الله أن أصبحت مكتبتنا الإسلامية غنية - نسبيا - بهذا النوع من البحوث ، وقد ظهر لي أن الموجود من الكتابات القرآنية أو الحديثية المعاصرة - التي تهتم بالناحية التطبيقية لما في الكتاب والسنة على الواقع المعاصر - غير كاف مع ماعند الحركات الإسلامية اليوم - خصوصا في الجزائر - من حاجة إلى مثل هذه الكتابات التي قد تنجدها في زيادة بيان الغاية وتحديد المنطلق وتصحيح المسار وتوضيح المعالم مما يؤدي بها إلى الاستقامة على نهج الرسول الكريم والفوز برضا الرب الرحيم ، وكان من توفيق الله تعالى لي أن وقع اختياري على هذا الموضوع الذي وجدت فيه - فيما أحسب - بعض ماسبق ذكره ، فجعلته موضوع رسالتي لنيل درجة الماجستير ، ومما زادني رغبة في البحث فيه :-

١- أن له صلة بالجزائر بلد الإسلام والعروبة والحصن الذي تحطمت عليه هجمات الأعداء طوال فترات التاريخ ، هذا البلد الذي مازال مجهولا لدى أغلب شباب الأمة الاسلاميـــة .

٢- إزاحة الستار عن شخصية إسلامية بارزة حاربت الإستعمار وأعوانه مما جعلهم يطمسون حقيقته ويشوهون تاريخه ، حتى ينسب الفضل لغير أهله ، وتمنع الأجيال من أن تتعلق بفكره .

٣- علاج نظرة الاحتقار والازدراء التي ينظر بها كثير من شباب الصحوة في الجزائر إلى هذا الرجل العظيم والتي وجدت نتيجة عاملين :-

الأول : الصورة المشوهة التي أظهر فيها أتباع الاستعمار هذا الرجل، والصورة الناقصة التي أبرزه فيها بعض تلامذته والسائرين - في زعمهم - على نهجه .

الثاني : انعدام ذكره على ألسنة الكثيرين من علماء الشرق ودعاته وخلو كتاباتهم منه أو عدم اطلاع الجزائريين عليها إن وجدت مع الانتشار السريع الذي أحرزته بعض الأفكار الإسلامية حتى وصلت إلى الجزائر وتلقفها أو لُقِّنها الشباب الجزائري بطريقة أوجدت عنده - بمساعدة العامل الأول - الشعور بمخالفتها مع فكر ابن باديس جملة وتفصيلا مما أدى به إلى أن ينظر إليه تلك النظرة .

٤- بعد القراءة الكثيرة في تراث ابن باديس وجدت أن له نظرية مستقلة ومتكاملة في الإصلاح مستمدة من فهم عميق لنصوص الكتاب والسنة جاء ما يؤيدها في مثل كتاب (في ظلال القرآن)، وهي نظرية مبنية على منهج دقيق في التعليم والتربية، ظهر ما يعضدها في مثل رسائل البنا ، ومحصنة باستقامة سلفية على نهج ابن القيم وابن تيمية، مما يؤكد لنا أنه لا تعارض بين أفكار العلماء القرآنيين بل بينهم توافق وبعضهم يكمل بعضا ومن هنا يتحتم على المسلم أن يقتدي بهم جميعا مع حرصه دائما على الأكمل .

٥- إطلاع شباب العالم الإسلامي عامة وشباب الجزائر خاصة على ما تركه من آثار قولية يتحدد من خلالها فكره ، ولا يمكن ذلك إلا بسرد الشواهد وإيراد النماذج ولهذا قد يُتعجب مما في هذه الرسالة من حشد لأقوال هذا الرجل ولكن بعلم السبب يزول العجب .

٦- رأيت أنه لا فرصة لي للكتابة عن هذا الرجل إلا هذه حيث توفر لديّ من أهل العلم من يُشرف علي ومنهم من يناقشني حتى يظهر هذا البحث في صورة قريبة من المنهج العلمي في البحث والدراسة .

وقد ظهرت كتابات جزائرية وشرقية تتصل بهذا الموضوع من قريب أو بعيد وهذه بعضها :-

١- الشيخ عبد الحميد بن باديس: فلسفته وجهوده في التربية والتعليم لـ (تركي رابح).

٢- عبد الحميد بن باديس مفسرا لـ (حسن عبد الرحمن سلوادي).

٣- ابن باديس وعروبة الجزائر لـ (محمد الميلي).

٤- عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية (د. محمود قاسم).

٥- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية لـ (أبو الصفصاف عبد الكريم).

٦- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية لـ (مازن صلاح حامد مطبقاني).

٧- صراع بين السنة والبدعة - للشيخ أحمد حماني.

٨- عبد الحميد بن باديس رائد الحركة الإسلامية في الجزائر المعاصرة لـ (د: محمد فتحي عثمان).

إلا أن بعض هذه الدراسات (وهي الجزائرية) لم تكتب بروح البحث العلمي الذي يستمد أصوله من التصور الإسلامي بل كتبت بروح وطنية أو قومية فكانت آثار هذه الروح ظاهرة في المنهج والاستدلال والنتائج وينبعث منها الشعور بالهزيمة النفسية ومحاولة إرضاء الخصوم بدفع شبهاتهم مما أدى إلى التمحل والتعسف في القول والوقوع فيما يريده العدو من باطل وزور.

والبعض الآخر: منه مايتسم بالسطحية والاستعجال، ومنه ماكانت آفته أنه بدئ بداية غير صحيحة وعولج بمنهج غير سليم لقصور في فهم الباحث أو غبش في فكره وتصوره.

وهذا مادعاني إلى أن أتناول هذا البحث بمنهج خاص لم أسبق إليه فيما أعتقد، وهو أني درست دعوة الرجل بناء على قاعدته الفكرية التي استمدها من فهمه للكتاب والسنة وبنى عليها جميع أعماله، ومن هنا كان لزاما علي أن أبدأ ببيان منهجه في فهم القرآن والحديث ثم أوضح منهج دعوته المبني على هذا الفهم، فجاءت رسالتي في: ثلاثة أبواب وخاتمة:-

الباب الأول: عصر ابن باديس وحياته: وفيه:-

الفصل الأول : أوضاع العالم العربي في بداية هذا القرن : تعرضت فيه لبيان الحالة السياسية والثقافية والدينية.

الفصل الثاني : أوضاع الجزائر في بداية هذا القرن ،فبينت الحالة السياسية والدينية والثقافية .

الفصل الثالث : حياة ابن باديس ، تكلمت فيه عن النسب والمولد والنشأة ورحلته إلى تونس في طلب العلم ثم رحلته إلى المشرق للحج والتعرف ،ثم أتيت بموجز لحياته كلها من أولها إلى آخرها .

الفصل الرابع: شخصيته : يتضمن هذا الفصل الحديث عن عقيدته وعلمه وآثاره وآراء العلماء فيه وفي دعوته وتأثره وتأثيره ثم بعض صفاته وشمائله .

الباب الثاني : منهجه في تفسير القرآن وشرح الحديث وفيه :-

تمهيد : نظرة عامة على مناهج المفسرين في عصر ابن باديس .

الفصل الأول : صلة ابن باديس بالتفسير وكيفية إنجازه : تعرضت فيه لبيان الدوافع إلى التفسير وكيفية إنجازه .

الفصل الثاني :أهداف التفسير : بينت في هذا الفصل أن من أهم أهدافه في التفسير : الرجوع إلى الكتاب والسنة وعمل السلف ، وبيان الإسلام وحقائقه ، والتربية ، والدعوة والإصلاح ، ومحاربة الجمود الفكري والتقليد ، ومحاربة البدع في الدين ، وتنزيل الآيات على الواقع ، وبيان مقاصد الشريعة وحكمة التشريع ،إلخ . . .

الفصل الثالث : قواعد منهجه في التفسير : أوضحت في هذا الفصل أن من أهم القواعد التي اعتمد عليها في تفسير القرآن الكريم: العمل بالمنقول ، وسديد المعقول ، واللغة ، وأن الأصل الجامع لقواعده هو الطريقة السلفية.

الفصل الرابع: مصادر تفسيره وطريقته في شرح نص الآية

الفصل الخامس : منهجه في شرح الحديث ،وفيه :الكلام عن علاقة ابن باديس بشرح الحديث وكيفية تدريسه للموطأ وختمه له،وماهي مصادره وطريقته المتبعة في هذا الشرح .

الباب الثالث : دعوته ، وفيه :-

تمهيد : مظاهر الانحراف من قبل ابن باديس إلى عصره.

الفصل الأول : أصول دعوته وصفات الداعية.

الفصل الثاني : منهج دعوته : بينت فيه أن المنهج يتكون من : التعريف بالاسلام والتربية على مبادئه

الفصل الثالث : وسائل دعوته: بينت فيه أن من ضمن وسائله : وسائل حماية ووسائل تبليغ، ووسائل الحماية هي الحذر والمال والرجال ،والنظام، ووسائل التبليغ هي : الكلمة المسموعة في المساجد أو المدارس أو النوادي ، والكلمة المقروءة في الصحيفة والمجلة .

الخاتمة: بينت فيها أن دعوة ابن باديس من أكمل الدعوات إن لم تكن أكملها لاشتمالها على ثلاث نواح : السلفية والحركية والعلمية ، وأضفت نتائج أخرى توصلت إليها من خلال البحث .

وكان اعتمادي في هذا البحث على ثلاثة أنواع من المصادر :-

النوع الأول : وثائق من آثار الشيخ ابن باديس نفسه مثل مجلة "الشهاب".

النوع الثاني :كتب جامعة لما تركه ابن باديس من آثار مثل مصنف الدكتور عمار الطالبي "ابن باديس حياته وآثاره" في أربع مجلدات ، وهذا الكتاب أكمل ماينقصني من وثائق عن ابن باديس لأنه يحوي أكثر ماجاء في الجرائد : (المنتقد ،و(السنة) و(الشريعة) و(الصراط) و(البصائر) و(مجلة الشهاب) مما كتبه ابن باديس بقلمه .

النوع الثالث : أحاديث مسجلة في أشرطة قمت بتسجيلها شخصيا عن بعض من عاصر ابن باديس من تلامذته أو زملائه ، وتم ذلك أثناء الدراسة الميدانية التي قمت بها مُوفَدا من جامعة أم القرى لجمع تراث ابن باديس في الجزائر، هذا وقد حَفَّت بهذا البحث صعوبات كثيرة كان من بينها :-

١- قلة الوثائق الموثوق بها التي تفيدني في هذا البحث بسبب ضياع أكثرها قبل الثورة وأثناءها ، هذا من جهة ومن جهة أخرى احتكار الناس لهذه الوثائق وعدم تسليمها لأحد .

٢- عدم صلاحية كثير ممن عاصر ابن باديس للأخذ عنهم إما لعدم تثبتهم في الأخبار من طول المدة وهول الحرب ، وإما لطعن في عدالتهم مما يجعلنا نشك في صدقهم وإما لعدم نضجهم الفكري وإدراكهم للأمور على حقيقتها مما يجعلنا نجزم بأنهم ينقلون الأخبار حسب فهمهم وتحليلهم لها بناء على هذا الفهم.

يقول الأستاذ محمد الميلي : " إن الجيل الذي عاشر ابن باديس لم يكن قادرا - بطبيعة تكوينه - على فهم الرجل كما يجب . فقد كان ابن باديس يطرح قضايا تتجاوز الاهتمامات الآنية إلى المستقبل البعيد ، ومن هنا لم يكن ذلك الجيل يتأثر بابن باديس ويفهم عنه إلا ما يتعلق بالمشاكل القائمة أو بالجوانب البارزة من المشاكل القائمة ، ومن هنا كانت الصورة التي نقلها الجيل الذي عاشر ابن باديس إلى الأجيال بعده صورة ناقصة على الرغم من أنها صورة لامعة ومشعة ".(١)

٣- عدم إتاحة الفرصة لجمع عدد أكثر من الوثائق أو اللقاء بعدد أكبر من تلاميذ وزملاء باديس لتغير الأحوال في الجزائر واضطرابها وعدم استقرارها .

٤- تعدد جوانب شخصية ابن باديس وتنوعها وخصوبتها ونشاطها في أكثر من ميدان . فقد كان يقوم بالتدريس في الجامع الأخضر لطلبته منذ سنوات طويلة ويسهر على إدارة " الشهاب " والكتابة فيها ويقوم بإلقاء دروس دينية اجتماعية ليلا ويتولى تسيير شؤون جمعية العلماء ويتعهد القاعدة الشعبية باتصالات مستمرة في جولات لا تترك مكانا من الجزائر مهما بعد عن مقر عمله .

ثم هو في كتاباته شديد التنوع ، يطرق جميع الفنون والموضوعات حتى تكاد تجزم بأنه ملم بكل فن .

ومن هنا يجد الباحث نفسه مأخوذا بهذه الشخصية الفذة لا يدري أي جانب يوليه بالبحث خصوصا وأنه لا توجد إلى الآن دراسة شاملة لجانب واحد من جوانبه

---

(١) محمد الميلي - ابن باديس وعروبة الجزائر: ص ٢١ .

فيتوزع اهتمام الباحث بين ميادين مختلفة سرعان مايشعر بعجزه عن القيام بهـــــا (1) .

وبناء على ماتقدم فإنني أعترف بما في هذا البحث من قصور مقرا أن الكمال فـــــي الأعمال العلمية قليل المنال خاصة في عمل لم تتوفر جميع مصادره .

والله تعالى أسأل أن يغفر لي قصوري ويتجاوز عني ، إنه ولي ذلك وهو القـــادر عليه سبحانه وتعالى والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آلــــه وصحبه أجمعين .

---

(1) محمد الميلي - ابن باديس وعروبة الجزائر - ص : 20-21 .

الباب الأول
عصر ابن باديس وحياته

الفصل الأول

أوضاع العالم العربي في بداية هذا القرن[1]

(١) أي الميلادي

(١)

تمهيـــــد :

ان الوضع الذى وصل اليه حال المسلمين من التردى والتدهور العام فى جميع الميادين الدينية والدنيوية هو الذى مكن للدول الصليبية من غزوهم واستعمار بلادهم.

وكان الهدف الأول للاستعمار - زيادة على المطامع الاقتصادية - هو القضاء على الاسلام بالقضاء على حامليه والممثلين له .

واتخذ لذلك وسيلتين :-

الأولى : الغزو العسكرى وهو مايسمى ب(الاستعمار) ، أو الانتداب ويسمى (الحماية) ، أو عقد المعاهدات والاتفاقيات دون غزو أو انتداب .

الثانية : تربية فئة من المسلمين أو ممن يعدون منهم وتنشئتهم واعدادهم للقيام بمهمة هدم الاسلام والتفانى فى خدمة الاجنبى الغاصب ، وقام الاستعمار بتنفيذ هذه الخطة فبدأ :-

أولا : بتقسيم الدولة العثمانية الى دويلات جعلها تحت سلطته ، فأخذت فرنسا الجزائر سنة (١٨٣٠م) وتونس سنة (١٨٨١م) والمغرب سنة (١٩١٢م) وسوريا ولبنان سنة (١٩١٨م) ، وأخذت بريطانيا مصر سنة (١٨٨٢م) والعراق سنة (١٩١٨م) واستولت على القسم الجنوبى من الشام (مايسمى اليوم بالأردن وفلسطين) ثم أعطت الاردن لأحد أبناء الشريف حسين وأعطت فلسطين لليهود . ولم يبق الا وسط وغرب شبه الجزيرة (نجد والحجاز) لأن جزءا من اليمن والخليج كان كذلك بيد الانجليز ، أما دول البلقان وهى من أملاك العثمانيين فقد سلبت منها فى أوائل القرن العشرين .

ولما سكن الاستعمار مع المسلمين فى دارهم وأصبح لا يخفى عليه شئ من شؤون حياتهم تمكن أكثر من تنفيذ مخططاته عليهم لسلخهم من دينهم ، وكان مما قام به للوصول الى هذه الغاية :

ثانيا : محاربة العلم الشرعي واللساني بأن منع التعليم أصلا كما فعلت فرنسا فى الجزائر أو اتبع أساليب لقتله أو اضعافه كوضع مايزاحمه من المدارس ، وتحريض اتباعه على الدعوة الى اصلاحه (بطرق لا تؤدى الا الى افتتاده) ، ومنع الوظائف عن حامليه ، وسد أبواب العمل والمناصب على أصحابه ، وشن حملة من السخرية والاستهزاء على أهله .

ثالثا : قام برصد كل حركة اسلامية اصلاحية فمنعها من العمل أو عمل على زحزحتها عن مسارها الصحيح .

رابعا : تصرف تصرفا كاملا فى البلدان التى استولى عليها وأبقى على سلطتها الصورية كمصر وتونس .

خامسا : أحكم قبضته على الشؤون المهمة فى البلد كالتعليم والاعلام والصناعة والجيش وما الى ذلك . . .

سادسا : ركز على محاربة كل ما من شأنه أن ينهض بالمسلمين مثل : تصحيح العقيدة والدعوة للرابطة الاسلامية ، الجهاد فى سبيل الله ، الاخلاق الاسلامية ، الحكم بما أنزل الله ، وأن عقيدة الاسلام دين ودولة ، وبصفة عامة حارب كل مايمت للاسلام الصحيح بصلة ، وشجع بل وناضل نضالا مستميتا على نشر وبث الأفكار الهدامة مثل القومية ، الاقليمية والعرقية والاباحية والتحلل من أحكام الدين باسم الحرية والديمقراطية والتقدم والتحضر ، نبذ الحكم بالشريعة باسم الديمقراطية والحياة الدستورية ، الدعوة الى الاخـــوة

---

(١) انظر : الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر : الدكتور محمد محمد حسين

الانسانية والتسامح بين الاديان ، حرية المرأة والمساواة بينها وبين الرجل ، الاشتراكية ، وغير ذلك من آلاف الدعوات المعادية للاسلام والتى تدخل فى الخطة الطويلة والعريضة التى رسمها الأعداء لمحاربة هذا الدين وتشويه حقائقه وطمس معالمه .

واعتمدوا - فى تنفيذ قسط كبير من هذه الخطة - على أبناء البلد أنفسهم الذين تربوا فى مدارسهم بأوروبا أو المدارس التبشيرية التى أنشئت فى بعض البلدان الاسلامية أو تربوا على مناهجهم التى ادخلوها على مدارس المسلمين أو بأى أسلوب من الأساليب الاستعمارية الحديثة حتى ظهر فى العالم الاسلامى زعماء سلطة (حكام) أو زعماء فكر (كتاب وصحفيون ومدرسون . . . الخ) موالون للكفار منفذون لخططهم يتفانون فى ارضاء أسياد هم الذين ساعد وهم على تسلم مقاليد الأمور أو توجيه الرأى العام للفكرة التى يريد ونها .

ولما كانت العامة متعلقة اما بعلمائها أو زعمائها ، وليس لها من الوعي والفهم والعقل ما تميز به بين المخلص الكفء الصادق ذى الاستقامة والدعى الكاذب المنحرف صاحب الشهوات والأطماع استطاع العدو أن يلبس عليها الأمر ويجعلها تلهث وراء رجال صنعهم على عينه ليخلفوه بعد خروجه فى المهمة التى عجز هو نفسه عن القيام بها .

ولا يضاح ذلك تفصيلا يحسن بى أن أذكر تطبيقات له فى بعض الدول الاسلامية ، وسنلاحظ أن ما وقع فى البلد الواحد يكاد يحدث مثله فى بقية البلدان مما يؤكد وحدة الخطة المتبعة .

المبحث الأول : تركيا [(١)] :

الدولة العثمانية هى التى غزت أوروبا حتى (فينا) ، وهى التى قطعت طريق الهند التجارى عن الأوروبيين ، وهي التى وقفت فى وجه الحملات الصليبية القادمة من أوروبا الى شمال افريقيا ودول البحر الأحمر ودول الخليج العربى وهي التى جعلت من البحر الأبيض المتوسط بحيرة اسلامية يوم كانت تملك أكبر أسطول بحرى ، وهى التى وحدت معظم المسلمين وجمعتهم تحت راية واحدة كما كانوا فى عهد الأمويين والعباسيين وهى التى وقفت بالمرصاد لكل محاولة أوروبية للمساس بالاسلام أو الأرض الاسلامية ، وآخر هذه المحاولات ايجاد وطن قومي لليهود فى فلسطين ، هذه الدولة وصلت فى آخر حياتها الى حالة الرجل المريض مما أتاح للأعداء الصليبيين الفرصة المنتظرة فانقضوا عليها وتوزعوها كما رأينا سابقا ، ولكنهم لم يقنعوا بهذا ولم يهدأ لهم بال ما دام شبح الخلافة موجودا ، وهى المركز الذى يلتف حوله المسلمون ، فاتحدوا على اسقاطها لينفرط عقدهم ويفترقوا أيدى سبأ ويسهل على العدو ابتلاعهم ، وتم لهم ذلك على النحو التالي :-

ظهرت جماعة من الأتراك تسمى نفسها " تركيا الفتاة " أو " حزب الاتحاد والترقي " وأصلهم من يهود الدونمة الماسونيين ، تعمل لعزل " السلطان عبد الحميد الثاني " الذى وقف فى وجه اليهود عندما عرضوا عليه بيع فلسطين وتعمل أيضا للقضاء على الخلافة ، و نبذ الشريعة ، وعلمنة الدولة ، وصد الشعب التركى عن الاسلام ، وتذرعوا الى هذا كله وغيره بحيلة وهى المطالبة بالدستور ، فاستجاب لهم السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨ م لكنه رجع فألغاه سنة ١٩٠٩ م لانه كان يعرف نواياهم وأنهم يتخذون المطالبة بالدستور مطية الى أهدافهم السيئة ، ولما ألغاه ثاروا عليه وعزلوه وأقاموا مكانه محمد رشاد لئلا تتكشف اللعبة ، وفى عهد هذا

---

(١) انظر : الرجل الصنم وحاضر العالم الاسلامي مع تعليقات شكيب ارسلان
والاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر

أعلنت تركيا الحرب على دول (البلقان) سنة ١٩١٢) التي أرادت الانفصال عنها وانهزمت، وما ان اندلعت الحرب العالمية الأولى حتى كانت تركيا مع المانيا ضد الحلفاء مما أدى الى تحطيمها واحتلال الأستانة ، وكان من أسباب هزيمة تركيا انسحاب الجيش الذى كان فى جبهة الشام وقائده أتاتورك ووقع ذلك بتواطؤ مع الحلفاء. وفى سنة ١٩١٩م احتلت اليونان (أزمير) بالاتفاق مع الحلفاء الذين عقدوا معاهدة مع تركيا وهي معاهدة (سيفر) سنة (١٩٢٠م) تقضي بتنازلها عن أزمير فأذعنت تركيا لذلك. وهنا تأتي المفاجأة للناس عندما يترامى الى أسماعهم ان أتاتورك وأصحابه الأبطال الأحرار رفضوا شروط المعاهدة وثاروا يقاتلون اليونان وقد انفصلوا عن السلطة المركزية (الخليفة فى الأستانة) واتخذوا انقرة مركزا لهم وتم لهم اجلاء اليونان عن الأناضول كله فى أواخر سنة ١٩٢٢م. (١)

وفى سنة ١٩٢٣م كانت معاهدة (لوزان) بين تركيا والحلفاء تقضى بأن تبسط تركيا نفوذها على آسيا الصغرى واستانبول وتراقيا ويرجع اليونان الى وطنهم الأول.

وبعدما شعر أتاتورك أنه وصل الى الحكم وأنه أصبح ممكنا كشف عن وجهه فاعلن الغاء الخلافة وطرد الخليفة وأزاح الشريعة عن الحكم وغير الحروف العربية وحمل النساء على السفور والاختلاط، وألزم الترك أن يلبسوا القبعة وهكذا تتبع كل شيء يمثل الاسلام أو العروبة فغيره.

المبحث الثاني : مصـــر : (٢)

كان اهتمام الاعداء أكثر وكيدهم أشد لتركيا ومصر لما لهذين القطرين من أثر كبير فى قوة المسلمين وتماسكهم واعتزازهم بدينهم فتركيا هى بلد الخلافة التي اجتمع المسلمون تحت رايتها قرونا فحفظوا بذلك عن التمزق والتشتت، ومصر هى بلد الازهر والعلم والعلماء والدعاة والمصلحين والأبطال المجاهدين مثل صلاح الدين الايوبى والمظفر قطز والظاهر بيبرس وغيرهم ، والدليل على اهمية هذين المصرين ووزنهما عند المسلمين أنه كان الحدث اذا وقع فيهما أوفى أحدهما سرعان ماينتقل أثره الى معظم الأقطار الاخرى فتركيا ومصر هما القدوة والأسوة مثلما كانت تركيا لمصر قدوة واسوة أيضا ، فتركيا ومصر كانت لهما الريادة فى تصدير المبادئ والأفكار.

مصر قبل الحرب العالمية الأولى :-

كانت مصر تابعة للدولة العثمانية وبالرغم من أن هذه التبعية كانت صورية الا أن المصريين كانوا يشعرون أنهم ينتمون الى دولة اسلامية عظمى ، وكانت (الجامعة الاسلامية) هى النزعة الغالبة على تفكير المصريين ، والعاطفة الدينية هى المسيطرة على القلوب والأفهام ، وساعد على وجود هذه العاطفة وهذا التصور الحروب الطاحنة التى كانت قائمة بين تركيا وبين الدول الأوروبية الطامعة فى اقتسام أملاكها متذرعة بتحرير المسيحيين من وحشية المسلمين وظلمهم. فكانت هذه الخصومة بين الشرق والغرب (تركيا وأوروبا) تظهر للمسلمين فى

---

(١) والحقيقة أن الثورة التي قام بها أتاتورك ما هي الا لعبة قصد بها الرفع من شأن أتاتورك واظهاره فى مظهر البطل المنقذ ، لأنه ثبت أن روسيا وانجلترا - وهما من اعدائه ظاهرا - كانا يدعمانه ليجعلا منه بطلا فتعظم فتنته فى أبصار المسلمين وبصائرهم.

(٢) انظر الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ، وحاضر العالم الاسلامي

مظهر الخصومة بين الاسلام والمسيحية أو هي استمرار للحروب الصليبية ، ومما قوى هذا الاحساس في نفوس الناس مهاجمة كثير من ساسة الغرب وكتابه للاسلام والمسلمين ، كل هذا دفع المصريين الى موالاة تركيا والاشادة بها وبسلطانها عبد الحميد الثاني الذى كان يعتبر في نظرهم خليفة المسلمين وأن الخروج عليه ومهاجمته ما هو الا موالاة للمستعمرين اعداء الدين والمسلمين .

بقيت هذه النزعة هي الغالبة حتى أوائل القرن العشرين ثم بدأت تتغير نظرة المصريين بسبب ظهور أحزاب وحركات واتجاهات وأفكار ومبادئ مختلفة سأجمل القول عنها فيما يلي :

أولا : الأحزاب التي تعمل للقومية المصرية : بمعنى أن الرابطة التي تجمع الناس في مصر هي المصلحة المشتركة بينهم ولا عبرة بالدين وغيره ، فليس الذى ينهض بالأمة هو الدين بل هو الشعور بالوحدة الاقليمية والالتفاف والتجمع حول هذه الفكرة والعمل على غرسها وتثبيتها في نفوس المصريين ، فالذى يوحد هو الوطن الذى يسكنه الناس ولذا فلا طريق للتقدم الا طريق الوطنية وهذا الاتجاه جاء كصدى لما سبق اليه الاوروبيون في القرن التاسع عشر ثم انتقلت الى تركيا ومصر ، فتمثلت في جمعية (مصر الفتاة) السرية التي تألفت في الاسكندرية والتي أصدرت صحيفة باسمها للدعوة الى الحرية ، وما الثورة العرابية الا الصوت القوى واليد الباطشة والقوة المنفذة لهذه الحركة . وكانت هذه الدعوة في مصر معادية للدين لأنها تراه هو العامل الأساسي في القضاء على فكرتهم ، فكان دعاة الوطنية يحاربون الجامعة الاسلامية ويرونها خطرا على فكرتهم التي تجمع في حين أن الدين يفرق ويمثل هذا الاتجاه حزبان :

الأول : " الحزب الوطني الحر " ولسان حاله جريدة " المقطم " ومجلة " المقتطف " .

وكان هذا الحزب يعمل لحساب الانجليز ويهاجم الحزب الوطني الذى أسسه " مصطفى كامل " .

الثاني : (حزب الأمة) : ويضم نوعين من الناس : جماعة الباشوات أو كبار ملاك الأرض ، وجماعة من المثقفين الذين يعتنقون مذهبا سياسيا اجتماعيا خاصا وكان على رأس هؤلاء لطفي السيد ، وشايعهم بعض أصدقاء محمد عبده مثل سعد زغلول ، ولهذا كان (كرومر) يسمى هذا الحزب بـ " حزب الشيخ محمد عبده " ويعقد عليهم الآمال في مستقبل مصر السياسي ، ويوصي ممثل الاحتلال بأن يمنحهم كل عون وتشجيع وذلك لما ظهر عنهم من الدعوة الى التحرر الفكرى والتعاون مع الأوروبيين في كل مبادئ الحياة ومجالات النشاط ثقافيا واقتصاديا وسياسيا . وكانت لهم صحيفة تسمى " الجريدة " .

ويشترك هذان الحزبان في مبدأين أساسيين هما :

١ - مهادنة الاستعمار والاقتصار على المطالبة بالتدرج في الاصلاح .

٢ - محاربة فكرة " الجامعة الاسلامية " والدعوة الى الانفصال التام عن تركيا ، وانشاء دولة مصرية موالية للانجليز .

وكان الى جنب هذين الحزبين حزب آخر وهو (الحزب الوطني) الذى أسسه مصطفى كامل ، وهو - أيضا - حزب وطني الا أنه يختلف عن الحزبين السابقين في مبدأين أساسيين هما :-

١ - عنفه في مهاجمة الاستعمار وتكريسه حياته لغرس بغضه وكراهيته في نفوس المصريين .

٢ - اقامة دعوته الى الوطنية والى القومية المصرية على أساس من الدين ومن الدعوة الى التضامن بين الأمم الاسلامية والتمسك بمعاهدة سنة ١٨٤٠ م التي تمنح مصر استقلالا داخليا وتعترف بالسيادة التركية .

والانجليز كانوا يؤيدون الحزبين السابقين اللذين يحققان هدفهم ، وهو اضعاف العصبية الدينية وتقطيع أوصال المسلمين في مستعمراتهم حتى يستطيعوا أن يواجهوهم واحدا واحدا .

ثانيا : دعوات مختلفة :

الى جنب تلك الأحزاب كانت هناك طوائف صدرت عنها دعوات لم تأخذ الطابع السياسي للأحزاب ، وتتلخص في ثلاث طوائف :

الطائفة الأولى : تدعو الى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية . ويمثل هذا الاتجاه عدد من أصحاب الثقافة الأوروبية الذين يسميهم خصومهم المتفرنجين ، بعضهم من الشاميين المسيحيين الذين نزحوا الى مصر واستقروا بها ، وبعضهم من المصريين الذين تلقوا دراستهم في أوروبا أو في المدارس الأوروبية ومدارس الارساليات الدينية التي أنشئت في بعض البلدان الاسلامية .

فكان الشاميون موزعين بين النفوذ الفرنسي والنفوذ الانكليزي وصحيفة الاهرام تمثل الاتجاه الأول والمقطم والمقتطف يمثلان الاتجاه الثاني .

أما المصريون من الداعين الى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية فقد كانوا من الذين فتنتهم الحضارة الغربية المزدهرة ، حين عاشوا في البلاد الأوروبية أو نشأوا في مدارسها المنبثة في انحاء الشرق واستمدوا مثلهم العليا في حياتهم من الثقافة التي تلقوها من تلك المدارس والتي لا تمت الى الحضارة الاسلامية أو العربية بصلة قريبة أو بعيدة .

ونتيجة لذلك ظهرت ثلاث دعوات خطيرة :

الدعوة الأولى : تطالب بكفالة الحرية الشخصية ، وبالحياة النيابية كما عرفتها الأمم الغربية الحديثة وبمعنى آخر المطالبة بدستور تحكم البلاد على أساسه ومعنى هذا الغاء الحكم بالشريعة الاسلامية ، وتزعم هذه الدعوة مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطني ومن انضوى تحت لوائه من الكتاب والشعراء . ومن بين العوامل التي ساعدت على ظهور هذه الدعوة وانتشارها ، كتاب " طبائع الاستبداد . . " للكواكبي ، ومطالبة جمعية " الاتحاد والترقي " بالدستور في تركيا .

الدعوة الثانية : تطالب بتحرير المفكرين من سلطة رجال الدين وذلك بفصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية على النمط الذي قامت عليه النهضة الأوروبية الحديثة بعد التخلص من نفوذ الكنيسة ، وتطلب من رجال الدين ألا يقحموا الدين في شؤون الحياة ، لأنهم يرون أن الدين لا ينبغي أن تتجاوز دائرة نفوذه تنظيم صلة المخلوق بالخالق ، ولأن تنظيم صلات الناس بعضهم ببعض ينبغي أن يترك للساسة والمتخصصين في شتى فروع المعرفة .

وظهرت في تلك الفترة كتابات كثيرة تصب في هذا الاتجاه ومن خير ما يصوره ما كتبه عبد القادر حمزة في سنة ١٩٠٤م في المقتطف (١) تحت عنوان (علينا وعلى الدين) .

الدعوة الثالثة : تطالب بتحرير المرأة - حسب تعبيرهم - وتزعم أن الحجاب قد حال بينها وبين أن تكون عضوا نافعا في الحياة ذا أثر في المجتمع على النحو الذي بلغته المرأة الأوروبية ، وتزعم هذه الدعوة قاسم أمين الذي ألف كتابي (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) .

الطائفة الثانية : نادت هذه الطائفة بأن النهضة الصحيحة لا تقوم الا على أساس التمسك بالدين ، ونجد أمثلة لهذه الدعوة في بعض كتابات الشيخ محمد عبده وتلميذه الشيخ رشيد رضا وبعض العلماء الأزهريين وقصائد بعض الشعراء .

---

(١) عدد مارس سنة ١٩٠٤م ص : ٢٣١-٢٤٠ .

الطائفة الثالثة : وهذه الفئة أرادت أن توفق بين النزعتين (الغربية والاسلامية) ومشى على هذا النهج محمد عبده وبعض أتباعه .

وهذا الاتجاه - وهو التقريب بين الاسلام والحضارة الغربية - هو الذى سار عليه محمد عبده بعد رجوعه من المنفى وسار عليه معظم تلامذته من بعده ، واتخذ هذا الاتجاه أشكالا مختلفة ، (١) وأما قبل أن ينفى فقد كان يتجه الى محاربة ما استولى على المسلمين من ضعف الهمم وفتور العزائم ، والانصراف عن الدنيا وعن مكافحة العدو والتخلص من الاستعباد ظانين أن دينهم يأمرهم بالاستسلام لما يجرى عليهم لأنه من قضاء الله الذى لا يرد ، ولكن ذلك كله وفق منهجه الفكرى الخاص.

وكان الخديوى عباس هو الحاكم فى هذه الفترة (من أواخر القرن ١٩ الميلادى الى بداية الحرب العالمية الأولى) الا أن السلطة الفعلية لم تكن بيده بل كانت بيد (كرومر) المندوب البريطانى فى مصر ، فهذه السلطة التى كان يتمتع بها هذا المستعمر هى التى وقفت فى وجه عباس عندما أراد أن يتزعم الحركة الوطنية فى أول حكمه ، فاصطدم بكرومر مرارا مما جعله يتراجع أمام سياسة المندوب الانجليزى ويضطرب فى سياسته ثم - أخيرا - يستسلم وينصرف الى جمع المال ، ويستدرج من الاعداء حتى يصبح عدوا للحركة الوطنية . وأصبح الوطنيون يحاربون فى جبهتين ، فيقاومون الانجليز ويهاجمون الخديوى وأذناب الاستعمار .

التطورات التى حدثت أثناء الحرب العالمية الأولى :-

التطورات التى حدثت هى :-

١- فصل مصر عن تركيا واعلان الحماية عليها .
٢- خلع الخديوى عباس وتولية الامير حسين عرش مصر مع منحه لقب سلطان اشعارا بقطع صلته عن تركيا .
٣- الغاء وظيفة قاضي قضاة مصر التركي .
٤- أعلنت الاحكام العرفية .
٥- وضعت الصحف تحت الرقابة .
٦- اغرقت مصر بجيوش الاحتلال .
٧- اعلان انجلترا الحرب على تركيا التى تمثل دولة الخلافة فى نظر المصريين .
٨- اتخذ الانجليز مصر مركزا للقواعد الشرقية تدار منها كل العمليات الحربية التى تهدف الى القضاء على دولة الخلافة فى هذا الميدان .
٩- نهبت أموال المصريين وسيقوا الى الحرب مكرهين - خلافا للمعاهدة - ليقاتلوا أبناء دينهم فى كل مكان ، وأجبروا على التبرع لصالح أسر جنود الحلفاء المنكوبين .

وقع هذا وغيره من فظائع الانجليز حتى ضاق الناس بهؤلاء الغاصبين الذين لم يسلبوا الناس مالهم ومتاعهم فحسب ، بل سلبوهم ضمائرهم وقلوبهم حين ساقوهم لقتال من يأبى عليهم دينهم أن يقاتلوه ، وارغموهم على التبرع لمن تأبى ضمائرهم أن يعينوه ، ضاق الناس بهذه المعاملة وامتلأت قلوبهم حقدا وكراهية وأصبح الوضع فى مصر كالمرجل الذى يغلي فوق النار ، وظل يغلي فوق نار لا تهدأ طوال أربع سنوات ثم انفجر فى ثورة ١٩١٩م التى عرف الانتهازيون - مثل سعد زغلول - كيف يستغلون الفرصة ويركبون الموجة ويصبحون هم زعماء الثورة ومفجريها .

---

(١) انظر : الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر ١/٣٢٧

مصـــر بعد الحرب :

نلخص أوضاع مصر بعد الحرب فيما يلي :-

ظهور اتجاهات وتيارات فكرية مختلفـــة :

بعض هذه الاتجاهات جديد والبعض الآخر امتداد لما كان موجودا قبل الحرب.

والملاحظ على هذه الدعوات التي ظهرت بعد الحرب أنها أكثر صراحة ووضوحا في محاربة الديـن وتتلخص في دعوتين :

الأولى : دعوة التجديد أو دعوة الجديد : ويراد بذلك نبذ ماورثه المسلمون من قديم متمثل في الدين والاخلاق والعادات والتقاليد وثقافة وأفكار . . الخ والأخذ بالجديد ويعنون بذلك كل وارد علينا من الغرب وكان من أبرز الدعاة الى هذا المذهب اثنان : طه حسين في كتابه " مستقبل الثقافة في مصر" وسلامة موسى في كتابه" اليوم والغد " . والحقيقة أن المعركة بين القديم والجديد كانت شاملة لكل نواحي الحياة ماديـــة واجتماعية وعقلية وروحية ، واشتملت على ميادين كثيرة فرعية برزت من بينها أربعة ميادين دار النزاع فيها حول المرأة ، والـزى والتعليم ، والأدب واللغة.

الثانية : دعوات لهدم الدين من أصله : واستهدفت هذه الدعوات : العقائد والاخلاق وقواعد الاسـلام ، واللغة العربية.

أما هدم العقائد فتولاه طه حسين في كتابه " في الشعر الجاهلي " واما هدم قواعد الاسلام فان الشيخ محمد عبده قد مهد له عندما دعا الى الملاءمة بين الاسلام وبين الحياة في القرن العشرين وان كان هـــو لا يقصد بذلك الا الخير الا أن الذين جاءوا من بعده استغلوا هذا المذهب في ضرب الاسلام مثل قاســم أمين وغيره الذين طالبوا بتطوير الشريعة حسب العصر مثل تعديل قانون الأحوال الشخصية . . . الخ .

وأما هدم الاخلاق فقد تم بما شاع في مصر وغيرها من الفساد المنوع والانتشار المفزع لشتى أنواع عوامل الافساد مثل المخدرات والمجلات والصحف المفرغة ، ودور السينما ، والمراقص ، ودور الفساد ، وغير ذلك . .

وأما هدم اللغة العربية : فانهم توسلوا اليه بالدعوة الى استعمال اللغة العامية المصرية في الكتابـة والحديث ونشطت المسارح والمطابع في تنفيذ هذه الخطة ، بل توصل الكيد لهذه اللغة القرآنية ببعض الاعداء (وهو عبد العزيز فهمي) الى أن يتقدم الى (مجمع اللغة العربية) - وهو عضو فيه - باقتراح كتابة العربيـة بالحروف اللاتينية . وعلى الجملة .

فان الدعوات الهدامة الموجهة الى اللغة العربية تناولت ثلاث شعب :

الأولى : طالب بعضهم باصلاح قواعدها وطالب البعض الآخر بالتحول عنها الى العامية .

الثانية : طالب بعضهم باصلاح قواعد الكتابة (قواعد الرسم والاملاء) وطالب البعض الآخر بالتحول من الحروف العربية الى الحروف اللاتينية .

الثالثة : دعا بعضهم الى العناية بالآداب الحديثة ، وما يتصل منها بالقومية خاصة ، ودعا البعـــض الآخر الى العناية بما يسمونه " الأدب الشعبي " ، ويقصدون به كل ما هو متداول بغير الفصحى مما يختلف في البلد الواحد باختلاف القرى وبتعدد البيئات ،

هذه نبذة عن المذاهب الفكرية الهدامة التي ظهرت في تلك الفترة والتي تأثر بها قطاع كبير مـــن مثقفي مصر وشبابها وسياسييها والآن نعطي لمحة عن التيارات السياسية التي ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى .

تحول حزب الأمة الذى رأيناه قبل الحرب الى حزب الوفد الجديد الذى ترأسه سعد زغلول . وأمـــا

حزب مصطفى كامل وهو الحزب الوطني فقد اضمحل وانتهى بموت بعض رجاله ودخول البعض الآخر الى حزب الوفد وانصرفت فئة أخرى منهم الى ممارسة عمل آخر مستقل كالذين أسسوا جمعية الشبان المسلمين سنة (١٩٢٧ م) ، وكانت هناك أحزاب أخرى كحزب الأحرار الدستوريين وحزب الشعب الا أنها لم تصل الى درجة حزب الوفد في الشعبية وتعتبر هذه الأحزاب جميعا أحزابا مصطنعة لا مبرر لوجودها فكلها قد وجدت لأسباب شخصية ولا فرق بين برامجها لأنها جميعا متولدة من حزب الأمة ، وقد بدأت جميعا مستندة الى العصبيات والى أصحاب المصالح من كبار الملاك . ولكن أكثر هذه الأحزاب تأثيرا في الشعب هو حزب الوفد ويتزعمه سعد زغلول الذى بدأ حياته صديقا للانجليز وختمها كذلك ، وهو الذى اتجه بحزبه الى مهادنة الاستعمار للانتفاع بمزايا الدستور والحكم النيابي ، وفرض قوته على رجال حزبه ليسيروا على هذا الخط ، واستطاع أن يجذب اليه الشعب ويخدعه بما أوتيه من مقدرة خطابية وحسن استغلاله لحادث نفيه في تدعيم الثقة باخلاصه وجرأته وتضحيته من أجل مصالح الأمة، والجماهير لا عقل لها في الثورات ، وقد عمل سعد منذ البداية على الاستئثار بالقضية الوطنية وكأنها غنيمة لا يريد أن يشاركه فيها أحد ، واستطاع أن يملك قلوب الغوغاء بضربه على الوتر الحساس.

وكان هم هذه الاحزاب جميعا هو الدستور الذى صرفهم عن الجهاد في سبيل اجلاء المحتل الى الجهاد في سبيل اقامة الدستور نفسه لأن الحصول على الأغلبية النيابية هو السبيل الى الحكم والحكم هو غاية كل الأحزاب ، ومفاوضات الحكومة البريطانية في وضع (تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ م) موضع التنفيذ بناء على معاهدة ، وكانت الحكومة البريطانية هي التي تضع الدستور متى شاءت وتلغيه متى شاءت ، وكانت الوفود تترا الى لندن للتفاوض وهي تتبع سياسة المماطلة والوعود الكاذبة لتترك لهم الفرصة للتمحيص حتى يظهر من يواليها ممن يعاديها وكانت تضرب بعضهم ببعض فتحدث بينهم نزاعات وخصومات على أتفه الأشياء ويهرع كل منهم اليها لتحكم بينهم .

وكان هدف العدو الانجليزى من هذا كله هو استدراج المصريين الى أن يقبلوا بمعاهدة تربطهم به وانشاء علاقة مستقرة أساسها الود والتفاهم بين السادة والعبيد يستطيع السادة معها أن يناموا ملء جفونهم ، لا يخشون انتقاضا ولا انتقاما .

وقد استطاعوا أن يحققوا هذا الهدف في آخر الأمر ، فختم سعد زغلول حياته كما بدأها مسالما للاستعمار ، واستطاعوا بفضل الجيل الذى تعهدوه بالتربية والتنشئة والتدعيم ووالوه بالمعونة وبالتأييد منذ شبابه الأول ، ثم دفعوا به الى الصفوف الأولى ودسوه على مختلف الأحزاب وفي مختلف المناصب ، استطاعوا عن طريق هذا الجيل، وعن طريق المتزوجين منهم بالانجليزيات خاصة ، أن يحققوا كل أهدافهم ، وأن يقيموا ماسموه " الصداقة الانجليزية ـ المصرية " .

انتظرت بريطانيا ولم توافق على المعاهدة حتى تحين الفرصة وعندما حانت سنة ١٩٣٦ م أبرمت المعاهدة التى تنص على استقلال مصر المزعوم وفرح الشعب المصرى المسكين والحقيقة أن تلك المعاهدة لم تكن الا رباط الصداقة الأبدى بين مصر وبريطانيا .

وأما عن العلماء والمصلحين في تلك الفترة فان علماء الأزهر كانوا غالبا مايوالون القصر (أى الملك فؤاد) ولم يكن لهم نشاط سياسي أو اصلاحي الا في نطاق محدود مثل اصلاح مناهج التعليم في الأزهر أو الرد على الدعوات الهدامة .

أما اصلاح التعليم كما يسمى فقد دعا اليه جماعة من المتأثرين بدعوة الشيخ محمد عبده وعارضها بقية علماء الأزهر ووقفوا فى وجهها ، وحدثت صدامات كثيرة بين الفريقين لمدة سنوات الى أن جاءت سنة (١٩٢٨ م) والتى عين فيها الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخا للأزهر ، فتقدم ببرامج جديدة للدراسة ، فقوبلت فى أول الأمر بمعارضة شديدة اضطر معها الى الاستقالة وبقية المسألة فى أخذ ورد مدة طويلة حتى سنة (١٩٣٥ م) اذ ثار شباب الأزهر مطالبين بعودة الشيخ وتحت ضغط هذه الثورة عاد الى منصبه ليضع برامجه موضع التنفيذ .

وكان لعلماء الأزهر بعض نشاط - فى التصدى للدعوات الهدامة مثلما حدث عند ظهور كتاب طه حسين (فى الشعر الجاهلي) حيث رد عليه عدد من الدعاة والعلماء والمصلحين فى كتب ألفوها ومن هؤلاء : الشيخ محمد الخضر حسين الذى تقلد فى وقت ما منصب شيخ الأزهر ، ورد العلماء كذلك على كتاب (الاسلام وأصول الحكم) ل (على عبد الرازق) وجردوه من شهادته الأزهرية ومنعوا الكتاب من الطبع والتوزيع كما فعلوا بالكتاب الذى قبله .

كما كان لعلماء الأزهر مواقف من بعض القضايا كسقوط الخلافة اذ صدر عنهم بيان يستنكرون فيه ماقام به الكماليون ويدعون فيه الى مؤتمر يقرر مايراه فى أمر الخلافة من الطريق الشرعي ، وفى هذه الأثناء شاع أن (الملك فؤاد) يرشح نفسه للخلافة ، وكانت مشيخة الأزهر تميل لمؤازرته .

وكانت علاقة الأزهر بحزب الوفد متوترة فى أكثر الأحيان بسبب تأييد العلماء للملك الذى يعاديه الحزب وللأفكار التى يحملها سعد زغلول من شيخه محمد عبده وهي الأفكار التى يعاديها الأزهر ورجاله .

أما الشيخ محمد رشيد رضا فكان يختلف عن بقية تلاميذ الشيخ محمد عبده ، يختلف عنهم فى سلفيته الواضحة ، وعدائه الشديد للانجليز ، ودعوته للرابطة الاسلامية وتنكره للكماليين والشريف حسين بعد انكشاف أمر كل منهما ، ومات وهو يناصر ويوالى الدولة السعودية لما رآه فيها من سلفيتها وتطبيقها للشريعة الاسلامية .

وظهرت فى هذه الفترة جماعات اسلامية من أهمها :

جماعة (أنصار السنة المحمدية) التى أسسها الشيخ محمد حامد الفقى [١] (١٩٢٦ م) وكانت دعوتها سلفية غير أنه ينقصها الشمول فى الغايات والوسائل . ولم تكن تتعرض للمسائل السياسية .

وجماعة (الاخوان المسلمون) [٢] التى أسسها الشيخ حسن البنا (١٩٢٨ م) وكانت تهدف الى اعادة الخلافة عن طريق تربية الفرد والاسرة والمجتمع .

ولم تخل الساحة من مصلحين آخرين كانوا يعملون بصفة فردية عن طريق الصحف والجرائد والجمعيات الصغيرة ، من أمثال محب الدين الخطيب [٣] الذى أصدر مجلتي (الزهراء) و (الفتح) وكان يدعو الى نهضة العرب الاسلامية ، وأنشأ المطبعة السلفية ومكتبتها وكان يشرف على نشر عدد كثير من كتب التراث وكان من أوائل مؤسسي " جمعية الشبان المسلمين " سنة (١٩٢٧ م) .

(والجمعية الشرقية) [٤] التى كان من بين أعضائها : الشيخ محمد رشيد رضا ، والشيخ محمد بخيت المطيعي والتى أصدرت مجلة (الرابطة الشرقية) سنة ١٩٢٨ م .

---

(١) انظر : الطريق إلى جماعة المسلمين ص ٣٦١

(٢) انظر : المصدر السابق ص ٣١٥

(٣) انظر : ذكريات علي الطنطاوي ص ٢٥٩ - ٢٦٤ ج ١

(٤) انظر : الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر ٢/ ١١٥

المبحث الثالث : ســـوريا : (١)

كانت سوريا قبل الحرب العالمية الأولى تابعة للدولة العثمانية ، وفي هذه الأثناء بدأت تتألـــف الجمعيات السرية مثل " العربية الفتاة " القائمة دعوتها على تحرير العرب ومقاومة ماتعمله جمعيـــة " تركيا الفتاة " من تتريك العناصر العثمانية وكان أعضاء هذه الجمعية خليطا منهم من ينظر الى اصلاح حالة العرب عن طريق الاسلام ومنهم من يرى الاصلاح عن طريق القومية العربية البعيدة عن الديـــن واتصلوا بالشريف حسين وأولاده الذين قاموا بالثورة العربية الكبرى على الدولة العثمانية محالفين للانجليز ، ووصل الأمير فيصل بن الشريف حسين الشام بجيشه العربي واستقبلت الشام جيوش الحلفاء أحسن استقبال لوجود فيصل معهم . وهذا ماكان يريده الاعداء . وانتخب السوريون فيصل ملكا دستوريا عليهـــم ، الا أن الفرنسيين لم يرضوا بهذا فاضطرت انجلترا الى نقله من سوريا الى العراق ، ودخل الفرنسيون الشام ســنة ١٩٢٠ م وأعلنوا عليها الحماية ، والسوريون الذين كانوا في حكومة فيصل التى قضت عليها فرنسا بعضهم بقي في الشام وبعضهم فر الى مصر وبعضهم نفته فرنسا الى جزيرة " أرواد " .

وتألفت أحزاب منها حزب الشعب وحزب الاستقلال وكان الاتجاه الغالب على معظم الجمعيـــات والأحزاب هو القومية والعلمانية : وتجد أكثر أعضائها ممن درس في مدارس فرنسية بالاستانة أو المدارس التبشيرية ببيروت أو بفرنسا .

وفي سنة ١٩٢٥ م قامت الثورة ضد الاستعمار الفرنسي وكان الذى أشعل فتيلها هم العلماء من أمثال " بدر الدين الحسيني " ، وبعد أن قمع الاستعمار هذه الثورة ونكل برجالها قتلا وسجنا ونفيا ، وفر منهـــم من استطاع الفرار رجعوا وكونوا (الكتلة الوطنية) وهي عبارة عن مجموع الاحزاب التى كانت قبل الثورة .

كان هدف الاستعمار الفرنسى اعداد فئة تنال ثقة الجماهير في الفترة الحالية ، وتوالي الاستعمار بعد جلائه وترتبط به ارتباطا وثيقا تكون هي الحاكمة للشعب السورى وتسير في حكمها على الخطة التـــى يرضاها المستعمر مما يحقق له مصلحة أعظم من التي ينالها وهو يحكمهم بالحديد والنار .

للوصول الى هذه الغاية عمل على ايجاد فئتين : احداهما قربها اليه وأعطاها مقاليد الحكم فـــى الظاهر ، وأظهرها في مظهر المتعاونة معه حتى يعاديها الشعب ويحاربها ويندفع في البحث عن مـــن يناصره ويعطيه ثقته ولم يجد الا الفئة الثانية التى كانت تظهر في مظهر المعادية للاستعمار وأعوانـــه والمناضلة من أجل استقلال الشعب والمطالبة بحقوقه وهذه الفئة هى التى كان يعدها الاستعمـــار للحكم بعد الاستقلال . وانطلت الحيلة على الشعب فكان لا يتأخر في طاعة هؤلاء ومناصرتهم والائتمـــار بأمرهم والثورة من أجلهم والايمان بأفكارهم والمتابعة لمراحل نضالهم والتمسك بمبادئهم والدفاع عنهـــا بل والموت من أجلها . وماهذه المبادئ ؟ هى اجلاء الاستعمار وحكم البلاد بمقتضى دستور علمانـــي كبقية الدول الغربية ، وبقيت الكتلة الوطنية في مفاوضات مع الاستعمار الفرنسي على هذه الغاية حتـــى اطمأن الى أن الثمرة قد نضجت فوافق على عقد معاهدة الاستقلال الصورى الذى هو شر من الاستعمار يقول الشيخ على الطنطاوى في مذكراته : (ومنه " أى الجامع الأموى) تخرج المظاهرات ، واليه يـــأوى المناضلون اذا طارد هم المستعمرون . . . ومن سطحه يلقون الحجارة عليهم ، وماجاز عتبته يوما جندى من جنود فرنسا ، فلما جاء الاستقلال رأينا ممن يعد منا - وماهم في الحقيقة منا ، بل هم شر علينا من عدونا -

---

(١) انظر: ذكريات علي الطنطاوي ، والاعلام للزركلي ، والاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر

رأينا ممن ينطق بلساننا ، وولد في أرضنا من يكسر باب المسجد ويدخله بسلاحه وسياراته ويذبح المجاهدين على أرضه ويفعل فيه كل ما ينكره الدين وتأباه المروءة وتستكبره انسانية الانسان ، حتى لقد مرت سنوات طوال ، ولا تزال على سجاده آثار الدماء الطاهرة الزكية التي أراقها من ليس طاهرا ولا زكيا ، ولكن جبارا عتيا وكفارا غويا .

فياعجبا ! أيكون من أبنائنا من هو أقسى علينا ، واعدى لنا ، وأشد حربا لديننا ، من مستعمري بلادنا ؟ (١)

المبحث الرابع : تونس :-

بعد الحرب العالمية الأولى تكفل بالمقاومة السياسية أحد علماء تونس الزيتونيين وهو " عبد العزيز الثعالبي " (٢)، فسافر الى فرنسا ليتقدم الى الرئيس (ولسن) بمذكرة يطالب فيها باستقلال تونس.

أما في تونس فان مجموعة من المتفرنجين الذين تخرجوا من الجامعات الفرنسية - اغتنموا هذه الفرصة وأرادوا أن يغيروا الاتجاه الاصلاحي الذي رسمه عبد العزيز الثعالبي فأنشأوا حزبا جديدا يسمى "الحزب الدستوري" (٣) وغايتهم هي " تحقيق نظام دستوري يسمح للشعب أن يحكم نفسه بنفسه وفاقا للأسس التي يسير عليها كل العالم المتمدن " (٤).

وتوقف الزيتونيون من أتباع عبد العزيز الثعالبي عن المشاركة في هذا الحزب حتى يرجع زعيمهم من فرنسا ، وعند رجوعه لم يوافق (٥) الدستوريين على الخطة التي رسموها ليسير عليها هذا الحزب وامتنع هو الآخر عن التعاون معهم بعد ما اتضح له فكرهم وخططهم ، الا أنه علم بعد ذلك أن الحكمة تقتضي أن ينضم اليهم ويعمل على تصحيح مسارهم بدلا من أن يترك لهم الأمر فينخدع بهم عامة الناس ، فترأس الحزب وبدأ في اصلاحه ولما علمت فرنسا بخطورة هذا الرجل نفته من تونس سنة ١٩٢٣م فهاجر الى المشرق ، وطاف بأكثر بلدان العالم الاسلامي حتى وصل الى الهند وكان في رحلته هذه يقوم بفضح الاستعمار واستبداده وما يلاقيه الأفارقة من كيده وبلائه ، ويكذب كل ما يتظاهر به هنالك . (٦)

غياب عبد العزيز عن تونس أتاح فرصة الجهر بالفكرة لمجموعة من أعضاء الحزب وأكثرهم ممن تربوا في أحضان الغرب وتشبعوا بروحه عند ما كانوا يناضلون في فرنسا داخل الاحزاب اليسارية ويشهد على هذا " شارل أندري (٧) جوليان " في معرض الاشادة بهم فيقول " ويظهر موقف الدستوريين العقائدي في مظهر

---

(١) ذكريات على الطنطاوي : ٢/ ٦٦ .

(٢) كان عضوا في حزب " تونس الفتاة " .

(٣) يلاحظ أن الطلب بالنظام الدستوري عم أكثر الأقطار العربية بعد أن ظهر في تركيا ١٩٠٨م ، وهي دعوة صريحة لنبذ الشريعة والأخذ بقوانين ونظم الغرب .

(٤) الحركات الاستقلالية في المغرب العربي : علال الفاسي ص: ٥١ .

(٥) المصدر السابق : ص ٥١-٥٢ .

(٦) شهاب ابن باديس ج٧ - م١٣ ص ٣١٦-٣١٨ رجب ١٣٥٦هـ - سبتمبر ١٩٣٧م .

(٧) فرنسي اشتراكي كلفته الحكومة الفرنسية في تلك الفترة بالكتابة العامة للجنة العليا للبحر الأبيض المتوسط وشمال افريقيا المكلفة بتنسيق الشؤون الاسلامية لدى رئاسة الحكومة .



قوى جدا . فقد تشبعوا فى مدارسنا بذكريات " فرسان جيتوريكس " و " جان دارك " و " فالمي " [١] وهم ينتسبون الى مبادئ الحرية القومية التى تلقنوها بوصفها أساس العظمة الفرنسية " [٢].

وكان أكثر هؤلاء الأعضاء قد درسوا فى فرنسا القانون الوضعي وتخرجوا قضاة أو محامين ومن بينهم المحامون الحبيب بورقيبة وأخوه محمد ، والبحرى قيقة ، والطاهر صفر الذين يصفهم " شارل اندرى " بأنهم كانوا : " ذوى آراء أكثر تقدما وتحررا " [٣]، وماهذا التقدم الا تقدم نحو دين الغرب وأخلاقه وعاداته ، وماهذا التحرر الا تحرر من الاسلام وأحكامه بعدما تشبعوا بالثقافة الغربية الالحادية ، كل هذا أدى الى انشقاق الحزب فى مارس ١٩٣٤ م ، فأصبح من ذلك التاريخ حزبان دستوريان : القديم والجديد .

وبهذا تحرر رجال الحزب الجديد من كل قيد يعوقهم عن العمل لأنه " لم يتأثر برنامج حزبهم الدستورى بنظام الحكم الشرقي الاستبدادى المستمد سلطانه من الدين . . . [٤] بل يستوحى فى الميدان النظرى من أصول القانون العام الغربي التى تلقاها المحامون الشبان على مقاعد كليات فرنسا ، وفى الميدان العملي من " عهد الأمان " [٥] ودستور ١٨٦١ م [٦] اللذين فرضهما الضغط الأوروبى على البايات المصلحين " .

والفرق بين الحزبين أصبح واضحا اذ أن الجديد كان يتحمس للفكرة القومية أكثر منه للفكرة العربية الاسلامية ويوجه اهتمامه الى المطالب التى لا مساس لها بالدين ، أما رجال الحزب الدستورى القديم فكانوا من أشد أنصار فكرة الوحدة العربية الاسلامية فوضعوا - على حد تعبير شارل اندرى - نصب أعينهم القيم المعنوية والغايات الروحية ، ثم يلمزهم بقوله : " وسبحوا فى احلام اعادة نظام دينى تقليدى فى تونس " ويضيف " ولما تغلب عليهم رجال الحزب الدستورى الجديد ركنوا الى ترقب فرصة للأخذ بالثأر معتقدين أن الله ينصر الذين اتبعوا الصراط المستقيم الذى أوصى به الاسلام " .

وبدأ رجال الحزب الدستورى الجديد فى تطبيق خطة عملهم التى هى من وحي الأعداء ، وتتلخص فى أن يفتعلوا نوعا من العداوة بينهم وبين فرنسا ولا يتم هذا الا بأن يظهروا فى مظهر من يعتنق أفكارا ثورية تحررية ويتبعوا أساليب وطرق عملية عصرية مقتبسة من الشيوعيين والفاشستيين التى تدل فى نظر الشعب على الفطانة والشجاعة والتضحية ، مما يجعله يلتف حولهم ويهتف بهم ويلقى بنفسه فى المهالك من أجلهم ، ولا يؤمن الا بهم ولا يطيع فيهم أحدا أبدا ، ثم يعمل الاستعمار من حين لآخر على ابعاد ونفي وسجن الزعماء منهم والذين رباهم على عينه ليزيد من تعلق الشعب بهم تمهيدا الى تسليم القيادة لهم برضاء الأمة بل بالحاح منها .

يفيدنا ببعض هذه الأمور " شارل اندرى " فيقول عن الحزب الدستورى : " واتخذت دعايته جميع الوسائل الصالحة للتأثير على المخيلة : دخول الزعماء للمدن فى مواكب رهيبة ، واستعراضات ، وشبيبة مرتدية أزياء خاصة وتزيين المنصات ، ونشيد وطنى ملحن تلحين النشيد المصرى وطاقم موسيقى عربى يعزف على الالات النحاسية ، واجتماعات بعثت حماسا بالغا فى نفوس الجماهير وعلمت الشعب المحلية على استمرار تلك الشعلة المقدسة " .

---

(١) جان دارك : قديسة فرنسية قاتلت الانجليز ، فالمي : موضع في فرنسا انتصر فيه الفرنسيون على بروسيا
(٢) شارل اندرى جوليان : افريقيا الشمالية تسير - ص ١٠١ .
(٣) شارل اندرى جوليان : افريقيا الشمالية تسير - ص ١٠١ .
(٤) هذا تعبير الفرنسى الحاقد على الاسلام والرامي الى تشويهه . انظر : شارل أندرى جوليان افريقيا الشمالية تسير - ص ١٠١ - ١٠٢ .
(٥)
(٦)

الفصل الثاني
أوضاع الجزائر
في بداية هذا القرن[1]

(١) أي الميلادي

ملاحظة: و بداية هذا الفصل من منتصف ص١٢

ويقول أيضا " وتسببت عودة المبعدين في مظاهرات عمومية بهيجة في جميع الأماكن التي مروا بها " .
وهذه من الخطط التي أشرنا اليها سابقا .
ويقول أيضا " استطاع الحزب أن ينظم ما يقرب من المائة ألف عضو ، يسيرهم قادة يتجولون في سيارات تعلوها الأعلام بمعية اطارات ومراقبين وفرق خاصة وكشافة اسلامية وشبيبة ترتدي أقمصة وأحذية سوداء " .
وهكذا استمر زعماء الحزب الدستوري الجديد في العمل على هذه الخطة حتى رجع الثعالبي من المشرق سنة ١٩٣٧ م باذن من فرنسا التي شعرت بعظيم ضرر ما قام به في المشرق من دعاية ضدها ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى تأكد لديها كذلك أن الثعالبي لا يكون له الآن نفس التأثير الذي كان له على الشعب لطول غيبته ، ونجاح لعبة الحبيب بورقيبه وزمرته في استقطاب السواد الأعظم وربطهم به . . وبهذا تم له الانقلاب السلمي على الثعالبي .
لا يمكن للشيخ الثعالبي الذي رجع من المشرق - كما يقول شارل اندري - " متشبعا بما تكتسيه النهضة العربية الاسلامية من المثل الروحانية التوحيدية أن ينظر بعين الاستحسان الى الحزب الدستوري الجديد الذي يرى في تعاليم الدين وسيلة لا غاية . . . فاتجه عطفه تلقائيا الى الحزب الدستوري القديم " .
وكان الحبيب بورقيبة يمسك في قبضته ٤٠٠ من الشعب الحزبية وأصبح هو الزعيم الحقيقي للحزب ، الا أن رجوع الثعالبي أحدث له قلقا وخوفا من أن يسلبه زعامة الحزب ، ولذا لما طلب منه عبد العزيز الثعالبي توحيد الحزبين تحت القيادة الأولى والمكونة من العلماء الشرعيين والمصلحين الاسلاميين ، لجأ الى لعبة سياسية ناجحة وهي أن تحكم الجماهير الشعبية ، مطالبا باجراء استفتاء شعبي قبل ذلك ، وهو مطمئن الى أن الجماهير الجاهلة والغافلة ستختار المجاهد الأكبر .
وهنا أدرك الثعالبي أن البساط قد سحب من تحته ، فرجع الى العمل مع جماعته متجنبا الصراع بينه وبين بورقيبة مما سهل لهذا الأخير أن يمضي في لعبته حتى مكن من التسلط على الشعب التونسي مدة ثلاثين سنة بعد استقلال تونس الصوري .

الفصل الثاني : الجزائر في بداية هذا القرن

المبحث الأول : الحالـــة السيـــاسية :-

دخل الاستعمار الفرنسي الى الجزائر سنة ١٨٣٠ م فقامت في وجهه عدة ثورات أهمها ثورة الأمير عبد القادر التي دامت قرابة سبع عشرة سنة (١٨٣٠ م - ١٨٤٧ م) وثورة المقراني (١٨٧١ م) ولم يكد ينتهي القرن التاسع عشر حتى أخمد كل هذه الثورات واستتب له الأمر بعد أن استعمل في اضطهاد الشعب الجزائري ومحاربته أبشع الطرق والأساليب لقتله وابادته ، وعندما استقرت له الأحوال نسبيا اتبع أساليب أخرى رآها أنجع في حكم هذا الشعب والتمكين له في أرضه ، وساعده على ذلك الحالة التي كان عليها أغلب أفراد الشعب من الجهل والتقليد لشيوخ الطرق الذين استطاع أن يستميلهم اليه ويتخذهم أعوانا له بعد أن علم أنهم أصحاب مصالح دنيوية ومتع مادية وأنهم في سبيل هذه المصالح وضمانها يصحبون أيا كان ولو كان كافرا ويعادون من مس بمصالحهم ولو كان مسلما يدين بدينهم ويتكلم بلغتهم ، ولما علم الاستعمار أن معظم الشعب منقاد لشيوخ الطرق والزوايا عمل على كسب الشيوخ ليتمكن عن طريقهم من امساك الشعب ، ثم سن قوانين صارمة غايتها منع الأصوات الحرة من الارتفاع ، حتى لا ينتبه الشعب من نومه ، وسهر على تطبيق هذه القوانين بالحديد والنار ، وعلم الاستعمار أن قوة الشعب نابعة من دينه وتاريخه ولغته ووحدته فشدد في حرب هذه العوامل وأفسح المجال لكل الخرافيين والدجالين وأوهم الناس أن هذا هو الدين الاسلامي الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ثم حاول أن ينشئ فئة أخرى متفرنجة تزدري هذا الدين وتضحك من رجاله أفسح كذلك

لها المجال لتنشط وتعمل فى صفوف الشعب لينسلخ من دينه ويندمج فى جسم الشعب الفرنسى الكافر ، وهكذا أصبح الفرد الجزائرى اماجاهلا خرافيا ليس له من الاسلام الا اسمه أومتفرنجا ينكر أصله ودينه ويأمل أن يرتقى الى درجة الرجل الأوروبي المتحضر .

كانت فرنسا تحكم الجزائر حكما مباشرا فى كل النواحى حتى الدينية فكان الاشراف الدينى على المساجد والقضاء والمدارس والمعاهد من حق رجال فرنسيين مستشرقين فهم الذين يعينون القضاة والأئمة والخطباء والمعلمين وكان أغلبية هؤلاء الجزائريين الموظفين ممن يوالون الاستعمار ويخدمون مصالحه وبثت الخلاف بين البربر والعرب ، وأولت البربر عناية خاصة لفرنستهم وتنصيرهم وأفسحت المجال للمبشرين ، وبذلت كل مافى وسعها من أجل قطع الصلة بين الشعب الجزائرى واخوانه فى الشرق العربى وضيقت سبل الرزق على الفرد الجزائرى ، واستولت على الأوقاف الاسلامية التى كانت تغذى المساجد والمدارس ، وحاربت من يعلم الناس العربية أو العلوم الشرعية العملية والتاريخ والجغرافيا ، ومنعت الصحف والمجلات والاتصالات بين مدينة وأخرى ، وكانت تتخذ أحيانا الترغيب كوسيلة ، فمن انسلخ من دينه ولغته وشخصيته فله المنصب والمال والمكانة العالية ومن حافظ على دينه وشخصيته فهو محروم ، وتارة أخرى تستعمل الترهيب أو هما معا .

فاستحكم فى الناس اليأس وفشت بينهم الفرقة ، والفقر والأمراض ، واللامبالاة والجهل ، والمعاصى وشتى أنواع الانحراف ، ووجدت الطرقية فى هذا حقلا خصبا للتوسع والانتشار فتغلغلت الى كل بلد وحيى وبيت وأسرة ولم يكد ينجو من مسها أحد فزادت من تخدير الناس واماتتهم وأصبح الذى له قلب اما يموت هما وغما أو يهاجر الى المشرق . (١)

بقيت الحالة هكذا وهى تزداد سوءا يوما بعد يوم حتى انتهاء الحرب العالمية الأولى عند ذلك بدأت تظهر بعض الحركات الاصلاحية غير أنها لم تكن مستقيمة فى الفكر والمنهج والهدف ، ومن هذه الحركات :

١ ـ حركة (اتحاد المنتخبين المسلمين) وكانوا يزعمون أنهم يطلبون من فرنسا أن تساوى بين أفراد الشعب الجزائرى والمستوطنين فى الحقوق ويقولون : ان هذه خطوة تمهيدية للاستقلال الكلي ، والحقيقة أنهم بعملهم هذا يصلون الى ادماج الشعب الجزائرى فى فرنسا واذابتهم له ومحو شخصيته والقضاء على أصله ودينه وجميع مقوماته سواء قصدوا ذلك أم لم يقصدوا ، ولتوافق هذه المقاصد مع مايريده الاستعمار فقد شجع هذه الحركة وأغراها لتتوسع فى صفوف الشعب وكانت تتخذ الانتخاب أسلوبا لها والفرنسية لغتها .

٢ـ (حزب الشعب الجزائرى) : كانوا ينادون بالاستقلال التام ، الا أن قيادات هذا الحزب وافراده لا يلتزمون بأحكام الدين الاسلامي ، ولا يفقهون منه شيئا وتصورهم له تصور باطل وكانوا اذا ذكروا الدين فى منهجهم فلأجل كسب أفراد الشعب وكان منهجهم مبني على المؤتمرات والانخراط والاشتراك بالمال والحصول على البطاقة ، والتنديد والمظاهرات. والمتأمل فى بنود البيانات التى تصدر عن قياداتهم يعلم أن لهم صلة بالشيوعية ، ولغتهم الفرنسية . (٢)

---

(١) انظر : المصادر التالية :(أ) تركي رابح : الشيخ عبد الحميد بن باديس ، فلسفته وجهوده(ب) فرحات عباس ليل الاستعمار ، ترجمة أبى بكر رحال ـ(ج) صالح خرفي ، المدخل الى الأدب الجزائرى الحديث .
(د) محمد ناصر المقالة الصحفية الجزائرية .

(٢) انظر : تركي رابح مصدر سابق ص: ٥٥ ومابعدها .

المبحث الثاني : الحالة الدينية والثقافية :

وجد في الجزائر - قبل ابن باديس رجال علم واصلاح جاهد وامن أجل اخراج الشعب الجزائري مما هو فيه، ومنهم من اتخذ التعليم وسيلة لذلك أمثال الشيخ صالح بن مهنا القسنطيني (١)، والشيخ عبد القادر المجاوي (٢)، والشيخ عبد الحليم بن سماية (٣) وغيرهم، ومنهم من اعتمد على الصحافة مثل عمر بن قدور الجزائري (٤) وعمر راسم (٥) والأمير خالد (٦) وغيرهم فهؤلاء وأمثالهم ساهموا جميعا في العمل الاصلاحي وصبروا وصابروا وكانت لعملهم هذا نتائج الا أنها محدودة ولم تصل الى درجة ما حققه ابن باديس ويرجع ذلك - والله أعلم - الى أسباب من أهمها اثنان وهما :

الأول : أن هذه الأعمال كانت تتسم بالفردية.

ثانيا : أن أصحابها تنقصهم الكفاءة والانقطاع الكلي لهذا العمل مما جعل عملهم يتصف بالسطحية وعدم العمق، ونظرتهم الى الاصلاح كانت قاصرة لا تنبني على منهج مدروس واضح المعالم من أوله الى آخره وبعضهم كان عنده غبش في الفكر ولوثة في التصور.. كل هذه الأسباب أدت الى انحصار آثار تلك الجهود المبذولة في نطاق محدود.

وكان نشر العلم يتم بالطريقة التقليدية في الزوايا : (وهي مساجد تبنى لشيخ الطريقة الصوفية وبجنبها مسكنه، وتكون تلك المساجد بمثابة معهد تتلقى فيه العلوم الشرعية واللغوية مع حفظ القرآن وفي بعض هذه الزوايا يتولى الشيخ بنفسه التعليم مع مساعدين له وفي غيرها يسند التعليم لتلاميذه).

واضافة الى هذه الزوايا نجد المساجد العامة التي بقيت عامرة بالدروس العلمية على مر الزمن والكتاتيب التي يحفظ فيها القرآن فقط.

ويغلب على طريقة التدريس الجمود والتقليد والاهتمام بالحفظ أكثر والاقتصار - في الغالب - على بعض العلوم كالفقه والمنطق واللغة والتصوف.

وأما الاستعمار الفرنسي فقد احتكر مدارسه لأبنائه وحتى لو فتحها لأبناء الجزائر فانه أبعد منها العربية وجعلها مدارس فرنسية خالصة تبث أفكار الفرنسة والتغريب.

وأنشأ ثلاث مدارس شبه ثانويات في قسنطينة والجزائر وتلمسان لتخريج الأئمة والقضاة... الذين يربيهم على عينيه (٧)

---

(١) توفي في ربيع الأول ١٣٢٥هـ. انظر عمار الطالبي - ج ١ - ص ٩٠.

(٢) ولد سنة ١٨٤٨م بمدينة قسنطينة، بدأ التعلم بتلمسان ثم أتمه بالمغرب الأقصى وخاصة بالقرويين عمل مدرسا بين قسنطينة والعاصمة : تخرج عليه عدد كبير من الأئمة والقضاة ورجال التدريس والفتوى، توفي سنة ١٩١٣م. انظر د. محمد ناصر. المقالة الصحفية الجزائرية ج ٢ ص ٢٢٤.

(٣) ولد بالجزائر سنة (١٨٦٦م-١٢٤٢هـ) وتعلم بها كان معلما في المدرسة الثعالبية بالعاصمة (الجزائر) له صلة بالحركة الاصلاحية في العالم الاسلامي : توفي سنة ١٣٥١هـ-١٩٣٣م. انظر عمار الطالبي ١/ ٢٨-٣١.

(٤) ولد بمدينة الجزائر : وبعد أن تعلم في الكتاب التحق بالمدرسة الثعالبية التي لم يستمر بها طويلا. أنشأ جريدة (الفاروق) وشارك بقلمه في جريدة (اللواء) و(المؤيد) بمصر سنة ١٩١٤م عرف باتجاهه السلفي الاصلاحي صادر الاستعمار جريدته لاتهامه بنزعته التركية الاسلامية، توفي سنة ١٩٣٢م. انظر د. محمد ناصر. المقالة الصحفية ج ٢- ص ٢٢٤.

(٥) ولد بمدينة الجزائر سنة ١٨٨٤م ثم اعتمد على نفسه في التثقيف باللغتين، عرف منذ صباه بأفكاره الاصلاحية معتنقا لمذهب عبده منتصرا له، له صلات واسعة بزعماء الاصلاح في الشرق والغرب، أنشأ مجلة الجزائر سنة ١٩٠٨م ثم (ذو الفقار) سنة ١٩١٣م توفي سنة ١٩٥٩م. انظر : محمد ناصر ج ٢/ ٢٢٧.

(٦) هو حفيد الأمير عبد القادر الجزائري ولد بدمشق وتربى على يد والده الهاشمي ثم التحق بثانوية (لوي لوجران) بباريس، ثم بمدرسة (سان سير) العسكرية حيث تخرج برتبة ضابط. شارك في الحرب العالمية الأولى مقاتلا مع فرنسا فرقي الى رتبة (نقيب) شارك في الحياة السياسية بعد الحرب وكانت جريدته (الاقدام) منبرا للأقلام الوطنية توفي في دمشق سنة ١٩٣٦م. انظر : محمد ناصر، المقالة الصحفية : ج ٢/ص ٢٢٣.

(٧) انظر : تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم. وعمار الطالبي : ابن باديس حياته وآثاره ج ١/ المقدمة.

الفصل الثالث
حياة ابن باديس

المبحث الأول

النسب والمولد والتربية الأولى

أولا :ـ الحياة الثقافية في مدينة قسنطينة

إن أثر البيئة الأسرية والمجتمعية والمدرسية في تربية الطفل عظيم ، وكل أمة لا تهتم بهذه المؤثرات الثلاثة في تنشئة أبنائها وتربيتهم بأن تهمل هذا الجانب تماما أو تهتم به لكن بناء على غير مبادئ الدين الإسلامي بل لخدمة أفكار وايدلوجيات جاهلية ـ فهي ظالمة لأفرادها أشد الظلم .

ولنعرف البيئة التي تربى فيها ابن باديس لابد من كلمة عن قسنطينة.هذه المدينة التى بقيت محافظة على شيء قليل من العلم والدين شأنها في ذلك شأن كل المدن التي بقيت مركز إشعاع ديني وعلمي على مر العصور .

كان بهذه المدينة علماء ـ رغم اختلاف نظرتهم إلى الإصلاح ـ إلا أنهم يتمتعون بنصيب وافر من العلم الشرعي الذي يكفي لتربية الطفل وتزويده بما يكفيه، وينفع في وعظ العامة وإرشادهم والحفاظ على بقايا الدين ، ومن هؤلاء : الشيخ عبد القادر المجاوي (١) الذي بدأ يُدرِّس في قسنطينة ثم نقلته فرنسا إلى المدرسة الثعالبية بالعاصمة ثم رجع إلى قسنطينة وتوفي بها وقد (٢) "ألف كثيرا من الكتب

---

(١) ولد سنة (١٨٤٨م) بتلمسان من أب يُدعى محمّد بن عبد الكريم.وهو من الفقهاء والقضاة قرأ في كُتّاب تلمسان فحفظ القرآن وأتمه بعد ما ارتحل أبوه إلى طنجة وتطوان ثم فاس وأكمل دراسته بالقرويين ومات سنة ١٩١٣م. انظر : الحفناوي : تعريف الخلف برجال السلف ج ٢ ـ ص ٤٤٩ ونهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة : محمد علي دبوز ـ دمشق ١٩٦٥ ج ١ ـ ص ٨٢ ـ ١٠٥ وشروط النهضة = مالك بن نبي ص ٢٩ .

(٢) هى واحدة من ثلاث مدارس أنشأها الاستعمار لتكوين موظفين من الأهالي =

المدرسية والتربوية مما يدل على أنه ذو اهتمام بالغ بالتربية والتعليم وعلى أن الاصلاح — في نظره — إنما يتم عن طريقهما"[1]، وكان هذا العالم يقاوم البدع مما جر عليه غضب الدهماء والحكومة الفرنسية التي أتعبته بكثرة نقله من بلد إلى آخر، وما غادر هذه الحياة حتى ترك تلاميذ أخذوا عنه وتربوا على يديه وساروا من بعده على طريقه وترسموا خطاه[2] مثل الشيخ حمدان الونيسي والشيخ أحمد لحبيباتي وغيرهما[3]، ويتميز الأول منهما عن غيره أنه كان غير مرتبط بالوظيف الحكومي مما ساعده على أن يصير مربيا فضلا عن كونه معلما وكان متأثرا بأفكار الحركة الإصلاحية في تونس.

في سنة ١٩٠٤ م زار قسنطينة الشيخ محمد الخضر حسين[4] ورأى وسمع وسجل ذلك في كلمة تعطينا إلى حد ما صورة عن

= ليشغلوا وظائف في الدين والقضاء الإسلامي وفي التعليم الأهلي والمكاتب العربية، والأخريان في تلمسان وقسنطينة انظر: تركي رابح: الشيخ عبد الحميد ابن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم ص١٤٦.

(١) عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره ج ١ ص ٢٠.

(٢) نفس المصدر والجزء ص ٢٤.

(٣) عالم من زعماء الحركة الإسلامية في الجزائر، هاجر إلى الحجاز سنة ١٩٠٨م واستقر بالمدينة المنورة يُدرّس بالمسجد النبوي توفي سنة ١٩٢٠ م أثنى عليه مفتي الديار المصرية الشيخ بخيت المطيعي وقال عنه (ذاك رجل عظيم) انظر: صراع بين السنة والبدعة، أحمد حماني، ج ٢/ص٢٣١.

(٤) ولد سنة ١٨٧٣ م في الجزائر ثم انتقلت عائلته إلى تونس سنة ١٨٨٦م ودرس في الزيتونة ١٨٨٧م تحصل على التطويع سنة ١٨٩٨م وقام =

الحياة الثقافية في قسنطينة • قال رحمه الله تعالى " •••• بهذه المدينة مدرسة إسلامية مُعَدَّة لتخريج القضاة والعدول ، وثلاثة جوامع تقام فيها الجمعة : الجامع الكبير والجامع الأخضر ، والآخر يسمى بجامع سيدي الكتاني ••• وبها مكتبة عمومية تحتوي على عدد من الكتب المطبوعة المتداولة ، والتقينا بأشهر علمائها الشيخ حمدان بن الونيس الذي كان زار الحاضرة (١) منذ عهد قريب والعالم الشيخ أحمد بن الحبيبات ، وهو رجل عليه سمة أهل الخير والصلاح ولما حان وقت صلاة العشاء ذهبت إلى الجامع الكبير وبعد انقضاء الصلاة رأيت جماعة مستديرة في جانب من الجامع والناس يستبقون نحوها زمرا فأخبرني بعض من معي بأن للشيخ درسا في التفسير فدنوت منه واصغيت إليه فإذا هو يُقرىء في قوله تعالى "مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (٢) بتفسير الخازن (٣) •

كانت مدينة قسنطينة من المدن المشهورة في الشمال الإفريقي ولذا فكل من يدخل القطر الجزائري لا بد وأن يمر عليها مثل ما فعل الشيخ محمد عبده

= برحلتين إلى الجزائر وتولى القضاء ببنزرت ودَرَّسَ في الزيتونة وزار سوريا ومصر سنه ١٩١٢م ورجع إلى تونس ثم رحل إلى المشرق مرة أخرى ، كان عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق ومجمع اللغة بمصر ، عُين شيخا للأزهر إلى سنة ١٩٥٤ وبقي في ميدان العلم إلى وفاته سنة ١٩٥٨م • من كتاب : محمد مواعده : محمد الخضر حسين : حياته وآثاره •

(١) أي تونس العاصمة •

(٢) سورة البقرة آية ١٠٦ •

(٣) محمد مواعده : محمد الخضر حسين : حياته وآثاره الدار التونسية =

في زيارته للجزائر عام ١٩٠٣م إذ دخلها واجتمع بعلمائها (١) .

ثانيا :ـ النسب والمولد

(١) نسبه :ـ

يرجع نسب ابن باديس إلى المعز بن باديس الصنهاجي (٢) مؤسس الدولة الصنهاجية الأولى التي خلفت الأغالبة على مملكة القيروان .

عرفت هذه الأسرة بالسلطان والعلم والثراء والجاه ومن أشهر رجالاتها في الحكم : المعز بن باديس بن المنصور بن يوسف بن زيري الذي كان واليا على افريقيا (تونس) من قبل الفاطميين في مصر، وفي سنة إحدى وأربعين وأربعمائة (٤٤١ هـ) نبذ الدعاء للخليفة العبيدي الشيعي وبايع للقائم العباسي ، وأتاه التقليد منه ، وحمل الناس على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله .

وصار المعز يسبهم على منابره ويدعو للعباسيين ومحا أسماء بني عبيد من السكة ، ونقش فيها (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ) (٣) وفي الوجه الآخر (لا إله إلا الله محمد رسول الله) (٤) .

ونظرا لما يتصف به هذا الأمير من خصال وما قام به من جلائل الأعمال

---

* للنشر ١٩٧٤م ص (٢٣٧ ـ ٢٣٨) .

(١) عمار الطالبي ابن باديس حياته وآثاره ج ١ ـ ص ٧٥ .

(٢) توفي سنة (٤٥٦ هـ) وقيل (٤٥٤ هـ ـ ١٠٦٢م) .

(٣) آل عمران ـ آية (٨٥) .

(٤) أحمد بن أبي الضياف : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان : تحقيق لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار ، الدار التونسية للنشر ١٩٧٦ ص ١٧٢ .

كان ابن باديس يعتز به ويفخر (١) .

وتميم بن المعز (٢) الذي تولى بعد وفاة أبيه كان كذلك شهما حازما صبورا كريما عالما شاعرا ، كاتبه بن رشيق (٣) ، القيرواني صاحب العمدة .

ومن شعره :ـ

فَإِمّا الملكُ في شَرفٍ وعزٍّ	:.	عليَّ التاج في أَعلى السريرِ
وإمّا الموتُ بين ظُبَى العوالي (٤)	:.	فلستُ بخالدٍ أبدَ الدهورِ

وقال أيضا :ـ

فكَّرتُ في نارِ الجحيم وحرِّها	:.	يا وَيْلَتاهُ : وَلاتَ حين مناصِ
فدعوتُ ربِّي ـ إنَّ خيرَ وسيلتي	:.	يومَ المعادِ ـ شهادةُ الإخلاصِ (٥)

وأما العلماء فإن عددهم أكثر من الأمراء ، حتى أن ابن خلدون حكى أنه اجتمع أربعون عمامة من أسرة باديس في وقت واحد في التدريس والإفتاء والوظائف الدينية ، وتكاد تكون وظيفة القضاء في قسنطينة (٦) قاصرة على علماء هذه الأسرة زمنا طويلا (٧) .

---

(١) عمار الطالبي ، ج ١ ـ ص ٧٢ ، وتركي رابح ص ١٥٨ .

(٢) توفي سنة (٥٠١ هـ ـ ١١٠٨ م) إتحاف أهل الزمان مصدر سابق .

(٣) توفي سنة (٤٦٣ هـ ـ ١٠٧١ م) معجم أعلام الجزائر : عادل نويهض : المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٧١ م ص ٦٢ . (٤) ـ ظبى : جمع مفرده ظبة وهو حد السيف ونحوه انظر : اللسان ج ١٥ / ٢٢ ـ كلمة : (ظبا) . والعوالي : مفرده العالية وهي أعلى القناة انظر : اللسان ج ١٥ / ٨٧ ـ كلمة : (علا) . (٥) إتحاف أهل الزمان ، مصدر سبق ، ج ١ / ١٧٢

(٦) مجالس التذكير ص ٣٠٢ (توفيق محمد شاهين) . وتاريخ ابن خلدون ، طبعة بولاق ج ٦ .

(٧) انظر : معجم أعلام الجزائر ص ٦١ ، وكذلك : تعريف الخلف برجال السلف ج ٢ ص ١٢٥ .

(٢) ولادته : ـ (١)

ولد عبد الحميد بن باديس في شهر ربيع الثاني (١٣٠٧ هـ) ديسمبر (١٨٨٩م) في مدينة قسنطينة وهو بكر والديه ، والده يسمى محمد المصطفى بن مكي بن باديس ، وأمه تسمى زُهيرة بنت علي بن جلول وأسرته مشهورة في قسنطينة تسمى أسرة عبد الجليل .

كان أبوه رجلا محترما من أهل قسنطينة والإدارة الفرنسية لما يتمتع به من أخلاق ومركز مالي وسياسي ، فهو عضو في المجلس الجزائري الأعلى والمجلس العمالي والبلدي يمارس التجارة والفلاحة .

عُرف بدفاعه عن مطالب السكان المسلمين بقسنطينة ، كان دَيّنا يحفظ القرآن ويعمل الخير ، بنى مسجدا على نفقته الخاصة يسمى مسجد سيدي قموش ونَصّب فيه معلما يعلم الناس .

لهذه الأسرة صلة بالإدارة الاستعمارية ، صلة الصداقة والتفاهم ، يظهر ذلك من أن جده مكي بن باديس تحصل سنة (١٢٨١ هـ) (١٨٦٤م) على وسام من يد نابليون وهذا دليل على ما بينهما من تقارب وعلى ما لأسرة ابن باديس من وزن في نظر الاستعمار الفرنسي . (٢)

وبقيت العلاقة كذلك إلى عهد والده حيث كان هو الآخر له مقام محترم لدى الحكومة الفرنسية . (٣)

---

(١) انظر عمار الطالبي ج ١ ـ ص ٧٢ وأحمد حماني ص ٢٣١ وتركي رابح ص ١٥٧ .

(٢) محمد الميلي : ابن باديس وعروبة الجزائر ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ص ٩ .

(٣) الشيخ البشير الابراهيمي " مجلة مجمع اللغة العربية " العدد ٢١ ص ١٤١ سنة ١٩٦٤ القاهرة .

إلا أن هذا كله لم يؤثر على عادات الأسرة وتقاليدها الإسلامية ،
فوالده عرف بالحفاظ على شعائر الدين والغيرة عليه ، كان يتعبد بالقرآن وخاصة في شهر رمضان ، مداوما على صلاة التراويح في مسجده الذي بناه ومن أعظم الأعمال التي قام بها والدالة على ما ذكرته توجيه ولده الوجهة الصحيحة وتربيته التربية الصالحة وسعيه لدى الحكومة الفرنسية للإذن له بالتدريس (١) .

وأمه لا تقل تدينا عن والده إذ كانت خير أم تحب لولدها ما يحبه له والده من العلم والدين كسائر نساء المغرب اللاتي مع جهلهن فهن متمسكات بالدين فطريا قد أشربت قلوبهن حبه وكانت أغلى أمنية عندها أن يصير ولدها عالما من علماء المسلمين وعندما تحققت هذه الأمنية برجوع عبد الحميد من تونس وبشرها زوجها بقدومه قائلا : " ها هو قد جاءك عالما " انطلقت من فيها زغرودة .... تعبيرا عن فرحها وسرورها بذلك (٢) .

في كنف هذه الأسرة المتعففة بغناها ، المعتزة بدينها وأصلها المحافظة على شعائر ملتها ، نشأ عبد الحميد بن باديس نشأة دينية بيّن هو نفسه طبيعتها فقال " ... كانت نشأتي إسلامية بفضل انتماء بيتنا إلى بيوتات أخرى في المدينة معروفة بتمسكها بالدين والمحافظة على القيام بشعائره وحرصا على تنشئة أبنائها على أساس تربية إسلامية وتقاليد أصيلة ، وكان الفضل في تكويني الأول لهذه التربية ، فقد كونت فيّ استعدادا خاصا لطلب العلم .... " (٣)

---

(١) علي مرحوم : مجلة الأصالة عدد ٢٤ ـ (آب) ـ ١٩٧٥ ـ ص ١١٣ ـ الجزائر .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) مجلة " لمحات " العدد ٣ السنة ١٩٦٩ م ص ١٣ ـ الجزائر .

كانت هذه الأسرة تنتمي للطريقة القادرية تبعا للعرف الجاري في ذلك الزمان القاضي بارتباط الأسر الكبيرة بالطرق الصوفية (١) .

ثالثا : ـ تربيته الأولى قبل الزيتونة :ـ

بدل أن يدخله والده إلى المدارس الفرنسية ـ التي كانت أمنية كثير من وجهاء الناس ـ عهد به إلى أشهر مقرئي قسنطينة الشيخ محمد المداسي ليعلمه القرآن الكريم ، فأولاه هذا الشيخ عناية فائقة ، ورعاه رعاية تامة حتى حفظ الكتاب وسِنُّه لمّا تتجاوز الثالثة عشر ، ولما لاحظ عليه حسن الخلق والاستقامة والفطنة قدمه ليؤم الناس في صلاة التراويح بالجامع الكبير لمدة ثلاث سنوات (٢) ، ثم انتقل إلى شيخ آخر ليعلمه مبادئ العربية والعلوم الشرعية وهو حمدان الونيسي .

لازم الغلام الموهوب شيخه الحكيم مدة ست سنوات في مسجد سيدي محمد النجار (٣) ، كان فيها الشيخ حَكَّرا على الولد ، يعطيه من العلم الشيء الكثير ومن الحكمة والعمل الشيء الأكثر ، وكان الشيخ عارفا بالله أخذ على تلميذه عهدا كعهد شيوخ الطرق الصوفية إلا أن هذا العهد لم يكن في التزام نوع من الذكر وإنما ألا يقرب الوظيف الحكومي أبدا (٤) حتى لا يكمم فوه ولا تغل يداه ولا تقيد رجلاه ، وشاب في مثل سن ابن باديس ، لا يعقل أن يوصى بهذه الوصية العظيمة لو لم يلاحظ عليه أستاذه رشد العقلاء ، وفطنة العلماء ، وثبات الحكماء ، وأنه أهل لمهمة خطيرة وسيكون له في المستقبل شأن عظيم .

---

(١) عمار الطالبي ابن باديس حياته وآثاره ج ١ ـ ص ٧٣ ـ ٧٤ .

(٢) عمار الطالبي ابن باديس حياته وآثاره ج ١ ـ ص ٧٤ .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) نفس المصدر جزء ٢ ـ ص ١٣٨ .

إن هذه المدة كانت كافية لتهيىء الشاب إلى الإلتحاق بالجامع الأعظم في تونس لإكمال دراسته ، إذ حصل فيها على علم وافر ولا شك أن هذه الفترة هي التي مكنته من متابعة طريق العلم حتى أدرك درجة العلماء ، ولو أراد أحد معرفة تفاصيل عن المنهج الذي سار عليه الشيخ حمدان الونيسي في تعليم ابن باديس لما استطاع لانعدام المصادر التي تذكر ذلك إلا أن الشيخ البشير الإبراهيمي يذكر أن الطريقة التي اتبعت في تعليمه هي نفسها التي اتبعت في تعليم ابن باديس (١) .

فالطابع التربوي والتعليمي يومئذ يكاد يكون واحدا في تنشئة الأطفال لدى الأسر التي بقيت تنتسب إلى الدين وتحتفظ ببقايا من علومه ، والمطلع على ما يحكيه الإبراهيمي في طريقة تعلمه هو في صغره يرى أنه حفظ القرآن وفهم مفرداته وغريبه وألفية ابن مالك ومعظم الكافية وألفية ابن معطي وألفيتي الحافظ العراقي في السير والأثر وجمع الجوامع في الأصول وكتبا أخرى ولمّا يتجاوز الحادية عشر (٢) فإذا كان ابن باديس هو أيضا قد تعلم هذا أو أكثر فلا شك أن مستواه العلمي كان مرتفعا وهذا هو السبب الذي جعل المشرفين على جامع الزيتونة يضعون ابن باديس في السنة الخامسة لتفوقه بدل أن يبدأ من السنة الأولى . وفي هذا دلالة واضحة على الأثر العلمي الذي تركه تعليم الشيخ حمدان الونيسي وغيره في الشاب ابن باديس .

وفي سنة (١٣٢٧ هـ) (١٩٠٨م) هاجر الشيخ المعلم والمربي إلى الشرق وهاجر الشاب المتعلم إلى تونس لإتمام دراسته .

---

(١) البشير الابراهيمي " مجلة مجمع اللغة العربية " العدد ٢١ ـ ص ١٣٦ .

(٢) البشير الابراهيمي مجلة مجمع اللغة العربية العدد ٢١ ـ ص ١٣٦ .

المبحث الثاني

الدراسة في الزيتونة

كان الحكم الفرنسي على تونس أخف منه على الجزائر لأنه حماية لا استعمار بمعني انتداب يترك فيه الحكم لأهل الوطن وتقوم فرنسا بالإشراف إلا أن هذا لا يعني أن التونسيين كانوا يحكمون أنفسهم بحرية تامة بل الأمر والنهي في الحقيقة للإستعمار الفرنسي وإنما رغم كل ذلك فهذا أهون من الحكم المباشر الذي يشدد فيه الخناق ولا يترك للناس متنفسا يعبرون به عن آرائهم ويطلبون حقوقهم ، فكانوا يمارسون بعض النشاطات في الدعوة والإصلاح مثل التعليم والصحافة وإنشاء الجمعيات وفتح المعاهد والمدارس وتأسيس المطابع وتأليف الكتب وإلقاء الخطب والمحاضرات إلى غير ذلك من الأعمال التي تنفع في إحياء الشعب وبعثه . إلا أن رجال تونس لم يستطيعوا تكوين جمعية إصلاحية مثل ما حدث في الجزائر وذلك لارتباطهم بالوظائف التابعة لحكومة الباي في الظاهر ولفرنسا في الباطن لأن فرنسا لم تلغ الحكم العثماني على تونس بل أبقته شكلا وقضت عليه حقيقة .

الناحية الثقافية والدينية في تونس لم تكن تختلف عنها في الدول العربية إلا شيئا قليلا وتتلخص في فشو الجهل عند أكثر الناس والجمود والابتداع وعدم تطبيق أحكام الدين في النفس والمجتمع عند جميعهم .

كان في تونس فضلا عن الكتاتيب ثلاثة مراكز فكرية وهي (1) :

(١) المدرسة الصادقية : وأسست لإمداد البلد بموظفين يحسنون إدارتها باللغة الفرنسية .

---

(١) الفاضل بن عاشور الحركة الأدبية والفكرية في تونس . ط ١/١٩٥٥م القاهرة ص ٤٣ ـ ٤٥

(٢) المدرسة الخلدونية : وهي ثانوية عربية عصرية القصد منها تكميل النقص الموجود في جامع الزيتونة حيث يدرس فيها المواد العلمية والعصرية مثل الحساب والتاريخ والجغرافيا ... إلخ ولذا كان للطلاب الزيتونيين دروس يأخذونها من الخلدونية زيادة على دروس الزيتونة ولا شك أن إنشاء هاتين المدرستين من إيحاء الإستعمار لمزاحمة جامع الزيتونة وتنفير الطلاب عنه (١) .

(٣) جامع الزيتونة : وهو أشبه بالثانوية تدرس فيه العلوم الشرعية واللغوية على الطريقة التقليدية (٢) .

وكان نظام الدراسة في الزيتونة قبل السنة التي التحق فيها ابن باديس وهي سنة (١٩٠٨م) أن المدة التي يقضيها الطالب لنيل أعلى شهادة وهي (التطويع) سبع سنوات ، ولكن يسمح للطالب المتمكن - بعد إجراء امتحان له - أن يتجاوز سنوات ويوضع في الصف الذي يؤهله له هذا الامتحان غير أنه في السنة التي سافر فيها ابن باديس أُلغي هذا النظام فأدى ذلك إلى إثارة طلاب الزيتونة فتراجعت إدارة الجامع عن المرسوم وأجّلت تطبيقه إلى السنة القادمة مما أتاح لعبد الحميد فرصة الإلتحاق بالسنة الخامسة - بعد أن أُجري له امتحان - فلم يدرس في جامع الزيتونة إلا ثلاث سنوات نال بمقتضاها شهادة التطويع (٣) .

أنهى عبد الحميد هذه السنوات الثلاث سنة (١٩٠٨م - ١٩١١م) وكان ترتيبه الأول بين جميع الطلبة الناجحين في تلك السنة كما كان الطالب

---

(١) محمد قطب واقعنا المعاصر ص ٢١٧ .

(٢) محمد قطب واقعنا المعاصر ص ١٧٦ .

(٣) الفاضل بن عاشور الحياة الأدبية والفكرية في تونس .

الجزائري الوحيد الذي تخرج من الزيتونة في تلك الدورة [١] .

والسنة الأخيرة من سنواته الثلاث مع سنة أخرى رابعة قضاهما معلما ومتعلما .

لوحظ عليه خلال دراسته في تونس أنه كان ذا إقبال على العلم عجيب إذ كان يجتهد ليل نهار دون فتور أو تراخ .

حدث عنه زميل له في الدراسة فقال :

" إنما تلقينا معا على العلامة الشيخ محمد النخلي دروسه .. في علم التفسير وكان عبد الحميد يناقش ويجادل ولا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا تصدى لها بحثا عميقا ، وكان الشيخ محمد النخلي كما كان كبار الطلبة يعجبون بتلك المناقشات الباهرة والمجادلات العميقة التي تفتح أمامهم آفاقا فسيحة من الفهم والإدراك والغوص العميق في معاني القرآن الشريف وإعجازه .. " [٢]

ويقول هو عن نفسه : " .. كنت أسهر الليل للدراسة والمطالعة مستعينا ببعض المنبهات لكني حين أحس أن النوم أصبح يغالبني ولم تعد المنبهات العادية تنفع في دفعه أعمد إلى مطرح أضعه على الأرض وأضع مرفقي على جانبه حتى إذا أخذتني تهويمة من الوسن [٣] زل بي مرفقاي أو أحدهما فيلامس الآجر البارد فأستيقظ وأجدد مطالعتي أو مراجعتي حتى أفرغ منها " [٤]

---

(١) أحمد حماني صراع بين السنة والبدعة ص ٢٣٣ .

(٢) أحمد توفيق المدني مجلة الأصالة العدد ٤٤ ـ أفريل ـ ١٩٧٧م ـ ص ٦٢ الجزائر .

(٣) هوّم الرجل : إذا هزّ رأسه من النعاس قال الشاعر :
"ما تَطعَم العينُ نوما غير تَهْوِيمِ" قال في الهامش "التَّهويم والتهوُّم : النوم الخفيف" الصحاح ٥/ ٢٠٦٢ ، ٢٠٦٣ ـ "الوَسَنُ : النعاس" الصحاح ٦/ ٢٢١٤

(٤) أحمد بن ذياب مجلة الأصالة العدد ٣٢ ـ أفريل ـ ١٩٧٦م ـ ص ١١٩

ولم يكن بمعزل عن الأحداث والأخبار التي ترد من الشرق بصفة خاصة بل كان على صلة بها عن طريق اطلاعه على الجرائد والمجلات الموجودة في تونس في تلك الفترة وهذا ما يخبر به أحد زملائه في الدراسة فيقول: " كنا نجتمع حول كتبي واحد هو محمد الأمين نطلع عنده على كل جديد أخرجته مطابع الشرق كنا نطالع كثيرا ولا نشتري لقلة المدد إلا قليلا ... " (١)

إلا أنه كان شديد الحذر في ميدان السياسة والفكر فلا يطلق لنفسه العنان للخوض مع الناس في أحداث العصر ولا يريد أن يشعر به أحد بأن له اهتمامات فكرية وآراء سياسية ، فكان يبذل أقصى ما عنده من جهد لإخفاء نواياه ، وستر طموحاته حتى لا تفشل مخططاته المستقبلية ، والتي يريد تنفيذها في الجزائر هذا ما ينقله زميله في الدراسة بقوله: " .إنني لا أستطيع أن أصف هذا الرجل العملاق وقد عرفته لِمَاماً بتونس ، ودارت بيننا أحاديث مختلفة كان الرجل فيها حذرا ... يشفق على مشاريعه العظيمة أن تخفق أو تصاب بنكسة ، نتيجة لكلمة عابرة ينقلها جاسوس أو لتعبير يساء فهمه أو نقله ." (٢)

كان يلاحظ عليه التزام الخلق في التعامل والاستقامة في الدين والحرص على أداء شعائر الإسلام في أوقاتها ، والتجافي عن مواطن الـ[illegible]ل والشبهات ، وكل ما يشين الخلق والرجولة والشرف . (٣)

---

(١) أحمد توفيق المدني مجلة الأصالة ـ العدد ٤٤ ـ أفريل ـ ١٩٧٧م ص٦٢ .

(٢) أحمد توفيق المدنى : حياة كفاح ـ ٤ أجزاء (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع) الجزائر ١٩٨٢م ج ٢ ص ١١ .

(٣) تركي رابح ـ مصدر سابق ص ١٦٠ .

وكانت دعوة الشيخ محمد عبده الإصلاحية قد وصلت إلى تونس بسبب زيارة الإمام لها مرتين كان في كل منهما يمكث يدعو ويعظ ويرشد ويبين معالم الطريق للخروج مما فيه المسلمون من ضعف وتأخر ، وبسبب وصول "المنار" بانتظام الأمر الذي أوجد حركة فكرية قوية في أوساط العلماء والطلاب والمفكرين بمختلف اتجاهاتهم ونزعاتهم (١) .

وأصبح لدعوة الشيخ أنصار ومن أبرزهم : الشيخان الزيتونيان الطاهر بن عاشور ، ومحمد النخلي ، وغيرهم من رجال الفكر غير الزيتونيين .

وبعد أن انتهى ابن باديس من دراسته في الزيتونة اتصل بهذين الشيخين اللذين كانا يحملان فكرة الإصلاح العبدوية وصاحبهما لمدة سنتين كانتا كافيتين للتأثر بهما (٢) .

وبعد أن أخذ النصيب الوافر من العلوم الشرعية والزاد الكافي من المعلومات الإصلاحية قفل راجعا إلى وطنه وهو يشعر بعظم المسؤولية التي أصبحت ملقاة على عاتقه بعد أن علق عليه وسام العلم بتلك الشهادة العظيمة من الجامع الأعظم ، والخواطر تجول بذهنه ، ونفسه تحدث نفسه : " لم يكن لي من غرض بعد أن أنهيت دروسي بتونس إلا الإنتصاب للتدريس والتعليم في مسقط رأسي " قسنطينة " ومحاولة تكوين حركة علمية واسعة لأني كنت أعتقد أن كل نهضة لم ترتكز على التربية والتعليم فمآلها الفشل .. " (٣) .

لا شك أن هذه الخواطر ظلت تجول بذهنه طول الطريق وهو متجه

---

(١) الفاضل بن عاشور مصدر سابق ص (٤٣ ـ ٤٥) .

(٢) عبد الحميد بن باديس جريدة البصائر ـ لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ـ السنة الأولى العدد ١٦ . الجزائر ـ الجمعة ٢ صفر ١٣٥٥ هـ ـ الموافق ٢٤ أفريل ١٩٣٦م ـ وانظر : عمار الطالبي (مصدر سابق) ج ٣ ـ ص ٧٥ .

(٣) مجلة لمحات ـ مصدر سابق ص ١٣ .

نحو مسقط رأسه قسنطينة حتى طرق على أهله الباب فإذا به يفاجئ أمه وأباه اللذين استقبلاه أحسن استقبال يرويه لنا فيقول " حينما ولجت باب الدار أسرع إلي أبي فعانقني وقال لأمي – في سرور وابتهاج – (ها هو قد جاءك عالما) فانطلقت من فيها زغرودة(*) .. مازلت أتذكرها ولن أنساها وشعرت من أعماقي منذ ذلك اليوم بمدى عبء المسؤولية التي أحملها على عاتقي بصفتي عالما وبما أثرت به في نفسي تلك المناسبة الباقية في ذاكرتي مادمت حيا .. " (١)

وبدأ من توه في العمل فاختار مسجدا من مساجد قسنطينة وهو الجامع الكبير وأخذ يشرح للناس " الشفا " للقاضي عياض غير أن الإمام المعين من جهة الحكومة الفرنسية لما رأى التفاف الناس حوله وتجمهرهم عليه بسبب تأثيره فيهم دب إليه الحسد فأطفأ عليه الأنوار ومنعه من التدريس (٢) فكان ذلك من بين الأسباب التي دفعته إلى الهجرة نحو المشرق الإسلامي فهاجر بعد أن استأذن أباه في السماح له بالحج .

---

(١) علي مرحوم . مجلة الأصالة – العدد ٢٤ – آب ١٩٧٥م – ص ١١٣ .

(٢) عمار الطالبي – مصدر سابق – ج ١ – ص ٨٠ .

(*) في لسان العرب : الزغردة : هدير يردده الفحل (الجمل) في حلقه انظر (اللسان) مادة (زغرد) . ويقال زغردت المرأة : أي رددت صوتها بلسانها في فمها عند الفرح . انظر (المعجم الوسيط) مادة (زغردة)

المبحث الثالث

الرحلة إلى المشرق

في السنة التي عزم فيها الشيخ حمدان الونيسي على السفر إلى الحجاز وهي سنة (١٩٠٨م) قبل ذهاب ابن باديس إلى الزيتونة أراد شيخه أن يصحبه معه في هجرته فمنعه والده لصغره وخشية بقائه هناك مع شيخه لشدة تعلقه به (١).

ولعل هذه الفكرة بقيت تراوده حتى رجع من تونس ولما منعه إمام الجامع الكبير من التدريس أثارت هذه الحادثة ما كان كامنا في نفسه من الشوق إلى لقاء شيخه الذي لو كان موجودا لما استطاع هذا الإمام منعه ، فكأنه شعر بنوع من الظلم والهوان وأنه في حاجة إلى مؤازر ولا مؤازر له إلا شيخه فكانت هذه الأمور من الأسباب في تصميمه هذه المرة على السفر إلى الحجاز ليلتقي بمعلمه ويبقى معه هناك متعللا بالحج ليسمح له والده .

إلا أن فكرة بقائه في الحجاز لم يكن مرتاحا لها كل الراحة بل كان يحس بوخز الضمير وتأنيب النفس كلما فكر فيها لعلمه بحاجة الجزائر إلى علماء مصلحين مجاهدين يحاربون الاستعمار .

وبالرغم من أن ابن باديس رجع من تونس بروح عملية إلا أنه صدم بالواقع المر والجو الخانق الذي يختلف عن واقع تونس المنفتح الفسيح فما كان منه إلا أن سافر متجها إلى الحجاز .

الحالة الدينية والثقافيه في الحرمين والحجاز بصفة عامة لم تكن تختلف كثيرا عن الحالة العامة للعالم الاسلامي وبكل اختصار أقتطف كلمتين لرجل عاش تلك الفترة في ذلك البلد وعلم بحكم معاشرته لأهل الحرمين المستوى العقلي والديني السائدين

---

(١) عمار الطالبي ـ مصدر سابق ـ ج ١ ـ ص ٧٤ .

وهذا الشخص هو الشيخ البشير الإبراهيمي.(١) يقول عن الناحية العلمية : " وطفت بحلق العلم في الحرم النبوي مختبرا فلم يرق لي شيء منها وإنما هو غثاء يلقيه رهط ليس له من العلم والتحقيق شيء .."(٢)

ويقول عن الناحية الدينية – وهو بصدد الحديث عن العلماء الجزائريين الذين رجعوا من الحجاز بفكرة الإصلاح – " وإن هذه الفئة التي رجعت من الحجاز بالهدي المحمدي الكامل قد تأثرت بالإصلاح تأثرا خاصا مستمدا قوته وحرارته من كلام الله وسنة رسوله مباشرة ولم تكن قط متأثرة بحال غالبة في الحجاز إذ ذاك لم يكن للإصلاح في ذلك الوقت شأن يذكر في الحجاز إلا في مجالس محدودة وعند علماء محدودين ."(٣)

وكلام الإبراهيمي حق لأن الحجاز في تلك الفترة لم تصل إليه دعوة الإصلاح التي أعلنها الشيخ محمد بن عبد الوهاب بسبب وجوده تحت حكم الأشراف المناوئين لهذه الدعوة وأهلها .

مكث ابن باديس في المدينة مدة ثلاثة أشهر التقى خلالها ببعض رجال العلم والإصلاح وأول هؤلاء :

البشير الإبراهيمي الذي كان قد سبقه إلى الحجاز بنية البقاء مع والده وأهله وما إن التقيا – وهو أول لقاء بينهما – وتعارفا حتى امتزجت روحاهما وتآلفا وقضيا تلك الأشهر الثلاثة كلها في السمر حول الدعوة والإصلاح والطرق الناجحة لتخليص الجزائر من براثن الاستعمار .

---

(١) كان ذلك سنة ١٩١٢م .

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية مصدر سابق ص ١٢٥ – ١٤٠ .

(٣) البشير الإبراهيمي – سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين دار الكتب الجزائر ١٩٨٢م – ص ٤٩ .

يقص علينا الإبراهيمي ذلك فيقول " ... كنا نؤدي فريضة العشاء الآخرة كل ليلة في المسجد النبوي و نخرج إلى منزلي فنسمر مع الشيخ ابن باديس منفردين إلى آخر الليل حين يفتح المسجد فندخل مع أول داخل لصلاة الصبح ثم نفترق إلى الليلة الثانية إلى نهاية ثلاثة الأشهر التي أقامها الشيخ بالمدينة المنورة ... كانت هذه الأسمار المتواصلة كلها تدبيرا للوسائل التي تنهض بها الجزائر ... ووضع البرامج المفصلة لتلك النهضات الشاملة التي كانت كلها صورا ذهنية تتراءى في مخيلتنا وصحبها من حسن النية وتوفيق الله ما حققها في الخارج بعد بضع عشرة سنة ... " (١)

وثانيهم حمدان الونيسي : معلمه في قسنطينة رآه فرأى فيه الرجل العالم كما كان يتصوره ويريده ، وقدمه فألقى درسا في المسجد النبوي على مشهد كثير من المسلمين فازداد إعجابا به لتمكنه من الخطابة وحسن الإلقاء مع العلم الغزير والفكر الثاقب ، والوعي الكامل فأشار عليه بالبقاء في المدينة تخلصا من تضييق الاستعمار وأعوانه ونفعا لرواد المدينة من شعوب العالم الإسلامي ، خصوصا بعد ما قص عليه قصة الإمام الذي منعه من إلقاء درسه في الجامع الكبير ، وكاد عبد الحميد أن ينزل رغبة شيخه لولا أن قدر الله له اللقاء مع شيخ آخر من علماء الحرم النبوي يسمى (حسين أحمد الفيض آبادي) الذي نصحه بالرجوع إلى الجزائر لمقاومة الاستعمار ، وهذا ما حكاه لنا ابن باديس بنفسه إذ يقول: " أذكر أني لما زرت المدينة المنورة واتصلت فيها بشيخي الأستاذ حمدان الونيسي المهاجر الجزائري وشيخي أحمد الهندي أشار عليّ الأول بالهجرة إلى المدينة وقطع كل علاقة لي بالوطن وأشار عليّ الثاني ـ وكان عالما

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ـ مصدر سابق ـ ص ١٤١ .

حكيما ـ بالعودة إلى الوطن وخدمة الإسلام فيه والعربية بقدر الجهد فحقق الله رأي الشيخ الثاني ورجعنا للوطن بقصد خدمته فنحن لا نهاجر ، نحن حراس الإسلام والعربية والقومية بجميع مدعماتها في هذا الوطن (١) .. " .

وبعد أن استفاد من بعض الشيوخ العلم والعمل أخذ على الإبراهيمي عهدا أن يلحق به في الجزائر (٢) وقبل سفره وقف في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ودعا الله تعالى أن يجعله من أنصار سنته ودينه (٣) وكأنه بهذا يعاهد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم على الجهاد في الجزائر لإعلاء كلمة الله .

ولدى مروره بمصر وهو عائد إلى الجزائر زار مفتي الديار المصرية في ذلك الحين الشيخ بخيت المطيعي (٤) في بيته وقدم له كتابا من الشيخ حمدان الونيسي فقال له " ذاك رجل عظيم " ثم كتب له إجازة في دفتر إجازاته ثم دخل الإسكندرية

---

(١) ابن باديس ، الشهاب ج ٨ م ١٣ ص ٣٥٥ ـ عدد اكتوبر سنة ١٩٣٧ .

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية ـ ص ١٤١ .

(٣) ابن باديس الشهاب ج ٢ ـ م ٩ ، ص ٩٢ ـ ٩٦ .

(٤) محمد بخيت بن حسين المطيعي الحنفي ، مفتي الديار المصرية ومن كبار فقهائها ولد في بلدة المطيعة (١٢٧١ هـ ـ ١٨٥٤ م) من أعمال أسيوط وتعلم في الأزهر واشتغل بالتدريس فيه وانتقل إلى القضاء الشرعي ١٢٩٧ هـ واتصل بالأفغاني ثم كان من أشد المعارضين لحركة الإصلاح التي قام بها الشيخ محمد عبده . عين مفتيا سنة ١٣٣٣ هـ ـ ١٣٣٩ هـ (١٩١٤ م ـ ١٩٢١ م) ولزم بيته يفتي ويفيد إلى أن توفي بالقاهرة سنة ١٣٥٤ هـ ـ ١٩٣٥ م له كتب منها " أحسن الكلام فيما يتعلق بالسنة والبدع من الأحكام ـ ط . الأعلام م ٦ ـ ص ٥٠ .

وزار الشيخ محمدا أبا الفضل الجيزاوي وهو شيخ علماء الإسكندرية فأجازه أيضا [(١)]

والغالب أن عدم مقابلته للإمام رشيد رضا كان بسبب غيابه عن مصر في هذه الفترة .

---

(١) ابن باديس ـ الشهاب : ج ١١ ، م ١١ ، ص ٦٠٦ ـ ٦٠٧ عدد فبراير سنة ١٩٣٦م .

المبحث الرابع

موجز جهاده حتى الوفاة

بعد عودته من الحجاز أول عمل شرع فيه هو التعليم فبقي يعلم طيلة عشر سنوات أكثر العلوم الشرعية واللغوية من تفسير وشرح حديث وعقائد وفقه وأصول ونحو وصرف وبلاغة وأدب وما إلى ذلك (١) .

وظهرت أثناء التدريس مواهبه ، وما أوتي من براعة وخبرة بتوفيق الله تعالى ، فهو مدرس ماهر ، لا يكل ولا يمل ، يدرس من بعد صلاة الفجر إلى صلاة العشاء مع قسط ضئيل للراحة والصلاة والغذاء ثم يعظ الناس في مسجده بعد صلاة العشاء إلى ما شاء الله (٢) .

فكان في تفسيره مفسرا ممتازا ، له استقلاله في الفهم والرأي ، يقرأ التفاسير ، ثم يجعل من عقله مصفاة لها ، فلا يخرج منها إلا ما صح ونفع ولاءم العصر وصدق الخبر ، مع حسن عرض ، واستنباط واع واستنتاج للعبرة وحث على سنة وإخماد لبدعة في أسلوب عصري ، وتطويل غير ممل وإيجاز غير مخل وبقي يفسر مدة خمس وعشرين سنة حتى أكمله إلقاء (٣) .

وكان في شرحه للحديث محدثا بصيرا ، شرح موطأ مالك رضي الله عنه كله حتى أكمله في مدة خمس عشرة سنة .

وكان في درس الفقه فقيها من الطراز الأول ، خبيرا بمذهب مالك متفقها

---

(١) البصائر: س١ - عدد ٤٧ - الجزائر - الجمعة ٢٦ رمضان ١٣٥٥هـ . ديسمبر ١٩٣٦م ص ٥

(٢) علي مرحوم الأصالة عدد ٢٤ - آب - ١٩٧٥م - الجزائر ص ٩٨ .

(٣) انظر مجالس التذكير .

على غيره من المذاهب ويمقت التعصب لمذهب معين ، وله فتاوى عظيمة ، تحس منه أنه إهاب مليء علما منظما (١) .

وهو في العلوم اللغوية أديب ذَوَّاقة ، يعشق الأدب القديم والحديث وينقده ويعطي لطلابه وزائريه زبدة ما قرأ ، ويوازن بين شعر وشعر وينشر الملح والطرائف وله باب في الشهاب بعنوان " من أحسن القصص والأدب " جمع فيه بين كل طريف وظريف .

وهو فوق هذا كله مُرَبٍّ ناجح كان يهتم بعقل الطالب ونفسه وبدنه يأخذ بيديه إلى المثل العليا والقمم السامقة حتى تخرجت على يديه جيوش إسلامية منظمة كانت هي المفجر الأول للثورة الجزائرية سنة ١٩٥٤ م ومسعرها على الاستعمار طيلة سبع سنوات .

جعل معهده ، فرعا لجامع الزيتونة ، واعترفت له الزيتونة بذلك تقديرا له ، وكان يرسل طلابه إلى تونس ومصر لإكمال دراستهم ، وقد عادوا من هناك علماء عاملين في الجزائر .

كان يجوب البراري والصحاري ويطرق القاصي والداني ، لا تفقده في شِعب أو واد أو قمة جبل أو مدينة أو قرية يعظ الناس ويرشدهم ، يحاضر ويخطب وكان خطيبا مفوها ، وواعظا مؤثرا .

وبعد أن أنهى عشر سنوات في التدريس والاتصالات والتحركات عبر أنحاء القطر شرع في الصحافة فأنشأ " المنتقد " سنة ١٩٢٥م ولما أوقفتها فرنسا أتبعها بـ (الشهاب) واشتغل في كتاباته بالسياسة ، وخاض حقلها في براعة وذكاء ، وناهض الاستعمار وما مالأه طول حياته رغم المغريات

---

(١) عمار الطالبي – ج ٤ – ص ٢١٦ ، (٤١١ – ٤٢٤) .

والمرهبات ، وكان يحتج باسمه الخاص في أحرج المواقف ، وباسم جمعية العلماء في المواقف العادية ، حفظا للجمعية وصونا لها من القلاقل ، وتفاديا لها من الكيد والبطش [1] .

وكان قويا في الحق ، لم يطق الاستعمار ذلك فعطل كل صحفه وبقيت الشهاب طويلا حتى الحرب العالمية الثانية [2] .

كان يطبع صحفه في مطبعة عربية أنشأها هو في قسنطينة تسمى المطبعة الجزائرية الإسلامية بقسنطينة [3] .

وكان في كتاباته الصحفية وقورا هادئا رزينا ، يختار الموضوع ويحدد المشكلة ويصف الدواء ويهتم بمصالح المسلمين في جميع أنحاء الدنيا ومشاكل بلاده في المقام الأول ، ويقرأ الصحافة المحلية والأجنبية ويشيد بالصحافة الإسلامية ، ويحمل على الباطل في غير هوادة ، وينتصف للحق أينما كان .

بعد مساع عديدة ، وجهود عظيمة ، وترتيبات معينة حانت الفرصة لتأسيس جمعية تتكفل بالعمل الإصلاحي ، ففي سنة ١٩٣١م ظهرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين للوجود برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي انتخب في غيبته تقديرا لكفاءته وخدمته وجهوده ، وكان لسان حالها " السنة " ثم " الصراط " .

---

(١) الميلي: ابن باديس وعروبة الجزائر – ص ١٥ .

(٢) عمار الطالبي – ابن باديس حياته وآثاره – ج ١ – ص (٨٤ – ٨٧) .

(٣) انظر (الشهاب) .

ثم " الشريعة " ثم " البصائر " تلك الصحف التي قتلها الاستعمار تباعا عدا الأخيرة (١)

أسس جمعيات أخرى منها : جمعية التجار المسلمين والجمعيات الإقتصادية لإنعاش الإقتصاد والمحافظة على الثروة ودعا أبناء الوطن إلى ولوج باب التجارة بشتى الطرق المشروعة ·

وأسس كذلك " اليتيم الإسلامي " (جمعية رعاية الأيتام) والجمعيات الخيرية لإنقاذ الطفولة والنشء من التشرد والضياع ·

وأسس النوادي في المدن لنشر الثقافة والتربية الدينية والوطنية وأنشأ الكشافة الإسلامية ·

عني بنشر الكتب السلفية فحقق (العواصم من القواصم) للقاضي أبي بكر بن العربي وكان يرغب في نشر غيره إلا أنه مات قبل تحقيق آرغباته ·

وظل يجاهد حتى سنة ١٩٣٦م حيث كتل الأمة الجزائرية في " مؤتمر إسلامي " وذهب هو بنفسه إلى فرنسا للمطالبة بالحرية والاستقلال

- حارب الطرقية والجمود ودعا وعمل على تنقية الدين من البدع والخرافات والأباطيل وحمل على كل انحراف حملة شعواء ولم تأخذه في الحق لومة لائم حتى عاد للدين صفاؤه ونقاؤه ·

وكان بينه وبين شيوخ الطرق والاستعمار والمتفرنسين صراع مرير لم يهدأ حتى مات وهو على أشده ·

من سنة ١٩١٢ م وهو يجاهد حتى سنة ١٩٤٠م إذ وافاه أجله

---

(١) عمار الطالبي - ابن باديس حياته وآثاره ج ١ - ص (٨٧) ·

وقيل مات مسموما وقيل إثر مرض قديم وهو مرض سرطان الأمعاء الذي كان يحس به ولا يكترث به لكثرة أعماله (١) .

---

(١) انظر توفيق محمد شاهين مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير أو تفسير ابن باديس ص (٧٠٨ ـ ٧١١) .

وانظر كذلك : الإبراهيمي ، مجلة مجمع اللغة العربية ، مصدر سابق ص ١٤٧ .

الفصل الرابع
شخصيته

المبحث الأول

عقيدته وعلمه

أولا ، عقيدته :ـ

الإمام ابن باديس سلفي في عقيدته. دعا إلى مذهب السلف في العقائد وعمل به أثناء تدريسه .وبرهان ذلك الكتاب الذي تركه بعنوان " العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية " وهو عبارة عن إملاءات أخذها عنه تلاميذه الذين درسوا عنه في الجامع الأخضر بقسنطينة ثم جمعها تلميذه الأستاذ محمد الصالح رمضان في هذا الكتاب وبهذا العنوان . والمطلع عليه يجد الإمام ابن باديس قد تكلم فيه عن أركان الإيمان الستة التي وردت في حديث جبريل ، وفصل فيها بطريقة لم أر من المعاصرين من سبقه إليها تتمثل في تقرير المسألة العقائدية بأسلوب سهل مفهوم للجميع بناء على القول الراجح وهو قول السلف في إيجاز غير مخل ثم يردفه بنصوص من القرآن والأحاديث الصحيحة المتوالية دون إدخال لكلام أحد بين نص وآخر وهكذا ....

ومن أراد الأمثلة فليرجع إلى هذا الكتاب الذي أكتفي في التمثيل بأخذ نموذج واحد منه ، قال رحمه الله : " عقيدة الإثبات والتنزيه :

" نثبت لله تعالى ما أثبته لنفسه ، على لسان رسوله من ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله ، وننتهي عند ذلك ولا نزيد عليه وننزهه في ذلك عن مماثلة أو مشابهة شيء من مخلوقاته .

ونثبت الاستواء والنزول ونحوهما ونؤمن بحقيقتهما على ما يليق به تعالى بلا كيف وبأن ظاهرها المتعارف في حقنا غير مراد .

لقوله تعالى : " وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ " (١) " تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ

---

(١) آل عمران آية ٢٨ .

كما في نفسك ".(١)

ولحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة منهم خُبَيب الأنصاري فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه قال:

وَلستُ أُبالِي حِينَ أُقتلُ مُسْلِماً :: عَلى أَيِّ جَنْبٍ كانَ فِي اللَّهِ مَصْرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ :: يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ (٢)

فلما قُتِلَ هو وأصحابه أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه خبرَهم يومَ أُصيبوا.

" رواه البخاري " (٣)

وآيات أخر كثيرة كلها أدلة (٤) ...

ثانيا: علمه

يحدد ابن باديس ما به يستحق الرجل أن يطلق عليه لقب إمام في العلم فيقول "إن العالم لا يكون إماما في الإسلام حتى يكون إماما في فقه العربية إماما في فقه القرآن إماما في فقه السنة إذ بدون هذه لا يفقه الإسلام، فتلك لغته التي بها أنزل وذلك كتابه الذي عليه يعول وتلك بيانه ممن به أرسل. وإن العلماء الذين بلغوا الذروة في هذه الثلاثة في كل عصر ومصر قليلون، وفي درجات هاته المنزلة

---

(١) المائدة آية ١١٦. ووجه الدلالة من الآية هو جواز إضافة النفس إلى الله تعالى مع الإيمان أن نفس الله تعالى لا تشبه نفس أحد من مخلوقاته بل هي تليق به سبحانه وتعالى ووجه الدلالة من الحديث هو قول خبيب رضي الله عنه (في ذات الله) أي اثبات الذات لله تعالى كما اثبتت الآية له النفس

(٢) قال ابن حجر: أوصال جمع وَصْل: وهو العُضْو والشِلْو: الجسد ... الممزع: المقطع ومعنى الكلام: أعضاء جَسَدٍ يُقَطَّع.

(٣) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري مجلد ٨ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٩م ص (٣٨٦ ـ ٣٨٧) باب غزوة الرجيع في كتاب المغازي

(٤) ابن باديس ـ العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية =

(١)
متفاوتون •

فهل حصل عبد الحميد بن باديس على هذه الثلاثة • ؟

يشهد البشير الإبراهيمي على أن ابن باديس قد أوتي وسائل التفسير :

" من ملكة بيانية راسخة وسعة اطلاع على السنة وتفقه فيها وغوص على أسرارها وإحاطة وباع مديد في علم الإجتماع البشري وعوارضه والإلمام بمنتجات العقول ، ومستحدثات الإختراع ، ومستجدات العمران [٢] •••

وبهذه الوسائل فسر القرآن الكريم كله حتى شهد له – أيضا – البشير الإبراهيمي بأنه بعد رشيد رضا انتهت إليه إمامة التفسير في العالم الإسلامي كله [٣] •

ومن هذا نستفيد أن ابن باديس أحد العلماء الكبار الذين لا يشك في إمامتهم في العلم والدين، والمطلع على ما تركه من آثار في التفسير والحديث والفقه والأصول والعقائد والدعوة والإصلاح والسياسة والإجتماع وغير ذلك يتحقق مما قلته •

= رواية وتعليق محمد الصالح رمضان – الشركة الجزائرية مرازقة بوداود وشركاؤهما – الجزائر ص ٧٣ •

(١) من كتاب " العواصم من القواصم " للقاضي أبي بكر بن العربي – تحقيق الشيخ عبد الحميد بن باديس – الجزء الثاني ص (أ) وهي المقدمة التي وضعها ابن باديس رحمه الله لهذا الكتاب واقتضاه الأمر أن يجعلها في ذيل الجزء الثاني من الكتاب المذكور •

(٢) مجالس التذكير ، جمع وترتيب محمد الصالح رمضان وتوفيق شاهين الناشر دار الكتاب الجزائري مطبعة الكيلاني الصغير – القاهرة • ص ٢٦ •

(٣) نفس المصدر – ص ٣٢ •

المبحث الثاني
آثــــاره

أثر عنه قوله : " شغلنا تأليف الرجال عن الكتب "[1] وهذا صحيح ، فالمطلع على حياة هذا الرجل يقف مشدوها لما يراه من نشاطه المتصل وكأنه مخلوق ليس للنـــوم عليه سلطـان ، وكل عارف بسيرته تراه معجبا بما آتاه الله من قوة على مواصلـــة الأعمال المتنوعة والنشاطات المختلفة في سبيل غايته. يقول الدكتور : محمود قاســم : " والحق أنني لا أعرف في القديم والحديث أستاذا يضارعه في هـــذا الإخلاص على ضعف في بنيته وكثرة في أعماله .. "[2] ولهذا لم يخلف كتبا كثيـــرة ولكن ما خلفه فيه قوة وعظمة وأصالة وتجديد وكفاح مجسد لجهاد هذا الإمام في سبيـل الله .

وكان الاستعمار يحرق كل شيء مكتوب من آثار ابن باديس إبان الثورة ومـن ثم فقد ضاع الكثير غير أن بعض الغيورين والمحبين دفن بعض المجلات في التراب ، وبعد سبع سنوات ونصف كشف عنها فبقي البعض وأكلت الأرضة والأتربة والطين البعض الآخـر . وهذا بعض ما خطه قلم الإمام أُخِذَ[3] مما بقي من المجلات :

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير : وهو عبارة عما بقي من تفسير القـرآن الكامل ، وطبع هذا الجزء مستقلا سنة ١٩٦٤م مطبعة الكيلاني الصغيـــر (القاهرة) .

(٢) مجالس التذكير من كلام البشير النذير : وهو عبارة عما بقي من شرحه للحديث طبع سنة ١٩٨٣م بوزارة الشؤون الدينية بالجزائر مطبعة دار البعث .

---

(١) توفيق محمد شاهين ـ مجالس التذكير ـ ص ٧١٦ .

(٢) الدكتور محمود قاسم الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحـــي لحرب التحرير الجزائرية ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٨م ـ ص ١٨ .

(٣) توفيق محمد شاهيـن ، مجالس التذكيـر ، ص ٧١٦ .

(٣) رجال السلف ونساؤه : قصص عن الصحابة والتابعين طبع سنة ١٩٦٥م .

(٤) عقيدة التوحيد من القرآن والسنة طبع سنة ١٩٦٤م .

(٥) أحسن القصص لم يطبع بعد .

(٦) رسالة في الأصول طبعت .

(٧) مجموعة كبيرة من المقالات السياسية والاجتماعية جمعت مع بعض ما سبق وطبعت في كتاب (ابن باديس حياته وآثاره) . للدكتور عمار الطالبي في أربع مجلدات الطبعة الأولى سنة ١٩٦٨م . دار اليقظة العربية

(٨) حقق كتاب العواصم من القواصم للقاضي أبي بكر بن العربي المالكي (١) سنة ١٩٢٨م — ١٣٤٧هـ وطبعه بمطبعته المسماة "بالمطبعة الجزائرية الاسلامية بقسنطينة" .

---

(١) المصدر السابق نفس الصفحة .

المبحث الثالث

آراء العلماء فيه وفي دعوته

إن أهمية الإطلاع على أقوال أهل العلم الموثوق بهم في الرجال الذين يحملون العلم الديني أو يقومون بالدعوة إلى الله ترجع إلى أنه لو ترك الناس دون تعديل أو تجريح لقال من شاء في دين الله ما شاء ولالتبس على العامة أمر هذا الدين واختلط عليهم الصادق بالكاذب والمحق بالدعي وضل أكثر الناس باتباعهم من يزعم أنه عالم أو داعية مجاهد وهذا ما حدث على مر العصور والمطلع على التاريخ الاسلامي يجد دليل ذلك في الواقع .

ومن هذا المنطلق رأيت أن أثبت في رسالتي هذه بعض أقوال أهل العلم والإصلاح في الإمام ابن باديس غير أني مع الأسف لم أعثر إلا على القليل ويرجع ذلك إلى أسباب منها :

(١) الحصار الذي كانت تضربه فرنسا على الجزائر بصفة عامة وعلى دعوة ابن باديس بصفة خاصة حتى لا يعلم أحد بما يقع في الجزائر ، ولتقطع صلة هذا الشعب بالشعوب العربية .

(٢) ضياع الوثائق والمطبوعات التي تتحدث عن هذه الدعوة عند حدوث الثورة الجزائرية سنة ١٩٥٤م لأن فرنسا كانت تتبع كل آثار جمعية العلماء وتعدمها لعلمها أنها هي التي أذكت نار الحرب .

(٣) عدم تنقل الإمام ابن باديس خارج الجزائر إلا إلى تونس .

(٤) عدم وجود كتاب وصحفيين إسلاميين في الجزائر إبان دعوة الإمام ، وإذا وجد منهم قليل فقد استشهد في الحرب وأعدمت وثائقه ، سواء كانوا من أنصاره أو المتعاطفين معه .

(٥) تشويه الأعداء لصورة دعوة جمعية العلماء مما أدى إلى إعراض الناس

عنها وعدم الإلتفات إليها بل شارك في هذا التشويه حتى بعض تلاميذ الشيخ ابن باديس و مؤيديه دون قصد منهم لذلك .

فلهذه الأسباب وغيرها كان أمر هذا الرجل مجهولا ودعوته غريبة في المشرق العربي وحتى في الجزائر ومن الصعوبة إذًا العثور على أقوال كثيرة أو صريحة في شخص الداعية مؤسس الجمعية ولذا فإني أعتبر أيّ قول في دعوته بمثابة القول فيه لأن الحكم على الفكرة حكم على صاحبها ، وهذه بعض آراء قيلت و مواقف اتخذت نعتبرها كدليل على نظرة هؤلاء العلماء لهذه الدعوة وصاحبها :

أولا : الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله .

جاء في افتتاحية العدد الأول من السنة الأولى من مجلة الشهاب المصرية التي أنشأها الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله بتاريخ أول محرم ١٣٦٧ هـ – وبعد أن ذكر ما قامت به " المنار " من جهاد في خدمة الإسلام – قوله :

" كما قامت مجلة " الشهاب " الجزائرية التي كان يصدرها الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله في الجزائر بقسط كبير من هذا الجهاد مستمدة من هدي القرآن الكريم وسنة النبي العظيم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وإنا لنرجو أن تقفو " الشهاب " المصرية الناشئة أثرهما وتجدد شبابهما وتعيد في الناس سيرتهما في خدمة دعوة القرآن وتجلية فضائل الإسلام على أن الفضل للمتقدم و فضل السبق ليس له كفاء ... " (١)

وقال أيضا في كلمة قدم بها لأحد المواضيع التي كتبت في شأن الشهاب الباديسي : " في هذا المقال يحدثنا الدكتور أبو مدين الشافعي الجزائري عن صحيفة " الشهاب " الجزائرية التي كان يصدرها الشيخ الجليل عبد الحميد بن باديس

(١) الشهاب المصرية : ص ٩

رحمه الله رحمة واسعة ... نقدمه للقراء أداء لحق الذكرى ووفاء للذين سبقوا بإحسان[1].

ثانيا : أبو الأعلى المودودي :ـ

لم أعثر على قول صريح للأستاذ المودودي ولكن الشيخ الإبراهيمي ينقل ما يدل على صلة هذا الإمام بدعوة ابن باديس ورأيه فيها . قال الإبراهيمي :
" والعلامة المودودي وثيق الصلة بجمعية العلماء الجزائريين من طريق جريدة البصائر متتبع لحركتها معجب بها وبأعمالها ، قوي الشعور بقرب المسافة بين مبادئها ومبادئه "[2].

ثالثا : الدكتور محمد البهي وزير الأوقاف ووزير شئون الأزهر السابق يقول رحمه الله :ـ

" والإمام (عبد الحميد بن باديس) رئيس جمعية العلماء بالجزائر وباعث النهضة الإسلامية العربية فيها ، وقائد الثورة ضد الاستعمار الفرنسي في هذه البلاد العزيزة واحد من العلماء المصلحين والمفكرين الرواد في الوطن الإسلامي العربي ، ومن الأسف لم يكونوا كثرة في العدد وإن كانوا قوة في الأثر .

إن عبد الحميد بن باديس لم يكن شخصا ، وإنما كان قبسا من نور الله كشف به ظلام الاستعمار في الجزائر وهدى به قوما كادت تضلهم ظلمته وتيئسهم محنته وأصبحوا بذلك أقوياء بعد ضعف ووحدة بعد فرقة وأصحاب أمل في الحياة بعد يأس منها "[3].

---

(١) " الشهاب " المصرية ص ٨٢ .

(٢) الإبراهيمي عيون البصائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، ج ٢ ـ ص ٦٩٢ .

(٣) مجالس التذكير ـ ص ٨ .

رابعا : محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي (١٢٩١ هـ — ١٣٧٦ هـ) .

مؤلف كتاب : الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي .

أرسل بنسخة من هذا الكتاب هدية للشيخ ابن باديس فبعث هذا الأخير بتقريظ أثبته مؤلف الكتاب بقوله : " تقريظ علامة القطر الجزائري وأشهر عالم مفكر فيه ورئيس علمائه كافة الشيخ عبد الحميد بن باديس المدرس بقسنطينة وصاحب مجلة الشهاب" (١)

خامسا : البشير الإبراهيمي :—

قال فيه البشير الإبراهيمي : " باني النهضتين العلمية والفكرية بالجزائر وواضع أسسها على صخرة الحق ، وقائد زحوفها المغيرة إلى الغايات العليا ، وإمام الحركة السلفية ، ومنشئ مجلة الشهاب مرآة الإصلاح وسيف المصلحين ، ومربي جيلين كاملين على الهداية القرآنية والهدي المحمدي وعلى التفكير الصحيح ومحيي دوارس العلم بدروسه الحية ومفسر كلام الله على الطريقة السلفية في مجالس انتظمت ربع قرن ، وغارس بذور الوطنية الصحيحة وملقن مباديها ، علم البيان ، وفارس المنابر الأستاذ الرئيس الشيخ عبد الحميد بن باديس أول رئيس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأول مؤسس لنوادي العلم والأدب وجمعيات التربية والتعليم رحمه الله الله ورضي عنه ." (٢)

---

(١) محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي — الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي — طبع على نفقة المكتبة العلمية لصاحبها الشيخ محمد سلطان النمنكاني — المدينة المنورة (١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧م) ج ٢ — ص ٥٦١ .

(٢) الإبراهيمي — عيون البصائر — ج ٢ — ص ٦٣٢ .

المبحث الرابع

تأثره وتأثيره

أولا : العوامل التي أثرت فيه وتتمثل في :ـ

(١) الأسرة :ـ

إن أسرة عبد الحميد كانت نموذجا للأسرة الإسلامية المهتمة بتربية أبنائها ، فزغرودة الأم فرحا بعودة ولدها عالما من تونس إلا دلالة على تدين هذه الأم وصلاحها وحبها للدين والعلم الشرعي وأنها تعمل على تشجيع ولدها على ذلك، ومعانقة الوالد لولده عند قدومه من تونس وتبشير أمه بأنه رجع إليها عالما لدليل واضح و برهان ساطع على ما كان يحمله ذلك الوالد من تصور سليم لمستقبل ولده ، وما كان يبذله من جهود في سبيل هذا المستقبل وقد مر تصريح عبد الحميد بهذا وهو يصرح أكثر فيقول :" ... إن الفضل يرجع أولا إلى والدي الذي رباني تربية صالحة ووجهني وجهة صالحة ورضي لي العلم طريقة أتبعها ومشربا أرده وقاتني وأعاشني وبراني كالسهم وراشني (١) وحماني من المكاره صغيرا وكبيرا وكفاني كلف الحياة ...." (٢) .

(٢) الأصل :ـ

ناحية أخرى أثرت في حياة ابن باديس ودفعته إلى الحرص في طلب العلم ، وهي مكانة أسرته في التاريخ لأن عزة النفس وإباءها والشعور بنبل الأصل و شرف النسب مما يبعث في الشخص الحرص على الإرتقاء إلى مستوى الأسرة ، وخاصة

---

(١) رشت السهم : إذا ألزقت عليه الريش ، ورشت فلانا : أصلحت حاله وهو على التشبيه انظر الصحاح ٣ / ١٠٠٨ .

(٢) الشهاب ج ٤ . م ١٤ . ص ٢٨٩ غرة جمادى الثانية وربيع الثاني ١٣٥٧ ـ جوان وجويليه ١٩٣٨م .

اذا كانت هذه الأسرة قد اندثرت وغابت شمسها فان فرعها يشتد عزمه على ارجاع مكانتها واعادة مجدها .

وهذا ما أشار اليه عبد الحميد نفسه في كلمة ألقاها بمناسبة المولد النبوي الشريف،(١) وبعد أن ذكر أن عظمة بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ومكانة رجاله أو رثته عظمة وعزة نفس وترفع عن الدنايا قال : " ولا ينكر تأثير اسم العائلة - وتاريخها ومشاهدة حال أفرادها - في أبنائها . وأنا أعرف شخصا ما قرأ العلم ولا اجتهد فيه - في أول أمره - الا لعلمه بأن أجداده كانوا علماء ، وهذه العظمة هي أساس القوة "(٢) وهو يشير بقوله - (أعرف شخصا) - الى نفسه .

ولا شك أن والده كان كذلك متأثرا بهذه الناحية في تعليم ابنه ليرفع رأس العائلة ويعلي من شأنها .

(٣) الشيوخ :-

أهم الشيوخ الذين أثروا في عبد الحميد :-

(أ) حمدان الونيسي(٣) : استفاد ابن باديس من هذا الشيخ العلم والعمل جميعا فالعلم يظهر في أنه بمجرد وصوله الى تونس وضع في السنة الخامسة وذلك لتفوقه وما هذا التفوق الا نتيجة للدروس التي أخذها على الشيخ حمدان الونيسي وأما العمل - وهو أهم - فان الشيخ حمدان الونيسى علم - ببصيرته النيرة - أن أعظم معرقل عن الجهاد في سبيل الله هو الوظيف ورأى في ابن باديس الذكاء والفطنة وعلامات تدل على

---

(١) مما لا شك فيه أن ابن باديس يعتقد أن الاحتفال بالمولد النبوى بدعة يجب انكارها ومحاربتها كبقية البدع التى رأيناه يحاربها لكنه كان يرى أن اجتماع الناس فى هذه المناسبة فرصة لا تعوض لوعظهم وارشادهم وتعليمهم الاسلام الصحيح من أجل هذا ترك الانكار على هذه البدعة - وهو ترك مؤقت - وهذا اجتهاد منه رحمه الله تعالى .

(٢) الشهاب : جـ ١٠ م ٥ - ص ٥ - ٨ . غرة جمادى الثانية ١٣٤٨ هـ - نوفمبر ١٩٢٩ م .

(٣) تقدمت ترجمته فى صفحة ١٧ .

أنه مهيأ لأن يكون داعية فأوصاه ألا يتوظف عند الدولة حتى لا يحرم الناس من هذا الرجل الملهم والمرشد المعلم .

وقد كان لهذه الوصية أثرها العظيم في حياة ابن باديس .

(ب) محمد النخلي القيرواني[1]: استفاد ابن باديس من هذا الشيخ من الناحية العلمية إذ هو الذي كان سببا في فهمه للقرآن على الطريقة التي سنراها في باب " منهجه في التفسير " وفهمه للقرآن هو الذي مكنه من الدعوة والإصلاح فكأن هذا الشيخ هو الذي خط لابن باديس طريق الدعوة كلها .

يذكر ابن باديس أثر هذين الشيخين في حياته العلميه والعملية فيقول:

" ... ثم لمشايخي الذين علموني العلم وخطوا لي مناهج العمل في الحياة ولم يبخسوا استعدادي حقه ، وأذكر منهم رجلين كان لهما الأثر البليغ في تربيتي وفي حياتي العملية ، وهما من مشايخي اللذان تجاوزا بي حد التعليم المعهود من أمثالهما لأمثالي إلى التربية والتثقيف والأخذ باليد إلى الغايات المثلى في الحياة أحد الرجلين الشيخ حمدان الونيسي ... ثانيهما الشيخ محمد النخلي ...

وإني لأذكر للأول وصية أوصاني بها وعهداً اعهد به إليّ وأذكر ذلك العهد في نفسي ومستقبلي وحياتي وتاريخي كله فأجدني مدينا لهذا الرجل بمنة لا يقوم بها الشكر ، فقد أوصاني وشدد علي أن لا أقرب الوظيفة ولا أرضاها ما حييت ولا أتخذ علمي مطية لها كما كان يفعله

---

(١) محمد النخلي من رجال العلم والاصلاح في تونس وصفه ابن باديس بأنه علامة نظار مفكر مستقل زعيم النهضة الفكرية لجامع الزيتونة وبأنه ثاني الرجلين اللذين يشار إليهما بالرسوخ في العلم والتحقيق في النظر =

أمثالي في ذلك الوقت ·

وأذكر للثاني كلمة لا يقل أثرها في ناحيتي العلمية عن أثر تلك الوصية في ناحيتي العملية وذلك أنني كنت متبرما بأساليب المفسرين وإدخالهم لتأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله ، ضيق الصدر من اختلافهم فيما لا اختلاف فيه من القرآن ، وكانت على ذهني بقية غشاوة من التقليد واحترام آراء الرجال حتى في دين الله وكتاب الله · فذاكرت يوما الشيخ النخلي فيما أجده في نفسي من التبرم والقلق فقال لي : اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة وهذه الأقوال المختلفة وهذه الآراء المضطربة يسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح ·

فوالله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة عن ذهني آفاقا واسعة لا عهد له بها ·" (1)

(ج) الشيخ أحمد الهندي :— (2)

يتميز هذا الشخص بالعلم والحكمة والشجاعة في الحق هكذا وصفه ابن باديس ولقبه بشيخه مما يدل على استفادته منه أثناء وجوده بالحرم المدني

= والسمو والاتساع في التفكير وقال: " مات الأستاذ النخلي على ما عاش عليه " ·

ت قبل سنة ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م عمار الطالبي ج ٣ — ص ٧٤ ، ١٧٣

(1) الشهاب ج ٤ - م ١٤ ص ٢٨٩ . جمادي الثانية وربيع الثاني ١٣٥٧ هـ .
ولم يأخذ ابن باديس بهذه النصيحة على إطلاقها بل استفاد منها في حدود ما يسمح به الشرع. انظر ص ١٤٩

(2) السيد حسين أحمد ، ولد في (بانكرمو) بليلة الثلاثاء الموافقة ١٩ شوال سنة ١٢٩٦ هـ قبل منتصف الليل بساعة ، وتلقى العلوم بجامعة ديوبند =

أما علمه فيشهد عليه قول الإبراهيمي أثناء حديثه عن علماء المدينة: " ولم أجد علما صحيحا إلا عند رجلين هما شيخاي: الشيخ العزيز الوزير التونسي والشيخ حسين أحمد الفيض آبادي الهندي فهما — والحق يقال — عالمان محققان واسعا أفق الإدراك في علوم الحديث وفقه السنة ... وأشهد أني لم أر لهذين الشيخين نظيرا من علماء الإسلام إلى الآن وقد علاسني واستحكمت التجربة وتكاملت الملكة في بعض العلوم ولقيت من المشائخ ماشاء الله أن ألقى ولكنني لم أر مثل الشيخين في فصاحة التعبير ودقة الملاحظة والغوص عن المعاني واستنارة الفكر والتوضيح للغوامض والتقريب للمعاني القصية ولقد كونت لكثرة مطالعاتي لكتب التراجم والطبقات صورة للعالم المبرز في العلوم الإسلامية منتزعة مما يصف به كتاب التراجم بعض مترجميهم

= الإسلامية وقدم إلى المدينة المنورة في سن الشباب ، وطلب عليه العلم كثير من أهلها وانتفع بتدريسه في المسجد النبوي خلق كثير وفي طليعتهم الشيخ أحمد بساطي نائب قاضي المدينة المنورة في فترة ما والعالم الجزائري الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وغيرهما وتوجه السيد حسين أحمد في أوائل الحرب العالمية الأولى من المدينة إلى مكة فالطائف بباعث عدم إفتائه بالخروج على الدولة العثمانية وكان هذا داعيا لنفيه إلى (مالطة) فأقام بها حتى وضعت الحرب أوزارها فرحل إلى الهند وجَدّ من ذلك الحين في رفع منار الإسلام ... ومواصلة نشر العلم وإيقاظ الهمم الخامدة والدعوة إلى الإصلاح الديني والإجتماعي وكان فصيحا في اللغتين العربية والأردية ، ثم شغل مشيخة علم الحديث النبوي بالجامعة التي تخرج منها ونيابة رئيس جمعية العلماء في دلهي وعضوية هذه الجمعية حتى مات بعد سنتي ١٩٥٢م — و ١٩٦٦م وقد ذكر الإبراهيمي ، درجة علمه انظر: المنهل شهر ١٢ / ١٣٥٨ هـ — ص ٩ وكتاب " السيد أحمد الفيض آبادي " عبد القدوس الأنصاري .

وكنت أعتقد أن تلك الصورة الذهنية لم تتحقق في الوجود الخارجي منذ أزمان ولكنني وجدتها محققة في هذين العالمين الجليلين (١) .

وأما حكمته فتشهد عليها نصيحته لابن باديس بالرجوع إلى الجزائر والعمل للإسلام والعربية ، ولذا وصفه بالعلم والحكمة (٢) .

وأما شجاعته في الحق فتشهد عليها ما وقع له قبل الحرب العالمية الأولى يوم أن كان مقيما في المدينة المنورة يدرس بالمسجد النبوي وذلك أنه طلب منه أن يفتي بالخروج على الحكومة العثمانية فأبى فكان جزاؤه النفي إلى جزيرة مالطة .

ومما يدل على أن هذا الرجل كان إضافة إلى العلم والحكمة والشجاعة – نير الفكر فطنا مطلعا على أوضاع العالم ، له إلمام بأحداث التاريخ ، متمكنا في مجال الدعوة والإرشاد ما جاء في محاضرة ألقاها سنة ١٣٥٨ هـ بالمدينة المنورة بعنوان : (بين الروح والجسد) بناها على آيتين تليتا من طرف تلميذين ، فأفاض في تفسيرهما مطبقا لهما على واقع المسلمين بتحليل عجيب لأمراض المجتمع وبيان علاجه ، وفي هذه المحاضرة تحقيقات علمية عالية وتطبيق واسع النطاق لأحوال الأمة الإسلامية على أحوال الأمم الغابرة واستعراض دقيق وعميق لأسباب تقدم المسلمين وتأخرهم وحياتهم الروحية والإجتماعية على ضوء القرآن والحديث ، والمطلع على هذه المحاضرة يتصور كأنها ألقيت اليوم في هذه الفترة التي نعيشها وليست محاضرة مضى عليها أكثر من خمسين سنة (٣) .

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية – مصدر سابق – ص ١٣٨ – ١٣٩ .

(٢) راجع صفحة ٣٤ .

(٣) انظر المنهل ذي الحجة ١٣٥٨ ص ٥

(د) الشيخ الطاهر بن عاشور[1] :-

هذا الشيخ الذى يلقبه ابن باديس بالعلامة المحقق الغواص النقاد شيخ الاسلام المالكي يبين لنا كيف تعرف به في تونس فيقول :"عرفت هذا الأستاذ في جامع الزيتونة ، وهو ثاني الرجلين اللذين يشار اليهما بالرسوخ فى العلم والتحقيق في النظر والسمو والاتساع في التفكير أولهما العلامة الأستاذ شيخنا (محمد النخلي القيرواني رحمه الله ، وثانيهما العلامة الأستاذ شيخنا (الطاهر بن عاشور) وكانا كما يشار اليهما بالصفات التي ذكرنا يشار اليهما بالضلال والبدعة وماهو أكثر من ذلك لأنهما كانا يحبذان آراء الأستاذ (محمد عبده) في الاصلاح ويناضلان عنها ويبثانها فيمن يقرأ عليهما وكان هذا مما استطاع به الوسط الزيتوني أن يصرفني عنهما وماتخلصت من تلك البيئة الجامدة[2] واتصلت بهما حتى حصلت على شهادة العالمية ووجدت لنفسي حرية الاختيار فاتصلت بهما عامين كاملين كان لهما في حياتي العلمية أعظم الأثر على أن الأستاذ ابن عاشور اتصلت به قبل نيل الشهادة بسنة فكان ذلك تمهيدا لاتصالى الوثيق بالأستاذ النخلي . . . ".

وكما أن اتصاله بهاذين الشيخين لمدة سنتين - وهما من رجال الاصلاح - قد مكنه من الاطلاع على الأفكار الاصلاحية فكذلك نجده قد تأثر

---

(١) رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس . مولده ووفاته ودراسته بها عين عام (١٩٣٢م) شيخا للاسلام ، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة ،له مصنفات مطبوعة من أشهرها " التحرير والتنوير " في التفسير ،و" مقاصد الشريعة ".
الأعلام : ٦/ ١٧٤ قال عنه ابن باديس " العلامة المحقق الغواص النقاد . . . "
انظر عمار الطالبى -ج ٣ - ص ١٧٣ .

(٢) الجمود فى جامع الزيتونة يتمثل فى : أن العلوم التى كانت تدرس وهي بين شرعية ولسانية ، والطريقة التى تدرس بها ، والكتب التى يعتمد عليها كل هذه الأمور كانت تستحق اعادة النظر لتصبح فى حالة يمكن بها تكوين رجال علم مصلحين وكان علماء الزيتونة والمشرفون على ادارته يحاربون كل من تكلم لهم عن اصلاح وضع التعليم . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ،كانوا يعيشون فى عزلة تامة عن مايدور حولهم من تغيرات وأحداث مما أدى بهم الى أن يجدوا أنفسهم متخلفين عن مواكبة حركات الاصلاح والسير فى ركابها أوالأخذ عنها ، وهذا التخلف جعلهم يحاربون كل تلك الحركات واصفين لها بالضلال والانحراف عما عليه الأمة (الرعاع) ويحذرون الطلاب ممن انتسبوا اليها . وهذا هو مقصود ابن باديس.

بالشيخ الطاهر بن عاشور تأثرا خاصا من ناحية ثانية كما حدث له مع النخلي في تأثره به من ناحية فهم القرآن، وتأثره هذا قد بينه لنا بقوله: " وإن أنس فلا أنسى دروسا قرأتها من ديوان الحماسة على الأستاذ ابن عاشور، وكانت من أول ما قرأت عليه فقد حببتني في الأدب والتفقه في كلام العرب وبثت فيَّ روحا جديدا في فهم المنظوم والمنثور وأحيت مني الشعور بعز العروبة والاعتزاز بها كما أعتز بالإسلام. "(١)

(هـ) البشير صفر :-

أحد زعماء تونس الإصلاحيين بدأ دراسته في الصادقية ثم التحق بفرنسا فأكملها ولما رجع إلى تونس نصب كرئيس للمدرسة الخلدونية وكان يُدرِّس بها التاريخ.

في العادة نجد الذين درسوا اللغات الأجنبية - في تلك الفترة - أو درسوا في المدارس الأوروبية قد تأثروا بالفكر الغربي وأصيبوا نتيجة ذلك بلوثة في الفكر وهزيمة في النفس وغبش في التصور وأدى بهم ذلك إلى الإنسلاخ كلية عن الدين أو الانحراف فيه، وهذه هي الحالة الغالبة فيمن هاجر إلى أوروبا للدراسة - إلا أن البشير صفر لم يحدث له هذا وبقي محافظا على دينه وقوميته بل ازداد قوة وحماسا في الدفاع عن الدين واللغة والحضارة العربية الإسلامية إذ كان يلقي دروس التاريخ والجغرافيا بفصاحة وشجاعة على فضح الحقائق الإستعمارية ورفع الستار عن الأخطار المحدقة بالعالم الإسلامي حتى صارت دروسه معهدا تتلقى فيه التوجيهات القومية قبل التوجيهات العلمية(٢)، ولم يكتف بهذه الدروس

---

(١) البصائر - السنة الاولى - عدد ١٦ الجزائر، الجمعة ٢ صفر ١٣٥٥ هـ - ٢٤ أبريل ١٩٣٦م.

(٢) الفاضل بن عاشور الحركة الأدبية والفكرية في تونس.

العامة بل كان يقصد الذين تأثروا بالفرنسة فيحذرهم ويدفع بهم إلى التعلق بقوميتهم والنظر إلى ما يجري في دمائهم من مجد العروبة والإسلام لا إلى ما يجري على ألسنتهم من لغة الفرنسيين وأفكارهم وكان يحاول جاهدا أن يضم هؤلاء إلى حظيرة عمله وأن يفتح نفوسهم لتلقي المثل العليا التي كان يجتهد في تحقيقها فكان يشجعهم على ترقية معارفهم العربية ويقربهم من الشعور بعظمة الماضي العربي التي كانوا عنها بمعزل وبذلك أمكن لكثير من هؤلاء الشبان أن يلتئموا مع حركة النهضة الإسلامية التي تزعمها هو نفسه ..(١)

يصفه أفضل من أرخ لتلك الفترة بقوله "ما كان البشير صفر إلا رجل الحماس المتناهي والثورة المتقدة على الوضع السيء الذي كانت عليه البلاد"(٢).

ولم تقتصر جهوده على وجوده داخل تونس بل حتى وهو خارجها فقد عُقد مؤتمر في باريس سنة ١٩٠٨م تحت رئاسة الوالي العام للجزائر (جونار) شارك فيه بعض زعماء تونس الإصلاحيين وكان المؤتمر يهدف إلى إدماج تونس في فرنسا، وبعد الخطاب الذي ألقاه الوالي العام قدمت تقارير من طرف رجال تونس ومن بينهم البشير صفر الذي كان "تقريره يدور حول: "المفاخرة بعظمة الحضارة الإسلامية وإظهار الاعتزاز بالعلم العثماني والتحدي للأوروبيين بأن الإسلام ليس لقمة سائغة"... وفيه احتجاج في لهجة عنيفة على عبث الحكومة بالأوقاف اذ جعلتها عش الاستعمار..(٣) إلى غير ذلك من الأفكار الخطيرة فأثيرت ضجة في الأوساط الاستعمارية.

فيظهر من هذا أن دراسته

---

(١) نفس المصدر ص ٨٣.

(٢) المصدر السابق ص ٤٧.

(٣) نفس المصدر السابق ص ٩٣ ـ ٩٤.

في فرنسا لم تؤثر على شخصيته ، ويرجع ذلك ــ والله أعلم ــ إلى كونه :
أولا: ذا صلة بحركة محمد عبده الإصلاحية إذ إن التونسيين كانت لهم علاقة بمحمد عبده
مدة إقامته في فرنسا ، فكانت العروة الوثقى تأتي إلى تونس بانتظام
ولعله التقى بالطلاب التونسيين هناك من وراء البحر ، مما أدى إلى اعتدال
في فكر المغتربين من التونسيين ، كل هذا كان سببا في وجود بذرة الإصلاح
في تونس ، مما رغب محمدا عبده في الزيارة فقدم سنة ١٨٨٤م ، وهي الزيارة
الأولى فأقام بتونس نحوا من أربعين يوما ، امتزج خلالها برجال العصابة
الإصلاحية ، وخلا في مجالس متواصلة بأعضاء العروة الوثقى ، وما كاد يغادر
تونس حتى ترك أثرا ظاهرا بين جموع المثقفين من الصادقية والزيتونة (1) .

كان من نتائج هذه الزيارة أن تألفت كتلة رجال النهضة من مجموع
النخبة الزيتونية الإصلاحية والعنصر الصادقي وأسست لها جريدة (الحاضرة)
سنة ١٨٨٨م وهي أول جريدة عربية غير رسمية وكان أبرز رجالها البشير صفر
وكانت تسير بحكمة مع الاستعمار وكانت دعوتها منصبة على فكرة إصلاح التعليم
ولما تهيأ الرأي العام لهذه الفكرة ، كونوا الجمعية الخلدونية لبث العلوم
العصرية باللغة العربية سدا للثغرة التي في تعليم جامع الزيتونة وأسسوا
المدرسة " الخلدونية " سنة ١٨٩٦م وأصبح البشير صفر رئيسا لها ونظمت فيها
دروس باللغة العربية في التاريخ والجغرافيا .... وهكذا تواصل النشاط
الإصلاحي فزادت روح النهضة الفكرية اتقادا ودعوتها انتشارا بتكاثر الصحف
الأسبوعية . فأصبحت الصحف على كثرتها ــ وجميع أصحابها من متخرجي
الخلدونية ــ تخوض في المباحث الدينية وتناصر الفكرة الإصلاحية وتنوه بمجلة

---

(1) الفاضل بن عاشور الحركة الادبية والفكرية ... ص ٤٣ ــ ٤٥ .

المنار وبالشيخ محمد عبده ، وصار عنوان الحركة الفكرية بتونس هو الإصلاح الديني واستمدادهـا من المنار وتوجيهات الشيخ محمد عبده ودروسه وكتبه .

وبلغ صدى هذه الضجة الهائلة . محمدا عبده بمصر فزار تونس زيارته الثانية سنة (١٩٠٣م) واهتزت لمقدمه أندية العلم والأدب والاصلاح (١) وكان أكثر الناس التفافا حوله والتحاما به هم رجال الخلدونية (وعلى رأسهم البشير صفر) وجريدة الحاضرة .. وكان محمد عبده إذا نصح يؤكد على أشياء مجملها .

(١) الجد في تحصيل العلوم الدينية والدنيوية من طرقها القريبة التي يرشد إليها في محاضراته .

(٢) الجد في الكسب وعمران البلاد من الطرق المشروعة الشريفة مع الاقتصاد في المعيشة .

(٣) مسالمة الحكومة وترك الاشتغال بالسياسة ليتم لهم ما يريدون من مساعدتها لهم على ما سبق ذكره . (٢)

من كل هذا يتبين لنا صلة البشير صفر بحركة الإصلاح وأنها صلة وثيقة وعلاقة متينة وأنه من زعماء الإصلاح في تونس ، ونفهم من هذا الأسباب التي ساعدت البشير على أن يصبح على ما هو عليه من الفكر النير والروح القومية والوطنية المتأججة .

والسبب الثاني الذي جعله كذلك : بعده عن الوظيف ، وهذا ما ذكره الشيخ عبد الحميد بن باديس لما زار تونس بمناسبة الاحتفال بإحياء ذكراه سنة ١٩٣٧م وطُلب منه أن يلقي كلمة فارتجل خطابا تاريخيا

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) عمار الطالبي ـ مصدر سابق ج ٣ ص ٥٧

هاما تعرض فيه لنقاط عديدة أقتصر على التي بين فيها كيف تأثر به ونواحي العظمة فيه . قال رحمه الله تعالى " ... وأنا شخصيا أصرح بأن كراريس البشير صغر الصغيرة الحجم الغزيرة العلم هي التي كان لها الفضل في اطلاعي على تاريخ أمتي وقومي والتي زرعت في صدري هذه الروح التي انتهت بي اليوم لأن أكون جنديا من جنود الجزائر . " (١)

ثم يذكر العوامل التي رفعته إلى درجة العظماء حتى أصبح يؤثر هو بدوره في تلاميذه ومن اتصلوا به مثل ابن باديس فيقول :

" أولا ـ أنه رجل بنى ما أخذه من العلوم باللغات الأجنبية على ثقافة إسلامية عربية ، وبذلك استطاع ان يخدم أمته وأن يحتل قلبها .

" ثانيا ـ أن هذا الرجل لما تخرج من الصادقية ورجع بما رجع به من الديار الباريسية من العلم عُرض عليه الوظيف فأباه ولم يقبله حتى أشار عليه بقبوله الوزير المرحوم السيد العزيز بوعتور فقبل إذ ذاك الوظيف وجعله آلة لنفع أمته لا آلة لإشباع معدته .

" ثالثا ـ أنه دخل الوظيف فلم يكن الوظيف له سجنا أو قفصا أو قيدا كما قد يقصد به إذ الوظيف لا يكون بمثابة السجن والقيد إلا للصغار من الناس لا لعظماء الرجال .. " (٢)

إن الناحية الفكرية والنفسية لأغلبية الناس في تلك الفترة تتميز بالجمود الفكري والتقليد وعدم الابتكار والابداع والانهزام النفسي والشعور بمركب النقص وانعدام الثقة بالنفس والركون إلى الذلة والمسكنة ، وحب الحياة أيّ حياة والحرص على طلبها ولو بالدين .

---

(١) الشهاب ج ٥ م ١٣ ص ٢٢٧ عدد يوليو (جويلية) سنة ١٩٣٧ م .

(٢) نفس المصدر والجزء والمجلد والصفحة .

فالجمود أفرز فئة تمثل طريقا مشوها لا نسب له بالإسلام الصحيح إلا في الاسم مما أدى إلى ظهور فئة أخرى تتنكر للدين كلية وللماضي وللأصل وزادها تنكرا انبهارها بزيف الحضارة الغربية وهؤلاء هم المتفرنسون الذين فروا من الدين والأصل فرارهم من الأسد وطلبوا الاندماج في الفرنسيين ، وما فعلوا هذا إلا بجهلهم لتاريخهم الناصع وماضيهم المجيد الذي حُجب عنهم بالصورة المشوهة التي قدمها أولئك الجامدون المبتدعون ، فأدى هذا إلى وجود ثقة مطلقة بكل ما عند الغرب والشك المطلق بكل ما عند المسلمين.

وهذا المرض لا يعالجه إلا رجل له عزة في نفسه بدينه وماضيه وقدرة على أن يبعث هذه العزة والثقة في نفوس غيره وهذا الذي وجده ابن باديس في البشير صفر والطاهر بن عاشور فهو يصرح أن كراريس الأول هي التي كان لها الفضل في اطلاعه على تاريخ أمته وقومه وزرعت فيه روح القومية والاعتزاز بالأصل . وقد عرف عن البشير صفر أنه رجل الحماس المتناهي ....
وأنه كان يشجع الطلاب على ترقية معارفهم العربية ويقربهم من الشعور بعظمة الماضي العربي ... ويدفع بهم إلى التعلق بقوميتهم والنظر إلى ما يجري في دمائهم من مجد العروبة والإسلام لا إلى ما يجري على ألسنتهم من لغة الفرنسيين.... وكانت تقاريره تدور حول المفاخرة بعظمة الحضارة الإسلامية .

ووجده أيضا في الطاهر بن عاشور الذي يصرح أن الدروس التي قرأها عليه من ديوان الحماسة هي التي ـ فضلا عن تحبيبها إياه في الأدب والتفقه في كلام العرب ... إلخ أحيت منه الشعور بعز العروبة والاعتزاز بها كما يعتز بالإسلام ....

وأما حب الدنيا والحرص على طلبها ولو بالدين فهو الذي عاق العلماء عن إحياء الأمة بما عندهم من علم فركنوا إلى الوظائف القاتلة ، وهذا الانحراف قد وجد ابن باديس علاجه في كلمة الشيخ حمدان الونيسي الذي أوصاه وشدد عليه في الوصية أن لا يقرب الوظيف ما بقي حيا .

واما الجمود الفكري والتقليد الأعمى وهو الذي وقف بالعلماء عن التحرر من قيود آراء البشر وأهوائهم مما أدى بهم إلى الرضى بالحالة التي عليها عامة الناس وعدم التفكير في الإصلاح فقد وجد ابن باديس علاجه في كلمة النخلي التي فتحت أمامه آفاقا لاعهد له بها .

فالونيسي فكه من القيد المادي وحرره من الغل الوظيفي ، والنخلي حل عنه القيد الفكري وابن عاشور والبشير صقر أعطياه قوة الدفع بالاعتزاز بالماضي المجيد والافتخار بالأصل العريق .

هذه كلمات قلائل صدرت من رجال عظماء وصحبها من الصدق والإخلاص والتوفيق ما جعلها تؤثر في نفس الطالب المهيأ لمثل هذه التوجيهات فتركت فيه أثرا كانت له نتائج على مستوى شعب خاض ثورة ضد أشنع استعمار فكتب الله له النصر بإذنه فأصبح حرا طليقا . يقول محمد إقبال : "أشد ما أثر في حياتي نصيحة سمعتها من أبي : يابني اقرا القرآن كأنه أنزل عليك" (١) .

(٤) زملاؤه من العلماء :-

وقد تأثر أيضا بزملائه في الجهاد مثل الشيوخ : البشير الابراهيمي (٢)

---

(١) مالك بن نبي - شروط النهضة - ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين - دار الفكر الطبعة الثالثة ١٩٦٩م .

(٢) ولد قرب مدينة سطيف سنة ١٨٨٩ م وتعلم في أسرته على يد عمه ثم هاجر إلى الحجاز أوائل ١٩١٢م فأكمل ما ينقصه من العلم على عدة

= شيوخ منهم العزيز الوزير التونسي وحسين أحمد الفيض آبادي الهندي وألقى دروسا في المسجد النبوي والتقى بابن باديس . وقبل الحرب العالمية الأولى سافر إلى الشام فاجتمع ببعض علمائها ومنهم بهجت البيطار ورشيد رضا وغيرهما ودرّس في الثانوية الوحيدة في دمشق وفي الجامع الأموي وبعد فترة رجع إلى الجزائر في حدود سنة ١٩٢٠م فبدأ العمل مع ابن باديس الذي ابتهج بقدومه ومن ذلك اليوم والصلة وثيقة بينهما حتى توفي ابن باديس فخلفه فيما كان يقوم به من أعمال وما يتقلده من مسؤوليات ، كان مكلفا في حياة ابن باديس بالمنطقة الغربية وعاصمتها تلمسان .

كان آية في الحفظ ، بليغ اللسان خطيبا مفوها ، أكثر خطبه ارتجالية واسع الاطلاع عارفا بجميع علوم الإسلام مبرزا في اللغة والتاريخ والسياسة وعلم الرجال .

- قال عنه ابن باديس " عجبت لشعب أنجب مثل فلان أن يضل في دين أو يخزى في دنيا أو يذل لاستعمار " ثم خاطبه بقوله " وَرِيَ بك زناد هذه الجمعية " سجن مرارا على يد الاستعمار الفرنسي وأوذي ثم بعد وفاة ابن باديس بقي يعمل كرئيس للجمعية حتى سنة ١٩٥٢م حيث هاجر إلى الشرق وبقي يعمل حتى الاستقلال ثم دخل فوجد ربائب الاستعمار قد قلّبوا له ظهر المجن فبقي في سجن حتى سنة ١٩٦٥م ومات بهم العدو والجديد . انظر : الإبراهيمي " أنا " . مجلة مجمع اللغة العربية المصرية العدد ٢١ السنة ١٩٦٤م من ص ١٢٣ إلى ص ١٥٥ .

(١) والطيب العقبي ، والعربي

(١) ولد ببلدة سيدي عقبة سنة ١٨٨٠م ثم هاجر مع أسرته إلى الحجاز =

التبسبى[1] وغيرهم الذين شاركوا في العمل الإصلاحي ، وقد جمع الله لابن باديس نخبة من العلماء الذين توفرت فيهم شروط لم تتوفر في غيرهم من الصدق والإخلاص والعلم والتآلف هؤلاء العلماء لا بد وأن يكون ـ بحكم وجودهم معه في العمل قد استفاد منهم كما استفادوا منه ووقع تأثر من الجهتين ويذكر هو ذلك فيقول: "... ثم لإخواني العلماء الأفاضل الذين آزروني في العمل من فجر

= وبالمدينة المنورة تعلم وتكون وشارك في الحياة السياسية هناك قبل الحرب وبعدها عُين مديرا لجريدة "القبلة" من طرف الشريف حسين ، عاد إلى الجزائر في سنة ١٩٢٠م وأظهر نشاطا منقطع النظير في محاربة البدع والضلالات وكان لموهبته الخطابية فعل السحر، رابط بنادي الترقي بمدينة الجزائر واعظا مرشدا منذ تأسيسه ، وعُين نائبا للكاتب العام لجمعية العلماء في سنة ١٩٣١م. هو صاحب جريدة الإصلاح (١٩٢٧م ـ ١٩٤٨م) وقد شارك بعمله الفياض في كل الصحف الإصلاحية توفي بداء السكر بمدينة الجزائر سنة ١٩٦٠م . انظر الدكتور محمد ناصر المقالة الصحفية الجزائرية الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ١٩٧٨م ج ٢ ـ ص ٢٣٠.

(١) ولد سنة ١٨٩٢م بمدينة "تبسة" تكون علميا في الزيتونة والأزهر شارك في الحركة الإصلاحية بقلمه منذ سنة ١٩٢٧م. ومنذ سنة ١٩٢٩م اشتغل بالتعليم العربي الإسلامي في "تبسة".

عُين كاتبا عاما لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بداية من سنة ١٩٣٥م وفي سنة ١٩٤٠م عُين نائبا للرئيس الذي أصبح آنذاك (البشير الإبراهيمي) دخل السجن عدة مرات لروحه الثورية وخطبه السياسية ـ وتحمل مسؤولية الجمعية بعد غياب الإبراهيمي في المشرق . اغتالته السلطات الاستعمارية في ظروف غامضة سنة ١٩٥٧م رحمه الله . انظر المصدر السابق ص ٢٢١. قال الدكتور الرفاعي فيه وفي ابن باديس: "كلا الرجلين كان طودا شامخا =

النهضة إلى الآن.. ويصفهم بأنهم :" مجموعة من العلماء وافرة الحظ من العلم عو تلفة القصد والاتجاه مخلصة النية متينة العزائم متحابة في الحق مجتمعة القلوب على الإسلام والعربية قد ألف بينها العلم والعمل ..."

ثم يؤكد مؤازرتهم له بقوله :" فهؤلاء هم الذين وري بهم زنادي وتأثل بطارفهم تلادي ..." (١)

(٥) الأمة :ـ

لا ينسى ابن باديس وهو يعدد العوامل التي أثرت في تكوين شخصيته ما للشعب الجزائري من فضل في هذا التكوين ، وينسب له من الفضل أضعاف

= في الشجاعة والجرأة والثبات على الحق " انظر: مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر ص ١٤ . قال البشير الإبراهيمي في العربي التبسي" الأستاذ الشيخ العربي التبسي نائب رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومدير معهد عبد الحميد بن باديس وصاحب الآثار الجليلة في العلم والإصلاح ، والآراء السديدة في السياسة والاجتماع والمواقف الجريئة في تمكين الإسلام والعروبة بالقطر الجزائري .

والأستاذ التبسي عالم عريق النسبة في الإصلاح ـ بعيد الغور في التفكير ، سديد النظر في الحكم على الأشياء ، عزوف الهمة عن المظاهر والسفاسف ..." انظر : الشيخ العربي التبسي مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر ـ جمع وتعليق : الدكتور شرفي أحمد الرفاعي ـ القسم الأول ـ كلمة للإبراهيمي على ظهر آخر ورقة من الكتاب .

(١) الشهاب ج ٤ ، م ١٤ ، ص ٢٨٨ ـ ٢٩١ .
غرة جمادى الثانية وربيع الثاني سنة ١٣٥٧هـ ـ جوان وجويلية ١٩٣٨م .
وتأثل : أي تأصل ، التلاد هو القديم الأصلي ، والطارف : نقيض التلاد وهو المستحدث . انظر : الصحاح ج ٤ / ١٦٢٠ ، ١٣٩٤ ـ وكذا ج ٢ / ٤٥٠ .

ما للعناصر الأخرى ، ويبين ما اتصفت به هذه الأمة من أوصاف جعلتها بهذه الدرجة ، فهي " أمة كريمة معوانة على الخير منطوية على أصول الكمال ذات النسب العريق في الفضائل والحسب الطويل العريض في المحامد " .

ويشرح لنا كيف كانت معوانة على الخير و ... إلخ عمليا عندما سددها الله في الفهم وأرشدها إلى صواب الرأي فتبينت قصده على وجهه وأعماله على حقيقتها فأعانت ونشطت بأقوالها وأموالها وبفلذات أكبادها (١)

(٦) القرآن الكريم :ـ

وآخر العوامل والذي فات جميع العوامل في التأثير هو القرآن الكريم ذلك الكتاب العظيم الذي فسره في مدة ربع قرن فاستظل بظلاله واستوحى منه منهج حياته ، وترسم خطاه في دعوته ، وناجاه ليله ونهاره يستلهمه ويسترشده ، فصاغ نفسه ، وهز كيانه ، واستولى على قلبه فكان لا يفتر من تأمله والعب منه واستمداد علاج امراض القلوب ، وأدواء النفوس منه حتى أحيى به أمة أشرفت على الهلاك وشعبا داهمه الفناء .

هذا القرآن الكريم يرجع ابن باديس إليه الفضل كله حيث يقول: " ثم الفضل أولا وأخيرا لله ولكتابه الذي هدانا لفهمه والتفقه في أسراره والتأدب بآدابه " (٢)

ثم يضيف وكأنه يقصد نفسه : " وإن القرآن الذي كون رجال السلف لا يكثر عليه أن يكون رجالا في الخلف لو أحسن فهمه وتدبره وحملت الأنفس على منهاجه "

ثانيا تلاميذه :ـ

إن معلما يمكث في التعليم مدة ثمان وعشرين سنة لا بد وأن يكون

---

(١) نفس المصدر والجزء والمجلد والصفحة .

(٢) نفس المصدر .

له تلاميذ كثر وكذلك كان لعبد الحميد بن باديس الذي كان يدرس عنه الطلاب مدة أربع سنوات ثم بعدها من كان قادرا على الاستزادة وراغبا فيها يلتحق إما بتونس أو بمصر لإكمال دراسته في الزيتونة والأزهر وإلا أمره باللحوق ببلده وكلفه بالتعليم فيها أو في غيرها وهكذا مدة ثمان وعشرين سنة حتى أصبح طلابه يعدون بالمئات ويقوم على التدريس معه نجباء المتخرجين من مدرسته أو من مريديه وعدد تلاميذه لا يحصر ، ذكر بعضا منهم (أكثر من خمسين) الشيخ أحمد حماني - وهو أيضا من تلاميذه - ثم قال: "وهم كثير جدا ... مات بعضهم واستشهد آخرون ، وما يزال بعضهم في الحياة ".(١)

وسأكتفي في التمثيل عن أثر تعليمه وتربيته لطلابه وتلاميذه بتلميذين هما (الشيخ مبارك الميلي ، والشيخ الفضيل الورثلاني) وهما من أنجب تلاميذه وأعظمهم ونعتبرهما نموذجا لبقية الطلاب .

(١) مبارك الميلي :-(٢)

ولد حوالي سنة ١٨٩٦م بجبال الميلية وحفظ القرآن في ميلة ، أخذ المبادئ عن الشيخ محمد بن معنصر الشهير بالشيخ الميلي ، ثم انتقل إلى قسنطينة ليتلقى العلم عن الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس ، ولما أنهى عنه التحق بتونس فأتم دراسته العليا والتقى فيها بكثير من نبغاء الجزائر ، ووفقه الله إلى الأخذ على كثير من مشائخ ابن باديس مثل محمد النخلي القيرواني ، والطاهر بن عاشور وغيرهما ورجع من تونس بشهادة التطويع (العالمية) عام ١٩٢٥م .

وعند وصوله مباشرة كلفه الإمام ابن باديس بالتعليم في قسنطينة فبقي

---

(١) أحمد حماني صراع بين السنة والبدعة . نشر دار البعث قسنطينة (الجزائر) ج٢ - ص٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٢) انظر : المصدر السابق ص١٤ والمقالة الصحفية : محمد ناصر : ج ٢ - ص ٢٢٥ .

مدة يعلم ويشارك بالكتابة في الجرائد : (المنتقد) ثم (الشهاب) فكان صاحب المقالات التي كان لها دوي كبير ، تارة بإمضائه الصريح وأخرى بإمضاء (بيضاوي) وأحيانا بدون ، فأحدث ضجة في وسط الناس لشدة تأثير أسلوبه في النفوس وبعد مدة أرسله الإمام عبد الحميد بن باديس إلى مدينة الأغواط أوائل سنة ١٩٢٧م ، فأنشأ بها مدرسة ، وكون تلاميذ من أحسن من تفخر بهم الجزائر ، ومكث هنالك بضع سنين .

ولما تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة ١٩٣١م . انتخب عضوا في مجلس إدارتها وأمينا لماليتها .

ثم عاد إلى ميلة ليكون قريبا من عرين الأسد ، وأخذ يكثر الإجتماع به واللقاء معه ويعينه في أعماله . والحق أن الصلة كانت بينهما وثيقة ، فلم يكن أعز عليه في حياته من الأستاذ ابن باديس كما لم يكن عند هذا أغلى عليه في حياته من تلميذه مبارك .

أسس في (ميلة) " مدرسة الحياة " ومسجدا جامعا تولى الخطابة والتدريس فيه وناديا للشباب ، وكان يقوم بالرحلات في ضواحي مدينته .

أسندت إليه رئاسة تحرير جريدة (البصائر) بعد أن تخلى عنها الشيخ العقبي فاضطلع بالمهمة وترك (أمانة المال) .

وكان لوفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة ١٩٤٠م وقع شديد على نفسه حتى أغمي عليه ، وكان الشيخ الإبراهيمي في هذه الفترة مبعدا في مدينة " آفلو " موضوعا تحت الإقامة الجبرية فقام الميلي بالأعمال التي كان يقوم بها ابن باديس ريثما يفرج عن الإبراهيمي ، فأشرف على الدراسة العلمية للطلبة حتى نهاية السنة الدراسية ، ولما كانت صحته في تدهور أسندت هذه المسؤوليات إلى الشيخ العربي التبسي ، وبقي هو يعمل على قدر طاقته .

وفي سنة ١٩٤٥م وافاه أجله رحمه الله تعالى .

آثاره :ـ

كل العلماء في تلك الفترة لم يستطيعوا الكتابة والتأليف لانشغالهم بالدعوة والإصلاح وتكوين الرجال إلا أن بعضهم ـ بما خصه الله تعالى من صفات ـ استطاع مع التكاليف الكثيرة والعظيمة أن يؤلف شيئا ما ، كالشيخ مبارك الميلي الذي مع ما قام به من الأعمال الجليلة التي سبق أن ذكرنا بعضها ترك تأليفين فريدين ومجموعة رائعة من المقالات في "المنتقد" و"الشهاب" و"السنة" و"الصراط" و"البصائر" ولو جمعت كلها لكانت سفرا جليلا ...

التأليف الأول هو " تاريخ الجزائر في القديم والحديث " ويبدأ من قبل الإسلام وينتهي عند ابتداء الدور العثماني : وشغله عن إتمامه أعمال جمعية العلماء الكثيرة الشاقة ، وتوالي أزمات المرض الخطير " السكري " وعدم علمه باللغات الأجنبية الضرورية لكتابة هذه الفترة من تاريخ الوطن ، وكانت كتابته تتميز بالدقة والتحقيق شهد له بذلك أمير البيان شكيب أرسلان بقوله : " ما كنت أظن أن في الجزائر من يفري مثل هذا الفري (١) " وشهد له أستاذه ابن باديس أنه بكتابه هذا قد أحيى أمة. وهذا الكتاب مطبوع .

التأليف الثاني : هو " رسالة الشرك ومظاهره " وهو عبارة عن مقالات تدور كلها حول البدع بشتى أنواعها وأقسامها مع الأمثلة الواقعية ، والأدلة القطعية على بطلانها ، كتبها في البصائر ثم جمعها في كتاب ، وصادق أعضاء جمعية العلماء على صحة ما فيه ، وهو مطبوع أيضا .

ثبوت تتلمذه على الشيخ ابن باديس :ـ

يقول الشيخ أحمد حماني عن مبارك الميلي " فكان أعظم تلاميذه والمنتفعين به والعاملين معه .. " .

---

(١) قال في الصحاح (٦/٢٤٥٤) فلان يفرى الفري اذا كان يأتي بالعجب في عمله . وأصل الفري القطع والشق .

ويقول الابراهيمي : "تلقى التعليم البدائي في بيلة والمتوسط في قسنطينة والنهائـــي في الزيتونة" .

علمـــه :ـ

يقول الابراهيمي : "يشهد كل من عرف مباركا وذاكره أو ناظره أو ساءله في شيء ممـــا يتذاكر فيه الناس أو يسأل فيه جاهله عالمه أو جاذبه الحديث في أحوال الأمم ووقائـــع التاريخ وعوارض الاجتماع أنه يخاطب منه عالما أي عالم ، وأنه يناظر منه فحل عراك وجذل[1] حكاك وأنه يساجل منه بحرا لاتخاض لجته وحبرا لاتدحض حجته وأنه يرجع منه إلى عقل متين ورأي رصين[2] ودليل لايضل ومنطق لايختل وقريحة خصبة وذهن صيود وطبع مشبوب[3] ، وألمعية[4] كشافة ، هكذا عرفنا مباركا وبهذا شهدنا وهكذا عرفه من يوثق بمعرفتهـــم ويرتاح إلى إنصافهم ويطمئن إلى شهادتهم ...

ويقول أيضا : "حياة كلها جدّ وعمل وحيي[5] كله فكر وعلم وعمر كله درس وتحصيل وشبـاب كله تلق واستفادة . وكهولة كلها إنتاج وإفادة ونفس كلها ضمير وواجب ، وروح كلهـــا ذكاء وعقل ، وعقل كله رأي وبصيرة ، وبصيرة كلها نور وإشراق ، ومجموعة خلال سديـــدة ، وأعمال مفيدة قلّ أن اجتمعت في رجل من رجال النهضات . فإذا اجتمعت هيـــأت لصاحبها مكانه من قيادة الجيل ، ومهدت له مقعده من زعامة النهضة .

ذلكم مبارك الميلي الذي فقدته الجزائر من ثلاث سنين ففقدت بفقده مؤرخهـــا الحريص على تجلية تاريخها المغمور ، وإنارة جوانبه المظلمة ، ووصل عراه المنفصمـــة ، وفقدته المحافل الإصلاحية ففقدت منه عالما بالسلفية الحقة عاملا بها صحيح الإدراك لفقـــه الكتـــاب والسنـــة واســـع الاطـــلاع علـــى النصـــوص والفهـــوم ، دقيـــق

---

(١) ما ينصب في المعاطن لتحتك به الابل الجربى ، والمراد هنا : أن له آراء سديـــدة لتجربتـــه

ـ انظر : الصحـــاح ٤ ، ١٦٥٤/٤ .

(٢) رصيـــن : أي محكم وسديـــد ، انظر : الصحاح ٥ ، ٢١٢٤/٥ .

(٣) في اللسان ١٤٨١/١ : رجل مشبوب إذا كان ذكي الفؤاد .

(٤) ألمعية : الألمعية: هي الذكاء ، قال في الصحاح : ١٢٨١/٣ ، الالمعي : الذكي المتوقد

(٥) قال في الصحاح : ٢٣٢٣/٦ "وزعموا أن الحيي بالكسر جمع الحياة ، قال العجاج : وقد ترى إذ الحياة حيي" اهـ وعرف عن الابراهيمي استعمال الغريب في اللغة فلعلـــه أراد ما جاء في الصحاح .

الفهم لها والتمييز بينها والتطبيق لكلياتها ، وفقدته دواوين الكتابة ففقدت كاتبا فحل الأسلوب جزل العبارة لبقا بتوزيع الألفاظ على المعاني ، طبقة ممتازة في دقة التصوير والإحاطة بالأطراف وضبط الموضوع والملك لعنانه . وفقدته مجالس النظر والرأي ففقدت مِدْرَهًا (*) لا يبارى في سوق الحجة وحضور البديهة وسداد الرمية والصلابة في الحق والوقوف عند حدوده . وفقدته جمعية العلماء ففقدت ركنا باذخا من أركانها لاكَلًّا (*) ولا وَكَلًا (*) ، بل نهاضا بالعبء مضطلعا بما حمل من واجب لا تؤتى الجمعية من الثغر الذي تكل إليه سده ، ولا تخشى الخصم الذي تسند إليه مِرَاسه (*) . وفقدت بفقده علما كانت تستضيء برأيه في المشكلات فلا يرى الرأي في معضلة إلا جاء مثل فلق الصبح .. " (١)

(٢) الفضيل الورثلاني (٢) :-

ولد في قبيلة بني ورثلان من دائرة سطيف بالجزائر ولما أكمل دراسته على عبد الحميد بن باديس بقسنطينة كلفه بمساعدته في التدريس ثم في سنة ١٩٣٦م بعثه ابن باديس إلى فرنسا ليقوم بالدعوة في أوساط الجزائريين المغتربين ويبث روح الوطنية فيهم ، فتتبعهم في مطارح اغترابهم وجمع شملهم على الدين وقلوبهم على التعارف والأخوة وجمع أبناءهم على تعلم العربية وأسس في باريس وضواحيها بضعة عشر ناديا ، عمرها هو ورفاقه الذين أمدته بهم جمعية

---

(١) الإبراهيمي - آثار محمد البشير الإبراهيمي - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - الطبعة الأولى ١٩٨١م - ١٤٠٢هـ - ج ٣ ص (٣٩ - ٤١) .

(٢) انظر : خير الدين الزركلي - الأعلام - ج ٥ - ص ١٥٣ ، وكذلك الفضيل الورثلاني الجزائر الثائرة - منشورات عباد الرحمن بيروت لبنان سنة ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م ص (٤٩٣ - ٥٠٥) وآثار محمد البشير الابراهيمي ج ٣ - ص ٢٢٣ .

(*) المدره : زعيم القوم والمتكلم عنهم : انظر الصحاح ٦/٢٢٣١

(*) الكل : العيال والثقل . انظر الصحاح ٥/١٨١١

(*) الوكل : العاجز الذي يكل أمره إلى غيره . انظر الصحاح ٥/١٨٤٦

(*) المراس : الممارسة والمعالجة . انظر الصحاح ٣/٩٧٧

العلماء بدروس التذكير للآباء والتعليم للأبناء والمحاضرات الجامعة في الأخلاق والحياة .. وقد نجح في أعماله كلها ..

هاجر إلى مصر سنة ١٩٣٨م للإستزادة من العلم والتجارب ...

سافر إلى اليمن في مهمة وقيل أنه كان له ضلع في مقتل الإمام يحيى حميد الدين ... ثم بقي خارج الجزائر متنقلا حتى قامت الثورة الجزائرية سنة ١٩٥٤م فاستقر في مصر والتقى به الإبراهيمي حيث كونا مكتبا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين أشرفا عليه وبقي الفضيل يجاهد بالقلم من أجل قضية الجزائر حتى توفي سنة ١٩٥٩م .

يحدث عنه الإبراهيمي فيقول : " لازم إمام النهضة عبد الحميد بن باديس سنوات ، فتأثر بمنازعه في الخطابة ومواقفه في حرب الضلال وسقيت ملكته بغيث ذلك البيان الهامي فأصبح فارس منابر ، وحضر اجتماعات جمعية العلماء العامة والخاصة ، فاكتسب منها الصراحة في الرأي والجراءة في النقد والاحترام للمبادئ لا للأشخاص ثم لابس السياسيين وغشي مجتمعاتهم فرأى من زيغ العقيدة وزيف الوطنية وانحلال الأخلاق ـ نقيض ما رأى من رجال جمعية العلماء فثار عليهم ودهوا منه بباقعة.(١) وكان الأستاذ الرئيس يقدر له ـ وهو في الحداثة ـ عواقب الرجال ويتخيل فيه مخايل الأبطال ويقول له كلما رأى منه مُخِيلَةَ صدق:(٢) "لِمِثْلِ هَذَا كُنْتُ أُحَسِّيكَ الحُسَا (٣) " .

آثاره :ـ

لم يكن متفرغا للكتابة والتأليف بل كان مشغولا بالجهاد عن طريق المحاضرات والأسفار والكتابة في الصحف وعن طريق البرقيات ، وهناك عدة مقالات له جمعت في كتاب بعنوان (الجزائر الثائرة) .

---

(١) الباقعة : الداهية . الصحاح ج ٣/ ١١٨٧ .
(٢) مُخيلة صدق : أي قرينة تدل على صدق ما توقعته منه قال في المصباح المنير : وعلى هذا فيقال رأيت مخيلة بالضم لان القرينة أخالت أي أحسبت غيرها انظر المصباح المنير ص ١٨٧
(٣) قال في الصحاح حسوت المرق حسوا والحَساء بالفتح والمد ——— ...>>

كان عنيفا في خطابه وكتابته له قدرة عجيبة على الخوض في المسائل السياسية ، لا يفتر عن العمل والتحرك فلا يكاد ينام إلا قليلا . شديد الغيرة على دينه ووطنه قوي الحماس ، بارعا في ربط الصلات والاستفادة من الناس .

ـــ ـــ ـــ وهو مثل يضـــرب للرجل يكرم غيره لما ينتظره منه من معروف عند الحاجة اليه
قال أبو هلال وأصله في الرجل يغذو فرسه اللبن ثم يحتاج اليه في طلب أو هرب فيقول له :
لهذا كنت أفعل بك ما كنت أفعله فجد فيه ولا تضعف عنه
انظر : جمهرة الأمثال لابي هلال العسكرى تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وعبد المجيد قطامش المؤسسة العربية الحديثة بمصر سنة ١٩٦٤ م (ج ٢ ص ١٨٥)

المبحث الخامس

بعض صفاته و شمائله

كان أبيض اللون مشربا بحمرة ، كث اللحية ، نحيل الجسم ، واسع العينين ، نافذ النظرات (١) ، مهيبا صارم الوجه عيناه تشعان نباهة وذكاء ، إذا نظر إليك تشعر كأنها غاصتا في أعماقك ، يترك فيك انطباعا أنك أمام جبل رغم قامته القصيرة وشعورا من وقاره الذي يغمر النفس هيبة وجلالا ، وقوته الروحية التي تطاول الظلمة والعتاة ـ بالأثر العميق الذي لا يمحى (٢)

يمشي بخطوات سريعة تنم عن الحيوية والجد والنشاط يلبس الصوف في الشتاء عدا القميص وكثيرا ما يرى وسط جلابته (٣) البيضاء كأنه " الشبح القادم من عالم آخر " ويفضل اللباس الوطني ويحرص عليه .

أكثر طعامه الخبز واللبن أو الكسكسي (٤) ويكتفي بالقليل منهما الذي

---

(١) توفيق محمد شاهين ـ مجالس التذكير ص ٧٠٦ .

(٢) محمد الصالح الصديق (عبد الحميد بن باديس: من آرائه ومواقفه . ص (١٥١ ـ ١٥٣) .

(٣) كساء يحيط بالجسد ويستره من الكتفين إلى الكعبين وله كمان يخرج منهما الشخص يديه وساتر للرأس على شكله متصل بها مفتوح من جهة الوجه والعنق .

(٤) طعام مغربي يصنع من العجين ويكون على شكل كريات صغيرة جدا .

يسد حاجته وإذا دعي إلى طعام وكان مختلفا يسأل صاحب البيت : إن كان الكسكسي موجودا ؟ فلا يزيد عليه وإلا فلا يأكل إلا من طعام واحد (١) .

يقضي سحابة نهاره في الجامع الأخضر ولا يذهب إلى بيت أبيه الثري ، فإما أن يؤتى له بطعام أو يبعث هو من يشتري له خبزا ولبنا ليتناوله في مقصورته .

في الليل ينام في ثالث دور في مسجد سيدي قموش مسجد أبيه الذي بناه على نفقته ويقضي أكثر ليله في المطالعة أو الصلاة بعد أن يكون قد قضى نصف الليل الأول في التدريس ومراجعة إدارة الشهاب واستقبال الناس (٢) .

وإذا أراد الترويح على نفسه يجلس في حوانيت بعض التجار المؤيدين للجمعية والمتعاطفين معها الذين يجد عندهم أعظم الاحترام (٣)

وأحيانا يخرج إلى الجبال وشواطئ البحار ولا يسبح وإنما ينظر إلى أصحابه الذين يسبحون ويشغل نفسه هو بالتأمل في عظمة خلق الله (٤)

كان معتدل المزاج مع ميل قليل إلى الحدة والغضب (٥) ويغلب

---

(١) علي مرحوم الأصالة مصدر سابق ص ١١٤ .

(٢) مقابلة مع أحد تلامذته يسمى (أسعيداني) .

(٣) محمد الصالح الصديق ص ٤٤ .

(٤) محمد الصالح الصديق : الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس من آرائه ومواقفه ص ١٤٤

(٥) مقابلة مع أحد تلامذته يسمى (علي شنتير) .

عليه الجد والوقار والحزم، يكاد يهلك نفسه بالعمل المتواصل والتكاليف الشاقة
أثناء خطابه يشير بذراعيه كليهما أو بيده اليمنى التي انتصبت
سبابتها نحو السماء كأنه يقسم أو يهدد ، وتصحب إشاراته نبرات صوت عالية
تخترق طبقات الفضاء .(١)

كان زاهدا عفيفا متسامحا ورعا رفيقا متفائلا ، أوابا توابا ، يعفو
عمن أساء إليه صارما في الحق له شجاعة نادرة ، وصبر على العمل ، لا ينطق
إلا في حق ، ولا يسكت على باطل ، يرد على معارضيه بطول نفس وسعة
صدر ، ويتناول الموضوع فيجلي جميع أطرافه — محافظا على مواعيده ،
ومنظما لأوقاته ذاكرا للقرآن ومتذكرا للسنة في فراغه وراحاته .(٢)

---

(١) الشهاب . ج ٥ — م ١٣ ص ٢٢٩ .
عدد يوليو (جويلية) سنة ١٩٢٧م .

(٢) توفيق محمد شاهين — مجالس التذكير ص ٧٠٦ .

الباب الثاني

منهج ابن باديس في التفسير وشرح الحديث

تمهيـــد

نظرة عامة على مناهج المفسرين في عصر ابن باديس :-

في الفترة التي سبقت عصر النهضة وهي فترة الركود والجمود ظل التفسير على ماهو عليه من جمع لأقوال المتقدمين ، أو شرحا لغامضها أو نقدا وتفنيدا لمـــا يعتوره الضعف منها ، أو ترجيحا لرأي على رأي، ظل هكذا فترة طويلة مليئة بالركـــود خالية من التجديد والابتكار (١) .

أما في بلاد المغرب فقد طال أمد هذه الفترة حتى عصر الإمام عبد الحميد ابن باديس ويمكن أن نعرف سمات المدرسة التفسيرية التي عاصرها ابن باديس مـــن خلال تفسير الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور المسمى بـ (التحرير والتنوير) وقد ذكـر أن تفسيره للقرآن كان طمعا في بيان نكت من العلم وكليات من التشريع وتفاصيل مـــن مكارم الأخلاق وقد اهتم في تفسيره ببيان وجوه الإعجاز ونكت البلاغة العربية وأساليـب الاستعمال ، واهتم أيضا ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض ، وتكفل ببيان ما يحيط به من أغراض السورة قبل مغادرتها ، واهتم أيضا بتبيين معاني المفردات في اللغـــــة العربية بضبط وتحقيق مما خلت عن ضبط كثير منه قواميس اللغة (٢) .

وعلى ضوء ما مر وما يجده القارئ في هذا التفسير يلاحظ أن الشيخ رحمـه الله تعالى يهتم بالناحية اللفظية كثيرا .

وأما في المشرق فبعد ذلك الركود والخمود ظهرت إرهاصات التجديـــــد مبكرا متمثلة في ثلاثة من أذكى علماء المسلمين وأوسعهم اطلاعا : الشوكاني والألوسي ، وصديق حسن خان ، على تفاوت بينهم في قوة النزعة الاستقلالية ، وفي القدرة علـــى

---

(١) الدكتور/ محمد حسين الذهبي ـ التفسير والمفسرون ـ دار الكتب الحديثة (ط ٢ ـ ١٩٧٦) ج ٢ ـ ص ٤٩٥ .

(٢) الشيخ الامام محمد الطاهر بن عاشور ـ (تفسير التحرير والتنوير) ـ الدار التونسية للنشر تونس والمؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر ـ ١٩٨٤ . =

التخلص من الصبغة المذهبية التقليدية، ثم جاء من يمثل المدرسة الشرقية في التفسير وهو الشيخ الإمام محمد عبده، ونكتفي ـ لتصوير خصائص مناهج المفسرين الشرقيين المعاصرين لابن باديس ـ بمنهجه وذلك لما له من صلة وثيقة بتفسير ابن باديس من حيث إن الأخير قد تأثر ـ إلى حد ما ـ بهذه المدرسة التي اعتمدت قواعد لمنهجها نجملها ونجمل الحديث عنها فيما يلي :[1]

أطلق بعض العلماء والمفكرين المعاصرين على إنتاج محمد عبده وتلامذته والاتجاه الذي انتهجوه اسم " المدرسة العقلية " إشارة إلى غلوهم في اعتمادهم على العقل ، في تعيين الحق وتحديده ، فهذه المدرسة لها منهجها الخاص في تفسير القرآن الكريم ، وهناك كتابات كثيرة حررت حول هذا الموضوع بتوسع واستقصاء ، يمكن لمن يريد التوسع الاطلاع عليها .

غاية التفسير عند أصحاب هذه المدرسة :ـ

بين الشيخ محمد عبده الغاية بأنها تفهيم المراد من قول الله تعالى وبيان حكمة التشريع في العقائد والأحكام بطريقة تجذب الأرواح وتسوقها إلى العمل والهداية الكامنة في كلام الله تعالى وبذلك يتحقق فيه معنى قول الله تعالى " هدى ورحمة "[2] ونحوها من الأوصاف.[3] قال الأستاذ الإمام

= ج ١ ـ ك ١ ـ ص (٥ ـ ٨) .

(١) البشير الابراهيمي ـ مجالس التذكير ـ ص ٣٢ .

(٢) الأعراف ٥٢ .

(٣) الدكتور محمد حسين الذهبي ـ التفسير والمفسرون ـ مصدر سابق ج ٣ ـ ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ .

" وهذا هو الغرض الأول الذي أرمي إليه في قراءة التفسير"(١) .

الأصل الذي تبني عليه قواعد منهج هذه المدرسة في التفسير :

هذا الأصل يتمثل في نقطتين :ـ

الأولى : الغلو في اتباع العقل وتحكيمه .

الثانية : الحرص على إبعاد الإسلام ومسائل الدين عن كل شبهة تجلب له نقدا او اعتراضا من أعدائه ويكون هذا بتنقيته وتصفيته مما علق بـه وهو ليس منه وإظهاره في مظهر يتوافق مع العقل والعلم ومن أدلة ذلك أنـه لما فسر الإمام محمد عبده قوله تعالى "إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً.." الاية(٢) تفسيرا مفاده : أنها ليست معجزة لموسى عليه الصلاة والسلام واستدل على ذلك بما يوافقه من التوراة(٣) قال الشيخ شلتوت : والذي حمل الأستاذ الإمام على هذا فيما نظن هو رغبته في التخلص من الاعتراض الذي ذكره بعض المستشرقين مع وجود النص التشريعي الذي أشار إليه بمعناه ونقله الشيخ رشيد رضا بنصه"(٤) .

وبخصوص نفي الإمام محمد عبده للسحر يعلل ذلك عبدالله شحاته بأنه حاول إظهار الإسلام أمام المستشرقين والمتمدنين بمظهر الدين العلمي المنهجي الذي لا يعترف بالسحر ولا بالخرافة(٥) .

أراد علماء هذه المدرسة أن يتخلصوا من قيود الجمود الفكري

---

(١) المصدر السابق ج ٢٢١ ، ٢٢٢ .
(٢) البقرة ٦٧ .
(٣) تفسير المنار ، لرشيد رضا ج١ / ص٣٤٧ .
(٤) تفسير القرآن الكريم للشيخ شلتوت ص٤٣ .
(٥) عبد الله محمود شحاته ، منهج الامام محمد عبده ، ص١٢٦ .

و التقليد الأعمى اللذين سادا في تلك الفترة بين رجال العلم الشرعي في الأزهر فامتطوا صهوة العقل بدون لجام فجمح بهم بعيدا عن نهج السلف الصالح ، فنيتهم حسنة وقصدهم سليم لأنهم يريدون بهذه القاعدة أن يبني المسلم دينه على العلم واليقين لا على الأوهام والظنون من الخرافات والأساطير ، لكن تطرفوا في تطبيق هذه القاعدة في التفسير حتى أصبح مصبوغا بصبغة العقل في أكثره و أبطلوا بالعقل أشياء كثيرة ، فبالعقل أوّلوا بعض معجزات الأنبياء وأبطلوها ، وبالعقل ردوا كثيرا من النصوص الحديثية الصحيحة وبالعقل ضيقوا نطاق الخوارق والغيبيات وردوها إلى المألوف المكشوف من سنن الكون ، وبالعقل خالفوا في كثير من المسائل جمهور العلماء وإجماعهم ، وبالعقل ذموا التقليد (*) ودعوا إلى الإجتهاد (*) ، وبالعقل حذروا من الإسرائيليات (*) وبالعقل وقفوا موقفا خاصا من السحر والجن والملائكة وأشراط الساعة ، وبالعقل أوّلوا النصوص .

يقول سليمان دنيا : "إن الذي لا شك فيه عندي أن الشيخ محمدا عبده قد تحيف في حق النصوص وبالغ في تقدير قيمة العقل" (١) ويقول أيضا عن الطريقة التي تفسر بها المدرسة العقلية النص الإلهي " فإن وَجَدَتْهُ متمشيا مع ما انتهى إليه العقل حمَدَتِ الظروف واطمأنت إلى نتيجة عملها وإن وجَدَتْهُ غير ذلك لم تجد صعوبة في أن تحمل النصوص حملا على أن تنزل عند إرادة ما ساق إليه العقل أَرَضِيَتِ النصوص ذلك أم أبت " (٢) .

ويقول سيد قطب رحمه الله " وقد تأثر تفسير الأستاذ الإمام محمد عبده لجزء عم بهذه النظرة تأثرا واضحا وتفسير تلميذه المرحوم الشيخ رشيد رضا و تفسير تلميذه الأستاذ الشيخ المغربي لجزء تبارك حتى صرح مرات بوجوب تأويل النص ليوافق مفهوم العقل وهو مبدأ خطر . فإطلاق كلمة العقل يرد الأمر

---

(١) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين تحقيق سليمان دنيا ص ٢٥ـ ٢٦

(٢) نفس المصدر و الصفحة .

(*) ذمهم للتقليد ودعوتهم للاجتهاد وتحذيرهم من الاسرائيليات كل هذه الأمور هي مآخذة عليهم باعتبارين : ١- باعتبار الدافع لها وهو مجرد توافقها مع نزعتهم العقلية ٢- وباعتبار توسعهم فيها حتى خرجوا بها عن حد الاعتدال .

إلى شيء غير واقعي فهناك : عقلي وعقلك وعقل فلان وعقل علان وليس هنالك عقل مطلق لا ينتابه النقص والهوى والشهوة والجهل يحاكم النص القرآني إلى مقرراته وإذا أوجبنا التأويل ليوافق النص هذه العقول الكثيرة فإننا ننتهي إلى فوضى»(١)

ويقول أيضا «إننا ندرك ونقدر دوافع المدرسة العقلية التي كان الأستاذ الإمام - رحمه الله على رأسها في تلك الحقبة .. ندرك ونقدر دوافعها إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات في تفسير القرآن الكريم وأحداث التاريخ ومحاولة ردها إلى المألوف المكشوف من السنن الكونية .

فلقد كانت هذه المدرسة تواجه النزعة الخرافية الشائعة التي تسيطر على العقلية العامة في تلك الفترة كما تواجه سيل الأساطير والإسرائيليات التي حشيت بها كتب التفسير والرواية في الوقت الذي وصلت فيه الفتنة بالعلم الحديث إلى ذروتها وموجة الشك في مقولات الدين إلى قمتها فقامت هذه المدرسة تحاول أن ترد إلى الدين اعتباره على أساس أن كل ما جاء به موافق للعقل ومن ثم تجتهد في تنقيته من الخرافات والأساطير كما تحاول أن تنشيء عقلية دينية تفقه السنن الكونية وتدرك ثباتها واطرادها وترد إليها الحركات الإنسانية كما ترد إليها الحركات الكونية في الأجرام والأجسام ..

ولكن مواجهة ضغط الخرافة من جهة وضغط الفتنة بالعلم من جهة أخرى تركت آثارها في تلك المدرسة من المبالغة في الاحتياط والميل إلى جعل مألوف السنن الكونية هو القاعدة الكلية لسنة الله فشاع في تفسير الإمام وتلميذه رشيد رضا وتلميذه عبد القادر المغربي - رحمهم الله جميعا - الرغبة الواضحة في رد الكثير من الخوارق إلى مألوف سنة الله دون الخارق منها وإلى تأويل بعضها بحيث يلائم ما يسمونه

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص ٢٠ .

" المعقول " وإلى الحذر والاحتراس الشديد في تقبل الغيبيات "(1)

وبهذا المنهج جنوا على كثير من المعجزات المتواترة والأحداث التاريخية الثابتة والنصوص الحديثية الصحيحة وعوالم أخرى غير عالم الإنس كالجن والملائكة. والوسائل التي اعتمدوا عليها في رد هذه الأمور كثيرة ومتنوعة : كمخالفة الظاهر ، أو جاءت مبهمة فلم يفصلها القرآن ، أو هي من الإسرائيليات ، أو تخالف العقل أو ما أثبته العلم ، أو جاءت على سبيل المثل لا على أنها وقعت أو تخالف ما أجمعت عليه مصادر أهل الكتاب .

ومع هذا فإننا لا ننكر ما أحدثته هذه المدرسة من تجديد مثل تنقية التفاسير من الخرافات والأساطير ، وتنزيل الآيات على الواقع بإخضاع حوادث الحياة القائمة لها إما بالتوسع في معنى النص أو بحمل الشبيه على الشبيه ، ومراعاة الوحدة الموضوعية في القرآن والسورة والمقطع ، وإبعاد كل ما يحول بين الشخص والغاية من إنزال القرآن ، ومحاربة الجمود الفكري والتقليد ، وعدم إغفال الاكتشافات العلمية وترك الإطناب فيما ورد مبهما . وغيرها من النواحي المحمودة في هذه المدرسة لولا التطرف الذي أصيبت به .

والآن بعد هذه الإلمامة الخفيفة بمناهج المفسرين في عصر ابن باديس سواء المغاربة منهم والمشارقة ننتقل إلى منهج ابن باديس في التفسير ونبدؤه بصلة ابن باديس بالقرآن والتفسير .

---

(1) في ظلال القرآن . سورة الفيل ـ ج ٦ .

الفصل الأول
صلة ابن باديس
بالتفسير وكيفية إنجازه

المبحث الأول

الدوافع إلى التفسير

إن فكرة تفسير القرآن الكريم لم تنشأ عند ابن باديس رحمه الله تعالى بطريقة فجائية ، أي بدون مقدمات ولا أسباب ، بل إن هناك عوامل أثرت في حياته فأوجدت عنده هذه الفكرة التي أصبحت فيما بعد هي الأساس لدعوته. ونظرة عابرة على مراحل حياته تكفي لاكتشاف هذه العوامل التي أثرت فيه حتى سلك هذا الطريق وهو تفسير القرآن وشرح الحديث وجعله لهما المنطلق والقاعدة لعمله في الاصلاح ومحاربة الاستعمار ، وتتلخص هذه العوامل في الأمور الآتية :ـ

(١) التربية الصالحة :ـ

وقد رأينا كيف اهتم والده به فرباه تربية صالحة ، وعنوانها تحفيظه القرآن الكريم في سن مبكرة وتأديبه على هديه ، وهذا ما قام به كل من الشيخين محمد المداسي وحمدان الونيسي[(١)] ، فتشبعت روح الفتى بحب القرآن وتعظيمه وتقديره من صغره ، ووعى قلبه مهمة هذا القرآن ووظيفته ، خصوصا بعد لقائه للشيخ الإمام محمد عبده عند زيارته لقسنطينة سنة ١٩٠٣م ، واهتمام الشيخ بالقرآن وفهمه والعمل به شيء معلوم ومشهور وهو الذي لا يحل بقطر أو ينزل بمصر إلا نصح بذلك وحث عليه ، وقد فسر (جزء عم) في زيارته هذه إلى الجزائر[(٢)] .

---

(١) انظر ص (٢٣)

(٢) عمار الطالبي ج ١ ـ ص ٧٤ ـ ٧٥ .

(٢) أثر تعلمه في تونس :ـ

أثناء دراسته بتونس ، ازدادت صلته بالقرآن وتفسيره ورجاله أكثر نظرا لقوة انتشار دعوة الشيخ محمد عبده " الذي جهر بدعوة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى الرجوع إلى الدين الصحيح والتماس هديه من كتاب الله ومن سنة نبيه ، وإلى تمزيق الحجب التي حجبت عنا نورهما وحالت بيننا وبين هديهما ...(١) " فوصلت صيحته هذه إلى تونس عن طريق " المنار " وغيرها ، وأصبح لهذه الدعوة أنصار يعتنقونها ويؤيدونها ويدافعون عنها وينشرونها في أوساط طلاب جامع الزيتونة (٢) ، ومن هؤلاء العالمان العظيمان اللذان تأثر بهما ابن باديس وهما (٣) : محمد النخلي والطاهر بن عاشور .

فتلك الدروس التي كان يتلقاها ابن باديس لم تكن لترضيه ، ولا لتلبي رغبته وتحقق أمنيته وتشبع طموحاته إذ كان يتطلع إلى من يأخذ بيده لما يريده من غايات وأهداف ، وكانت تجول بخاطره أفكار وتعتلج بصدره أسئلة وتحوم حول ذهنه شبهات ولا يجد من يجلس إليه فيفضي له بها .

وما إن أتم دراسته الزيتونية وأصبحت له حرية التصرف والاتصال بمن يحب حتى هرع إلى ذينك الشيخين ولازمهما سنتين كاملتين كانتا كافيتين للاستفادة منهما ، ومما يدل على أن جل اهتمامه كان مصروفا لدراسة كتاب الله تعالى والتفقه فيه ما ذكره لنا من مذاكرته شيخه النخلي عما يجده في نفسه من أثر اختلاف المفسرين في كتاب الله (٤) ، فهو دليل واضح على أن ابن باديس كان مهيئا

---

(١) البشير الابراهيمي ، سجل مؤتمر جمعية العلماء ... ص ٤١ .
(٢) انظر ص (٢٩)
(٣) انظر ص (٢٩)
(٤) انظر ص (٥٣)

لخدمة كتاب الله تعالى وقصر حياته على فهمه وتفهيمه ، فتلك الكلمة التي سمعها من شيخه المفسر هي التي فتحت له آفاقا واسعة لا عهد له بها ، وقد تأثر بهذه الكلمة في حياته العلمية أي في أسلوب ومنهج تفسيره للقرآن الكريم وهذا ماذكره لنا هو بنفسه حين قال " لم يكن لي في حياتي العلمية من لا فت للقرآن إلا تلك الكلمة التي سمعتها من الشيخ النخلي ، وقد فعلت فعلها في نفسي وأوصلتني في فهمي إلى الدرجة التي تحمدونها اليوم ... "(١)

(٣) كـ[illegible]ـان لزيارته المشرق العربي والتقائه ببعض عظمائه أثر في انتهاجه هذا المنهج ، خصوصا إذا عرفنا أن الشيخ حسين أحمد الفيض آبادي — وهو من شيوخ ابن باديس — من رجال التفسير البارعين فيه ، ويظهر ذلك من محاضرة ألقاها في المدينة المنورة سنة ١٣٥٨ هـ فسر فيها بعض الآيات الكريمة تفسيرا يجمع فيه بين التحقيق في المعنى الصحيح والتطبيق على الواقع، والمطلع على هذه المحاضرة يجد مصداق قول الإبراهيمي فيه وفي صاحبه العزيز الوزير التونسي : " ولم أجد علما صحيحا إلا عند رجلين هما شيخاي : الشيخ العزيز الوزير التونسي والشيخ حسين أحمد الفيض آبادي الهندي فهما — والحق يقال — عالمان محققان واسعا أفق الإدراك ...(٢) " إلى أن يقول " وأشهد أني لم أر لهذين الشيخين نظيرا من علماء الإسلام إلى الآن(٣) وقد علاسني واستحكمت التجربة وتكاملت الملكة في بعض العلوم ولقيت من المشائخ ماشاء الله أن ألقى

---

(١) ابن باديس — مجلة الشهاب — ج ٤ — م ١٤ ، ص ٢٨٨ — ٢٩١ غرة جمادى الثانية وربيع الثاني سنة ١٣٥٧ — جوان وجويلية سنة ١٩٣٨ م .

(٢) انظر ص (٥٤) .

(٣) قال هذا الكلام بعد سنة ١٩٦٠م .

ولكنني لم أر مثل الشيخين في فصاحة التعبير ودقة الملاحظة والغوص عن المعاني واستنارة الفكر والتوضيح للغوامض والتقريب للمعاني القصية ..." (١)

لا شك أن اللقاء بمثل هذين الشيخين من مثل ابن باديس لا يكون لقاء عابرا بل يحدث عنه أثر وأي أثر .

هذه بعض العوامل التي يعتقد أن تكون هي المؤثرة في حياته العلمية والعملية والتي دفعت به الى إختيار تفسير القرآن وشرح الحديث كأساس للدعوة والإصلاح .

---

(١) البشير الإبراهيمي مجلة مجمع اللغة العربية المصرية عدد (٢١) سنة ١٩٦٤م ص ١٢٧ .

المبحث الثاني

كيفية إنجازه

في الجامع الأخضر [1] بقسنطينة كان الإمام ابن باديس رحمه الله يلقي دروسه الشرعية واللغوية والتي تربو على العشرة ، وتصل أحيانا إلى ثلاثة عشر درسا في اليوم الواحد [2] .

يبدأ بعد صلاة الصبح حتى صلاة العشاء ، وآخر هذه الدروس هو درس التفسير الذي يلقيه إثر صلاة العشاء مباشرة ، ويؤخره لهذا الوقت حتى يشهده أكبر عدد من الناس لتفرغهم وعدم انشغالهم بأي عمل، وهكذا جميع أيام الأسبوع عدا الخميس والجمعة فهما يوما راحة [3] .

وأول من يحضر درس التفسير طلاب الإمام كلهم وهم الذين قصر حياته على تعليمهم وتربيتهم وإعدادهم للجهاد ، ومعهم جمهور غفير من

---

(١) الجامع الأخضر أحد الجوامع الثلاثة الجمعية الباقية بعد الاحتلال الفرنسي بقسنطينة . أسسه حسين بكر بن حسين ١١٤٩ ـ ١١٦٧ هـ ١٧٣٦ ـ ١٧٥٤ م فحكم البلاد ١٧ عاما مقتفيا أثر سلفه في سياسة التعمير والانشاء وكما كان له ولع بالعمارة كانت له عناية فائقة بالعلم .. بنى الجامع الأخضر للتعليم كما هو منقوش فوق مدخل بيت الصلاة وهذا نصه : " أمر بتأسيس هذا المسجد العظيم وتشييد بنائه للصلاة والتسبيح والتعليم .... حسين باي " بدأ ابن باديس تعليمه فيه سنه ١٣٣٢ هـ ١٩١٣ م . انظر عمار الطالبي (ابن باديس حياته وآثاره) ج ٤ ـ ص ٣٦ .

(٢) علي مرحوم ، مجلة الأصالة عدد ٢٤ ـ شهر أوت ١٩٧٥ م ـ الجزائر ص ٩٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٩٦ .

سكان مدينة قسنطينة وضواحيها زهاء الألفين حتى يغص بهم الجامع الأخضر.(١)

غالبا ما يبدأ الإمام رحمه الله درسه بقوله " الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوب إليه ونستغفره ، من يهد الله فلا مضل له ....

أما بعد فإن أصدق الحديث ...." إلخ وهي الكلمة التي كان يفتتح بها صلى الله عليه وسلم خطبه (٢) . ثم يتلو الآيات التي يريد تفسيرها من حفظه ، وبعدها يشرع في الشرح ارتجالا بلسان عربي مبين ، مع بيان ناصع وأسلوب بلاغي في منتهى الوضوح فيسود جو من الخشوع والوقار حتى لكأن على رؤوس الحاضرين الطير إجلالا لكتاب الله وتأثرا بما كان يبدو عليه الشيخ المفسر من مظهر روحاني يأخذ بالألباب ويملأ النفوس سكينة واطمئنانا (٣) .

فكان بهذه الدروس يبلغ ما شاء الله له أن يبلغ من نفوس السامعين وقلوب الواعين وعقول الحاضرين .

ويستغرق هذا الدرس ساعة في الغالب وقد ينقص أحيانا (٤) .

وظل الأستاذ يفسر القرآن بهذه الكيفية مدة خمس وعشرين سنة فقد شرع فيه شهر ربيع سنة ١٣٣٢ هـ الموافق ١٩١٣ م وانتهى منه ربيع سنة ١٣٥٧ هـ الموافق ١٩٣٨م (٥) . وتفسيره " على تلك الطريقة في مدة تساوي — بعد حذف الفترات — المدة التي أكمل الله نزوله فيها ، يُعد في نظرا لمتوسمين

---

(١) عمار الطالبي ج ٣ — ص ١٩٤ .

(٢) النسائي ١٥٣/٣ ك: صلاة العيدين ب: كيف الخطبة . ومسلم بشرح النووي ج ١٥٧/٦ ك : الجمعة ، ب : خطبته صلى الله عليه وسلم .

(٣) علي مرحوم مجلة الأصالة عدد ٢٤ شهر أوت ١٩٧٥م الجزائر ص ٩٧ .

(٤) نفس المصدر ص ٩٦ .

(٥) الشيخ أحمد حماني — من محاضرة مصورة عندي ألقاها في الملتقى الثالث عشر للفكر الإسلامي بالجزائر — بتاريخ (١١ — ٧) شهر ٩ سنة ١٩٨١م ص ١٠ .

(٦) لا يتم ذلك إلا إذا كانت الفترة المحذوفة هي شهر في كل سنة والمعروف عن ابن باديس أنه كان يتوقف عن التدريس مدة أطول . انظر : ص ٩

ايذانا من الله برجوع دولة القرآن الى الوجود ، وتمكين سلطانه في الأرض ، وطلوع شمسه من جديد ، وظهور المعجزة المحمدية كرة أخرى في هذا الكون ... "(١)

والفترات التي كان يتوقف فيها عن التدريس هي الخميس والجمعة من كل أسبوع وأشهر الصيف من كل سنة اذ كان يبدأ التدريس أول السنة الدراسية ويتوقف آخر الربيع لينصرف الطلاب الى قراهم ومدنهم ، ويخرج هو الى نواحي القطر للدعوة والارشاد .

وبهذا العمل الجليل يكون ابن باديس رحمه الله هو الوحيد في القطر الجزائرى الذى ختم تفسير القرآن الكريم كله درسا بعد أبي عبد الله الشريف التلمساني الذى ختمه هو أيضا درسا في المائة التاسعة.(٢)

المبحث الثالث : الاحتفال بالختم :-

وبمناسبة هذا الحدث العظيم أقيمت حفلة رائعة دامت ثلاثة أيام (١٢ - ١٣-١٤) ربيع الثاني ١٣٥٧ هـ الموافقة (١١- ١٢ - ١٣) يونيو ١٩٣٨م ، شهدت خلالها قسنطينة أفواجا من العلماء والطلاب والأعيان ومحبي العلم والدين من سكان القطر الجزائرى جاءوا من كل حدب ينسلون ،فكان هذا الحفل عيدا اسلاميا خالدا(٣) اجتمع فيه الناس تحت راية القرآن تغمرهم الفرحة وتحيط بهم البهجة وتنزل عليهم السكينة والرحمة ، فأشرقت الأنوار وعم السرور ، والتقت القلوب قبل تلاقي الأجساد فتآلفت ، وهرع أهل قسنطينة الى ديارهم ففتحوا

---

(١) البشير الابراهيمي ، مجالس التذكير ص: ١٣ ، وفي كلامه مبالغة .

(٢) البشير الابراهيمي ،العقائد الاسلامية ـ مصدر سابق : ص ١٨.

(٣) لم يفعل السلف مثل هذا ،وهو معارض بحديث عائشة رضي الله عنها (من أحدث فى أمرنا هذا ماليس منه فهو رد) ولهذا فهو بدعة لأن الأعياد الاسلامية ثلاثة : عيد الفطر وعيد الأضحى وعيد الاسبوع الذى هو يوم الجمعة (انظر تنبيه أولى الأبصار ٢٤٧) للدكتور صالح بن سعد السحيمي ،وكل مازاد عن هذا فهو محدث قال ابن تيمية رحمه الله تعالى : (فما أحدث من المواسم والاعياد فهو منكر ؛ انظر (اقتضاء الصراط المستقيم ص٢٦٧) ويقول أيضا فى نفس الصفحة (سائر الأعياد والمواسم المبتدعة فانها من المنكرات المكروهات سواء بلغت الكراهة التحريم أو لم تبلغه) .

أبوابها لضيوف القرآن واستقبلوهم أحسن استقبال ، وأضفوا عليهم من كـرم الضيافة ولطف البشاشة ما يكاد يفوق ما عرف عن كرم العرب الأوائل .(١)

وألقيت في هذا الحفل كلمات ، وتليت أشعار وترنم الشباب المسلم بأحلى الأناشيد ، ويجسد لنا الشيخ البشير الإبراهيمي صورة هذا الحفل بقوله:

" ثم كان الاحتفال بختمه بمدينة قسنطينة دليلا على انسياق الأمة الجزائرية المسلمة إلى القرآن واستجابتها لداعي القرآن ، واجتماع قلوبها على القرآن ، وشعورها بلزوم الرجوع إلى هداية القرآن ... ولا معنى لذلك كله إلا أن إحياء القرآن على الطريقة السلفية إحياء للأمة التي تدين به " إلى أن يقول " .. ثم جاءت حفلات التكريم للأستاذ المفسر ، ولوفود القرآن ، وما لقيته تلك الوفود من سكان الحاضرة القسنطينية من صدق الحفاوة وكرم اللقاء ، وبشاشة المظهر ، وتهلل الأسرة ، وإكرام المثوى ، وإغداق الضيافة .... آية بالغة على أن القرآن فعل فعله في تلك النفوس .. "(٢)

وأنشد يومها أمير شعراء الجزائر محمد العيد خليفة رحمه الله قصيدة نقتطف منها هذه الأبيات

بمِثلكَ تعتزُّ البلادُ وتفخَرُ	وتزهرُ بالعلم المُنير وتَزْخَرُ
طَبعْتَ على العِلْمِ النُّفوسَ نَواشئا	بمَخبرِ صِدْقٍ لا يُدانيه مَخْبَرُ
نَهَجْتَ لها في العِلْمِ نَهجَ بَلاغَةٍ(٣)	وَنَهجَ مُفاداةٍ(٤) كأنكَ حَيْدَرُ(٥)

---

(١) علي مرحوم . مجلة الثقافة العدد ٥٦ . شهري مارس وابريل ١٩٨٠م ص ٣١

(٢) مجالس التذكير ص ١٣ .

(٣) إشارة إلى كتاب (نهج البلاغة) المنسوب للإمام علي رضي الله عنه والذي شرحه محمد عبده .

(٤) إشارة إلى مفاداة علي بن أبي طالب رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة عندما نام في مكانه .

(٥) حيدر : اسم للأسد ، وهو أيضا من أسماء أمير المؤمنين علي رضي الله عنه . انظر اللسان ٤/ ١٧٤ عند كلمة (حدر) . وقال علي رضي الله عنه يوم خيبر: « أنا الذي سمتني أمي حيدره » انظر مختصر صحيح مسلم للمنذري - تحقيق الألباني - لجنة احياء السنة ص ٣٢٠ ك : الهجرة والمغازي

وَدَرْسُكَ فِي التَّفْسِيرِ أَشْهَى مِنَ الجَنَى (١) :: وَأَبْهَى مِنَ الرَّوْضِ النَّضِيرِ وَأَبْهَرُ
خَتَمْتَ كِتَابَ اللَّهِ خَتْمَةَ دَارِسٍ :: بَتَبْصِيرِهِ حَلَّ العَوِيصِ مُيَسَّرُ
فَكَمْ لَكَ فِي القُرْآنِ فَهْمٌ مُوَفَّقٌ :: وَكَمْ لَكَ فِي القُرْآنِ قَوْلٌ مُحَرَّرُ
قَبَسْتَ مِنَ القُرْآنِ مِشْعَلَ حِكْمَةٍ :: يُنَارُ بِهِ السِّرُّ (٢) اللَّطِيفُ وَيُبْصَرُ
وَبَيَّنْتَ بِالقُرْآنِ فَضْلَ حَضَارَةٍ :: أَقَرَّ لَهَا كِسْرَى وَأَذْعَنَ قَيْصَرُ
أَعِدْ يَا ابْنَ بَادِيسَ الحَدِيثَ وَأَبْدِهِ :: بِأَنْعُمِكَ اللَّاتِي بِهَا أَنْتَ تُؤْثَرُ
قَسَنْطِينَةُ اعْتَزَّتْ بِأَنَّ وُفُودَهَا :: عَلَى الخَيْرِ فِيهَا وَالهُدَى تَتَجَمْهَرُ
وُفُودُ سَلَامٍ لَا وُفُودُ خُصُومَةٍ :: تُبَشِّرُ فِيهَا بِالرِّضَى وَتُبَشَّرُ
وَتُهْدِي إِلَى عَبْدِ الحَمِيدِ تَحِيَّةً :: كَزَهْرِ الرُّبَى أَوْ أَنَّهَا مِنْهُ أَعْطَرُ
وَتَهْنِئَةً مِنْهَا بِخَتْمِ مُفَسِّرٍ :: مِنَ القَوْلِ لَا يَسْمُو عَلَيْهِ مُفَسِّرُ (٣)

وكان للشيخ عبد الحميد رحمه الله تعالى في ذلك اليوم كلمات تنم عن شدة تواضعه أمام إخوانه من العلماء وأبنائه من الطلبة نقتصر على بعضها .

قال رحمه الله تعالى :

" أيها الإخوان

أنتم ضيوف القرآن ، وهذا اليوم يوم القرآن ، وما أنا إلا خادم القرآن فاجتماعكم على تنائي الديار وتباعد الأقطار هو في نفسه تنويه بفضل القرآن ودعوة جهيرة إلى القرآن في وقت نحن أحوج ما تكون إلى دعوة المسلمين إلى قرآنهم فهل علمتم أنكم باحتفالكم هذا قمتم بواجبات أهونها ما سميتموه احتفالا بشخصي ؟

---

(١) ما يجتنى من الشجر وغيره . انظر اللسان ١٤/١٥٥
(٢) الشيء الخفي . انظر اللسان ٤/٣٥٦

(٣) على مرحوم — مجلة الثقافة عدد ٥٦ مارس — أبريل — ١٩٨٠ ص ٣٤ .

إن أقوال خطبائكم و شعرائكم كلها في الحقيقة إشادة بيوم القرآن ووفود القرآن وكل ما لي من فضل في هذا فهو أنني كنت السبب فيه ...[1] "

ثم يذكر العوامل التي أثرت في حياته وكونت شخصيته حتى أصبح عالما ليخبر الناس أن ما وصل إليه من العلم والحكمة ليس نابعا من ذاته ولا فضل له فيه وحده ، بل له أسباب ، وهو بهذا يريد أن يصرف الناس عن مدحه وإطرائه .. مع بيان الطريق لمن أراد أن يكون مثله .

قال رحمه الله تعالى :

" أيها الإخوان

أنا رجل أشعر بكل ما له أثر في حياتي . وبكل من له يد في تكويني وإن الإنصاف الذي هو خير ما ربى عليه امرؤ نفسه - ليدعوني أن أذكر في هذا الموقف التاريخي العظيم بالتمجيد والتكريم كل العناصر التي كان لها الأثر في تكويني حتى تأخذ حظها مستوفى من كل ما أفرغتم على شخصي الضعيف من ثناء ومدح بالقول والفعل . فإني أشهد الله أنكم بالغتم في التحفي بي والتنويه بأعمالي ، وأشهد أن هذا التحفي عسير عليَّ جزاؤه ، ثقيل عليَّ حمله ، فلعلي إذا ذكرت هذه العناصر ووفيتها حقها من الاعتراف لها بالفضل توزعت حصصها من التنويه ، وتقاضت حقوقها من الثناء الذي أثقلتم به كاهلي ، فأكون بذلك قد أرضيت ضميري وخففت عن نفسي[2] . "

ثم يعدد هذه العناصر التي أثرت فيه وقد سبق الكلام عنها في الفصل الرابع من الباب الأول[3] .

---

(١) عطار الطالبي - ابن باديس حياته وآثاره - ج ٢ - ص ١٣٦ .

(٢) نفس المصدر ص ١٣٨ .

(٣) انظر ص (٥٠) .

المبحث الرابع : ما بقي من تفسيره :ـ

نظرا لعدم كتابة ابن باديس لما كان يفسره ولم يقم أحد من تلامذته بهذه المهمة ، فإن تفسيره كله ضاع ، ولم يبق منه إلا جزء يسير وهو عبارة عن تفسير آيات متفرقات من سور مختلفة والمعوذتين كتبها بنفسه كتصدير لمجلته الشهاب تأسيا بالسيد رشيد رضا الذي جعله قدوة له وسلفا (١) .

وكانت هذه الآيات التي فسرها ونشرها في مجلته الشهاب تصدر تحت عنوان " مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير" (٢)

وأول آية فسرها في " الشهاب" كانت في شهر شعبان ١٣٤٨ هـ ـ يناير ١٩٣٠م وآخر آية كانت في محرم سنة ١٣٥٨ هـ ـ ١٩٣٩م .

وهذا القدر كاف لإعطاء صورة واضحة عن طريقته في التفسير ومنهجه في فهم كتاب الله وتفهيمه .

يقول الإبراهيمي رحمه الله تعالى: " لم يكتب الأخ الصديق أماليه في التفسير ولم يكتب تلامذته الكثيرون شيئا منها ، وضاع على الأمة كنز علم لا يقوم بمال ، ولا يعوض بحال ، ومات فمات علم التفسير وماتت طريقة " ابن باديس" في التفسير (٣) ولكن الله تعالى أبى إلا أن يذيع فضله وعلمه فألهمه كتابة مجالس معدودة من تلك الدروس ، وكان ينشرها فواتح لأعداد مجلة " الشهاب" ويسميها " مجالس التذكير" وهي نموذج صادق من فهمه للقرآن وتفسيره له كما أنها نموذج من أسلوبه الخطابي وأسلوبه الكتابي (٤) .

---

(١) محمد ناصر ، المقالة الصحفية الجزائرية ـ مصدر سابق ـ ص ٢٦ .

(٢) انظر مجلة الشهاب ـ الافتتاحية من كل عدد .

(٣) لعله يقصد التفسير المخصوص بالطريقة الباديسية كما بينه بما أضافه بعد .

(٤) مجالس التذكير ـ ص ٣٤ .

المبحث الخامس : التلقي للتنفيذ :ـ

رأى ابن باديس أمامه شعبا أشرف على الموت ولم يبق على هلاكه إلا لحظات وأي تأخر عن العلاج السريع والعاجل سيفوت الفرصة فبادر إلى إسماع الناس معاني كلام الله ولم يشغل نفسه ولا الناس بكتابتها لأن في الكتابة مشغلة عن العمل به والاهتداء بهديه والاستشفاء بما فيه ، ففضل إلقاءه عليهم حتى يتلقوه للتنفيذ لا للتثقيف والمتعة ، كالطبيب الذي لا يطمئن على مريضه بفحصه وإعطائه الوصفة ليشتري الدواء بل يباشر معالجته بنفسه في نفس اللحظة التي يدخل فيها عليه ولا يستقر له قرار حتى يرى آثار البرء ظاهرة على مريضه ، وما أكثر الذين فسروا القرآن وكتبوه وما أكثر الذين تلقوه عنهم ودونوه ولكن لا هؤلاء ولا هؤلاء فهموا ما فيه وعملوا به والتزموه فكثيرا ما يكون تأليف كتاب في التفسير هو الغاية لرفع الشأن وكسب الشهرة ، وهذه الأمور كلها هي التي كان يحذرها ابن باديس رحمه الله تعالى عند شروعه في التفسير ولذا لم يكتبه ولم يأمر بكتابته ، وهذا ما يقرره لنا صديقه البشير الابراهيمي بقوله " .. وكان يرى ـ حين تصدى لتفسير القرآن ـ أن في تدوين التفسير بالكتابة مشغلة عن العمل المقدم ، لذلك آثر البدء بتفسيره درسا تسمعه الجماهير فتتعجل من الاهتداء به ما يتعجله المريض المنهك من الدواء ، وما يتعجله المسافر العجلان من الزاد "(١)

وقد يتساءل أحد فيقول : ألم يكن بإمكان الإمام رحمه الله تعالى أن يفعل الأمرين معا ، ويصل إلى الغايتين كلتيهما الكتابة والإفادة والعمل ؟ والجواب عند الإبراهيمي أيضا إذ يقول: "وكان رحمه الله يستطيع أن يجمع بين الحسنيين لولا أنه كان مشغولا مع ذلك بتعليم جيل وتربية أمة ومكافحة أمية ومعالجة أمراضا اجتماعية ، ومصارعة استعمار يؤيدها فاقتصر على تفسير القرآن درسا ينهل منه الصادي ويتزود

---

(١) مجالس التذكير ص ٣٣ .

منه الرائح والغادي وعكف عليه إلى أن ختمه في خمس وعشرين سنة ..." (١)

المبحث السادس : الفرق بين التفسيرين :ـ

ابن باديس هو نفسه الذي كان يفسر القرآن في الجامع الأخضر درسا يسمعه منه تلامذته وأتباعه المؤيدون لفكرته ، وهو نفسه الذي كتب تفسير بعض الآيات على مجلته الشهاب ، لكن هل هناك فرق بين التفسيرين ؟ لا شك أن طريقة الإلقاء أكثر تأثيرا في النفس من القراءة لشيء مكتوب خصوصا إذا كان المفسر واحدا كابن باديس الذى شهد له الإبراهيمي ـ وهو من هو ـ: " بأن له قوة خطابية قليلة النظير " (٢) ويقول الشيخ أحمد حماني ـ وهو ممن حضر دروس التفسير ـ " وكان له في كل منهما أسلوب وطريقة يحس بذلك كل من استمع إليه يلقيه ارتجالا وقرأه مكتوبا بقلمه تيقن أنه في الدرس الملقى أبلغ منه وأعظم تأثيرا منه في المكتوب المقروء وإن كان فيه موفقا عظيم التوفيق .." (٣)

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنه لا بد أن يكون هناك فرق كبير بين التفسير الخاص لطلابه ، والعام في الوعظ والإرشاد ، وما كان يكتب في مجالس التذكير ليقرأه العام والخاص ، (٤) فمن شأن المفسر لعموم الناس أن يتوخى التسهيل والتيسير وعدم التعمق والتشعب وقد عرفنا سابقا أنه كان يؤخر درس التفسير إلى ما بعد صلاة العشاء بقصد حضور الأغلبية من العوام ، فكل من تفسيره الملقى والمكتوب هو تفسير مبسط وميسر مراعى فيه مستوى العوام

---

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) مجالس التذكير ـ مصدر سابق ـ ص ٢٦ .

(٣) أحمد حماني ، محاضرة في الملتقى ١٣ ـ مصدر سابق ص ١٠ .

(٤) توفيق محمد شاهين ـ مجالس التذكير ـ ص ٧٠٩ .

و أنصاف العلماء ومع ذلك فهناك فرق بينهما يظهر للإنسان عندما يأخذ نموذجا مما كان يلقيه فينظر فيه ، والنموذج الوحيد هو درس تفسير المعوذتين الذي ألقاه ليلة الختم وكان العلامة الأستاذ الابراهيمي حاضرا ـ وهو من هو في سرعة الحفظ بما يدهش ـ فسجلت حافظته الواعية ، وقلمه السريع تفسير هاتين السورتين ونشرا في "الشهاب" وتصرف في الألفاظ بما لا يخرج عن المعاني ، وعرض ذلك على الإمام ـ رحمه الله ـ فأقره (١) .

فمن أراد معرفة الفرق بين ما ألقاه على تلامذته وما كتبه هو في الشهاب فليقارن بين تفسير المعوذتين وغيرهما من مجالس التذكير (٢) .

ونقدر أنه لو اتسع وقته وانفسح أجله لكتب تفسيرا أعظم من كليهما ،

ويشهد لقولي هذا أنه لما مات السيد رشيد رضا تأسف عليه الشيخان : ابن باديس والإبراهيمي ، لأن بموته انقطع تفسير المنار ، وقال الإبراهيمي ـ مخاطبا ابن باديس ـ : " ليس لإكماله إلا أنت " فقال ابن باديس " ليس لإكماله إلا أنت "

فاعتذر الإبراهيمي بقلة العلم والكتب فقال ابن باديس ـ واثقا مؤكدا ـ : « إننا لو تعاونا وتفرغنا للعمل لأخرجنا للأمة تفسيرا يغطي على التفاسير من غير احتياج إلى ما ذكرت » (٣) .

وأختم هذا المبحث بهذه الصورة التاريخية المحزنة والتي يرويها

---

(١) مجالس التذكير ص ٣٤ ، ٤٧٤ .

(٢) راجع مجالس التذكير ـ مصدر سابق .

(٣) مجالس التذكير ـ مصدر سابق ـ ص ٣٤ .

لنا البشير الإبراهيمي فيقول " ولما احتفلت الأمة الجزائرية ذلك الاحتفال الحافل بختمه لتفسير القرآن عام ١٣٥٨ هـ ، وكَتَبْتُ بقلمي تفسير المعوذتين مقتبسا من درس الختم وأخرجته في ذلك الأسلوب الذي قرأه الناس في مجلة " الشهاب " أعجب به أيما إعجاب ، وتجدد أمله في أن نتعاون على كتابة تفسير كامل ، ولكن العوارض باعدت بين الأمل والعمل سنتين ، ثم جاء الموت فباعد بيني وبينه .. " (١)

رحم الله الشيخين رحمة واسعة وجزاهما عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

---

(١) نفس المصدر والصفحة .

الفصل الثاني
أهداف التفسير

تمهيد

إن أي إنسان عاقل إذا أراد أن يعمل عملا لا بد أن تكون له غاية يسعى إليها وهدف يبتغيه ، فكيف إذا كان هذا العاقل من أصحاب الأفكار السامية والمبادئ العالية مثل الدعاة والمصلحين الذين لا يصدر عنهم – غالبا – قول أو فعل إلا وهو مرتبط بالغاية التي يعملون لأجلها. وكيف إذا كان هذا العمل الذي يقوم به الداعية المصلح هو أعظم أعماله وأساسها مثل تفسير كتاب الله تعالى . وهذا ابن باديس فسر القرآن الكريم في مدة خمس وعشرين سنة فمما لا شك فيه أنه قبل أن يشرع في هذا العمل الجليل كان مدفوعا بغايات وأهداف .

إن من عادة أي مفسر أن يذكر في مقدمة تفسيره أنه أقدم على ذلك العمل من أجل خدمة القرآن العظيم – مثلا – ورغبة في دخوله زمرة المفسرين ، والانخراط في مساق فريقهم ، وإضافة أشياء لم يهتد إليها من سبقه واتباع طريقة تختلف عن طريقهم ، وغير ذلك من الدوافع ، لكن ابن باديس لم يكن هدفه شيئا من هذا ، لأنه فسر القرآن للدعوة والجهاد لا للعلم والثقافة وحدهما .

درس ابن باديس حالة المجتمعات الإسلامية عامة وحالة المجتمع الجزائري خاصة فخرج بنتيجتين .

الأولى : أن سبب تخلف المسلمين دينيا ودنيويا : هجر الإسلام بهجر قرآنه [١] .

الثانيه : ليس هناك حل لهذه المعضلة ، ولا نجاة ولاصلاح ولا فلاح إلا بالعودة إلى الاسلام عن طريق العودة إلى القرآن [٢] .

ثم رأى بأن العودة إلى القرآن لا تتم إلا بالإيمان الذي لا يخالطه شك بأن القرآن هو المخلص [٣] ثم العمل على فهمه كما فهمه السلف وأن تحمله نفوس كنفوسهم .

---

(١) مجالس التذكير ص ٢٣١ ، ٤٣٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٣٤ ، ٢٧٧ .

(٣) نفس المصدر ص ١٨٧ .

هذا هو تصور ابن باديس للمشكلة وهذا هو تصوره لحلها فلم يبق إلا العمل، فكان تفسيره للقرآن الكريم يصب في اتجاه هذا الحل ، فكانت الغاية من تفسيره هي أن يفسر القرآن تفسيرا سلفيا وأن يظهر للناس فهما للقرآن كفهم السلف الصالح ثم يقوم هو نفسه بتربية الناس على هذا الفهم وحملهم على العمل به لتغيير الواقع وإصلاح الفاسد (١) .

فكانت الغاية التي قصدها ابن باديس بتفسيره تتلخص في ثلاث نقاط :

الأولى : إشعار الناس بأن القرآن هو المخلص والعمل على رد الجموع النافرة إليه بكل الوسائل الممكنة ولهذا نجده في تفسيره لا يتوقف عن بيان هجر الناس للقرآن . والإصرار على أن الرجوع إليه هو العلاج الوحيد لما وقع بنا والإلحاح المستمر على العودة إليه .

يقول رحمه الله تعالى ـ عند تفسيره لقوله تعالى " وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا " (٢) : «ونحن ـ معشر المسلمين ـ قد كان منا للقرآن العظيم هجر كثير في الزمان الطويل ، وإن كنا به مؤمنين " ثم يعدد أنواع الهجر الخمسة التي وقع فيها المسلمون (٣) .»

والمجتمع الجزائري ـ في تلك الفترة على الخصوص ـ كان قد وصل في هجره للقرآن غاية ما بعدها غاية ، لا تصورها لنا إلا كلمة الابراهيمي الذي عاصرها : "إنه لم يمض على المسلمين في تاريخهم الطويل عصر هم فيه أبعد عن القرآن منهم في هذا العصر" (٤)

---

(١) عمار الطالبي (ابن باديس حياته وآثاره) ج ٢ ـ ص ١٤٢ .

(٢) سورة الفرقان ـ آية ٣٠ .

(٣) مجالس التذكير ـ ص ٢٣١ .

(٤) نفس المصدر ص ١٨ .

والمتصفح لما تركه ابن باديس من تفسير يتصور ــ وهو يشاهد النصائح الكثيرة التي يسديها كاتبه للناس للعودة إلى القرآن بأساليب مختلفة مع تقرير أنه هو العلاج الوحيد ــ كأن ابن باديس يرفع المصحف عاليا في يده ويجوب الشوارع صائحا مناديا: " القرآن .. ! القرآن .. ! "

وهذه بعض النماذج التى يبين فيها أن القرآن هو أساس الخير كله :

(١) فهو كتاب الدعوة " فعلينا ــ إذن ــ أن نعلم أن القرآن هو كتاب النذارة والهداية (١) ... "

(٢) وهو الميزان الذي نزن به الحق والباطل والخطأ والصواب " إذا أردت أن تعرف شر خلانك وأحقهم بهجرك له وابتعادك عنه : فانظر فيما يرغبك هو فيه وما يرغبك عنه ، فإذا وجدته يرغبك عن القرآن وعما جاء به القرآن فإياك وإياه (٢) ... "

و " عندما يختلف عليك الدعاة الذين يدعي كل منهم أنه يدعوك إلى الله فانظر من يدعوك بالقرآن إلى القرآن ــ ومثله ما صح من السنة لانها تفسيره وبيانه ــ فاتبعه (٣) " .

(٣) وهو الوسيلة الوحيدة لتزكية النفس " فإذا أردت أن ترقى في درجات الكمال وتظفر بأنواع الإنعام وتزكي نفسك الزكاء التام فعليك بهدي هذا الفرقان (٤) ... "

---

(١) مجالس التذكير ص ٢٠٥ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٢٩ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٥٣ .

(٤) نفس المصدر ص ٢٠٤ .

(٤) وإذا تعرضت قلوبنا للوساوس والأوهام والشكوك — :

فالذي " يثبتها ويدفع عنها الاضطراب ويربطها باليقين هو القرآن العظيم » (١)

(٥) ورد الشبهات الواردة من الأعداء على الإسلام يكون بالقرآن " ولا تحسبن شبهة ترد على الإسلام إلا وفي القرآن العظيم ردها (٢) ... "

(٦) والجهاد يكون بالقرآن

" إن الجهاد في الدعوة إلى الله وإحقاق الحق من الدين وابطال الباطل من شبهة المشبهين وضلالات الضالين وإنكار الجاحدين هو بالقرآن العظيم » (٣) .

(٧) وعلاج النفس والمجتمع لا يكون إلا بالقرآن

" على أن القرآن هو شفاء للإجتماع البشري كما هو شفاء لأفراده فقد شرع من أصول العدل وقواعد العمران ونظم التعامل وسياسة الناس ما فيه العلاج الكافي والدواء الشافي لأمراض المجتمع الإنساني من جميع أمراضه وعلله (٤) . "

وهو " كتاب الإسلام الذي هو الصراط المستقيم ...

فيه الإسلام كله فمن طلبه فيه وجده ونجا به ومن طلبه في غيره ضل وكان من الهالكين (٥) " وغير هذا كثير (٦) .

ويقرر بعبارة موجزة أن " الخير كله في اتباع القرآن في جميع ما يفيده القرآن (٧) "

---

(١) نفس المصدر ص ٢٤٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٤٤ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٥٢ .

(٤) مجالس التذكير — ص ١٨٧ .

(٥) نفس المصدر ص ٣٧٠ .

(٦) انظر نفس المصدر ص ١٨٧ — ١٨٨ .

(٧) نفس المصدر ص ٢٧٧ .

وأنه " لا نجاة لنا من هذا التيه الذي نحن فيه ، والعذاب النوع الذي نذوقه ونقاسيه إلا بالرجوع إلى القرآن ..."(١)

الثانية : إن الطريق للعودة إلى القرآن لا تكون إلا بأن يفهم كفهم السلف له ويطبق كتطبيقهم له :

يقول موضحا هذه النقطة : " فهوم أئمة السلف الصالح أصدق الفهوم لحقائق الإسلام ونصوص الكتاب والسنة ."(٢)

ويقول أيضا : " سلوك السلف الصالح " الصحابة والتابعين وأتباع التابعين " تطبيق صحيح لهدي الإسلام "(٣)

و على نفس النهج يسير الشيخ البشير الإبراهيمي فيجلي هذه النقطة بقوله : " وكما أتى القرآن لأول نزوله بالعجائب والمعجزات في إصلاح البشر فإنه حقيق بأن يأتي بتلك المعجزات في كل زمان ، إذا وجد ذلك الطراز العالي من العقول التي فهمته وذلك النمط السامي من الهمم التي نشرته وعممته ، فإن القرآن لا يأتي بمعجزاته ولا يؤتي آثاره في إصلاح النفوس إلا إذا تولته بالفهم عقول كعقول السلف ، وتولته بالتطبيق العملي نفوس سامية وهمم بعيدة كنفوسهم وهممهم ...."(٤)

الثالثة : أن يقوم هو ـ أي ابن باديس بهذا العمل العظيم : أي تفسيره

---

(١) نفس المصدر ص ٢٣٤ .

(٢) ملحق : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ـ قانونها الأساسي ومباديها الإصلاحية دار الكتب ـ الجزائر ـ بدون تاريخ ـ ص ١٣ .

(٣) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(٤) مجالس التذكير ص ٢٨ .

تفسيرا جديدا على الطريقة السلفية فيخرج للناس فهما للقرآن كفهم السلف الصالح ثم يربي الشعب الجزائري عليه ويحملهم على العمل به حتى تظهر نماذج من الرجال كما ظهرت في صدر الإسلام عند نزول هذا القرآن .

ويقول رحمه الله موضحا ذلك :

" إن القرآن الذي كون رجال السلف لا يكثر عليه أن يكون رجالا في الخلف لو أحسن فهمه وتدبره وحملت الأنفس على منهاجه " (١)

في هذه الكلمات القليلة يبين لنا ابن باديس أن الغاية هي : الوصول إلى تكوين رجال كرجال السلف ، لكن يُشترط للوصول إلى هذه الغاية - شرطان هما : إحسان فهم القرآن وتدبره ، وحمل الأنفس على منهاجه ويقول مرة أخرى مبينا الوسيلة لفهمه : " ولا يتم ذلك (أي فهمه) إلا بتفسيره وتبيينه " (٢)

وبعد ما أكمل تفسيره واحتفل الجزائريون بختمه في مدينة قسنطينة ألقى كلمة بين فيها : أن تفسيره للقرآن ما هو إلا عمل منه للوصول إلى الغاية التي سبق أن أشرت إليها ، إذ قال رحمه الله " فإننا - والحمد لله - نربي تلامذتنا على القرآن من أول يوم ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم ، وغايتنا التي ستتحقق أن يكون القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها وفي سبيل تكوينهم

---

(١) عمار الطالبي - ابن باديس حياته وآثاره - ج ٢ - ص ١٤٢ .

(٢) مجالس التذكير - ص ٢٣٢ .

تلتقي جهودنا وجهودها ..." (١)

هذا هو الهدف الأساسي الذي توخاه ابن باديس من تفسيره، على أن هناك مسائل عديدة أكد عليها واهتم بها وتوسع فيها وكرر القول فيها وتعمد التعرض لها هي بمثابة أهداف للتفسير كذلك وإن كانت ترجع في الحقيقة إلى الهدف الأول وتتفرع عنه رأيت من المناسب أن أقف عند كل منها وقفة متأملة لبعض النماذج ثم عرضها على القارئ حتى يتكون لديه تصور واضح عن قيمة هذا التفسير والأسس التي قام عليها، وهذا ما فعلته في المباحث القادمة

---

(١) عمار الطالبي ــ ابن باديس حياته وآثاره ج ٢ ــ ص ١٤٢

المبحث الأول

الرجوع إلى الكتاب والسنة وعمل السلف

رأى ابن باديس أن كل البلاء المنصب على المسلمين والمتمثل في التخلف الديني والدنيوي والاستعمار والتفرق والتحزب وغير ذلك لم ينتج عن ترك المسلمين لدينهم لأن هذا وقع في القرون الأخيرة وهو نتيجة لأمر آخر ، فالداء قديم منذ عهد نشوء الفرق واختلاف المسلمين في دينهم وذلك بسبب نبذهم لما في الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح واتباع ما يمليه العقل والهوى مقلدين في ذلك فلاسفة الفرس واليونان قديما وأوروبا حديثا ولا زال ذلك الانحراف يعظم ويتسع حتى وصل إلى منتهاه في العصور الحديثة وأدى إلى نبذ الدين كلية والاقتصار على بعض مظاهره فـ " مخالفة السنة النبوية والهدي المحمدي وما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - في تنفيذ شرع الله وتطبيق أحكامه وتمثيل الاسلام تمثيلا عمليا - تلك المخالفة هي سبب كل بلاء لحق المسلمين حتى اليوم "(١) .

ولهذا كان من أهدافه في التفسير إرجاع الناس إلى الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح في الاعتقاد والقول والعمل ، فهو دائم الدعوة والنداء للرجوع إلى هذا الأصل، وزاد فبنى عمله في الإصلاح من الناحية التطبيقية عليه .

وإذا تصفحنا تفسيره قابلتنا الأمثلة الكثيرة التي تدعم وتؤكد ما قررته سابقا ومنها قوله : " لقد شعر المسلمون عموما بالبلايا والمحن التي لحقتهم وفي أولها سيف الجور المنصب على رؤوسهم ، وأدرك المصلحون منهم أن سبب ذلك هو مخالفتهم عن أمر نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم فأخذت صيحات الاصلاح ترتفع

---

(١) مجالس التذكير - ص ٤٣٢ .

في جوانب العالم الإسلامي في جميع جهات المعمورة تدعو الناس إلى معالجة أدوائهم بقطع سببها واجتثاث أصلها ، وما ذلك إلا بالرجوع إلى ماكان عليه محمد عليه الصلاة والسلام وما مضت عليه القرون الثلاثة المشهود لها منه بالخير في الإسلام ، وقد حفظ الله علينا ذلك بما إن تمسكنا به لن نضل أبدا ــ كما في الحديث الصحيح ــ (١) "الكتاب والسنة" وذلك هو الإسلام الصحيح الذي أنقذ الله به العالم أولا ولا نجاة للعالم مما هو فيه اليوم إلا إذا أنقذه الله به ثانيا" (٢) .

لقد حرص ابن باديس على بيان طريق الخلاص ، وسبيل النجاة وظل يكرر في تفسيره القول بأن الرجوع إلى الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح هو العلاج ، فلا تأتي مناسبة وتحين فرصة في تفسير آية إلا ويشير إلى هذه النقطة .

ويقرر ابن باديس أننا مأمورون بشيئين، الأول: الاستجابة للرسول صلى الله عليه وسلم في الدخول إلى الاسلام الذي جاء به، الثاني: والاقتداء به في تطبيق هذا الدين. ومخالفته في الثاني كمخالفته في الأول فهما سواء لأنه : "كما علينا أن نتبع سبيل الرسول عليه وآله الصلاة والسلام التي جاء بها من عند الله تعالى وهي "الإسلام" كذلك علينا أن نتبع سبيله في القيام بشرائع الإسلام علما وعملا في أبواب العبادات وأحكام المعاملات وفي تطبيق أصول الاسلام وفروعه على الحياة العامة والخاصة وهذه هي سنته التي كان عليها وكان عليها أصحابه وأهل القرن الثاني من التابعين وأهل القرن الثالث من أتباع التابعين ، تلك القرون المشهود لها بالخيرية على غيرها بلسان المعصوم ، وكما أن من عدل عن

---

(١) مسلم بشرح النووي ١٨٤/٨ ك : الحج ب : حجة النبي صلى الله عليه وسلم.

(٢) مجالس التذكير ص ٤٣٤ .

الإسلام ولم يسلك سبيله وقع في ضلال الكفر كذلك من عدل عـــــن السنـة ولم يسلك سبيلها وقع في ضلال الابتداع (١) ... "

---

(١) نفس المصدر ـ ص ٢٢٧ .

المبحث الثانـــــي

بيان الإسلام وحقائقـــه

إن الاستعمارَيْن — كما يسميهما الإبراهيمي — الطرقية وفرنسا تعاونا (١) على تجهيل الشعب الجزائري فترة طويلة ، ومن بين آثار هذا التجهيل انعـــدام المفاهيم الصحيحة للإسلام وما يتصل به من عقائد وأخلاق وأحكام وغيرها ، فالشعـــب الجزائري من ناحية علمه بالدين ينقسم إلى ثلاث فئات :

- فئة تقرأ وتفهم ماتقرأ إلا أن ما بأيديها من الكتب وما تهتم به من أمور الديـــن لا يعدو الفقه المذهبي المجرد من الأدلة وبعض علوم اللغة كالنحو والصرف والتصوف البدعي وقليل من يحفظ جوهرة التوحيد أو السنوسية ، والفرائـــــــــــــض وتفسير الخــــــازن أو الجلالين ، وما أشبه ذلك ... من الكتب التي تحوي الغث والسمين والتي ألفت في عصر الركود والجمود فلا هي ولا الطريقة التـــي تدرس بها تبعث على التحرر والتفتح وتنوير العقول .

وفئة أخرى تقرأ ولا تفهم الكثير مما تقرأ ، وربما تجد الواحد منهـــــم موسوعة في حفظ القرآن والمتون ولكن بدون فهم أو بفهم محدود .

وفئة ثالثة : وهي أغلبية الشعب الجزائري لا تقرأ ولا تكتب .

وكثير من حقائق الدين ومعالمه تكاد تكون عند الجميع مجهولة ، فلا تجد التصور الصحيح ولا الفهم الشامل ، ولا الإدراك العميق ، ولا العقيدة الصحيحـــة السليمة من الغبش ، ولا العلم المحقق ، حتى جاء ابن باديس وشرع في التعليم المسجدي فجعل من أهدافه بيان الدين الصحيح للناس على أساس الوحي وظل مدة خمس وعشرين

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية المصرية ع ٢١ — سنة ١٩٦٤ — ص١٤٤، ١٤٥ .

سنة وهو عاكف على التدريس حتى زرعت الحياة في الناس ، يقول رحمه الله تعالى ــ مخاطبا الشعب الجزائري ــ : " وحورب فيكم الإسلام حتى ظُن أن قد طمست أمامكم معالمه ، وانتزعت منكم عقائده ومكارمه فجئتم بعد قرن ترفعون علم التوحيد ، وتنشرون من الإصلاح لواء التجديد وتدعون إلى الاسلام كما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا كما حرفه الجاهلون وشوهه الدجالون ورضيه أعداؤه ... " (١)

ولو استعرضنا ما كتبه في التفسير لرأينا أن من بين المواضيع التي يؤكد عليها ويتوسع في الكلام عنها ويكرر الحديث فيها : العقائد والأخلاق مع عدم اغفاله لأي حقيقة دينية أخرى ، فهو حريص على ألا يترك أي لبس أو غموض في أي مسألة دينية أصلية أو فرعية .

وهو يعتقد أعتقادا جازما أن الإسلام وحقائقه لا تؤخذ إلا من القرآن والسنة فهو يقول : " وليكن دليلنا ــ في ذلك ــ وإمامنا كتاب ربنا وسنة نبينا ، وسيرة صالح سلفنا ، ففي ذلك كله ما يعرفنا بالحق ويبصرنا في العلم ويفقهنا في الدين ... " (٢)

ويقول أيضا " فقه القرآن يتوقف على فقه حياة النبي صلى الله عليه وسلم وسنته وفقه حياته صلى الله عليه وسلم يتوقف على القرآن ، وفقه الاسلام يتوقف على فقههما " (٣)

---

(١) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ــ (مجموعة الأحاديث التي شرحها ابن باديس) ــ من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية الجزائرية الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣ هـ ــ ١٩٨٣م ص ١٣ .

(٢) مجالس التذكير ــ ص ١٦٤ .

(٣) نفس المصدر ــ ص ٤٢١ .

ويقول أيضا "كما أنه (أي القرآن) كتاب الإسلام الذي هو الصراط المستقيم فيه حجته ودلائله ، فيه أحكامه وحكمه ، فيه آدابه وشمائله فيه بيان حقيقته وما هو منه ونفي ما ليس منه عنه ، فيه بيان تاريخه وتاريخ الإنسانية معه ، فيه ذكر أوليائه وحسن بلائهم في سبيله وحسن أثره فيهم والعود بالعاقبة المحمودة عليهم وذكر أعدائه وجهدهم في مقاومته وسقوط شبههم أمام حجته وذهاب باطلهم أمام حقه ، وشدة أخذه لهم على ظلمهم ونزول نقمته بهم وحلول دائرة السوء عليهم ٠

فيه الاسلام كله فمن طلبه فيه وجده ونجا به ومن طلبه في غيره ضل وكان من الهالكين (١) "

ومن الحقائق الكثيرة والمفاهيم العديدة التي تعرض لها وبينها أحسن بيان :

حقيقة العبادة والتوحيد :-

فعند تفسيره لقوله تعالى " لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ، وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ٠٠ " الآيتان (٢) جاء قوله :

" الإله هو المعبود ، والعبادة نهاية الذل والخضوع مع الشعور بالضعف والافتقار وإظهار الانقياد والامتثال ودوام التضرع والسؤال ٠٠٠

فالعبادة بجميع أنواعها لا تكون إلا له فذل القلب وخضوعه والشعور بالضعف والافتقار والطاعة والانقياد والتضرع والسؤال هذه كلها لا تكون إلا لله ٠

---

(١) نفس المصدر ص ٣٧٠ ٠

(٢) الاسراء آية ٢٢ ــ ٢٣

فمن خضع قلبه لمخلوق على أنه يملك ضره أو نفعه فقد عبده ، ومن شعر بضعفه وافتقاره أمام مخلوق على أنه يملك إعطاءه أو منعه فقد عبده ، ومن ألقى قياده بيد مخلوق يتبعه فيما يأمره وينهاه غير ملتفت إلى أنه من عنده أو من عند الله فقد عبده ، ومن توجه لمخلوق فدعاه ليكشف عنه السوء أو يدفع عنه الضر فقد عبده ، فالله تعالى يُعلِم الخلق كلهم في هذه الآية بأنه أمر أمرا عاما وحكم حكما جازما بأن العبادة لا تكون إلا له (١) ."

ثم فصل في معنى "الذل" حتى قال : "ويكون "الذل" بمعنى خنوع القلب وخضوعه وانكساره للضعف والافتقار ، وهذا هو الذي لا يكون من المؤمن الموحد إلا لربه كما في حديث دعاء القنوت (ونخنع لك)(٢) أي نذل ونخضع لك . وهذا الخنوع هو أساس العبادة القلبية فلذلك لا يكون إلا لله (٣) ..."

وبعد كلام طويل قال : "ومن مظاهر هذا الخنوع الذي لا يكون إلا لله الطاعة والانقياد وهي أيضا لا تكون إلا له وقد قال تعالى :
" أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ (٤) " أي أطاعه واتبعه كما قال تعالى :
" وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (٥) " فمن تبع مخلوقا وأطاعه فيما يأمره وينهاه دون أن

---

(١) مجالس التذكير ص ٨٤ .

(٢) المراسيل لأبي داود ص ١٢ ، ومدونة مالك بن أنس ١٠٣/١ وهو حديث مرسل ورواه البيهقي (٢ / ٢١١ ك : الدعاء ب دعاء القنوت) موقوفا على عمر بن الخطاب بسند صحيح . وله حكم المرفوع لأنه مما ليس للرأي فيه مجال .
انظر تخريج الأحاديث النبوية الواردة في مدونة الامام مالك . د / الطاهر محمد الدرديري ط مركز البحث العلمي جامعة أم القرى ج ٢ ص ٤٨١

(٣) مجالس التذكير ص ٨٥

(٤) الجاثية آية ٢٢

(٥) سورة محمد آية ١٤

يكون في طاعته مراعيا طاعة الله فقد عبده واتخذه ربا فيما أطاعه فيه وفي حديث عدي ابن حاتم ... وجاء بالحديث بتمامه (١) (٢) .

مستشهداً به على ما قرره .

ويدعو أهل الدعوة إلى الله ليبينوا للناس حقائق دينهم بقوله " وها نحن قد بلغ الحال بنا إلى ما بلغ إليه من الجهل بحقائق الدين والجمود في فهمه والإعراض عن العمل به والفتور في العمل ، فحق على أهل الدعوة إلى الله - وخصوصا المعلمين - أن يقاوموا ما بينا من جهل وجمود وإعراض وفتور بالتزام للحقائق العلمية بأدلتها والعقائد ببراهينها والأخلاق بمحاسنها والأعمال بصالحها (٣) . "

---

(١) رواه الترمذي في ك: التفسير ، ب : سورة التوبة ، وحسنه . انظر: التحفة ٨/٤٩٢ .

(٢) مجالس التذكير ص ٨٥ .

(٣) نفس المصدر ص ٤٠٩ .

المبحث الثالث

التربيـــــة

كلمة ابن باديس التي سبقت وهي قوله " فإننا – والحمد لله – نربي تلامذتنا على القرآن ... "(١) كافية لأن تعطينا دلالة على اهتمام ابن باديس بالتربية وجعلها من أعظم أهداف التفسير ، والمطلع على تفسيره يجده قد أعطى لهذا الموضوع حقه من الناحية النظرية ، والتي بنى عليها سيره في تربية تلاميذه من الناحية العملية ، وسيجد القارئ – بحول الله – أمامه في فصل (منهج دعوته) الكلام مفصلا عن هذه النقطة وهو كاف لبيان أن موضوع التربية كان من ضمن الأهداف الرئيسية إن لم يكن هو الهدف الأول لتفسير ابن باديس .

فابن باديس اتخذ التفسير مجالا لتقعيد قواعد التربية ، مثل أهمية قوة النفس في سيادة الأمة (إذ لا يكون ملك إلا بأسباب الملك ولا تكون قوة إلا بأسباب القوة .

ولا تكون السيادة إلا بأسباب السيادة ، وقد علمت الأمة من دينها أن السيادة لا تكون إلا بالملك وأن الملك لا يكون إلا بالقوة : قوة الأبدان وقوة العقول وقوة الأخلاق وقوة المال "(٢))

وأن أهم شيء في التربية إصلاح الباطن فهو يقول : "إن الذي نوجه إليه الاهتمام الأعظم في تربية أنفسنا ، وتربية غيرنا هو تصحيح العقائد ، وتقويم الأخلاق . فالباطن أساس الظاهر ، وفي الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ،

---

(١) انظر ص (١٠٤) .

(٢) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ١٣٦

وإذا فسدت فسد الجسد كله ...» (١)

وأن الأسلوب الوحيد للتربية هو حمل النفس على منهاج القرآن والاقتداء بأهل الصلاح من الأنبياء والمرسلين والعلماء والمرشدين (فالقرآن الذي كون رجال السلف لا يكثر عليه أن يكون رجالا في الخلف لو أحسن فهمه وتدبره وحملت الأنفس على منهاجه ...» (٢)

فمن أهداف التفسير الدلالة على طريقة القرآن في التربية — وهي أفضل الطرق — وهو كثيرا ما ينبه القارئ لكتاب الله إلى أسلوب القرآن في التربية كقوله «هذه هي سنة القرآن في التربية وهي أنجع الطرق في جعل المأمور والمنهي يمتثل للأمر والنهي من كل نفسه ....» (٣)

وكان حريصا على تتبع قواعد التربية القرآنية وقوانينها ولفت الأنظار إليها والحث على العمل بها ، والتنفير مما يخالفها .

---

(١) مجالس التذكير ص ١٩٦ . والجملة الأخيرة جزء من حديث انظر ص١٥٧ هامش (٢)

(٢) عمار الطالبي — المصدر السابق — ج ٢ — ص ١٤٢ .

(٣) مجالس التذكير — ص ٢٧٦ .

المبحث الرابع

الدعوة والإصلاح

موضوع الدعوة أخذ قسطا وافرا من حجم التفسير عند ابن باديس وهذا شيء بدهي لأن الغاية الأولى من كل أعمال هذا الرجل هي الدعوة والإصلاح ولما أصدر مجلة الشهاب أثبت على رأس الصفحة الأولى الآيتين العظيمتين الواردتين في الدعوة إلى الله . الأولى في الزاوية اليمنى وهي قوله تعالى : "قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي .... " الآية (١) . والثانية في الزاوية اليسرى وهي قوله تعالى : "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ ..." الآية (٢) . وقام بتفسيرهما تفسيرا مسهبا بَيَّنَ من خلال ذلك غاية الدعوة وأسلوبها ووسائلها وما إلى ذلك . ولا أُطيل الكلام حول هذه المسألة وأكتفي بأحالة القارئ على تفسيره فانه سيجد الشيخ الإمام قد أسهب وأطنب في موضوع الدعوة والاصلاح يطرقه من كل جوانبه وسيجد القارئ في فصل (منهج دعوته) ما يغنينا عن الكلام هنا .

---

(١) ـ يوسف ١٠٨ .

(٢) ـ النحل ١٢٥ .

(٣) ـ انظر : مجالس التذكير ص٤١٤ .

المبحث الخامس

محاربة الجمود الفكري والتقليد

مما ابتلي به المسلمون في القرون الأخيرة الجمود الفكري والتقليد فقد عطل المسلم عقله عن النظر والتفكير واكتفى بمعلومات هي خليط من حق وباطل يختزنها في ذاكرته وأكثرها غير مفهوم لديه وإنما يردده بلسانه، واستغنى بقراءة بعض الكتب التي ألفت في عصر الانحطاط الفكري للمسلمين والتي تقتصر على الفروع دون الأصول وهجر كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم والاهتمام بالعلوم العقلية (*) دون النقلية ، وهذه هي حالة خيار الأمة ، وأما أغلبيتها فهو غارق في بحر الظلمات ، ظلمات الطرقية والبدع والخرافات والتقليد للشيخ والقطب والغوث والمفتي والولي والصالح ... إلخ (١)

ونجد في المعاهد العلميه كالأزهر والزيتونة مثلا الطلاب قد تحولوا إلى حفظة لا مفكرين ، يتعامل الواحد منهم بمقدار ما يحفظ من المتون والشروح والحواشي ولكنه لا يفكر لنفسه ، ولا يفكر بنفسه، فقد العلماء أصالة العلم وأصبحوا مجرد نقلة مقلدين ، وانتشر التعصب المذهبي ، وأصبح هم الطالب والعالم المنتسب إلى مذهب أن يدافع عنه ويثبت تفوقه على المذاهب الأخرى (٢) وأدى هذا إلى التحزب والتفرق ، ولو رحنا نعدد ما نتج عن الجمود الفكري والتقليد من مضار لما انتهينا إلى غاية .

وأدى هذا إلى التخلف في الناحية الدنيوية كذلك لأنها تتبعها دائما ..

وإذا تأملنا حال هؤلاء المقلدين وجدناهم يتنوعون إلى نوعين :

---

(١) انظر كتاب : الرحلة الورتلانية .

(٢) محمد قطب ـ واقعنا المعاصر ص ١٧٦ .

(*) إن قيل كيف توفق بين ماجاء في أعلى الصفحة وبين ما جاء هنا ؟ الجواب: المراد بتعطيل العقل : عدم النظر في كتاب الله تعالى وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم بالتدبر النافع ، وعدم النظر في ادلة الفروع ، وعدم النظر في الكون وعلوم الغرب للوصول إلى ما وصلوا إليه وغير ذلك . والمراد بالعلوم العقلية . نحو المنطق وعلم الكلام والفلسفة والفلك وغيرها على الطريقة القديمة التي لا تزيد الشخص إلا حيرة وزندقة ، وقسوة قلب وبهذا لا يكون هناك تعارض .

النوع الأول : ممن ينتسبون إلى الإسلام وهؤلاء يفشو فيهم تقليد شيوخ الطرق في بدعهم وفقهاء المذاهب المتعصبين في أقوالهم المخالفة لصريح الكتاب والسنة وأقوال الأئمة الموثوق بهم .

ومن شدة انتشار هذا النوع من التقليد بين العامة والخاصة حتى أصبح شيئا مسلما به ، كأنه من المعلوم من الدين بالضرورة ـ أنها شاعت بينهم مقولة (اعتقد ولا تنتقد) التي أطلقها الطرقيون وروجوها بين أتباعهم (١)، وهذا الانحراف الفكري الخطير هو الذي كان يحاربه ابن باديس فأصدر جريدته المسماة بـ (المنتقد) .

النوع الثاني : ممن انسلخوا عن الإسلام وفتنوا بالحضارة الغربية فقلدوا الغرب في كل ما يقوله ويفعله دون تمييز بين حق وباطل .

فابن باديس رحمه الله تعالى هاله تفشي هذا الانحراف الفكري بين المسلمين وعلم أنه من أسباب التخلف والتدهور فعمل على حربه في تفسيره وجعله من أعظم أهدافه في دعوته .

أثناء تعرضه للكلام عن هجر الناس للقرآن عَدَّ هذا الانحراف نوعا من أنواع الهجر المتعددة .فالقرآن ـ كما يقول ابن باديس ـ "يبين أصول الأحكام وأمهات مسائل الحلال والحرام ووجوه النظر والاعتبار مع بيان حكم الأحكام وفوائدها في الصالح الخاص والعام فهجرناها واقتصرنا على قراءة الفروع الفقهية مجردة بلا نظر جافة بلا حكمة محجبة وراء أسوار من الألفاظ المختصرة تفنى الأعمار قبل الوصول إليها ..." (٢)

ويشير كذلك إلى تعطيل العقل عن التفكير في آيات الكون فيقول :

---

(١) عمار طالبي ـ مصدر سابق ج ١ ـ ص ٨٢ .

(٢) مجالس التذكير ـ ص ٢٣١ ـ ٢٣٢ .

" وعرض القرآن علينا هذا الكون وعجائبه ونبهنا على ما فيه من عجائب الحكمة ومصادر النعمة لننظر ونستفيد ونعمل فهجرنا ذلك كله إلى خريدة العجائب (١) ، وبدائع الزهور (٢) ، والحوت والصخرة (٣) ، وقرن الثور (٤) "

ويقف وقفة عند المبهورين بسراب المدنية الحديثة والمغرورين بما وصل إليه الكفار من متاع الدنيا فقلدوهم تقليدا أعمى فأخذوا عنهم الصالح والفاسد بل تركوا الصالح وأخذوا الفاسد ، وقفة يحلل فيها تصرفهم هذا على ضوء الوحي والعقل فيقول : " وهم من ناحيتهم نراهم في عز وسيادة ، وتقدم علمي وعمراني ، فننظر إلى تلك الناحية منهم فنندفع في تقليدهم في كل شيء ، حتى معائبهم ومفاسدهم ونزدري كل شيء عندنا حتى أعز عزيز ، إلا من ينظر بعين العلم فعرف أن كل ما عندهم من خير ، هو عندنا في ديننا وتاريخنا وأن ذلك هو هو الذي تقدموا وسادوا به ، وأن ما عندهم من شر هو شر على حقيقته ، وأن ضرره فيهم هو ضرره ، وأنه لا يجوز أن يتابعوا عليه ، فكانوا فتنة لنا حتى يظهر من ينظر بعين الحق للحقائق .. ممن تبهره الظواهر فتسلبه إدراكه فيخدع ولا يفرق بين اللب والقشور (٥) "

ونظرا لخطورة هذه المسألة " الجمود الفكري والتقليد " وما لها من أثر سيىء على حياة المسلمين فإن ابن باديس اعتبر حربها من أعظم الأهداف في تفسيره بصفة

---

(١) خريدة العجائب وفريدة الغرائب: تأليف سراج الدين أبي حفص عمر بن الوردي وموضوعه الأرض وما فيها على منهج الخرافة والأوهام .

(٢) بدائع الزهور في وقائع الدهور : كتاب ينسب لأبي البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ذكر فيه من العجائب والغرائب التي لا سند لها لا من العقل ولا من النقل

(٣) هذه أشياء تتداول في كتب المفسرين مثل قول الخازن "قيل : خلق الله الأرض على حوت وهو النون والحوت في الماء والماء على ظهر صفاة والصفاة على صخر والصخر على متن الريح والريح على القدرة " تفسير الخازن ج ٥/ ١٨٠

(٤) مجالس التذكير ـ ص ٢٣١ ـ ٢٣٢ .

(٥) مجالس التذكير ص ٢٢٣ .

خاصة وفي دعوته بصفة عامة وأخذت من جهده وحياته ونشاطه الشيء الكثير ، فهو دائم التعرض لها ، وكثيرا ما يطرقها في دروسه ومحاضراته ، فعند تفسيره لقوله تعالى "وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسَلينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ ليأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ..." الآية (١) وتحت عنوان هامشي "تعليم" قال : "هذه العلل (الجهل وسوء النظر ، والغباوة) التي صدر اعتراض المعترضين عنها قد علمنا الله تعالى في كتابه العزيز ما يعصمنا منها "ثم ذكر خمسة أمور علمناها ، ومنها :

"ـ علمنا ألا ننظر إلى ظواهر الأمور دون بواطنها ، وإلى الجسمانيات المحسوسة دون ما وراءها من معان عقلية بل نعبر من الظواهر إلى البواطن وننظر من المحسوس إلى المعقول ، ونجعل حواسنا خادمة لعقولنا ، ونجعل عقولنا هي المتصرفة الحاكمة بالنظر والتفكير : علمنا هذا بقوله تعالى : "لاَ يَسْتَوِي الخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخَبِيثِ" (٢) فلا ينظر إلى بهرجة الكثرة ، ولكن إلى حقيقة وحالة الشيء الكثير فيعتبر بحسبهما وبقوله "فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ، كَلاَّ" (٣) فلا يجوز أن نغتر بالمال والقوة ، والجاه ، وأنواع النعيم إذا سيقت إلينا فنحسب أنها هي نفس الكرامة الربانية التي دعينا إلى العمل لنيلها ، بل إنما نعدها كذلك إذا كان معها التوفيق إلى شكرها بالقيام بحقوقها ، وصرفها في وجوهها .

---

(١) الفرقان آية ٢٠ .

(٢) المائدة آية ١٠٠ .

(٣) الفجر الآيات ١٥ ، ١٦ ، ١٧

ولا نغتر بحالة الضيق ، والعسر والضعف فنحسب أنها إهانة من الله لصاحبها ، بل علينا أن ننظر إلى ما معها من صبر ورجاء وبر أو ضجر ويأس وفجور .. فنعلم حينئذ أنها مع الأولى للتمحيص والتثبت ومع الأخيرة للزجر والعقاب بعدل وحكمة من أحكم الحاكمين ... " (١)

ومما ذكره في هذا المقام قوله :

" عندما تتخلل محبة شخص من الناس قلبك ، وتمتزج بروحك ويستولي بسلطان مودته عليك ... تصير أقواله وأفعاله كلها عندك مرضية وعيوبه ونقائصه عنك محجوبة ، فتمشي طوع بنانه ورهن إشارته ، يوجهك حيث شاء ويصرفك عما أراد ، وهذه حالة من أخطر الأحوال عليك ، لأنك فيها قد سلبت تمييزك ، وخسرت إرادتك وصرت آلة في يد غيرك ، فقد ترى الخير وتدعى إليه فيصرفك عنه وقد ترى الشر وتحذره ويوقعك فيه ، وهب هذا الخليل كان مخلصا لك وحدبًا عليك فإنه غير معصوم من الخطإ والضلال ... " (٢)

وعند تفسيره لقوله تعالى " وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ... " (٣) الآية تكلم عن العقل والتفكير والتقليد باستفاضة كلاما يصور موقفه واضحا من قضية الجمود والتقليد .

---

(١) مجالس التذكير ص ٢١٧ .

(٢) مجالس التذكير ص ٢٢٨ .

(٣) الاسراء الاية ٣٦ .

المبحث السادس

محاربة البدع في الدين

هذا الموضوع نستطيع القول بأنه متفرع عن الهدف الأول وإنما أفردته بالكلام لماله من أهمية خاصة عند ابن باديس حتى يكاد يطغى على أعماله ، بل إن جهاده الإصلاحي – كما سيأتي – كان موجها بالدرجة الأولى نحو الطرقية والاستعمار ، وكان يرى هو ومن معه من العلماء المآزرين له أنه لا يمكنهم محاربة الاستعمار إلا بعد تحرير العقول والقلوب من الفكر الطرقي الذي يقف عقبة في طريق الجهاد (١) ، ولذا فإنه بدأ في دعوته بمحاربة بدع وخرافات الطرقية التي ألحقتها بالدين . ولم يكن في تلك الفترة من يمثل الدين سواها حتى أصبح الناس – على حد تعبير ابن باديس – كأنهم لا يرون الإسلام إلا الطرقية (٢) .

ولهذا نرى ابن باديس شديد الحرص في تفسيره على تعقب هذه الطرق المضلة في كل مناسبة ، وكان يبين القول الحق في كل مسألة حرفها هؤلاء ، ويبني تحقيقه ذلك على أدلة القرآن والسنة وأقوال السلف والعلماء المستقيمين ، دون خروج عن آداب الجدال والمناظرة ، بل لم يكن يذكر هذه الفئة باسمها وإنما كان يعرض بها كأن يقول " ولقد وصل بنا الحال " و " انظر إلى حالتنا نحن الجزائرين " (٣) والأمثلة على ذلك كثيرة .

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية المصرية عدد ٢١ – سنه ١٩٦٤ م ، ص ١٤٥ .

(٢) عمار الطالبي – مصدر سابق – ج ٤ – ص ٣٦٨ .

(٣) مجالس التذكير ص ١٥٥ .

المبحث السابع

ربط النصوص بالواقع

الشائع والمتعارف عليه والمعمول به بين اكثر قراء القرآن في الجزائر أن مهمة هذا القرآن قاصرة على قراءته على الأموات والمناسبات والتداوي به عن طريق التمائم والمعوذات وحفظه لقراءته في رمضان وباقي الصلوات وما أشبه ذلك ، وإذا ما ارتقينا عن مستوى هؤلاء إلى علمائهم الذين قصروا حياتهم على خدمة كتاب الله تعالى بالتفسير-وإن كان هذا النوع يكاد يكون مفقودا في الجزائر في تلك الفترة ـ فإننا نجدهم لا يخرجون عن توجيه كتاب الله تعالى إلى خدمة مذاهبهم ونحلهم الكلامية أو الفقهية ونحوهما مما يؤدي بالمفسر منهم إلى أن يبقى يدور حول النظريات بعيدا عن الواقع المعاش وكأنّ لا صلة لكتاب الله بهذا الواقع أبدا ، وكأنه أنزل إلى فترة مضت وانقضت .

أما ابن باديس فقد اتخذ من القرآن الكريم مرآة يرى من خلالها الواقع الإسلامي وغيره ، كان ينزل الآيات على ما يجري في المجتمعات فيشخص من خلالها الأمراض والانحرافات ثم يسلم لها الأمر للحكم والفصل ثم يستوحي منها الدواء والعلاج .

لأن ابن باديس كان يؤمن أن هذا القرآن هو "كتاب الدهر"(١) وكما أنه شفاء للأفراد فهو كذلك "شفاء للإجتماع البشري"(٢) "لأنه شرع من أصول المدنية وقواعد العمران ونظم التعامل وسياسة الناس ما فيه العلاج الكافي والدواء الشافي لأمراض المجتمع الإنساني من جميع أمراضه وعلله"(٣)

---

(١) مجالس التذكير ـ ص ٤٨٨ .

(٢) نفس المصدر ص ١٨٧ .

(٣) نفس المصدر ص ١٨٧ .

ولهذا كان ابن باديس ينصح تلاميذه بقوله " لنطبق آياته على أحوالنا ونتنزلها عليها كما كانت تنزل على الأحوال والوقائع "(1)

وكثيرا ما يقول " نزول الآيات في الكافرين لا يمنع من تطبيقها على من شاركهم في مثل الحال الذي أنكرته عليهم من المؤمنين "(2)

والقارئ لتفسيره يلفت نظره طريقة الإمام في حرصه على معالجة الواقع بآيات القرآن وربطها به ونورد الآن بعض النماذج التي تبين ذلك :

(١) عند تفسيره لقوله تعالى "فَلْيَحْذَرِ الذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ..."(3) الآية قال ــ معرضا بالاستعمار الظالم الذي كان يحكم الشعب الجزائري حكما مطلقا : " غير أن أعظم الفتنة ــ فيما نرى ــ هو ما قاله الإمام جعفر الصادق(4) : " أن يسلط عليهم سلطان جائر " فإنه إذا جار السلطان وهو من له السلطة في تدبير أمر الأمة والتصرف في شؤونها فسد كل شيء فسدت القلوب والعقول والأخلاق والأعمال والأحوال وانحطت الأمة في دينها ودنياها إلى أحط الدرجات ولحقها من جرائه كل شر وبلاء وهلاك .. هذا إذا كان ذلك الجائر من جنسها ويدين بحسب ظواهره بدينها ، فكيف إذا لم يكن من جنسها ولا دينها في شيء .

حقا إن أعظم ما لحق الأمم الإسلامية من الشر والهلاك كله جاءها على يد السلاطين الجائرين منها ومن غيرها . وهذا ما يشهد به تاريخها في ماضيها

---

(١) نفس المصدر ص ٢٤١ .

(٢) مجالس التذكير ص ١٩٠ .

(٣) سورة النور آية ٦٣ .

(٤) هو جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي العلوي أبو عبد الله المدني الصادق وأمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر =

وحاضرها ." (١)

(٢) عند تفسيره لقوله تعالى "لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ" (٢) وبعد أن أخذ بتفسير ابن عباس رضي الله عنهما في "العذاب الشديد" بأنه : نتف الريش ووجه هذا التفسير بأن نتف الريش يعطل خاصية الطيران فينقلب الطائر إلى دواب الأرض وهذا نوع من المسخ ، والقرآن جعل المسخ أشنع عقوبة في الدنيا فلهذا فسر السلف "العذاب الشديد" بنتف الريش ، بعد أن قال هذا الكلام أضاف : "والإنسان خاصيته التفكير في أفق العلم الواسع الرحيب ، فمن حرم إنسانا فردا أو جماعة من العلم فقد حرمه من خصوصية الإنسانية وحوله إلى عيشة العجماوات وذلك نوع من المسخ ، فهو عذاب شديد وأي عذاب شديد ...." (٣)

وهو هنا يعرض كذلك بالاستعمار وسياسته في منع التعليم .

(٣) عند تفسيره لقوله تعالى "قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ..." (٤) الآية قال "هذه نملة وفت لقومها ، وأدت نحوهم واجبها ، فكيف بالإنسان العاقل فيما يجب عليه نحو قومه ، هذه عظة بالغة لمن لا يهتم بأمور قومه ، ولا يؤدي الواجب نحوهم . ولمن يرى الخطر داهما لقومه فيسكت ويتعامى ، ولمن يقود الخطر إليهم ويصبه بيده عليهم .

= ولد سنة ٨٠ هـ ومات سنة ١٤٨ هـ قال ابن حبان : كان من سادات أهل البيت فقها وعلما وفضلا . وقال مالك : اختلفتُ إليه زمانا فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال إما مصل وإما صائم وإما يقرأ القرآن . انظر تهذيب التهذيب ١٠٣/٢ .

(١) مجالس التذكير ص ٤٣٢ .

(٢) النمل آية ٢١ .

(٣) مجالس التذكير ص ٣٣٨ .

(٤) النمل آية ١٨ .

آه ! ما أحوجنا معشر المسلمين إلى أمثال هذه النملة "[1]

وفي هذا المثال يظهر ما يحمله ابن باديس من هم وغم بسبب فقدان الروح القومية والوطنية عند أفراد الشعب ، وفقدان روح التفكير في الصالح العام وانشغال كل بنفسه ، وفيه حث للشعب على النهوض والمبادرة إلى دفع خطر الاستعمار .

(٤) وبصدد بيانه لحالة أئمة المساجد وخطبائها والمتصدرين لوعظ الناس وإرشادهم وأغلبهم موظفون عند فرنسا قال : " أكثر الخطباء في الجمعات اليوم في قطرنا يخطبون الناس بخطب معقدة ، مسجعة طويلة من مخلفات الماضي لا يراعى فيها شيء من أحوال الحاضر وأمراض السامعين تلقى بترنم وتلحين أو غمغمة وتمطيط ثم كثيرا ما تختم بالأحاديث المنكرات والموضوعات .

هذه حالة بدعية في شعيرة من أعظم الشعائر الإسلامية سد بها أهلها بابا عظيما من الخير فتحه الإسلام وعطلوا بها الوعظ والإرشاد وهو ركن عظيم من أركان الإسلام ... "[2]

(٥) وعند تفسيره لقوله تعالى "تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا"[3] قال : " لما سمى الله كتابه الفرقان علمنا أنه به يفرق بين الحق والباطل وأهل هذا وذاك ، فهو الحكم العدل ، والقول الفصل بين كل متنازعين يدعي كل منهما أنه على الحق فيما هو عليه من عقد أو قول أو عمل . "[4]

---

(١) مجالس التذكير ص ٣٣١ .

(٢) نفس المصدر ص ٤١٢ .

(٣) سورة الفرقان آية (١)

(٤) مجالس التذكير ص ٢٠٥ .

ولما كانت الفئات التي تتزعم الدعوة وتتكلم باسم الدين وتقود الجماهير في تلك الفترة تنحصر في طائفتين : الطرقيون والسلفيون وربما يقع الناس في حيرة من عدم معرفة أيهما على الحق ، و يؤدي هذا إلى صرف الناس عن أهل الحق واتباع أهل الباطل ، لذلك أسرع ابن باديس إلى تحكيم القرآن الذي هو الفرقان في الفئتين لتظهر المحقة منهما فقال : " في العالم الإسلامي كله اليوم طائفتان من المؤمنين تتنازعان خطة الهداية والنذارة والتذكير ، و لكل منهما في سلوكها للقيام بتلك الخطة سبيل وكل منهما تدعي أنها على الصواب ، وأنها الأحق والأولى بنفع العباد فرأينا أن نطبق فصل الفرقان عليهما وننظر كيف يفرق ما بينهما وبين المصيبة من المخطئة منهما ..." ثم قال " وها نحن نعرض بعض حال كل طائفة في قيامها بالخطة ، ثم نسوق آيات القرآن وننظر من أسعد الطائفتين بها ..." ثم عرض حال كل طائفة على حدة وقارن بينهما بناء على الدليل .(1)

(٦) وعند تفسيره لقوله تعالى "وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ .." الآية(2) قال رحمه الله تعالى " شفاء العقائد والأخلاق – وهما أساس العمل – والمجتمع . هذه الثلاثة لا تكاد تخلو آيات القرآن من معالجتها وبيان ما هو شفاء لها . ولا شفاء لها إلا بالقرآن ، والبيان النبوي راجع إلى القرآن ومن طلب شفاءها في غير القرآن فإنه لا يزيدها إلا مرضا .

فهذه الأمم الغربية بسجونها ومشانقها ومحاكمها وقوتها قد امتلأت بالجنايات والفظائع المنكرة التي تقشعر منها الأبدان ، وهذه الممالك الإسلامية التي تقيم

---

(1) مجالس التذكير ص ٢٠٥ .

(2) الاسراء آية ٨٢ .

الحدود القرآنية كالمملكة الحجازية والمملكة اليمانية قد ضرب الأمن رواقه عليهما واستقرت السكينة فيهما دون سجون ولا مشانق مثل أولئك وما ذلك إلا لأنهم داووا الملك بدواء القرآن فكان الشفاء التام (١) ".

(٧) ويقول أيضا عن بدع الطرقية :ـ

" وانظر في قطرنا وفي غير قطرنا كم تجد ممن بنى موضعا للصلاة ووضع كتبا من عنده أو مما وضعه أسلافه من قبله وروجها بين أتباعه فأقبلوا عليها وهجروا القرآن (٢) .. "

(٨) ويقول عن فساد طرق التعليم في المعاهد الكبرى في تلك الفترة " ودعانا القرآن إلى تدبره وتفهمه والتفكر في آياته ولا يتم ذلك إلا بتفسيره وتبيينه فأعرضنا عن ذلك وهجرنا تفسيره وتبيينه .

فترى الطالب يفني حصة كبيرة من عمره في العلوم الآلية دون أن يكون طالع ختمة واحدة في أصغر تفسير كتفسير الجلالين مثلا ، بل ويصير مدرسا متصدرا ولم يفعل ذلك ، وفي جامع الزيتونة ـ عمره الله تعالى ـ إذا حضر الطالب بعد تحصيل التطويع في درس التفسير فإنه ـ ويا للمصيبة ـ يقع في خصومات لفظية بين الشيخ عبد الحكيم وأصحابه في القواعد التي كان يحسب أنه قد فرغ منها من قبل (٣) ... "

---

(١) مجالس التذكير ص ١٨٨ .

(٢) مجالس التذكير ص ١٣٤ .

(٣) مجالس التذكير ص ٢٣٢ .

المبحث الثامـــن
بيان قيمة العلم والدعوة إليه

إن المستوى الذي بلغته الجزائر في الجهل لا يكاد يخفى على مطلع على تاريخ هذا القطر العربي الأصيل ، هذا الجهل الذي أرخى سدوله وضرب بجذوره في مختلف ميادين الحياة والفترة ليست بالقصيرة وبين جميع طبقات المسلمين فنسبـــة الأمية بلغت ٩٥٪ من مجموع السكان (١) ، وكل هذا نتج عن سياسة الاستعمار التجهيلية من جهة وتخطيط الطرقيين الذين لا يعيشون إلا وسط الجهال •

يقول ابن باديس رحمه الله مصورا حالة الشعب قبل أن ينتشر فيه العلـــم والدين " إن الذي يعلم تاريخ الجزائر الحديث يجزم بأن هذا الشعب شعب حي لن يموت • لقد كان هذا العبد (٢) يشاهد قبل عقد من السنين هذا القطر قريبا من الفناء (٣) •• "

ثم يضيف مبينا سبب هذا الفناء " ليست له مدارس تعلمه ، وليس له رجـــال يدافعون عنه ، ويموتون عليه ••• "

ويبين كيف أن الاستعمار الفرنسي كان يحارب التعليم فيقول " وحـــورب فيكم العلم حتى ظن أن قد رضيتم بالجهالة وأخلدتم للنذالة ، ونسيتم كل علم إلا ما يرشح به لكم ، أو ما يمزج بما هو أضر من الجهل عليكم (٤) ••• "

ويصور لنا أحد المعاصرين لتلك الفترة حالة الجزائر التعيسة التي تدهـــور إليها التعليم فيقول : " أرأيت الشجرة الكبيرة ، وقد ذبلت أغصانها وتناثرت أوراقهـــا من شدة الظمأ ، واشتاقت قطرة الماء التي هي أملها الوحيد في الحياة ، وهـــي

---

(١) محمد ناصر ــ المقالة الصحفية الجزائرية ــ مج ٢ ــ ص ٧ •

(٢) يقصد نفسه •

(٣) عمار طالبي ــ مصدر سابق ج ٣ ــ ص ٢٦٦ •

(٤) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ــ مصدر سابق ــ ص ١٢ •

الواقية لها من الموت ؟ تلك هي أمة الجزائر ، وذلك هو اشتياقها للتعليم ، وذلك هو المثال الذي يصور لك شدة تعطشها إليه "(١)

ويصور لنا الإبراهيمي في كلمة بليغة ما كان عليه الشعب الجزائري من جهل وتخلف فيقول " ... ولو أن الجنين في بطن أمه طرقه البريد بخبر من أخبار هذه الحياة التي نحياها – وكان له اختيار – لآثر البقاء هناك حتى يموت اختناقا "(٢)

لهذه الظروف الصعبة التي كانت تعيشها الجزائر بسبب الجهل جعل ابن باديس أساس دعوته وحركته الإصلاحية "العلم" ، ومن اهتمامه بالعلم أنه قضى حياته كلها في التعليم في الجامع الأخضر من سنة (١٩١٣م) إلى (١٩٤٠م) .

وهذا الاهتمام بأمر العلم كان من أهدافه في التفسير .

فكان لا يترك أيّ مناسبة إلا وتطرق فيها إلى الكلام عن العلم تارة في فضله وأخرى في طرق كسبه وأحيانا في أقسامه ، وهكذا ...

وكان كثير الإشادة بفضله والحث على طلبه والتزود منه .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى "وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا .."(٣) الآية قال " قد ابتدئ الحديث عن هذا الملك العظيم بذكر العلم ، وقدمت النعمة به على سائر النعم تنويها بشأن العلم وتنبيها على أنه هو الأصل الذى تنبني عليه سعادة

---

(١) محمد ناصر – المقالة الصحفية – مصدر سابق – مج ٢ – ص٧ .

(٢) آثار محمد البشير الابراهيمي . ج ٣ – ص ٢٤٠ .

(٣) النمل آية ١٥ .

الدنيا والاخرة ٠٠ " [١]

ويقول أيضا عند تفسيره لقوله تعالى " وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ٠٠ " الآية [٢]

" العلم هو وحده الإمام المتبع في الحياة في الأقوال والأفعال والاعتقادات " [٣] ثم يشرح هذا القول ويفيض الحديث فيه وذلك دليل على أهميته عنده والأمثلة كثيرة [٤] ٠

---

(١) مجالس التذكير ص ٣١٨ ٠

(٢) الاسراء ـ آية ٣٦ ٠

(٣) مجالس التذكير ص ١٣٣ ٠

(٤) انظر مجالس التذكير ص ٣٦٥ ، ٣٦٩ ، وعمار الطالبى ج ٣ ـ ص ٢١٧ ، ٢٢٠ ٠

المبحث التاسع

بيان مقاصد الشريعة وحكمة التشريع

ومن المسائل التي اعتنى ابن باديس بإبرازها والتأكيد عليها : مقاصد الشرع وحكمة التشريع ، لأن المناخ العلمي والبيئة الفكرية التي كان الناس يعيشون فيها والمتميزة بالجمود والتقليد من شأنها أن تغفل هذا الجانب أو تجهله لصلته بأصول الفقه ، العلم الذي كان مهجورا ومجهولا في تلك الأوساط ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية الكتب التي بأيدي الناس أو العلماء الذين يتلقون عنهم العلم في تلك الفترة لا يهتمون ـ كما سبق أن ذكرت (١) ـ إلا ببعض الأحكام الفرعية المجردة من الأدلة والخالية من الحكمة كما يقول ابن باديس : (مجردة بلا نظر جافة بلا حكمة) (٢) وهذه الطريقة مع طول الزمن تؤدي بالناس إلى أن يصبحوا يهتمون بالوسائل بدل الغايات وهذا ما حصل حيث تجد المتعلم كما يقول ابن باديس : « يفني حصة كبيرة من عمره في العلوم الآلية دون أن يكون طالع ختمة واحدة في أصغر تفسير » (٣) مع أن الغاية من تعلم العلوم الآلية هي فهم الكتاب والسنة ثم العمل بهما لكن الطالب لا يصل إلى الكتاب والسنة حتى يأتيه الموت وهو مشغول باللغة والنحو والصرف والمنطق بدعوى أنها وسائل ضرورية لفهم نصوص القرآن والحديث ، وكثير من أعمال أهل الدين والعلم تؤدي بهم إلى نقيض الغاية التي يريدها القرآن وحتى لو وجدنا من يدرس التفسير والحديث في ذلك الزمن فإنه لا يظهر للناس الغايات والمقاصد التي تحرص عليها الشريعة ، ويطلبها الإسلام ، بل لا يزيدون على قراءة ما في كتاب التفسير والتوقف عند اللغويات وعلم

---

(١) انظر صفحة (١١٧)

(٢) مجالس التذكير ص ٢٣١ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٣٢ .

الكلام ليدورحولها جدال ممتع ، وعند القصص الإسرائيلية للعبرة والاتعاظ المريح .

حرص ابن باديس في تفسيره على أن يقف — كلما سنحت له الفرصة — عند بعض النصوص ليبين مقاصد الشرع وحكمة التشريع داعيا مستمعيه وقراء تفسيره إلى العمل للوصول إلى هذا المقصد الذي أبرزه وأظهره ، وقد بين لنا أن من بين أعمال الناظر في كتاب الله وشرعه فهم المقاصد والحكم وإظهارهما : " ويكون عمله (أي الناظر) في شرع الله هو الفهم لنصوص الآيات والأحاديث ومقاصد الشرع وكلام أئمة السلف وتحصيل الأحكام وحكمها (١) ... "

وفي تفسيره أمثلة كثيرة منها :

(١) أثناء تفسيره لقوله تعالى " رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢) " وبعد أن فصّل الكلام في صلاح النفس قال : " فتكميل النفس الإنسانية هو أعظم المقصود من إنزال الكتب وإرسال الرسل وشرع الشرائع (٣) . "

(٢) ويقول — عند تفسيره لقوله تعالى " وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤) .. " الآية — : " جاءت آية يونس (٥) بتقييد الشفاء بما في الصدور الذي هو العقائد لأن ذلك هو المقصود الأول من هداية القرآن وأصل لغيره ، فإنه إذا شفيت الصدور من عقائد السوء ونزغات الشكوك

---

(١) مجالس التذكير ص ٢٦٢ .

(٢) الاسراء ٢٥ .

(٣) مجالس التذكير ص ٩٦ — ٩٧ .

(٤) الاسراء آية ٨٢ .

(٥) يونس ٥٧ .

واعتقدت الحق وارتبطت على اليقين زكت النفوس واستقام سلوك الإنسان فرده وجماعته ." (١)

(٣) ويقول أيضا ـ مبينا مقاصد القرآن ـ " شفاء العقائد والأخلاق ـ وهما أساس العمل ـ والمجتمع ، هذه الثلاثة لا تكاد تخلو آيات القرآن من معالجتها وبيان ما هو شفاء لها ..." (٢)

(٤) ويقول أيضا ـ وهو بصدد الكلام على المحترفين بالقرآن الذين يتعيشون به عن طريق التمائم ـ : " ونسوا أنواع أشفية القرآن الروحية والاجتماعية التي هي المقصودة بالقصد الأول من تنزيله : مقتصرين على الوجه الذي وجدوا منه سبيلا إلى الاسترزاق " (٣)

إن الله سبحانه وتعالى في خلقه وشرعه وقدره وكلامه حكما عظيمة نحن مأمورون بتطلبها ، وإذا خفي علينا بعضها فموقفنا أن نؤمن بأن الحكمة موجودة وعقولنا قاصرة عن إدراكها ونسلم الأمر لله العليم الحكيم .

هذا ما يقرره ابن باديس بقوله " الله حكم عدل حكيم خبير فما من حكم من أحكامه القدرية إلا وله سببه وعلته لا لوجوب أو إيجاب عليه بل بمحض مشيئته وبمقتضى عدله وحكمته .." (٤)

والناظر في شرع الله وقضائه إذا بلغ إلى حكم لم يعرف حكمته وقضاء لم يدر علته ذكر عجزه فوقف عنده .

على هذا النهج سار ابن باديس في تفسيره فكان لا يتأخر عن بيان الحكمة

---

(١) مجالس التذكير ص ١٨٦ .

(٢) نفس المصدر ص ١٨٧ .

(٣) نفس المصدر ص ١٩٠ .

(٤) مجالس التذكير ص ١٦٢ .

في أنواع التشريعات خصوصا عند التي توهم أنها تتنافى مع العقل أو المصلحة ، دون أن يؤدي به ذلك إلى التكلف .

ففي مسألة التداوي بالأدوية والاستشفاء بالقرآن الكريم يقول " لا منافاة بينهما فإن الإنسان مركب من روح من عالم النور وجسم من عالم المادة المركبة ، فمن الحكمة الإلهية أن شرع الله لنا عند الأمراض على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الجمع بين الأدوية المادية التي هي المناسبة للبدن ، والآيات القرآنية التي هي المناسبة للروح مع ما في الأدوية القرآنية من اطمئنان القلب بالله وقوته به وانتعاشه بذكره وفي ذلك من تقوية للروح ونعيمها ما يهون عليها ألم المرض ويغلبها بإذن الله تعالى عليه ." (١)

ويقول ـ عند تفسيره لقوله تعالى "وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا" (٢) :" إنما ضوعف لأهل هذه الكبائر العذاب لأن كل كبيرة منها مضاعفة المفاسد والشرور .. " وبعد أن يعدد هذه المفاسد والشرور يقول : " فكانت المضاعفة من باب جعل الجزاء من جنس العمل وهو من مقتضى الحكمة والعدل " (٣)

وعند قوله تعالى "وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ" (٤) يقول " قد أحاط الله بكل شيء علما ، فهو غني بعلمه عن هذه الكتابة ، ولكنه جعل هذا الكتاب إظهارا لعظمة ملكه ، وليعلم عباده الضبط والإحصاء في جميع أمورهم وليبالغوا في محاسبة

---

(١) المصدر السابق ص ١٨٩ .

(٢) الفرقان آية ٦٨-٦٩

(٣) مجالس التذكير ص ٢٧٨ .

(٤) يس آية ١٢ .

أنفسهم وليعلموا أن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم ، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم فيزول من قلوبهم الخوف من الحوادث والمخلوقات وتعظم ثقتهم بالله وفي ذلك أعظم قوة في هذه الحياة وأكبر راحة للقلب من صروفها "(١) .

---

(١) مجالس التذكير ص ٣٩٤ .

المبحث العاشر

بيان الأسباب

في القرآن الكريم وعد ووعيد وقد بين الله تعالى من هم أهل الوعد ومن هم أهل الوعيد ، ومتى ينال هؤلاء وعدهم ومتى يحيق بأولئك وعيدهم ، وبين الأسباب التي تؤدي بكل فريق إلى نتيجته سواء في الدنيا أو الآخرة ، كل هذا جاء مبنيا على عدل وحكمة ضمن قواعد وسنن مطردة ومضبوطة بصورة من الدقة والإحكام تليق بشرع الله وخلقه وقدره .

وبما أن غاية المسلم هي الوصول إلى السعادة الدنيوية بالهيمنة والتمكين والأخروية بدخول الجنة فما عليه إلا أن يبحث عن الطريق المؤدي إليهما فيتبعه ، وقد تكفل القرآن الكريم ببيان ذلك ، فلا تكاد تخلو سورة من الكلام عن أسباب السعادة وأسباب الشقاوة ، وعلى كل مفسر نابه بارع ألا يمر بهذه الأسباب إلا بعد الوقوف عندها ولفت الأنظار إليها حتى يتفطن المسلمون إلى أن هذا التخلف والانحطاط الذي أصابهم بعد التقدم والازدهار الذي عاشه أسلافهم لم يأت هكذا بدون أسباب - حسب اعتقاد السواد الأعظم من المسلمين الذين يحدثنا الابراهيمي عن اعتقادهم في أن تمكين السلف كان بوضع إلهي وتخصيص رباني لا يد للكسب فيه (١)

فجل المسلمين في الجزائر - في القرون الأخيرة - رضخوا للاستعمار وركنوا للدنيا واستسلموا للضياع مخدرين بالفكر الطرقي والتصور الصوفي في القضاء والقدر وأن كل ما نحن فيه إنما هو بقدرة الله تعالى .

اهتم ابن باديس بهذه المسألة ونص على أن كل المسببات لها أسباب : الهدى

---

(١) مجالس التذكير ص ٢٤ .

والضلال ، النصر والهزيمة ، التخلف والتقدم دخول الجنة ودخول النار ، وهكذا...

فالله تعالى قد " ربط بين الأسباب ومسبباتها خلقا وقدرا بمشيئته وحكمته لنهتدي بالأسباب إلى مسبباتها ونجتنبها باجتناب أسبابها "(١) ويجعل معرفة هذا من أعظم الحكمة (٢) ، ولذا نراه يقف في تفسيره للآيات عند كل نقطة لها صلة بهذه المسألة مؤكدا ما سبق ذكره ، داعيا إلى الأخذ بأسباب الخير واجتناب ضدها .

فعند قوله تعالى " يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ... "(٣) الآية قال " فكان اتباعهم لرضوان الله سببا في دوام إرشادهم وتوفيقهم وبقدر ما يكون ازدياد اتباعهم يكون توفيقهم إذ قوة السبب تقتضي قوة المسبب . "(٤)

وعند قوله تعالى " أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا "(٥) قال " دلت الآية على السبب الذي أفضى بهم إلى هذا الجزاء العظيم وهو أعمالهم ودلت على السبب الذي تمكنوا به من القيام بهذه الأعمال وهو الصبر .. فلا ينهض بامتثال المأمورات وترك المنهيات إلا من صبر .. "(٦)

وعند قوله تعالى " وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ "(٧) قال " علق الوعد بالوصف وهو الصلاح ليعلم أنه وعد عام ولتعلم

---

(١) مجالس التذكير ص ١٦٣ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٠٢ .

(٣) المائدة – آية ١٦ .

(٤) مجالس التذكير – ص ٤٢٣ .

(٥) الفرقان ٧٥ .

(٦) مجالس التذكير ص ٣٠٢ .

(٧) الانبياء ١٠٥ .

كل أمة صالحة أنها نائلة حظها ـ ولا محالة ـ من هذا الوعد ...

واقتضى هذا التعليق بالوصف أيضا تقييده بأهله ، فإذا زال وصف الصلاح من أمة زال من يدها ما ورثت ونظير هذا التقييد قوله تعالى في آية النور "يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ" (١) (٢)

وعند قوله تعالى "وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا" (٣) قال "قد قضى على كل قرية بهذه العاقبة من الهلاك او العذاب الشديد في هذه الآية وبين في غيرها سبب استحقاقها لهما فقال تعالى: (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا) (٤) (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) (٥) (وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ) (٦) (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً) (٧)

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا) (٨) (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (٩) عرفنا الله في

---

(١) النور ٥٥.

(٢) مجالس التذكير ص ٤٤٥.

(٣) الاسراء ٥٨.

(٤) الكهف ٥٩.

(٥) هود ١١٧.

(٦) القصص ٥٩.

(٧) الانبياء ١١.

(٨) الطلاق ٨.

(٩) النحل ١١٢.

هذه الآيات بأسباب الهلاك والعذاب لنتقي تلك الأسباب فتسلم أو نقلع عنها فننجو ، فإن بطلان السبب يقتضي بطلان المسبب وقد ذكر لنا في كتابه أمة أقلعت عن سبب العذاب فارتفع عنها بعد ما كاد ينزل بها (١) ليؤكد لنا أن الإقلاع عن السبب ينجي من المسبب ." (٢)

وعند قوله تعالى "كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا" (٣) قال "وقد أفادت الآية ــ حسبما تقدم ــ أن أسباب الحياة والعمران والتقدم فيهما مبذولة للخلق على السواء وأن من تمسك بسبب بلغ بإذن الله إلى مسببه سواء أكان برا أم فاجرا مؤمنا أم كافرا ." (٤)

---

(١) يونس ٩٨ .

(٢) مجالس التذكير ١٦٢ ــ ١٦٣ .

(٣) الاسراء ٢١ .

(٤) مجالس التذكير ص ٧٨ .

الفصل الثالث
قواعد منهجية في التفسير

تمهيد

إن المحور الذي تدور حوله جميع أفكار ابن باديس في مجال الإصلاح هو أنه " لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها " وأكبر دليل على هذا أنه كان يضع هذه الكلمة على غلاف مجلته الشهاب تحت عنوان " مبدؤنا في الإصلاح الديني والدنيوي " وهي مروية عن الإمام مالك[1] ابن أنس رحمه الله تعالى كما اثبتـه هو نفسه على نفس الغلاف .

وإذا جئنا لنحلل هذه العبارة فإننا نجدها تعني شيئين اثنين :

الأول : الأمة الإسلامية في حالة فساد ديني ودنيوي ، وهذا الفساد شيء عارض غير ملازم ويمكن إزالته لأنه ناتج عن أسباب عارضة وبإزالة الأسباب يزول المسبب ، وإصلاح هذا الفساد أمر واجب محتم على كل من له قدرة على ذلك ، ولا نجاة للمسلمين من ذل الدنيا وخزي الآخرة إلا بالعمل لأجل هذا الإصلاح .

الثاني : أنه لا طريق ولا سبيل إلى هذا الإصلاح إلا الطريق الذي سار عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عندما قاموا بتغيير الجاهلية الأولى فإن المنهج الذي اتبعه السلف الصالح — وفي مقدمتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم — لإخراج الناس من الظلمات إلى النور — في الهدف والأسلوب والوسائل — هو نفسه الذي يجب علينا نحن في عصرنا الحاضر — إذا أردنا الخروج مما نحن فيه — أن نتبعه في هدفه وأسلوبه ووسائله سواء في الناحية النظرية أو العملية ، وما هذا المنهج إلا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم القولية والعملية وسيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين أهل القرون الثلاثة المفضلة .

على ضوء هذا سار ابن باديس في كل أعماله الإصلاحية التي من أهمها :

---

(١) انظر الشهاب .

التفسير : ويدرك هذا كل من تأمل أدنى تأمل فيما تركه الإمام من آثار تتمثل في أقواله وما رواه من عاصره من أعماله . وهذا البشير الإبراهيمي ساعده الأيمن وخليفته في العمل يؤكد ما سبق بقوله : " وله في القرآن رأي بنى عليه كل أعماله في العلم والإصلاح والتربية والتعليم وهو أنه لا فلاح للمسلمين إلا بالرجوع إلى هديه والاستقامة على طريقته ... " (١)

وحتى في منهج تفسيره نجده قد اعتمد على هذه الفكرة نفسها فهو لم يسلك طريقا لفهم القرآن إلا طريق السلف الصالح ولم يتخذ لتطبيق هذا الفهم - حتى يظهر في صورة عملية على مستوى الفرد والجماعة - منهجا غير منهجهم . فقد قيد نفسه بهدي السلف الصالح في العلم والعمل ، لأنه كان يرى أن الانحراف ، أي انحراف قل أم كثر إنما ينشأ من مخالفة آثار ما كان عليه أصحاب القرون الثلاثة المفضلة في فهم النصوص أو في العمل بما يفهم منها . ولكي يضمن المسلم الاستقامة وعدم الميل عن طريق الهدى لا بد له من أن يجتمع له الشرطان وهما : الاهتداء في الفهم والتطبيق ولا يكون ذلك الا بموافقته - في كليهما - لما كان عليه أصحاب الصدر الأول من الإسلام .

وسنرى في المباحث القادمة - أن منهج ابن باديس في التفسير يسير وفق هذه الفكرة ولا يحيد عنها .

وهذا الفصل سيتناول بعض القواعد التي سار عليها ابن باديس في تفسيره من خلالها نأخذ صورة تقريبية عن منهجه في التفسير .

---

(١) تفسير ابن باديس ص ٣٣ .

المبحث الأول

الأصل الجامع لقواعد المنهج : " الطريقة السلفية "

إن ابن باديس — كما سبق أن أشرت — قرر أن يعود بكل شيء إلى حياة السلف الصالح ، سواء في ذلك التفسير وغيره ، فحياة السلف الصالح هي المقياس والميزان الوحيد لحياتنا كلها في ناحيتيها معا : العلم والعمل ، وقد مر فيما سبق من المباحث كيف أنه يركز على هذا الأمر حتى يكاد يكون محور جميع أعماله .

ويعود سبب اهتمام ابن باديس — كغيره من بقية معظم المصلحين الإسلاميين — بهذا الأصل إلى ما وصل إليه — بعد الدراسة لأسباب الانحراف والزيغ والضلال في المجتمع الإسلامي — من أن بعد الناس عن الحق الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ناتج عن أحد سببين لا ثالث لهما وهما :

الأول : نبذ أحد مصادر التشريع وعدم الأخذ به حقيقة كما فعل بعض المعتزلة في إنكارهم للسنة جملة والظاهرية للقياس ، أو الأخذ به في الظاهر وتركه حقيقة كمن يرد خبر الواحد في العقائد ، وأكثر السنة آحاد فيرد خبر الواحد ترد السنة كلها .

الثاني : تفسير النصوص — من قرآن وحديث وأقوال السلف — تفسيرا يتفق وفكر النحلة التي ينتهجها المفسر وتطويع النصوص لذلك ، مما يجعل هذا التفسير بعيدا عن تفسير السلف وفهمهم لنصوص الشرع ، فصاحب هذا التفسير المنحرف حتى ولو كان يقر بأصول الشريعة ومصادرها من قرآن وسنة وإجماع وقياس ويأخذ بها فإنه بهذا التفسير والفهم الفاسد يظل زائغا عن الهدى مائلا عن الحق ، وهذا ما وقع فيه كثير من المعتزلة والشيعة والخوارج وغلاة المتصوفة وغيرهم من المتقدمين ووقع فيه بعض الطوائف كالعقلانيين من المتأخرين المعاصرين .

فأراد ابن باديس أن يسد هاذين المنفذين اللذين يدخل منهما الضلال

فنادى بأن الدين الصحيح ما قام على ركيزتين اثنتين وهما : الصدر الصحيح والفهم الصحيح ، ولا صدر للإسلام إلا ما اتخذه السلف مصدرا ، ولا فهم إلا فهمهم ؛ «فدين الله تعالى من عقائد الإيمان وقواعد الإسلام وطرائق الإحسان إنما هو في القرآن والسنة الثابتة الصحيحة وعمل السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين ، وأن كل ما خرج عن هذه الأصول ، ولم يحظ لديها بالقبول – قولا كان أو عملا أو عقدا أو احتمالا – فإنه باطل من أصله مردود على صاحبه كائنا من كان في كل زمان ومكان ..." (١) و " فهوم أئمة السلف الصالح أصدق الفهوم لحقائق الإسلام ونصوص الكتاب والسنة " (٢).

ونجد بعض الفرق الضالة ومعهم بعض أهل العلم ممن ينتسب لأهل السنة قد انحرفوا في إسلامهم بسبب سوء فهمهم لنصوص الكتاب والحديث ، وهذا الفهم الفاسد ناشئ من بعدهم عن منهج السلف في فهم النصوص ، واتباعهم لمناهج أخرى مستحدثة أغلبها مبني على العقل ومتأثر بالثقافات الأخرى غير الإسلامية ، هذا ما دعا ابن باديس إلى أن يضع أصلا لمنهجه في التفسير ترجع إليه جميع قواعده التي سار عليها في دروسه القرآنية ، وما هذا الأصل إلا «الطريقة السلفية في تفسير القرآن» ، يبين هذا الشيخ البشير الابراهيمي بقوله " أتم الله نعمته على القطر الجزائري بختم الأستاذ عبد الحميد بن باديس لتفسير الكتاب الكريم درسا على الطريقة السلفية " (٣)

---

(١) عطار الطالبي ، ج ٣ – ص ١٦٣ .

(٢) ملحق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين . قانونها الأساسي ومباديها الإصلاحية مطبعة : دار الكتب الجزائر بدون تاريخ – ص ١٣ .

(٣) تفسير ابن باديس – ص ١٣ .

ومنهج السلف في التفسير والذي سبق التعبير عنه " بالطريقة السلفية " ينبني من الناحية الإجمالية على ثلاث قواعد : اللغة والنقل والعقل فهم قد "... تذرعوا لفهم القرآن ذريعتين : الذوق العربي الصحيح والسنة النبوية الصحيحة.. "(١) وهم - في مجال اللغة والنقل كما قال ابن باديس نقلا عن الشافعي - " أدوا إلينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وشاهدوه والوحي ينزل عليه فعلموا ما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم عاما وخاصا وعزما وإرشادا وعرفوا من سنته ما عرفنا وجهلنا ... " وهم - حتى في مجال العقل - " فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل وأمر استدرك به علم واستنبط به ، وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من رأينا عند أنفسنا ".

ويرى ابن باديس أن "كل فتنة كانت بين الفرق الإسلامية ناشئة عن مخالفة هذا الأصل"(٢)

فإذا تقرر - بما تقدم - أن طريقة السلف في تفسير القرآن وفهمه هي تفسيره باللغة والمأثور والمعقول فما على الباحث إلا أن يثبت أن ابن باديس هو كذلك اتبع هذه الطريقة باستعماله لهذه الوسائل الثلاث ولا شك أن شهادة الإبراهيمي على ذلك كافية عندما يقول - متحدثا عن ابن باديس - : " فسلك في درس كلام الله أسلوبا سلفي النزعة والمادة ، عصري الأسلوب والمرمى " ثم يبين لنا هذا الأسلوب السلفي فيقول " ... أما المعنى الصحيح لكتاب الله فيستجليه من البيان العربي والشرح النبوي ، ومن مقاصد الدين ، وأسرار

---

(١) تفسير ابن باديس ص ٢٤.

(٢) ابن باديس "الشهاب" ج ١١ مج ٥ ص ٢٤ - ٢٨.
غرة رجب ١٣٤٨ هـ - ديسمبر ١٩٢٩ م.

التشريع ، ومن عجائب الكون وسنن الله فيه ، ومن أحكام الاجتماع الانساني ، ومن تصاريف الزمن ، ونتائج العقول وثمرات العلوم التجريبية ... وكان من دواعي الغبطة ختم تفسير القرآن على هذه الطريقة في القطر الجزائري ... "(١)

قد يقول قائل : إنا نجد جل المفسرين يأخذون بهذه الوسائل الثلاث : اللغة والمأثور والمعقول ، ومع ذلك نجد لبعضهم تفاسير كثيرة باطلة ، وهم يزعمون أنهم يسيرون على طريقة السلف الصالح في الفهم ، وأقول : إنه ينبغي توضيح مسألة مهمة وهي :

إن اتباع طريقة السلف في التفسير لا يعني أن يعلن المفسر في مقدمة تفسيره أنه يفعل ذلك ، وإنما المراد أن يطبق منهجهم بالفعل ، وأي خروج عنه يلغي قوله : بأنه متبع لطريقتهم ، وكثير من المفسرين ينص بأنه يأخذ بما صح من حديث في التفسير ثم نجده يرد كثيرا منها بناء على قواعد غير قواعد علماء الحديث واتباعا للعقل المنحرف مدعيا أن هذا هو الفكر الصحيح والنظر الصائب ، ومنهم من يحمل اللفظ ما لم يحتمل من المعنى مدعيا أن هذا هو ما تدل عليه لغة العرب والقرآن نزل بها ، وهو في الحقيقة متبع لما استقر في ذهنه من معنى سابق وهكذا . وهذا كله راجع إلى أن العقل الذي يستعمله المفسر كآلة للتمييز بين الحق والباطل إذا لم يكن عقلا إيمانيا في فهم النصوص كعقول السلف الصالح فإنه لا يكون دقيقا في التفريق بين الحق والباطل ، وأقصد بذلك : أن يكون لدى المفسر تصورات وعقائد ومفاهيم وآراء ومبادئ وحقائق أساسها الإيمان والتسليم لما جاء عن الله تعالى في كتابه وعن رسوله في السنة النبوية فبهذا يكون عقله صحيحا ، وبالتالي يكون نظره إلى الأشياء وإدراكه لها ومعرفة النسب بينها إيجابا وسلبا سليما ، فالعقل المطلق

---

(١) عمار الطالبي — ج ٢ — ص ١٠٤ — ١٠٥ .

الذي لا ينتابه النقص والشهوة والهوى غير موجود في غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والغالب أن العقل البشري يتأثر بما حوله من أفكار وثقافات ومناهج وتصورات تكون هي المحددة لنمط تفكيره، والموجهة لأسلوب نظره وتعليله دون أن يشعر الإنسان بذلك وهذا النوع من العقل يرد كثيرا من المفاهيم والحقائق الدينية الصحيحة لاستبعاده وعدم استساغته لها ولو جاءت عن طريق نصوص صريحة إذ من السهل عليه أن يؤولها أو يتذرع بأي ذريعة لتضعيفها. ولا يمكن لأي مؤمن أن ينجو من هذا التأثر إلا إذا أشرب عقله وقلبه فهم السلف الصالح لحقائق الدين وأحكامه، أي أن يكون تصوره لأمور الدين كتصورهم لها، وبهذا يمكن له إذا أراد تفسير القرآن أن ينحو نحوهم ويسير سيرهم مستعملا نفس وسائلهم وهي اللغة والمأثور والعقل، وبهذا يستطيع أن يلتزم منهجهم في التفسير ولا يخشى على نفسه الميل يمينا أو شمالا، ولا يجمح به عقله، فهو يعمل وسط الإطار الذي حدد له وبنفس المنهج الذي اتبعه السلف.

هذا هو المراد باتباع طريقة السلف في التفسير، وقد فطن ابن باديس لسبب انحراف بعض المفسرين وهو عدم استعمالهم لصمام الأمان في تفكيرهم وما هذا الصمام إلا تنوير العقل بفهوم السلف الصالح لحقائق الدين قبل إطلاقه في مجال التفكير فيكون له ذلك بمثابة الآخِيَّة(×) التي ترده إليها كلما خيف عليه الجموح.

ولأهمية هذا الأمر جعله ابن باديس أصلا من أصول دعوته. قال في البيان الذي نشره إثر صلاة الجمعة بالجامع الأخضر بقسنطينة يوم ٤ ربيع الأول سنة ١٣٥٦ هـ تحت عنوان: "دعوة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأصولها" وبعد أن ذكر خمسة أصول مع شرح لبعضها قال:

"الأصل السادس: "فهوم أئمة السلف الصالح أصدق الفهوم لحقائق الإسلام ونصوص الكتاب والسنة"(١)

---

(١) ملحق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. مصدر سابق - ص١٣.
(×) الآخِيَّة: بالمد والتشديد عروة تربط إلى وَتِد مدقوق وتشد فيها الدابة
المصباح المنير ص٨

وأكثر خطإ الناس إنما كان في هذه الحقائق بسبب رغبتهم عنها إلى غيرها مما وصلوا إليه من ظنون وأوهام ثم اتسعت رقعة خطئهم فتطرق إلى أشياء أخرى نتيجة فساد الأولى ، والمبني على فاسد لا يكون إلا فاسدا .

وإذا كانت فهوم أئمة السلف لحقائق الإسلام ونصوص الكتاب والسنة هي أصدق الفهوم فإن المطلع عليها والآخذ بها يستفيد من جهتين :

الأولى : الإكتفاء بها عن محاولة إجهاد العقل للوصول إليها والاطمئنان على النفس من الزيغ والضلال .

الثانية : ينظر في المنهج الذي اتبعوه حتى وصلوا به إلى تلك الفهوم الصحيحة ، فيتخذه منهجا له في كشف المعاني الغالية من القرآن والحديث مستعينا بما عنده من تصور كامل صحيح عن حقائق الإسلام التي أخذها عن السلف الصالح .

وقد أشار ابن باديس إلى هذا عندما أعلن أن الخلاص مما نحن فيه لا يكون إلا بالعودة إلى علم القرآن وهديه وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه ، والتفقه فيه وفي السنة النبوية شرحه وبيانه والاستعانة على ذلك بإخلاص القصد وصحة الفهم والاعتضاد بأنظار العلماء الراسخين والاهتداء بهديهم في الفهم عن رب العالمين (١) .

وهنا أمر تحسن الإشارة إليه وهو أن الناس في طريقة استفادتهم من العقل على قسمين :

القسم الأول : عطلوه عن وظيفته بجمود التفكير ومالوا إلى التقليد .

---

(١) تفسير ابن باديس ص ٢٣٤ .

القسم الثاني : اندفعوا مع العقل بدون قيود ولا ضوابط حتى خرجوا بذلك عن حده ومجاله كما سبق أن بينا في كلامنا عن منهج المدرسة العقلية (١) ،

وابن باديس دعا إلى نبذ التقليد والجمود وإفساح المجال للعقل يفكر وينظر إلا أنه أدرك ما وقع فيه الذين ساروا مع العقل بشيء من الحرية المؤدية به إلى تجاوز الحد وعلم منشأ ذلك وأسبابه وهو أنهم لم ينطلقوا من تصورات سليمة وفهوم سديدة تضمن عدم خروج العقل عن مداره مع عمله الكامل في مجاله ، ولذا نجده يهتم اهتماما كبيرا بتقعيد القواعد ورسم الضوابط للتفكير السليم والنظر الصحيح في تفسيره حتى لا يقع الإنسان في أحد طرفي الانحراف وهما : الجمود القاتل والتحرر الكامل ، وسيجد القارئ تفصيل ذلك في المبحث الثامن من هذا الفصل (٢) .

---

(١) انظر ص (٧٩)

(٢) انظر ص (٢٠٦)

المبحث الثاني

القاعدة الأولى

العمل بالمنقول

ويقصد بالمنقول ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء كان متصلا بسند صحيح أو حسن إليه ، أو موقوفا على صحابي وهو مما لا يقال بالرأي .

ولأهمية هذه القاعدة جعلها ابن باديس أصلا من أصول دعوته ، فهي تأخذ الرتبة الرابعة بين الأصول العشرين ونصها :

" السنة القولية والفعلية الصحيحة تفسير وبيان للقرآن "(١)

والمتصفح لتفسيره يجد العديد من النماذج التي تؤكد أخذه بهذا الأصل فهو تارة يدعو - على شكل نصيحة وإرشاد وحث - إلى الأخذ والتمسك بالتفسير النبوي ، وأحيانا أخرى - وما أكثرها - يفسر عمليا آيات القرآن بالسنة النبوية ظاهرة عليه - من خلال كلامه علامات الفرحة والسرور لظفره بالتفسير النبوي وعثوره عليه .

فعند قوله تعالى " وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا "(٢) وبعد أن أورد حديثا في شأن بعض معاني هذه الآية الكريمة - قال : " وما أحسن التفسير تعضده الأحاديث الصحاح "(٣)

ومن الشواهد على أخذه بقول الصحابي الذي له حكم المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ما أورده عند قوله تعالى : " وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي

---

(١) ملحق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين - مصدر سابق - ص ١٣ .

(٢) سورة الفرقان آية ٥١ .

(٣) تفسير ابن باديس ص ٢٤٩ .

اتخَذوا هَذا القُرْآنَ مَهجُورًا[1] " من قول معاذ رضى الله عنه بنقل ابن القيم في إعلام الموقعين "تكُونُ فِتَنٌ وَيَكْثُرُ المَالُ وَيُفتَحُ القرآنُ حتى يقرأه الرجل والمرأة ، والصغيرُ والكبيرُ والمنافقَ والمؤمنَ فيقرأه الرجلُ فلا يُتَّبع فيقولُ واللهِ لأقرَأنهُ علانيةً ... " إلى آخر الحديث[2] وبعد أن نزّل الإمام هذا الأثر على الواقع الجزائري قال " وهذا الحديث وإن كان موقوفا على معاذ فهو في حكم المرفوع لأنه بمغيب مستقبل وهذا ما كان يعلمه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم إلا بتوقيف من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد تحقق مضمونه في المسلمين منذ أزمان ولاحول ولا قوة إلا بالله "[3] .

ولا زال ابن باديس يؤكد على ارتباط فهم القرآن بالسنة حتى بلغ به هذا التأكيد إلى حد أن جعل فقه القرآن متوقفا على فقه السنة النبوية الشريفة حينما قال "إن فقه القرآن يتوقف على فقه حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسنته[4] ... "

وعلى أساس هذا المفهوم فهو ينفي أن يكون بينهما أي تعارض أو تصادم بقوله "إن السنة النبوية والقرآن لا يتعارضان[5] .. "

ويعضد ابن باديس قوله في ــ أن السنة بيان للقرآن ــ بما جاء في القرآن الكريم من ذم لمن هجرها ونبذها بقوله " وعلمنا القرآن أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو المبين للناس ما نزل إليهم من ربهم وأن عليهم أن يأخذوا ما آتاهم

---

(١) سورة الفرقان آية ٣٠ .
(٢) إعلام الموقعين لابن القيم ــ طه عبد الرؤوف سعد . مكتبة الكليات الأزهرية ج ١ / ٦٠
(٣) تفسير ابن باديس ص ٢٣٤ .
(٤) المصدر السابق ص ٤٢١ .
(٥) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة .

وينتهوا عما نهاهم عنه فكانت سنته العملية والقولية تالية للقرآن فهجرناها ..." (١)

وكان كلما أرشد الى طريق الخلاص من الواقع الذى يعيشه المسلمون وحدد هذا الطريق بأنه " الرجوع الى القرآن " لا ينسى أن يذكر السنة التي تشرحه وتبينه كما جاء في قوله " لا نجاة لنا من هذا التيه الذى نحن فيه ... الا بالرجوع الى القرآن ... بالتفقه فيه وفي السنة النبوية شرحه وبيانه ..." (٢)

وفي أخذه بالسنة النبوية الشريفة كشرح للقرآن الكريم لا يفرق بين العقائد وغيرها من الأحكام الشرعية، بل خبر الواحد معمول به عنده في العقائد كما هو معمول به في بقية الأحكام الشرعية، فهو بقوله " لا نعتمد في اثبات العقائد والأحكام على ما ينسب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم من الحديث الضعيف ..." (٣) يفهمنا أنه يأخذ فيما ذكر بالحديث الصحيح والحسن.

والمطلع على تفسيره يرى مصداق ما التزم به غير ناقض له برد الأحاديث على غير الأساس الذى وضعه علماء الحديث فهو لا يطعن في حديث حكم رجال هذا الفن بصحته أو حسنه، وانما - اذا تعارض مع ما يؤديه النص القرآني من معنى أوله حتى يتفق معها كما فعل عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ لتنذر قوما ما انذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ (٤) اذ قال: " لما كان العرب لم يأتهم نذير قبل النبى صلى الله عليه وسلم بنص هذه الآية وغيرها فهم في فترتهم ناجون لقوله تعالى: ﴿ وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ (٥) و ﴿ أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولا نذير ﴾ (٦) وغيرهما وكلها آيات قواطع فى نجاة أهل الفترة، فأبوا النبي صلى الله عليه وسلم ناجيان بعموم هذه الآية ولا يعارض تلك القواطع حديث مسلم عن أنس رضي الله عنه " أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم: يارسول الله أين أبي؟ قال في النار فلما قفا الرجل دعاه فقال: " ان أبي وأباك فى النار " (٧) لأنه خبر آحاد فلا يعارض القواطع وهو قابل للتأويل بحمل الأب على العم مجازا يحسنه المشاكلة اللفظية ومناسبته لجبر خاطر الرجل وذلك من رحمته صلى الله عليه وسلم وكريم أخلاقه). (٨)

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٢٣٣. (٢) نفس المصدر السابق: ص٢٣٤.

(٣) تفسير ابن باديس ص: ١٣٧. (٤) يس، آية ٦.

(٥) الاسراء: ١٥. (٦) المائدة: ١٩.

(٧) صحيح مسلم، فؤاد عبد الباقي: ١/١٩١.

(٨) تفسير ابن باديس ص: ٣٧٧، تعليق: للعلماء فى أهل الفترة ثلاثة أقوال: القول الأول: انهم معذورون بأنهم لم يأتهم نذير. واستدلوا بآيات تدل على عذر أهل الفترة مثل (النساء ١٦٥) و (طه: ١٣٤) وغيرهما. القول الثاني: انهم مآخذون على كفرهم ولا عذر لهم واستدل أهل هذا القول بظواهر آيات وبأحاديث منها: (النساء ١٨-١١٦) وحديث " ان أبي وأباك فى النار " وغير ذلك من الأدلة. القول الثالث: (وهو قول المحققين) هو أنهم معذورون بالفترة فى الدنيا وان الله تعالى يوم القيامة يمتحنهم بنار يأمرهم باقتحامها فمن اقتحمها دخل الجنة وهو الذى كان يصدق الرسل لو جاءته فى الدنيا ومن امتنع دخل النار وعذب فيها وهو الذى كان يكذب الرسل لو جاءته فى الدنيا لأن الله يعلم ماكانوا عاملين لو جاءتهم الرسل ولهم من الأدلة مجموعة أحاديث تفيد ما قرروه.

انظر: تفسير ابن كثير وتفسير الشنقيطي (أضواء البيان) عند آية (وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا) الاسراء (١٥).

أو جمع بينهما ببيان ان لا تعارض بين ما تقرره الآية أو الآيات من معنى وما يفيده الحديث كما فعل عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾ (١) حيث قال : " وما أمرنا الله بالاستعاذة من شره (أي السحر) الا لأنه يؤثر في بعض النفوس القابلة للتأثر به حاشى النفوس المعصومة كنفوس الأنبياء فان شرور الدنيا وأسواءها لا تعدو أبدانهم الى أرواحهم.

ولا يتعاصى على هذه القاعدة ما ورد في سحر لبيد بن الأعصم اليهودي لرسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) وما يوهمه لفظ الرواية فان ذلك كله لا يخرج عن التأثر البدني" (٣).

أو عمل بهما معا أي بالآية والحديث معتمدا في ذلك على احدى طرق العمل بالنص التي يتبعها علماء الاسلام كأن يعتبر ما جاء في الحديث مستثنى من عموم الآية مثل حديث " عمر بن لحي أول من سيب السوائب وبدل في شريعة ابراهيم" (٤) الذى نص النبي صلى الله عليه وسلم على أنه في النار مع أنه يدخل في عموم أهل الفترة الناجين منها بنص آية الاسراء" (٥) (٦).

وهو في اعتماده على السنة لا يقتصر على أسباب النزول أو ما جاء نصا في تفسير الآية بل يتوسع فيأتي حتى بالأحاديث التي لها أدنى صلة بمعنى من معاني الآية. ولو نظر أحدنا في آية وحديث - ربط بينهما الامام - قبل الاطلاع على هذا الربط لأستبعد أن تكون بينهما صلة لشدة خفاء المناسبة التي تربط بينهما والتي لا تظهر الا للمتفقه في الكتاب والسنة كليهما ولذا يقول الامام " فقه القرآن يتوقف على فقه حياة النبي صلى الله عليه وسلم وسنته وفقه حياته يتوقف على القرآن وفقه الاسلام يتوقف على فقههما" (٧).

---

(١) الفلق : ٤ .
(٢) أخرجه البخاري . انظر فتح الباري : ١٠ / ٢٢١ ك : الطب . ب : السحر .
(٣) تفسير ابن باديس ص: ٤٨٦ .
تعليق : ما قاله ابن باديس هو الحق . يقول ابن القيم رحمه الله تعالى : " والسحر الذى أصابه كان مرضا من الأمراض عارضا شفاه الله منه ولا نقص في ذلك ولا عيب بوجه ما ، فان المرض يجوز على الأنبياء) . ويقول أيضا " فأما من أصيب في بدنه بمرض من الأمراض يصاب به الناس فانه لا يمنع ذلك من اتباعه . واعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان ، وانما قذفوهم بما يحذرون به سفهاءهم من أتباعهم وهو أنهم قد سحروا حتى صاروا لا يعلمون ما يقولون بمنزلة المجانين " وقال قبل ذلك : " وقالوا مسحور مثل مجنون أى زائل العقل لا يعقل ما يقول ، فان المسحور الذى لا يتبع هو الذى فسد عقله بحيث لا يدري ما يقول فهو كالمجنون . . . " انظر : التفسير القيم ص: ٥٦٧ - ٥٧٠ .
(٤) فتح الباري : ٦ / ٥٤٧ ك : المناقب ب : قصة خزاعة . ومسلم بشرح النووى : ٦ / ٢٠٣ ، ك : الكسوف .
(٥) سورة الاسراء ، آية ١٦ .
(٦) تفسير ابن باديس : ص ٣٧٧ .
(٧) تفسير ابن باديس : ص ٤٢١ .

المبحث الثالث

القاعدة الثانية

موقفه من الإسرائيليات

موقف المحققين من العلماء تجاه الإسرائيليات أنهم يقسمونها إلى ثلاثة أقسام

الأول : ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح .

الثاني : ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه فذاك مردود ومتروك .

الثالث : ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل فلا نؤمن به ، ولا نكذبه وتجوز حكايته إلا أن غالبه مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني (١) ، وأغلب ما يأتي من هذا القسم إنما يكون في تعيين المبهمات .

ومما هو جدير بالذكر أن ابن باديس كان موقفه واضحا من خلال هذه الأقسام الثلاثة .

فالأصل في الإسرائيليات عنده هو التثبت والتمحيص لأن الكثير منها مكذوب مدسوس في كتب التفسير لا يثبت أمام قواعد النقل ، ولا يستسيغ بعضه العقل ، ويتعارض مع ما في شريعتنا من حق ، ولكنه مع ذلك لم يرفض كل الإسرائيليات بل طبق عليها القانون السابق فقبل ما توافق مع شرعنا كصنيعه عند تفسير قوله تعالى "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ..." (٢) الآية حيث أورد بعض الشواهد من أسفار أهل الكتاب تبين بعض ما كانوا يخفونه قال رحمه الله " في أول الإصحاح العشرين من سفر اللاويين التصريح برجم الزناة

---

(١) أحمد بن تيمية ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي ، طبع بإدارة المساحة العسكرية بالقاهرة سنة ١٤٠٤ هـ - مج ١٣ - ص ٣٦٦ .

(٢) سورة المائدة آية ١٥ .

فأبطل أحبارهم هذا الحكم و عوضوه بغيره من التخفيف وكتموا النص فبينه لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم والقصة مشهورة في كتب السنن " (١) وقال أيضا بنفس المناسبة " جاءت صفات النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي لا تنطبق على غيره فكتموها ... " ثم جاء بشاهد من كتبهم على هذا الكتمان . وقال أيضا: " صرح عيسى عليه السلام بأن الله هو الإله وحده وأن عيسى رسوله فكتموها وقالوا فيه ما قالوا ... " (٢) ثم جاء بشاهد من كتبهم على كتمانهم هذا .

فاقتباس الإمام من كتب أهل الكتاب في معرض الإستشهاد على كتمانهم وتغييرهم وتحريفهم للكلم مبني على قاعدته في جواز حكايته لما لا يعارض القرآن ، بل يوافقه ويؤيده ، وقد أجاز النبي صلى الله عليه وسلم الحديث عن أهل الكتاب حينما قال " بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً ، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ .. " الحديث . (٣) قال ابن تيمية رحمه الله تعالى " ولهذا كان عبد الله بن عمرو بن العاص قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك ... " (٤)

ورد ما تعارض مع شرعنا كما فعل عند تفسيره لقوله تعالى " فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ .... " (٥) الآية قال رحمه الله تعالى " رويت في عظم ملك سليمان روايات كثيرة ليست على شيء من الصحة ومعظمها من الإسرائيليات الباطلة التي امتلأت بها كتب التفسير مما تلقى من غير تثبت وتمحيص ، من روايات كعب الأحبار ووهب بن

---

(١) تفسير ابن باديس . ص ٤١٨ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ٤١٩ .

(٣) فتح الباري ٦/٤٩٦ ك : الأنبياء ب : ما ذكر عن بني إسرائيل .

(٤) مجموع فتاوى شيخ الاسلام احمد بن تيمية مج ١٣ ـ ص ٣٦٦ .

(٥) سورة النمل آية ٢٢ .

منبه وروى شيئا من ذلك الحاكم في مستدركه وصرح الذهبي ببطلانه ، ومن هذه المبالغات الباطلة أنه ملك الأرض كلها مشارقها ومغاربها ، فهذه مملكة عظيمة بسبأ كانت مستقلة عنه ومجهولة لديه على قرب ما بين عاصمتها باليمن وعاصمته بالشام " (١)

ففي هذا المثال نلاحظ أن الشيخ الإمام عندما قال ببطلان هذه الروايات بيّن أنه ليس هو أول من أبطلها بل سبقه الذهبي الذي استنكرها على الحاكم ثم أوضح أن القرآن يردها .

وأجاز حكاية ما تردد بينهما أي بين الصدق والكذب ، كما أجازه المحققون من العلماء بناء على القاعدة السابقة الذكر لأن هذا القسم " يذكر للاستشهاد لا للاعتقاد " (٢) كذكره لأسماء بعض المبهمات دون تفصيل كتعيين اسم النبي الذي كان مع " طالوت " (٣) فان أقوال السلف اختلفت فيه ولم يأت فيه قول صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم فاختار ابن باديس من هذه الأقوال قول السدي بأنه " شمويل " (٤)

والملاحظ أن ابن باديس كان في تعامله مع الإسرائيليات يتميز ببصر ثاقب ورؤية نافذة فاحصة ، رصيد ذلك كله ثقافة غزيرة واطلاع واسع على تراث الماضين وأخبارهم .

---

(١) تفسير ابن باديس ص ٣٤٣ .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الاسلام احمد بن تيميه مج ١٣ ـ ص ٣٦٦ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٤٦ .

(٤) تفسير ابن باديس ص ٣١٢ .

المبحث الرابع

القاعدة الثالثة

عدم تحكيم الآراء والاصطلاحات المذهبية في كلام الله :ـ

حياة الإنسان كلها تابعة لفكره واعتقاده.هذه الحقيقة لا ينكرها إلا جاهل أو مكابر لأن التجربة والواقع والشرع يقرها وعلماء الإسلام صرحوا بها . فهذا ابن باديس يقول "سلوك الإنسان في الحياة مرتبط بتفكيره ارتباطا وثيقا : يستقيم باستقامته ويعوج باعوجاجه .." (١) ويقول أيضا معضد اذ لك بالدليل الشرعي "الباطن أساس الظاهر وفي الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله" (٢) (٣)

والقرآن أنزله الله تعالى على الناس ليغير ما عندهم من أفكار وعقائد وتصورات باطلة بعقائد وتصورات أخرى صحيحة فيؤدي بهم ذلك إلى تغيير سلوكهم الباطل بسلوك مستقيم ولن تستقيم الحياة إلا باستقامة هاتين الناحيتين : الفكر والسلوك وهذا ما يقرره كذلك ابن باديس بقوله "إذا شفيت الصدور من عقائد السوء ونزغات الشكوك واعتقدت الحق وارتبطت على اليقين زكت النفوس واستقام سلوك الإنسان فرده وجماعته" (٤)

وهذه المهمة العظيمة والقضية الخطيرة نجح فيها القرآن مع جيل الصحابة رضي الله عنهم والتابعين وأتباع التابعين الذين طرحوا كل ما عندهم من أفكار سابقة وأخذوا من القرآن دينهم كاملا عقيدة وشريعة ، فكرا وسلوكا ولم يتلكؤوا لحظة واحدة في نبذ كل ما ورثوه عن آبائهم من اعتقادات وتصورات وأفكار واستبدلوا بها ما جاء به القرآن .

---

(١) تفسير ابن باديس ص ١٣٣ .

(٢) هذا جزء من حديث "الحلال بين والحرام بين .." فتح الباري ١ / ١٣٤ ومسلم فؤاد عبد الباقي ٣/١٢١٩ .

(٣) تفسير ابن باديس ص ١٩٦ .

(٤) نفس المصدر ص ١٨٦ .

إلا أنه بمضي عصر الصحابة والتابعين وأتباع التابعين هذه القرون الثلاثة المفضلة واختلاط الأمم الأخرى بالأمة الإسلامية انتشرت الأفكار والعلوم الأجنبية من الفرس واليونان وغيرهما وكثرت الموالي في الإسلام وانتشرت الفرق والخلافات والأحزاب وحرص كل على تأييد مذهبه بالقرآن والحديث فأقبل على تفسيرهما وهو مقرر لأفكاره مسبقا محكّم أفكاره في نصوص الوحي مما يؤدي به إلى الوصول إلى معان باطلة يعتقدها صحيحة ويستميت في الدفاع عنها حتى الموت • ويسجل لنا ابن باديس هذا الانحراف فيقول : " إن اختلاف الأفكار والطباع ، مع اختلاف الأمم في الزمن الطويل أدى بالفرق الإسلامية إلى كثير من الاختلافات ، وكان من بين ذلك لا محالة ـ بدع دينية في الاعتقادات والأعمال وكل ذي بدعة لا بد معتقدا فيها صوابا وملتمسا لها دليلا "(١)

هذا الانحراف في فهم القرآن انتبه له العلماء في القديم كابن تيمية وابن القيم وغيرهما وفي العصر الحديث كابن باديس وسيد قطب وغيرهما وعرفوا أسبابه ودوافعه ونتائجه وبينوا علاجه • بل إن ابن باديس أدرك هذا الانحراف وهو شاب لم يتصدر المجالس ولا خاض غمار الدعوة والجهاد ، فأثناء دراسته بتونس كان متبرما بأساليب المفسرين وإدخالهم لتأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله ، ضيق الصدر من اختلافهم فيما لا اختلاف فيه من القرآن ولم ينشرح صدره ويزل عنه هذا الإشكال حتى ذاكر شيخه النخلي الذي شفى غليله بما نصحه به من أن يجعل ذهنه مصفاة لهذه الأساليب المعقدة وهذه الأقوال المختلفة وهذه الآراء المضطربة فيسقط الساقط ويبقى الصحيح ويستريح ، فأقسم ابن باديس بالله أنه بهذه الكلمة القليلة قد فتح عن ذهنه آفاقا واسعة لا عهد له بها •(٢)

---

(١) عمار الطالبي ـ ج ٤ ـ ص٢٤٣ •

(٢) انظر ص (٥٣) •

لا شك أن ما عابه ابن باديس على المفسرين مما سبب له تبرما وضيقا في الصدر لا يقع فيه هو أثناء تفسيره للقرآن ولهذا جعل من قواعد تفسيره عدم تحكيم الآراء في كلام الله ، فإذا أراد أحد أن يفهم القرآن كفهم السلف الصالح فليلغ كل الأفكار والتصورات والعقائد والمفاهيم الدخيلة على الإسلام وليدخل عالم القرآن ويعرض آياته — بعد الاستعانة بالسنة — على الفطرة والعقل " إذ لكل إنسان فطرته وعقله فعلينا إذا دعينا إلى شيء أن نعرضه عليهما راجعين إلى الفطرة الإنسانية وإلى العقل البشري منزهين عن الأغراض والاهواء والأوهام والشبهات "(١)

ثم ننظر بم يحكم القرآن على عقائد الناس وآرائهم وأفكارهم ؟ " فإذا حكم قبلنا وسلمنا وكنا مع ما حكم له وفارقنا ما حكم عليه فالله سماه الفرقان لنعلم أنه فارق بنفسه ولنعمل بالفرق به ولا يكمل إيماننا بأنه الفرقان إلا بالعلم والعمل "(٢)

فابن باديس رحمه الله تعالى — من خلال تفسيره — تراه يؤكد على هذه المسألة في كل مناسبة بأساليب مختلفة مبينا أن القرآن هو الذي ينشئ العقائد والتصورات والمفاهيم والحقائق . فإقبالنا على القرآن يكون " لبناء العقائد والأحكام والآداب عليه "(٣) وإذا أردنا " تطهير العقائد من الشرك والأخلاق من الفساد والأعمال من المخالفات ... فليكن دليلنا في ذلك وإمامنا كتاب ربنا وسنة نبينا وسيرة صالح سلفنا ففي كل ذلك ما يعرفنا بالحق ويبصرنا في العلم ويفقهنا في الدين "(٤) . فالقرآن وحده كاف لإمدادنا بالعقيدة الصحيحة دون حاجة

---

(١) تفسير ابن باديس ص ٣٨٥ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٥ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٣٤ .

(٤) نفس المصدر ص ١٦٤ .

الى ما اخترعه علماء الكلام - في زعمهم - من أدلة عقلية استوردوها من فكر جاهلي اغريقي " فأدلة العقائد مبسوطة كلها في القرآن العظيم بغاية البيان ونهاية التيسير "(١) .

وقد كان لهذه القاعدة أثر بارز في تفسير ابن باديس اذ كان يقرر مايفهمه من القرآن غير ملتفت لأي مؤثر لافهم السلف الصالح وماجرى على منواله من سديد فهوم الخلف فعند تفسيره لقوله تعالى ﴿ وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير .. ﴾(٢) " الآية قال رحمه الله تعالى " قد شوهد بالعيان في أنواع من الحيوانات حسن تدبيرها لأمر معاشها ، ودقة سعيها في جلب منافعها ودفع مضارها ، فمن الجائز أن يصل ادراكها بالفطرة الى ماوراء ذلك من وجود خالقها ورازقها . وهذا هو الذى أخبرنا به القرآن في هذه الآيات من أمر النملة وأمر الهدهد الآتيين من بعد . فنحن مؤمنون به لجوازه عقلا وثبوته سمعا(٣) ،

---

(١) نفس المصدر ص: ١٣٦ . (٢) سورة النمل ، آية رقم ١٦ .

(٣) اشترط المتكلمون - لقبول السمعيات - شرطين : الجواز العقلي والثبوت السمعي والشرط الأول هو العمدة عندهم ، فكل شيء رضيته نفوسهم قبلوه وقالوا في تعليل ذلك : " لجوازه عقلا وثبوته سمعا " وكل شيء لم يوافق عقولهم ردوه معللين ذلك بقولهم : " لاستحالته عقلا " واعتبروا ماجاء به النص الصحيح الصريح معارضا للعقل السليم وقاعدتهم في تعارض النقل مع العقل هي " اما أن يتأول النص واما أن يفوض " . وبهذا المنهج الباطل ردوا كثيرا من الحقائق الثابتة بنصوص قطعية الثبوت والدلالة .

يقول الجويني في الارشاد ص(٣٧٥) بعد أن جاء بمقدمة " فاذا ثبتت هذه المقدمة فيتعين بعدها على كل معتن بالدين واثق بعقله أن ينظر فيما تعلقت به الأدلة السمعية فان صادفه غير مستحيل في العقل وكانت الأدلة السمعية قاطعة في طرقها لا مجال للاحتمال في ثبوت أصولها ولا في تأويلها - فما هذا سبيله - فلا وجه الا القطع به " ويقول أيضا : " وان كان مضمون الشرع المتصل بنا مخالفا لقضية العقل فهو مردود قطعا لأن الشرع لا يخالف العقل " ويقول في موضع آخر " وكل ماجوزه العقل وشهدت له شواهد السمع لزم الحكم بقبوله " هذا المنهج سار عليه المؤلفون في العقائد حتى أنك ترى كتب المتأخرين مثل الجوهرة والسنوسية وغيرها - التي كانت تدرس في أكبر المراكز العلمية مثل الأزهر والزيتونة - لا تحيد عنه - يقول صاحب السنوسية الكبرى : " ان الاعادة (أى البعث) اما أن تكون بمعنى اعادة الجواهر بعد اعدامها أو بمعنى ضمها وجمعها بعد تبديدها وكلاهما ممكن وكل ممكن أخبر الصادق بوقوعه فهو حق فالاعادة حق " (ص٣٩٤) .

وأرجح أن ابن باديس لا يريد بكلامه هذا مايريده علماء الكلام للأمور التالية :-

١- قوله " اعتقد أن العبد لا يعلم الغيب وهو ماغاب عن الحواس ولا يوصل اليه بصحيح النظر ، فلا يعلم منه الا ماجاء في صحيح الخبر ، فيجب الايمان به حينئذ كما جاء بدون زيادة ولا تنقيص" العقائد الاسلامية (٨٨-٨٩) فهو قد قصر تقبل الغيبيات على صحيح الخبر . ومافي الجملة الأخيرة من التوضيح المؤكد لا يخفى .

٢- قوله : " يجب فيما يرد من الأخبار عن اليوم الآخر أن يحمل على ظاهره ولو كان غير معتاد في الدنيا ، لأن أحوال العالم الآخر لا تقاس على أحوال هذا العالم " التفسير : ٢٤٧ .

٣- علماء الكلام مثل المعتزلة اعتمدوا على هذه القاعدة في نفي الصفات وكثير من الغيبيات وكثير من الاشعرية نفوا بها الصفات مثل الاستواء والنزول وغيرهما وابن باديس اتبع في كل هذا مذهب السلف فهو يقول : " نثبت الاستواء والنزول ونحوهما " . انظر ص(٤١) من هذه الرسالة وعند شرحه وتعداده لما يجب اعتقاده في اليوم الآخر من بعث ، ووزن أعمال وصراط ، وجنة ونار ، وان العذاب للأرواح والأجساد . . . الخ لم أجده ذكر هذا التعليل الا مرة واحدة وذلك عند كلامه عن البعث حيث قال : " نؤمن بأن الله تعالى يحيينا بعد الموت ، = =

مثل سائر السمعيات .(١)

ومسألة " المشيئة " التي تدخل في القضاء والقدر والتي دار حولها الجدل كثيرا وتشعبت فيها الأقوال والآراء واشتد النزاع بسبب تحكيم علماء الكلام آراءهم وأهواءهم في كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم عندما دخلوا عالم القرآن والسنة بمقررات فكرية سابقة وطلبوا من النصوص أن تشهد لها وركبوا في سبيل ذلك كل صعب فتعبوا وأتعبوا وضلوا وأضلوا ، هذه المسألة لما تعرض لها ابن باديس لم يزد على أن نظر الى الآيات التي تقرر أن مشيئة الله هي المهيمنة ونظر الى الآيات التي تقرر - كذلك - أن للانسان مشيئة في أقواله وأفعاله ، والقرآن كله من عند الله وهو حق وصدق ثم قال - تاركا الحرية المطلقة للنصوص لتحكم وتقرر - : " نعتقد أن العبد لا يخرج في جميع تصرفاته عن مشيئة الله ، غير أن له اختيارا يجده بالضرورة من نفسه ، ومشيئة يجدها كذلك فيما يمكنه من أفعاله كان بهما مكلفا ، ثم هو لا يخرج بهما عن مشيئة الله ".(٢)

وبهذا الفهم العميق والعرض السهل أعطى ابن باديس خلاصة ما تناحر عليه رجال الفرق دهرا .

= = ويعيدنا بأرواحنا وأجسادنا . . . " الى أن يقول" اذ ذلك جائز في قدرته وواجب في عدله وحكمته " العقائد (١٢٠) .

فلعله كان يريد بقوله " لجوازه عقلا " أن العقل يقر ويشهد ويؤيد أو يريد بالجواز ما يقابل الاستحالة المعروفة عند علماء السلف لا ما يعرفها علماء الكلام ، أو أن كلامه هذا جاء من باب الخطأ أو الانزلاق أحيانا الى عبارات المتكلمين لتأثره بهم .

(١) تفسير ابن باديس : ص ٣٢٤ .

(٢) ابن باديس - العقائد الاسلامية - ص: ٨٧ .

المبحث الخامس

القاعدة الرابعة

العقل ليس طريقا للغيبيات

المقصود بالغيبيات عند ابن باديس " هو ما غاب عن الحواس ولا يوصل إليه بصحيح النظر ، فلا يعلم منه إلا ما جاء في صحيح الخبر " (١) ويدخل في هذا كل ما كان من عالم الآخرة كالبعث والحساب والميزان والصراط والحوض والجنة والنار ... إلخ وهذا ما عبر عنه الإمام بقوله " أحوال ما بعد الموت كلها من الغيب " (٢) ، ويلحق بهذا ما هو في حكمه حتى ولو كان موجودا أو وجد في الدنيا مثل الملائكة والجن وأشراط الساعة والمعجزات وما قصه القرآن من أحداث تاريخية أو أخبر عن مجيئها ، ويضاف إلى هذه كذلك ما غاب عنا حتى ولو كان مما يدرك بالحواس لكن نعجز عن إدراكه لبعده عنا مثل ما غمض من عالم الأفلاك فإنه غيب حتى يوفق الله الإنسان إلى إدراك شيء منه ففي ذلك الوقت ترتفع عنه صفة الغيبية ، يقول الإمام :
" ومثل هذا (أحوال ما بعد الموت) كل ما كان من عالم الغيب مثل الملائكة والجن والعرش والكرسي واللوح والقلم وأشراط الساعة .. " ثم يضيف عبارة عامة ليشمل كلامه حتى ما ذكرنا من عالم الشهادة البعيد عن إدراكنا فيقول " وما لم يصل إليه علم البشر " (٣)

فمنهج ابن باديس في معرفة هذه الغيبيات أن لا يعتمد العقل طريقا لمعرفتها وإنما يوكل ذلك إلى النصوص الشرعية الصحيحة من قرآن وحديث كما جاء في

---

(١) ابن باديس ـ العقائد الاسلامية ص ٨٨ .

(٢) تفسير ابن باديس ـ ص ١٣٨ .

(٣) نفس المصدر ص ١٣٨ .

قوله " نعتقد أن العبد لا يعلم الغيب وهو ما غاب عن الحواس ولا يوصل إليه بصحيح النظر فلا يعلم منه إلا ما جاء في صحيح الخبر فيجب الإيمان به حينئذ كما جاء بدون زيادة ولا تنقيص "(١) ٠

والقيد الذي وضعه في الآخر مهم جدا لأن كثيرا ممن يدعون الإيمان بالغيب يدخلون عقولهم في الغيبيات بالتأويل والتحريف محاولين بذلك إخضاعها لما استقر عندهم من معنى لها سابق تقرر لديهم أصبح هو الأصل الذي يقاس عليه ما ورد في النص وهم مع ذلك يزعمون أنهم يؤمنون بالغيب ٠

وفي تفسيره نصوص كثيرة تبين أن القاعدة التي سار عليها في موقفه من الغيبيات هي الإيمان بها كما جاءت بها النصوص ولا دخل للعقل إلا بالفهم والتأييد ٠ ويعتبر ما جاءت به النصوص هو العلم الحق كقوله عن الغيبيات " لا نقول فيها إلا ما كان لنا به علم " ثم يوضح هذا العلم بقوله " بما جاء في القرآن العظيم أو ثبت في الحديث الصحيح "(٢) ٠

فابن باديس يبني موقفه هذا على ركيزتين اثنتين :

الأولى : أن للعقل مجالا لا يتعداه ، هذا المجال هو الذي مكنه الله تعالى من البحث فيه بما آتاه من وسائل وأسباب تجعله قادرا - إلى حد ما - على اكتشاف غوامضه إذا هو اتبع الطريق الصحيح للنظر والتفكير ، وقد يعجز في كثير من الأحيان - حتى في هذا المجال - عن الوصول إلى حقائق الأشياء ، ففي مجاله هذا له أن يحاول وأما غير هذا المجال فلا داعي للمحاولة أبدا لأن الوحي الصادق أخبرنا بأن هذا ليس من ميدان العقل فليرح نفسه مسبقا ، وهذا من " لطف الله بالإنسان أن جعل لعقله حدا يقف عنده وينتهي إليه "(٣)

---

(١) ابن باديس - العقائد الاسلامية ص ٨٨ ٠

(٢) تفسير ابن باديس - ص ١٣٨ ٠

(٣) نفس المصدر - ص ٣٥٩ ٠

الثانية : التسليم التام لما جاءت به النصوص بالإيمان به كما جاء وفهمه على ظاهره دون تأويل أو تعطيل أو تحريف كما قال ـ عند حديث حشر الكافر على وجهه ـ "من هذا الحديث علمنا أنه يجب فيما يرد من الأخبار عن اليوم الآخر أنه يحمل على ظاهره ولو كان غير معتاد في الدنيا"(١)

فالركيزة الأولى مستلزمة للثانية التي تنتج عنها

والذين يطلقون لعقولهم العنان فيتجاوزون بها حدودها ثم نراهم يردون أشياء كثيرة من الغيبيات بمجرد استبعاد العقل وعدم استساغته لها وهم في ذلك يقيسون ما لم يدركه العقل وليس مما هو في قدرته بما أدركه وتعوّد عليه في عالم الشهادة ناسين "أن ما نسميه (العقل) • ونريد أن نحاكم إليه ما قررته النصوص •••• هو إفراز واقعنا البشري المحدود وتجاربنا البشرية المحدودة"(٢) ـ قد انحرفوا انحرافا بعيدا ، هذا الانحراف يعالجه الإمام ابن باديس بكلمة واحدة عندما يقول "أحوال العالم الآخر لا تقاس على أحوال هذا العالم"(٣).

إذًا فلا مجال للعقل المحكوم بمؤثرات هذا العالم في العالم الآخر ، وما دام الشيء مما يجوز عقلا فمتى ورد من طريق صحيح فهو من السمعيات التي نؤمن بها كما قال ابن باديس(٤).

---

(١) تفسير ابن باديس ص ٢٤٧ • والحديث سيأتي نصه وتخريجه في ص ٢٠٨ •

(٢) في ظلال القرآن : ج ٦ ـ ص ٣٩٧٩ ـ الطبعة السابعة ـ ١٣٩٨ ـ ١٩٧٨ ـ دار الشروق •

(٣) تفسير ابن باديس ص ٢٤٧ •

(٤) انظر ص (١٦٠) •

المبحث السادس

القاعدة الخامسة

الإعتماد على سديد المعقول

والمراد بذلك فهوم السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين من أهل القرون الثلاثة المفضلة وكذلك فهوم غيرهم من العلماء الذين ساروا على طريقهم واستقاموا على منهاجهم ممن جاء بعدهم إلى يومنا هذا .

وإذا كانت العودة في كل ميادين حياة الناس إلى حياة السلف أمرا ضروريا فإنها في ميدان فهم نصوص القرآن والحديث أشد ضرورة لا نبناء العمل على ذلك الفهم ولذلك كان تأكيد الإمام على هذه النقطة خاصة أكثر ، فهو يعزو تفرق الأمة واختلافها من قديم الزمان – وما نتج عن هذا التفرق من مصائب وبلايا لا زالت تعيش الأمة في ضنك منها إلى اليوم – إلى اختلاف الناس في فهمهم للنصوص ورغبتهم عن فهم السلف ، ويرى أن الحل : في نبذ كل ما سوى قول السلف واعتقادهم وعملهم المبني على فهمهم لأنه كما يقول ابن باديس "لا يقف بالجميع عند حد واحد إلا دليل واحد وهو : التزام الصحيح الصريح مما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وكان عليه أصحابه ، فكل قول يراد به إثبات معنى ديني لم نجده في كلام أهل ذلك العصر نكون في سعة من رده وطرحه وإماتته وإعدامه كما وسعهم عدمه ، ولا وسع الله على من لم يسعه ما وسعهم ، وكذلك كل فعل ديني لم نجده عندهم وكذلك كل عقيدة ، فلا نقول في ديننا إلا ما قالوا ، ولا نعتقد فيه إلا ما اعتقدوا ولا نعمل فيه إلا ما عملوا ، ونسكت عما سكتوا فهم كما قال الشافعي ..." [1] ثم جاء

---

(١) ابن باديس الشهاب ، ج ١١ – مج ٥ ص ٢٤ – ٢٨ .

بقول الشافعي السابق الذكر بتمامه ثم أردفه بقوله "كل فتنة كانت بين الفرق الإسلامية ناشئة عن مخالفة هذا الأصل" (١)

وقد جعل تفسيرهم هو العمدة بعد تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم ففي مقدمة تفسيره ـ وهي الخطبة التي كان يفتتح بها دروسه ـ يقول ـ وهو بصدد الحديث عن تفسير الألفاظ ـ "معتمدين في ذلك على صحيح المنقول وسديد المعقول مما جلاه أئمة السلف المتقدمون أو غاص عليه علماء الخلف المتأخرون رحمة الله عليهم أجمعين" (٢)

والمقصود بـ (صحيح المنقول) ما سبق الحديث عنه في المبحث الثاني من هذا الفصل وبـ (سديد المعقول) موضوع هذا المبحث .

على أن ابن باديس ـ في اعتماده على هذا الأصل في التفسير ـ يذهب إلى أبعد من هذا حينما يعتبر سلوك السلف الصالح وحياتهم العملية صورة صادقة لمعاني القرآن والحديث فهي عنده بمثابة تفسير لهما ، فهم اللذين مثلوا الإسلام أحسن تمثيل عقيدة وسلوكا .

ولأهمية هذا الأصل وخطورته ومكانته في الإسلام جعله أصلا من أصول دعوته حينما نص عليه بقوله :

"سلوك السلف الصالح "الصحابة والتابعين وأتباع التابعين" تطبيق صحيح لهدي الإسلام" (٣) وأما ما ورد عنهم من فهم فهو أصدق فهم بنص الإمام كذلك حيث يقول "فهوم أئمة السلف الصالح أصدق الفهوم لحقائق الإسلام ونصوص الكتاب والسنة" (٤)

---

(١) انظر ص (١٤٥) .

(٢) تفسير ابن باديس ص ٣٥ .

(٣) ملحق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ص ١٣ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

ومن هذين النصين يتضح أن الإمام يستوي عنده قول السلف وفعلهم في اعتبارهما تفسيرا للنصوص، ولعله من خلال تفسيره للنص التالي يظهر ذلك جليا قال رحمه الله تعالى — عند قوله تعالى: «وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ...» الآية [(١)] وبعد أن بين ما كان لسليمان عليه الصلاة والسلام من أنواع الجند وطريقة تنظيمهم وما لهم من أعوان ورؤساء يتولون جمعهم وقيادتهم وصورة النظام الدقيق الذي يحكمهم: "تعرض علينا الآية هذه الصورة التاريخية الواقعية تعليما لنا وتربية على الجندية المضبوطة المنظمة.

ولا شك أن الخلفاء الأولين قد عملوا على ذلك في تنظيم جيوشهم، وأن مثل هذه الآية كان لها الأثر البليغ السريع في نفوس العرب لما أسلموا فسرعان ما تحولوا إلى جنود منظمة مما لم يكن معروفا عندهم في الجاهلية ..." [(٢)]

ومن الأدلة — كذلك — على مكانة السلف عنده ما يضفيه على بعضهم من ألقاب تدل على إكباره وإجلاله لهم واعترافا منه برسوخهم في الفهم والعلم حتى بلغوا درجة لا تسول لأحد نفسه أن يدنو منها، يفعل ذلك أحيانا عندما يروي عن أحدهم تفسيرا مثلا أو حكمة كقوله في مجاهد التابعي: "قال مجاهد التابعي الجليل الثقة الثبت المفسر الكبير ..." [(٣)]

وهو كثيرا ما يوصي من أراد فهم القرآن أن يستعين "بأنظار العلماء الراسخين والاهتداء بهديهم في الفهم عن رب العالمين.." [(٤)]

---

(١) سورة النمل آية ١٧.

(٢) تفسير ابن باديس ص ٣٢٧.

(٣) نفس المصدر ص ٢٩٨.

(٤) نفس المصدر ص ٢٣٤.

على أنه مما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام أن ابن باديس يشترط فيمن يأخذ عنه من غير الصحابة رضي الله عنهم شرطين :

الأول : الاستقامة على طريق الصحابة في القول والعمل

الثاني : الرسوخ في العلم .

وهو يفعل هذا ليأمن على نفسه الزيغ والضلال .

واستقامة العالم تعرف بتعديل العلماء الثقاة له وقد بين هذا بقوله - وهو يتحدث عن الوسائل التي نستعين بها على فهم القرآن - : " وما جاء من التفاسير المأثورة وما نقل من فهوم الأئمة الموثوق بعلمهم وأمانتهم ، المشهود لهم بذلك من أمثالهم ... "(١)

وطريقة استفادته من أقوال العلماء مبنية على النظر والاستقلال في التفكير لا على الجمود والتقليد ، فهو ينظر في فهوم المفسرين السابقين ليعرف - على حد قوله - تفكير غيره فيستعين به ثم لا بد له من استعماله فكره هو بنفسه ، وبهذا التفكير الاستقلالي يصل المفسر إلى ما يطمئن له قلبه ويسمى - حقيقة - علما ، وبه يأمن الوقوع فيما أخطأ فيه غيره ، ويحسن التخلص منه إن وقع فيه .(٢)

ويصف الشيخ الإبراهيمي طريقة صديقه ابن باديس في الاستفادة من أقوال العلماء فيقول: وقد قرأناه في بعض افتتاحيات مجلة " الشهاب " أنه يعتمد في هذه الدروس على تفاسير مخصوصة في مواضع مخصوصة كالطبري في المأثور والكشاف في أسرار الإعجاز ، وذلك صحيح ومفيد لمن يجعل فهوم الرجال مقاييس لفهمه ولا يعطيها أكثر من أنها فهوم تصيب وتخطيء ، أما المعنى الصحيح لكتاب الله فيستجليه من البيان العربي

---

(١) نفس المصدر ص ٣٦٢ .

(٢) الشهاب ج٨ م١١ - شعبان ١٣٥٤ - نوفمبر ١٩٣٥م - ص ٤٥٢

والشرح النبوي .. ومن مقاصد الدين وأسرار التشريع ... "إلى أن يقول " حتى ختم تفسير القرآن على هذه الطريقة ... "(١)

وهو بهذا يسير على شعاع كلمة شيخه النخلي التي نصحه بها حتى قال ـ مبينا أثر هذه الكلمة في حياته العلمية ـ: " لم يكن في حياتي العلمية مِنْ لَا رِفتٍ للقرآن إلا تلك الكلمة التي سمعتها من الشيخ النخلي ، وقد فعلت فعلها في نفسي وأوصلتني في فهمي إلى الدرجة التي تحمدونها اليوم ... "(٢)

وكان حريصا على الاطلاع على أقوال علماء التفسير قبل إعطاء رأيه في معنى اللفظ أو الآية مداوما على ذلك ، ومما يشهد على هذا بعض أقواله من مثل " وقد اتفق الكاتبون على " الاية " ممن رأينا على أن المراد من لفظة " الآية " في الموضعين واحد "(٣) ومثل قوله " هي بلقيس بإجماع المفسرين والمؤرخين "(٤) ومثل قوله ـ بعد أن ذكر وجهين في شمول آية " أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا "(٥) لأوقات الصلوات الخمس :

" الثالث : ولم أره لأحد "(٦) ومثل هذا القول أقوال أخرى تبين اجتهاده الخاص بعد اطلاعه الكامل على أقوال المفسرين .

ومن خلال تتبعي لمواطن ذكره لأقوال السلف وجدته بصيرا بقواعد الأخذ ، مدركا لطريقة السلف في فهمهم للقرآن وتفسيرهم له ، مما يجعلنا نجزم

---

(١) عطار الطالبى ـ ج ٢ ـ ص ١٠٥ .

(٢) عطار طالبى ـ ج ٢ ـ ص (١٤٠ ـ ١٤٢).

(٣) تفسير ابن باديس ص ٦٠ عند تفسيره لاية " وجعلنا الليل والنهار آيتين ... " الاسراء ١٢ .

(٤) نفس المصدر ـ ص ٣٤٤ عند تفسيره لاية " إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ... " النمل ٢٢ .

(٥) سورة الاسراء آية ٧٨ .

(٦) تفسير ابن باديس ص ١٧٤ .

بأنه كان يسير في كل أعماله على قواعد مرسومة وحقائق علمية ثابته ، ومناهج مسطرة . وهو يشبه في هذا ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله في تنظيم الفكر وعدم عشوائيته ، ولا غرابة في ذلك لأنه كان متأثرا بهما سائرا على نهجهما دون تصريح منه في دروسه أوكتاباته خوفا من أن تثور عليه ثائرة أهل الطرق وأتباعهم .

ويحسن بي — فيما يلي — أن أتناول بعض هذه القواعد التي اعتمدها أساسا لطريقته في الاستفادة من تفسير الصحابة وأئمة السلف :

القاعدة الأولى : معرفته بالطرق الصحيحة في تفسير الصحابة :

فابن عباس — رضي الله عنهما — ورد عنه التفسير من طرق وأصحها عند أهل العلم طريق علي بن أبي طلحة ، وهو ما قرره علماء هذا الفن ، ونجد ابن باديس يعتمد كثيرا على قول ابن عباس الوارد من هذه الطريق مبينا لنا بأنها هي أصح طرقه مثل : قوله — عند تفسير الآية " وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ "(١) : " الأرض : جنس الأرض الدنيوية لأن هذا اللفظ موضوع لها فإذا أطلق انصرف إليها وبهذا فسرها ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة وهي أصح طرقه "(٢)

القاعدة الثانية : تخريجه لاختلاف السلف في التفسير :

كثيرا ما يأتي الاختلاف في التفسير عن السلف الصالح ، إلا أن هذا الاختلاف أغلبه اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد كأن يفسروا اللفظ الواحد بعدة تفسيرات كلها تدخل في عمومه ، أو يعبروا عن المراد بعبارات مختلفة وهي في الحقيقة كلها تدل على المسمى المفسر مع اختلاف يسير في المعنى كدلالة أسماء الله الحسنى على مسمى واحد وهو (الله) جل جلاله مع اختلاف بينها بسبب اختلافها في تضمن كل منها لصفة

---

(١) سورة الأنبياء ١٠٥ .

(٢) تفسير ابن باديس ص ٤٤٥

معينة[١]

هذه الحقيقة في تفسير السلف نص عليها ابن باديس في عدة مواطن من تفسيره فعند قوله تعالى "قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا"[٢] وبعد أن أورد تفسير ابن مسعود رضي الله عنه لكلمة "لزاما" : بيوم بدر وتفسير الحسن : بعذاب يوم القيامة قال "ومن عادة السلف أنهم يفسرون اللفظ بما يدخل في عمومه دون قصد للقصر عليه ولا منافاة حينئذ بين التفسيرين ......"[٣]

وعند تفسيره لقوله تعالى "فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"[٤] قال : "وقد ذكر المفسرون في تفسير "الفتنة" أشياء على وجه التمثيل لا على وجه الحصر والتحديد ، فذكروا الكفر والقتل والاستدراج بالنعم وكل هذا قد أصاب المسلمين"[٥]

القاعدة الثالثة : توجيهه تفسير المفسر من السلف :

إذا ذكر ابن باديس لبعض علماء السلف تفسيرا معينا وخفي وجه ذهابه إلى هذا القول بادر إلى تبيين ذلك بالشرح حتى تدرك العلاقة بين المفسَّر - بفتح السين - والتفسير ، وما استند عليه ومثال ذلك أنه بعد أن ذكر أن ابن عباس رضي الله عنهما فسر "عذابا شديدا" في قوله تعالى "لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا ...."[٦] الآية بنتف ريشه قال

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية - مج - ص ٣٣٣

(٢) سورة الفرقان ٧٧ .

(٣) تفسير ابن باديس ص ٢٠٥ .

(٤) سورة النور ٦٣ .

(٥) تفسير ابن باديس - ٤٣٢ .

(٦) سورة النمل ٢١ .

" ليس في الآية ما يفهم خصوص نتف الريش من لفظ " العذاب الشديد " وإنما فهم ابن عباس رضي الله عنهما وأئمة من التابعين ذلك بالنظر العقلي والاعتبار . فإن نتف ريشه يعطل خاصية الطيران فيه فيتحول من حياة الطير إلى حياة دواب الأرض وذلك نوع من المسخ ، وقد علم أن المسخ في القرآن أشنع عقوبة في الدنيا فلهذا فسروا العذاب الشديد بنتف الريش "(١)

فهذه المسائل الثلاث وهي : معرفة أصح الطرق في تفسير السلف ، ونوع اختلافهم ، وتوجيه تفسيرهم ، مسائل مهمة لأن المفسر بدون معرفتها لا يتمكن من الاستفادة من التفاسير التي أثرت عن السلف ، وبسبب جهل مثل هذه القواعد رد كثير من المفسرين التفسير بالمأثور واستغنوا عنه بغيره من اللغة أو العقل مما أدى بهم إلى الانحراف في فهم القرآن ، وبعضهم جمع كل أقوال السلف وحشرها في تفسيره دون تمييز لها فأوقع القارئ في ارتباك شديد لا يدري الصواب منها .

على أن هناك مسألة رأيت أن أتعرض لها هنا وهي طريقته في تفسير آيات العقيدة ، والأحكام الفقهية ، والأخلاق لصلتها بهذا المبحث من حيث إنه سار فيها على منهج السلف الصحابة والتابعين وأتباعهم .

أولا : آيات العقيدة :

بين ابن باديس قيمة العقيدة في الإسلام بأنها هي السبب في كل ما يصدر عن الشخص من خير وشر " لأن أفعاله ناشئة عن اعتقاداته ، وأقواله إعراب عن تلك الاعتقادات ..."(٢) والله سبحانه وتعالى أعطى للتوحيد درجة لم تعط للأحكام

---

(١) تفسير ابن باديس ص ٣٣٨ .

(٢) تفسير ابن باديس ص ١٣٣ .

الأخرى إذ هو " أساس الدين كله ، والأصل الذي لا تكون النجاة ولا تقبل الأعمال إلا به ، وما أرسل الله رسولا إلا داعيا إليه ، و مذكرا بحججه ، وقد كانت أفضل كلمة قالها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي كلمة " لا إله إلا الله " وهي كلمته الصريحة فيه ، ولا تكاد سورة من سور القرآن تخلو من ذكره والأمر به والنهي عن ضده .. " (١)

ولذلك فقد كانت العقيدة من المسائل المهمة التي عني بها ابن باديس في تفسيره ، بحيث أن القارئ له كثيرا ما يجد مثل قوله "ولنبدأ من الإيمان بتطهير عقائدنا من الشرك ... " (٢) وقوله " شفاء العقائد والأخلاق ـ وهما أساس العمل ـ والمجتمع هذه الثلاثة لا تكاد تخلو آيات القرآن من معالجتها وبيان ما هو شفاء لها ... " (٣) وقوله " ... إن الذي نوجه إليه الاهتمام الأعظم في تربية أنفسنا وتربيـــة غيرنا هو تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق فالباطن أساس الظاهر .. " (٤)

هذه العقائد وبما لها من أهمية ومكانة في الدين ، وما لها من أثر علـى عمل المسلم وسلوكه انحرف فيها الناس انحرافا خطيرا فكان ذلك سبب بلاء هذه الأمة إلى اليوم ، ويتلخص هذا الانحراف في أمرين اثنين :

أولهما : الاعتماد على مصادر غير التي اعتمد عليها السلف .

ثانيهما : الابتعاد عن طريق القرآن والسنة في تقرير مسائلها والتدليل عليها .

يذكر ابن باديس هذا الانحراف بكل مرارة فيقول " بسط القرآن عقائـــد الإيمان كلها بأدلتها العقلية القريبة القاطعة فهجرناها ، وقلنا تلك أدلة سمعيــــة

---

(١) نفس المصدر ص ٨٢ .

(٢) نفس المصدر ص ١٦٤ .

(٣) نفس المصدر ص ١٨٧ .

(٤) نفس المصدر ص ١٩٦ .

لاتحصّل اليقين ، وأخذنا في الطرائق الكلامية المعقدة واشكالاتها المتعددة واصطلاحاتها المحدثة مما يصعب أمره على الطلبة فضلا عن العامة " (١) ويقول أيضا " وأما إهمال آيات القرآن المشتملة على العقائد وأدلتها والذهاب مع تلك الأدلة الجافة فإنه من استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير ... " (٢)

ونهج في تفسيره وشرحه للحديث ودروسه الأخرى نهج السلف في بيان العقائد وتعليمها للناس وما هذا النهج إلا الاقتصار والاكتفاء بما جاء في القرآن والسنة مع فهمها بنفس فهم السلف دون زيادة أو نقصان ، وجعل العمل والاتباع ثمرة للعلم بهذه المسائل دون إيغال في الجدل وتقصي المسائل بلا طائل جريا على مذاهب المتكلمين وهكذا كان منهج الإمام مالك لما سئل عن الاستواء قال " الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ... " (٣)

ويمكن من خلال التأمل في أقواله العديدة تحديد أربعة أسس بنى عليها منهجه في دراسة العقائد وهي :

(١) الكتاب والسنة هما المصدران الوحيدان للعقائد .

(٢) طريقة القرآن والسنة هي الطريق الوحيد لبيان العقائد والاستدلال عليها .

(٣) فهم السلف هو الفهم الصحيح لآيات وأحاديث العقائد .

(٤) العمل بآيات وأحاديث العقائد بدل الجدل بمسائلها

---

(١) تفسير ابن باديس ص ٢٣١ .

(٢) الشهاب ج ١٠ - م ٧ جمادي الثانية ١٣٥٠هـ - أكتوبر ١٩٣١م ص ٦٠٤

(٣) البيهقي - الاعتقاد - المطبعة العربية - باكستان ص ٤٣ .

أما الأساس الأول والثاني فقد مرت أقوال للإمام تدل عليهما (١) وقد أملى على تلاميذه دروسا في العقائد جمعت في كتاب بعنوان "العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية" ٠ ومن هذا العنوان نفهم طريقته في تدريس العقائد والمطلع على هذا الكتاب يعلم ان ابن باديس قد سلك طريق السلف في الاستدلال وفي الفهم فكان يقرر المسألة في كلمات قلائل واضحة لا غموض ولا لبس فيها بعبارات سهلة متجنبا كل المصطلحات الكلامية حريصا على أن يكون الكلام مفهوما لجميع الناس ثم يتبعها بنصوص كثيرة من الآيات والأحاديث الصحيحة دون إشارة أو تعليق أو شرح وهكذا جميع المسائل التي تضمنها هذا الكتاب ٠ ونفس الطريقة اتبعها في تفسيره مع شيء من التوسع في الشرح والاستدلال ٠

وسأكتفي بإيراد مثالين : الأول من تفسيره والثاني من دروسه التي أملاها على تلاميذه ٠

المثال الأول

أثناء تفسيره للآيات الست الأولى من سورة (يس) قال :

" عقائد وأدلتها من هذه الآيات :

العقيدة الأولى : محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله

(١) دليلها الأول : القرآن الحكيم الذي جاء به رجل أمي ما قرأ ولا كتب ولا دارس العلماء ولا عرف الكتب ٠

(٢) ودليلها الثاني : موافقة دعوته صلى الله عليه وسلم لدعوة المرسلين صلوات الله عليهم إلى عبادة الله وحده وتصديق ما جاءهم به من عنده دون أن يسألهم على ذلك أجرا ٠ وهذا من قوله تعالى "إِنَّكَ لَمِنَ

---

(١) انظر ص (١٤٤)

المُرْسَلِينَ" (١) فهو من المرسلين من جهة إرساله لأنه منهم في أقواله وأفعاله نظير قوله تعالى "قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ" (٢) وقوله "بَلْ جَاءَ بِالحَقِّ وَصَدَّقَ المُرْسَلِينَ" (٣) وقوله "إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ" (٤)

(٣) ودليلها الثالث : هذا الدين الكامل الجامع الذي هدى به النوع الإنساني أفرادا وجماعات إلى ما فيه سعادته ، فأطلق فكره ، وسدد نظره ، وقوم عقائده ، وهذب أخلاقه ، ونظم اجتماعه ، ووضع له قواعد الحياة والعمران على العدل والإحسان ، ووجههم إلى خالقهم وما أعد لهم عنده من النعيم المقيم والرضوان التام .

(٤) ودليلها الرابع : سلوكه هو في حياته على هذا الصراط المستقيم من يوم عرف الدنيا حتى فارقها فكان يمثله على أكمل وجه ، ولا يخل بشيء منه ، ثابتا عليه لا يحيد قيد شعرة عنه ، دون أن تحفظ عنه زلة ، ولا تعرف منه في القيام به والدعوة إليه فترة (x) ، ولا تقف أمامه قوة ، ولا ترد له حادثة عزمة (xx) ، ولا تحمله على هوادة فيه (xxx) رغبة ولا رهبة ، ولا تبدل حاله رخاء ، ولا شدة ، فكان في كرم خلقه وتمام زهده ، وعظيم تألهه (xxxx) وتوجهه لربه بعد ما فتح الله له الفتح المبين ، ودخل الناس أفواجا في الدين ، كما كان أيام كان وحيدا بين أعظم أعدائه من المشركين ، وما هذا من شأن البشر وطبعهم لولا عصمة وتأييد رب العالمين" (٥) .

---

(١) سورة يس آية ٣ .

(٢) سورة الاحقاف آية ٩ .

(٣) سورة الصافات ٣٧ .

(٤) النساء آية ١٦٣ .

(٥) تفسير ابن باديس ص ٣٧١ .

(x) الفترة : الانكسار والضعف الصحاح ٢/ ٧٧٧

(xx) العزمة : ارادة الشيء والقطع والجد والاجتهاد في فعله الصحاح ٥/ ١٩٨٥ والمصباح ٤٠٨

(xxx) الهوادة : الصلح والميل الصحاح ٢/ ٥٥٨

(xxxx) التأله : التنسك والتعبد الصحاح ٦/ ٢٢٢٤

المثال الثاني : قال رحمه الله تعالى :

" الإيمان في الوضع الشرعي : هو قول باللسان وعمل بالقلب وعمل بالجوارح فمن استكمل ذلك استكمل الإيمان ، ومن لم يستكمله لم يستكمل الإيمان لقوله تعالى :

" إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ (١) .. "

" إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٢) "

ولقوله صلى الله عليه وآله وسلم " لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ " رواه الشيخان عن أنس (٣).

ولقوله صلى الله عليه وآله وسلم : (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٤) " رواه الشيخان عن أنس ولقوله صلى الله عليه وآله وسلم " الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، والحياءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ (٥) " رواه الشيخان رحمهما الله عن أبي هريرة رضي الله عنه (٦) " .

ثم إن العقائد عند ابن باديس لا يكتفي فيها بتحديد مفاهيمها الصحيحة بأدلتها القرآنية والحديثية بل يزيد فيقرر — على مذهب السلف — أن الإيمان ليس

---

(١) الانفال آية ٢ .

(٢) الحجرات ١٥ .

(٣) فتح الباري ج ١/ص ٦٣ ، ومسلم : فؤاد عبد الباقي ج ١/٦٧ .

(٤) فتح الباري ج ١/ص ٦٤ ومسلم فؤاد عبد الباقي ج ١/٦٧ .

(٥) فتح الباري ج ١/٥٧ ومسلم : فؤاد عبد الباقي ج ١/٦٣ .

(٦) ابن باديس — العقائد الاسلامية — ص ٥٤ .

هو التصديق فقط ولا التلفظ بالشهادتين فقط ، ولا هو المشاعر التي تجيش في الصدر ولا هو الأفكار التي تختزن في الذهن دون أن يكون لكل ذلك آثار في الواقع وسلوك في الحياة ، بل الإيمان - كما هو معروف في مذهب السلف - "قول باللسان وعمل بالقلب وعمل بالجوارح"(١) . أما هذه المعرفة الباردة لمسائل التوحيد التي انتشرت بين الناس والتي ليس لها من أعمال الخير والطاعات أي رصيد فهي دليل على أحد أمرين :

(١) إما جهل الناس بحقائق التوحيد .

(٢) وإما عدم إيمانهم بما يقولون .

لأن "العمل الصالح ما هو إلا ثمرة من ثمرات الإيمان الدال وجودها على وجوده وكما لها على كماله ونقصها على نقصه وعدمها على اضطرابه ووشك انحلاله واضمحلاله"(٢)

وبهذه العبارة الموجزة والمحكمة يقرر ابن باديس أن العمل هو الهدف والمقصد من العلم والإيمان وهذا هو الفرق الجوهري بين جهل اليوم وأجيال السلف ، ولا بد للأمة من أن تسير على نفس الطريق ، طريق العمل والاتباع بما آمنت وعلمت لا طريق التذوق والمتعة والفلسفة والجدل .

فالغاية إذًا من دراسة التوحيد هي معرفة حقائقه كما عرفها السلف والعمل بهذه المعرفة كما فعل السلف في صدر الإسلام ، أما الاكتفاء بجمع المعلومات في علم التوحيد بقصد الثقافة والجدال والشهرة والظهور وليقال : فلان عالم في التوحيد فهذا ما لم يعرفه السلف الصالح ، لذلك نجد ابن باديس في تفسيره يجمع بين هاتين النقطتين المهمتين وهما :

---

(١) انظر ص(١٧٧)

(٢) تفسير ابن باديس ٢٧٩ .

(١) بيان حقائق التوحيد كما فهمها السلف سالكا في ذلك طريقتهم ومنهجهم في البيان .

(٢) بيان كيفية الاستفادة منها في الناحية العملية ، وأثر معرفتها والإيمان بها على سلوك الفرد والجماعة والأمة ، والواجب علينا بعد فهمها وعقد القلب عليها من التحرك في واقع الحياة بدفع منها وسيرا على هداها حتى تتغير حياتنا مما نحن فيه إلى حياة إسلامية كما كان سلفنا رضوان الله عليهم .

لذا هو يحرص باستمرار على استخلاص الفائدة العملية في تفسير الآيات ذات العلاقة بالعقيدة ، فعند تفسير لقوله تعالى "تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ"(١)

قال رحمه الله تعالى :

" الإسلام دين العزة والرحمة :

ذكر من أسمائه تعالى في هذا الموطن "العزيز الرحيم" ، للتنبيه على أن هذا الدين الذي نزله الرب الموصوف بالعزة والرحمة هو دين عزة ورحمة .

ومن مقتضى العزة القوة والمنعة والرفعة ، ومن مقتضى الرحمة الفضل والخير والصلحة ، وهذه كلها متجلية في أحكام الإسلام ،

والعدل والإحسان اللذان أمر الله بهما وانبنت أحكام الإسلام عليهما لا يكونان إلا عن العزة والرحمة ، فالذليل لا ينهض بالحكم ولا يقيم ميزان العدل ، والقاسي لا يكون منه إحسان " ثم أردف قائلا :

" اهتداء واقتداء :

فالمسلم المتحقق بالإسلام المهتدي بهدايته لا يكون إلا عزيزا رحيما

---

(١) سورة يس آية ٥

فالذلة من المسلم نقص في إسلامه والقساوة مثلها نقص فيه ، وقد ذكر الله تعالى سادة المسلمين في عزتهم فقال " وَالذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ "(١) وذكرهم في رحمتهم فقال " وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ "(٢) ونعم القدوة هم لجميع المسلمين "(٣)

وكان كثيرا ما يبين زيف الإيمان الذي عليه أكثر الناس في عصره وأنه لا ينهض بهم مثله كقوله : " لكن هذا الإسلام الوراثي لا يمكن أن ينهض بالأمم "(٤)

وقال عند تفسيره لقوله تعالى " ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون "(٥) " فعلى الأمم التي تريد أن تنال حظها من هذا الوعد أن تصلح أنفسها الصلاح الذي بينه القرآن فأما إذا لم يكن لها حظ من ذلك الصلاح فلا حظ لها من هذا الوعد وإن دانت بالإسلام "(٦)

وأعود إلى الكلام عن منهجه في الاستفادة من مسائل العقيدة فأورد بعض النماذج الدالة على ذلك :

فعند تفسيره لقوله تعالى " لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فهم لا يؤمنون "(٧) قال : " قد أحاط الله بكل شيء علما فعلم من سيطيعه ومن سيعصي ، ولكنه الحكم العدل فلم يكن ليجازيهم على سابق علمه فيهم الذي لا دخل لهم فيه بل جعل

---

(١) الشورى ٣٩ .

(٢) الحشر ٩ .

(٣) تفسير ابن باديس ٣٧٤ .

(٤) الشهاب ج ٣ - م ١٤ - ربيع الأول ١٣٥٧ هـ - ماي ١٩٣٨ م ص ١٠٦

(٥) الأنبياء ١٠٥ .

(٦) تفسير ابن باديس ٤٤٨ .

(٧) يس - آية ٧ .

جزاءهم بعد إقامة الحجة عليهم بما يكون من اختيارهم ليكون جزاؤهم على ماعملوا وما قدمت أيديهم وما لهم دخل فيه بالكسب والاكتساب " ثم أضاف :

" تعليم :

أرأيت كيف أن الله تعالى لم يجاز الخلق على مقتضى علمه فيهم وهو العلم الذي لا يتخلف - وإنما جعل جزاءهم على أعمالهم .

فهذا تعليم لنا كيف تكون معاملتنا بعضنا لبعض ، فلا نجازي على مجرد الظن بل ولا على مجرد اليقين وإنما تكون المجازاة بعد صدور الأعمال ، فرب شخص قدرت فيه الخير أو الشر ففعل ضد ما قدرت فلو جازيته قبل الفعل لما طابق جزاءك موضعه ولنال كل مالا يستحقه ، فالحكمة والعدل والمصلحة في ربط المجازاة بالأعمال . وهذا ما كان من الله في مجازاة خلقه وهذا ما ينبغي أن نربط به المجازاة بيننا "(١)

وبعد انتهائه من الكلام عن اختلاف العلماء في كفر تارك الصلاة قال " وكفى زاجرا للمرء عن ترك الصلاة أن يختلف في إيمانه هذا الاختلاف "(٢)

ونفس الشيء في القاتل عمدا قال " ما أعظم هذا الذنب وما أكبره !

ونعوذ بالله من ذنب اختلف أئمة السلف في قبول توبة مرتكبه ، وقد أجمعوا على قبول توبة الكافر ولعظم شأن الدماء كانت أول ما يقضى فيه يوم القيامة بين الخلق فإياك أيها الأخ أن تلقى الله تعالى بمشاركة في سفك قطرة من دم ظلما ولو بكلمة فإن الأمر صعب والموقف خطير ...!! "(٣)

---

(١) تفسير ابن باديس ص ٢٨٢ .

(٢) نفس المصدر ص ١٧٧ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٨٤ .

وعند تفسيره لقوله تعالى "قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً" (١) قال :

" فإنَّ علمنا بأنه أعلم بمن هو أهدى سبيلا ، يدعونا إلى المبالغة في تقويم سلوكنا حتى نكون على الصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه فإنه هو أهدى الطرق واقربها ... " (٢)

ثانيا : آيات الأحكام :ـ

أما منهجه في آيات الأحكام فيقوم على القواعد التالية :

(١) يقف عند تقرير المسائل الأساسية دون الذهاب مع التفريعات والتشعبات التي محلها كتب الفقه لا التفسير ، يقول بهذا الشأن : " يجب أن يقتصر في الفقه على تقرير المسائل دون تشعباتها " (٣) لأن القرآن نفسه لم يفصل في كثير من الأحكام الفقهية بل اكتفى بذكر أمهات المسائل ، وعلى المفسر حينئذ أن يقف عند تفسير هذه الأمهات لا يتجاوزها إلى التفصيل المؤدي إلى خروج البحث عن مجال التفسير إلى مجال الفقه وبذلك يضيع القصد الأول من إنزال القرآن وهو الهداية ، يقول الإمام ـ مشيرا إلى هذه النقطة ـ " بين القرآن أصول الأحكام وأمهات مسائل الحلال والحرام ووجوه النظر والاعتبار مع بيان حكم الأحكام وفوائدها في الصالح الخاص والعام .. " (٤)

(٢) يقتصر في ذكر الخلاف على الأقوال الصحيحة .

---

(١) سورة الاسراء ٨٤.

(٢) تفسير ابن باديس ـ ص ١٩٧ .

(٣) الشهاب ـ ج ١٠ ـ م ٧ ـ جمادي الثانية ١٣٥٠ هـ ـ اكتوبر ١٩٣١ م ص ٦٠٤

(٤) تفسير ابن باديس ، ص ٢٣١ .

(٣) يربط المسائل بأدلتها ويكشف عن القواعد الأصولية التي انبنت عليها ، ويبحث في المسألة على هذا الأساس غير متعصب لمذهب ثم ينظر في أدلة الجميع ويرجح ، يقول بشأن هذه النقطة: " أدلة الأحكام أصولها مذكورة كلها فيه ـ أي القرآن ـ وبيانها وتفاصيلها في سنة النبي صلى الله عليه وسلم الذي أرسل ليبين للناس ما نزل إليهم ..[1]" ويقول أيضا ـ وهو بصدد الحديث عن حالة السواد الأعظم من أهل العلم في وقته وقبله مبينا طريقة قراءتهم للفقه ونتائجها السلبية وعلاجها: "إن ما عندهم من الفروع المقطوعة عن الأصول لا يسمى علما ، ولما لم تكن عندهم الأصول تاهوا في الفروع المنتشرة ، ومحال أن يضبط الفروع من لم يعرف أصولها ... فإذا كان الحال هكذا من تلك الأيام وقد مضت عليه القرون في هذه البلاد وغيرها فإن قلعه عسير ، والرجوع بالتعليم إلى التفقه في الكتاب والسنة وربط الفروع بالمآخذ والأدلة أعسر وأعسر غير أن ذلك لا يمنعنا من السعي والعمل بصدق الرجاء وقوة الأمل وسننفذه في دروسنا ....[2]"

(٤) يبين حِكَم الأحكام وعللها ـ كما قال ـ مبينا الواجب على المسلم نحو شرع الله ـ " هو الفهم لنصوص الآيات والأحاديث ، ومقاصد الشرع وكلام أئمة السلف وتحصيل الأحكام وحِكَمها ...[3]"

(٥) يربط الأحكام بالعقيدة .

أدرك ابن باديس ـ كما أشرت سابقا[4] ـ إلى أن قيام الإنسان بالشرائع التي فرضها الله عليه لا يمكن إلا إذا عمر قلبه بالعقيدة الصحيحة القوية ، فلا

---

(١) نفس المصدر ـ ص ١٣٦ .

(٢) الشهاب ج ١٢ ـ مجلد ١٠ شعبان ١٣٥٣هـ نوفمبر ١٩٣٤م ص ٥٢١

(٣) تفسير ابن باديس ـ ص ٣٦٢ .

(٤) انظر ص (١٧٣)

تستطيع أي قوة أرضية أن تلزمه بتحمل هذه التكاليف ، وإن فعل فإنما يفعلها في الظاهر ولفترة ثم ينفلت منها ، أما إذا تغلغلت العقيدة الإسلامية الصحيحة في نفسه وسكنت الحقائق الإيمانية قلبه فإن الجوارح تنبعث في طاعة الله بصورة عجيبة لا تكل ولا تمل .

فابن باديس يؤكد على هذه الحقيقة تأكيد من اكتشف أصل الأدواء ومنبعها وهو فساد عقائد الناس وانطفاء جذوتها من نفوسهم ، مما أدى إلى اختفاء الإسلام الصحيح من حياتهم والاكتفاء بالأسماء والأشكال عن الحقائق والأعمال ، ولذا نجده في تفسيره — لا يترك فرصة تمر إلا ويقف عند هذه القضية المهمة وقفة يشرح ويوضح ويبين ويؤكد بشتى أنواع الأساليب ومختلف أقسام التعابير كقوله " وصلاح القلب — بمعنى النفس — بالعقائد الحقة والأخلاق الفاضلة ، وإنما يكونان بصحة العلم وصحة الإرادة ، فإذا صلحت النفس هذا الصلاح صلح البدن كله بجريان الأعضاء كلها في الأعمال المستقيمة ، وإذا فسدت النفس من ناحية العقد أو ناحية الخلق أو ناحية العلم أو ناحية الإرادة فسد البدن وجرت أعمال الجوارح على غير وجه السداد (١) ...

ولهذا كان يبين السر في وجود آيات العقيدة والأخلاق متوسطة آيات الأحكام كقوله " قد أمر الله تعالى في الايات المتقدمة (٢) بعبادته وتوحيده والإخلاص له وأمر ببر الوالدين والإحسان إليهما في الظاهر والباطن كما أمر بغير ذلك في الآيات اللاحقة ووضع هذه الاية (٣) أثناء ذلك وهي متعلقة بالنفس وصلاحها ... لينبه الخلق على أصل الصلاح الذي منه يكون ، ومنشوءه الذي منه يبتدئ فإذا صلحت النفس

---

(١) تفسير ابن باديس ص ٩٦ .

(٢) أي (وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه ...) الايات الاسراء ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥

(٣) قوله تعالى " ربكم أعلم بما في نفوسكم " الاسراء ٢٦ .

قامت بالتكاليف التي تضمنتها هذه الآيات الجامعة لأصول الهداية وهذا هو وجه ارتباط هذه الآية بما قبلها وما بعدها الذي يكون قبل التدبر خفيا .

ونظير هذه الآية - في موقعها ودلالتها على ما به يسهل القيام بأعباء التكاليف - قوله تعالى : " حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ "[1] فقد جاءت أثناء آيات أحكام الزوجية آمرة بالمحافظة على الصلوات تنبيها للعباد على أن المحافظة عليها على وجهها تسهل القيام بأعباء تكاليف تلك الآيات لأنها تزكي النفس بما فيها من ذكر وخشوع وحضور وانقطاع إلى الله تعالى وتوجه إليه

---

(١) البقرة ٢٣٨ .

ومناجاة له ، وهذا كله تعرج به النفس في درجات الكمال، والنفوس الزكيه الكاملة تجد في طاعة خالقها لذة وأنسا تهون معهما أعباء التكاليف "[١]

ويقول أيضا " وفي افتتاح الآيات بقوله تعالى " لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا "[٢] وختمها بقوله تعالى " وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا "[٣] بيان من الله تعالى لخلقه ، بأن الدين هو أصل هذه الكمالات كلها وهو سياج وقايتها ، وسور حفظها ، وأن التوحيد هو ملاك الأعمال وقوامها ومنه بدايتها وإليه نهايتها ..."[٤]

وأورد الآن بعض النماذج من تفسيره التي تلقي الضوء على القواعد الأربع السابقة في هذا المطلب (آيات الأحكام) .

عند تفسيره لقوله تعالى " وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ ..."[٥] الآية قال : " هل كان قيام الليل فرضا عليه صلى الله عليه وآله وسلم دون أمته بمقتضى قوله تعالى " نافلة لك " ؟

قد ذهب إلى هذا جماعة كثيرة من أهل العلم سلفا وخلفا .

ويرد عليه أن توجيه الخطاب إليه لا يقتضي تخصيص الحكم به كما في آية " أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ "[٦] وآيات كثيرة ولأن قيام الليل يقع من غيره فيسمى نافلة اتفاقا .

---

(١) تفسير ابن باديس ـ ص (٩٧) .
(٢) سورة الاسراء ـ آية (٢٢) .
(٣) سورة الاسراء آية (٣٩) .
(٤) تفسير ابن باديس ـ ص ١٤٦ .
(٥) سورة الاسراء ـ آية (٨٠) .
(٦) سورة الاسراء ـ آية (٧٩) .

ولحديث عائشة رضي الله عنها : "إِنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ في أولِ هذِهِ السورة – تعني سورة المزمل – وهي مكية : " قم الليل " (١) فقام النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابُه حَوْلًا وأمسك اللَّهُ خاتِمَتَها اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا حَتَّى أنزلَ اللَّهُ في آخرِ هذه السورةِ التخفيف (٢) فصار قيامُه تطوعًا بعد فَرْضِه " رواه مسلم (٣) .

فهذا يدل على أنهم فهموا أن الأمر من قوله تعالى " قم " لهم معه مع أنه موجه إليه بخطاب الإفراد ، وأنه كان فرضا عليه وعلى الناس فصار تطوعا عليه وعلى الناس .

ولحديث المغيرة بن شعبة في الصحيحين (٤) وغيرهما : "قَامَ رسولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم حتى تَوَرَّمَتْ قدماه " – وهذا لمداومته على القيام كل ليلة ببضع عشرة ركعة – فقيل له : قد غَفَرَ لَكَ اللهُ ما تقدم من ذنبك وما تأخر . قال أفلا أكونَ عَبْدًا شَكُورًا ؟" .

فلو كانوا يعلمون أن قيام الليل واجب عليه ، ويفهمونه من القرآن لما أنكروا – مشفقين – عليه أن يقوم بما هو واجب عليه .

ولأن قوله : " أفلا أكون عبدا شكورا " : يفيد أنه متطوع بهذا القيام باختيار ، ليؤدي شكر نعمة ربه عليه .

---

(١) سورة المزمل آية (١) .

(٢) من قوله تعالى "إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي " إلى آخر السورة .

(٣) كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض جزء ١ ص ٥١٢ فؤاد عبد الباقي .

(٤) فتح الباري ج ٣ ص ١٤ كتاب التهجد باب قيام النبي صلى الله عليه وسلم الليل : ومسلم : كتاب صفات المنافقين واحكامهم ، باب اكثار الاعمال والاجتهاد في العبادة ج ٤ ص ٢١٧٢ فؤاد عبد الباقي .

فان قيل : إن السؤال والجواب راجعان إلى تورم قدميه وذلك ناشيء عن المداومة •

قيل : إذا أنكر الشيء الناشيء عن المداومة فقد أنكرت المداومة ، والمداومة على الفرض لا تنكر فبقي الدليل سالما •

ولهذا كله قال هؤلاء المور دون : إن قيام الليل تطوع ونفل في حقه وفي حق أمته •

وبقي للأولين أن يقولوا :

إن قوله تعالى " عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا "(١) خاص به صلى الله عليه وسلم إتفاقا • وقد جعل جزاء لتهجده بالليل ، ولما كان الجزاء خاصا به فالعمل المجزى عنه خاص به أيضا فلهذا حملنا قوله على معنى (دون غيرك)

ولما رأيناه واظب على التهجد ولم يتركه حملناه على أنه كان مفروضا عليه ، وحملنا " نافلة " على معنى " أنها فريضة زائدة فوق الصلوات الخمس " •

فيقول المخالفون في هذا :

إنكم حملتم النافلة على الفريضة ، وهذا خلاف أصل معناها الذي هو التطوع •

وأما ما ذكرتم من خصوص الجزاء به فإنا نقول : إن الخطاب موجه له في الأول وفي الآخر • ففي الأول لما لم يعارضنا معارض ألحقنا به أمته • وفي الثاني لما منعنا مانع وهو اختصاصه بالمقام المحمود لم نلحقهم به • وبقي الجزاء مساويا للعمل في صورة اللفظ حيث كان كل منهما موجها إليه •

وإذا تأملت في هذا البحث الذي سقناه أدركت أن القول بعدم الخصوصية هو الراجح •

---

(١) الاسراء (٨٠) •

فالآية حث وترغيب على قيام الليل للعموم ، ووعد له صلى الله عليه وآله وسلم بالمقام المحمود ."[1]

وفي هذا المثال تظهر طريقة ابن باديس في معالجته للمسائل الخلافية في الفقه .

وأما طريقته في بيان حكم الأحكام فقد سبق عنها نماذج في فصل "أهدافه في التفسير"[2] .

ثالثا : آيات الأخلاق :

اهتم ابن باديس في تفسيره وغيره من الأعمال بجانب الأخلاق الذي أهمله المسلمون في عصره واقتصروا على بعض الاعتقادات المشوهة والأقوال المزورة وكأن الإسلام لا شأن له في حياة الفرد والمجتمع ، وقد مر قوله " شفاء العقائد والأخلاق ـ وهما أساس العمل ـ والمجتمع . هذه الثلاثة لا تكاد تخلو آيات القرآن من معالجتها وبيان ما هو شفاء لها .."[3] مما يبين لنا أنه كان مهتما بهذه النواحي الثلاث في تفسيره ، وكيف لا يهتم بها وهو يعتبر أن " تكميل النفس الإنسانية هو أعظم المقصود من إنزال الكتب وإرسال الرسل وشرع الشرائع .."[4] ؟

لذلك نجده قد عني عناية شديدة بهذا الجانب ـ أي الأخلاق ـ في تفسيره . فهو تارة يبين منبع الأخلاق ومنشأها وهو النفس " لان المكلف المخاطب من الإنسان هو نفسه . وما البدن إلا آلة لها .."[5]

---

(١) تفسير ابن باديس ١٨٠ ـ ١٨٢ .

(٢) انظر ص (١٣٢)

(٣) تفسير ابن باديس ص ١٨٧ .

(٤) نفس المصدر ص ٩٦ .

(٥) نفس المصدر والصفحة .

وتارة أخرى يبين أن العقائد هي أصل الأخلاق ، التي "إذا شفيت منها الصدور زكت النفوس واستقام سلوك الإنسان"(١) وأن الأعمال تابعة لهما فتصلح بصلاحهما وتفسد بفسادهما"(٢) ، وأحيانا يبين الطريق لإصلاح الأخلاق وتهذيبها بأنه لا يخرج عن تربية النفس التي هي منبع الخير والشر بتزكيتها التي بها فلاحه(٣) ، وهذه التزكية قد بينها القرآن أكمل بيان فلا ينبغي لمسلم أن يرغب عنها إلى غيرها مثل ما فعلت طوائف من المسلمين فهجروا القرآن وابتدعوا من عند أنفسهم أساليب فاسدة لتزكية أنفسهم . هذه النقطة أشار إليها ابن باديس بقوله : "وبين القرآن مكارم الأخلاق ومنافعها ومساوئ الأخلاق ومضارها وبين السبيل للتخلي عن هذه والتحلي بتلك مما يحصل به الفلاح لتزكيه النفس والسلامة من الخيبة بتدسيتها فهجرنا ذلك كله ووضعنا أوضاعا من عند أنفسنا واصطلاحات من اختراعاتنا خرجنا في أكثرها عن الحنيفية السمحة إلى الغلو والتنطع وعن السنة البيضاء إلى الاحداث والبدع ، وأدخلنا فيها من النسك الأعجمي والتخيل الفلسفي ما أبعدها غاية البعد عن روح الإسلام ..."(٤)

ويعطي رأيه في التصوف الذي اتخذه بعض الناس طريقا لتربية النفس وتزكيتها فيقول "التنسك الإسلامي هو تجريد التوحيد وتزكية النفس وتقويم الأعمال وتصحيح النية ومحاسبة النفس ومراقبة الله في جميع الأعمال والزهد في

---

(١) نفس المصدر ص ١٨٦ .

(٢) نفس المصدر ص ١٨٧ .

(٣) نفس المصدر ص ٩٦ .

(٤) تفسير ابن باديس ٢٣١ .

الدنيا والعمل للآخرة والمبالغة في العبادات المشروعة والاعتصام بالورع موزونا ذلك كله ومضبوطا بالكتاب والسنة وما كان عليه أهل القرون الثلاثة ، الصحابة والتابعون وأتباع التابعين رضي الله عنهم أجمعين ، وهذا هو الذي يراد بالتصوف إذا جاء اسم التصوف في كلام علماء السنة والأثر[(١)] "تفسيره مشحون بالكلام المنوع عن الأخلاق التي تناولها الإمام من كل النواحي بغية إصلاحها والدلالة على طريق ذلك .

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام أن لابن باديس نظرية خاصة في هذا المجال سأوسع الحديث عنها في مبحث " التربية " المندرج ضمن فصل " منهج دعوته " بحول الله وقوته .

والمقصود من الكلام على هذه الأنواع الثلاثة من الأحكام : (العقائد ، والأحكام الفقهية ، والأخلاق) هو بيان أن ابن باديس كان ينهج في فهمها والعمل بها منهج السلف الصالح ، هذا المنهج الذي اتخذه طريقا في جميع أعماله .

---

(١) عمار الطالبي : ابن باديس حياته وآثاره . ج ٤ ـ ص ١٩٨ .

المبحث السابع

القاعدة السادسة

جواز اشتمال القرآن على مالا يفهم معناه

و هذا يشمل نوعين : مالا يفهم معناه إلى الأبد أي ما يختص الله تعالى بعلمه به وحده ونوع آخر قد يخفى معناه على أهل عصر وينكشف لأهل عصر آخر فكلا هذين النوعين يدخلان فيما لا يفهم معناه •

هذه المسألة محل خلاف بين العلماء وتكاد تكون أدلة الفريقين متكافئة مما جعل القولين متعادلين وأقصد بالقولين : أولهما الذي جعلته عنوانا لهذا المبحث والثاني عكسه •

ومنشأ الخلاف عدة أمور أهمها الخلاف في محل الوقف بين القراء في آية " ...وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ ... "(١) فهل هو على اسم الجلالة أم على كلمة العلم(٢) واختلافهم في معنى " التأويل " و " المحكم " و " المتشابه " واختلافهم في اعتبار بعض الألفاظ وجدت في القرآن – مما لا يعلم معناه إلا الله تعالى وعدم اعتباره •

أشرع أولا في بيان أقوال العلماء حول هذه المسائل ثم أردف ذلك برأي ابن باديس رحمه الله تعالى الذي أشرت إليه في عنوان هذا المبحث •

أولا : المحكم والمتشابه :–

اختلف العلماء في معناهما على أقوال كثيرة منها : قال ابن عباس رضي الله عنهما : المحكمات ناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وأحكامه وما يؤمر به ويعمل

---

(١) آل عمران آية ٧ •

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٤٤ – ٣٤٧ •

به وقال يحي بن يعمر : الفرائض والأمر والنهي والحلال والحرام ٠٠٠ وقيل في المتشابهات : المنسوخة والمقدم والمؤخر والأمثال فيه والأقسام وما يؤمن به ولا يعمل به وقيل هي الحروف المقطعة في أوائل السور٠٠٠ (١) وأقوال أخرى فيهما تركتها خشية الإطالة ولعلم الناس بها لوجودها في كتب التفسير. وأظهر وأرجح ما قيل فيهما أن المحكم : هو ما كان بيّنا واضح الدلالة والمتشابه ما كان غير متضح الدلالة والمعنى لا بنفسه ولا بغيره أو لا بنفسه فقط. (٢)

وورد أن القرآن جميعه محكم ولكن لا بهذا المعنى بل بمعنى آخر أي أنه صحيح الألفاظ قوي المعاني فائق البلاغة والفصاحة على كل كلام ، وورد أيضا أن القرآن كله متشابه ولكن لا بهذا المعنى بل بمعنى آخر وهو أنه يشبه بعضه بعضا في الصحة والفصاحة والحسن والبلاغة ونحو ذلك . (٣)

ثانيا : العمل في المتشابه :ـ

العمل في المتشابه أن يرد إلى المحكم أي يفهم بناء على ما يدل عليه المحكم كما قال ابن كثير رحمه الله تعالى " فمن رد ما اشتبه إلى الواضح منه وحكم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى " (٤) أو يرد علمه إلى الله تعالى إذا لم يتضح معناه بالمحكم .

ثالثا : التأويل :ـ

للتأويل معنيان في عرف القرآن والسلف من غير المعنى الاصطلاحي للمتأخرين من الفقهاء والأصوليين: المعنى الأول : حقيقة الشيء وما يؤول أمره إليه

---

(١) نفس المصدر السابق والجزء والصفحات .

(٢) نفس المصدر السابق والجزء والصفحات .

(٣) فتح القدير للشوكاني جـ ١ ـ ص ٣١٧ .

(٤) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٤٤ ـ ٣٤٧ .

ومنه قوله تعالى (وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ) (١) وقوله تعالى (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ) (٢) أي حقيقة ما أخبر وابه من أمر المعاد ٠

المعنى الثاني : التفسير والبيان والتعبير عن الشيء كقوله (نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ) (٣) أي بتفسيره ٠ (٤)

رابعا : اختلاف العلماء في محل الوقف في الآية السابقه :ـ

أما على القول بأن التأويل هو حقيقة الشيء وما يؤول إليه فلا خلاف أن الوقف على اسم الجلالة لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمها على الجلية إلا الله عز وجل ويكون قوله " والراسخون في العلم " مبتدأ و " يقولون آمنا به " خبره وإنما الخلاف يتأتى على قولنا بأن المراد بالتأويل المعنى الثاني وقد أشرت فيما مضى إلى قولي العلماء في الوقف ٠

أدلة الذين يقولون إن الوقف على اسم الجلالة بمعنى أن المتشابه لا يعلمه إلا الله وحده :ـ

هذه بعض أدلتهم :

(١) الإعراب الصحيح أن يكون " الراسخون " مبتدأ و " يقولون " خبرًا لا أن يكون " الراسخون " معطوفا على اسم الجلالة و " يقولون " حالا لأن هاهنا ما نعا يمنع من ذلك وهو أن تقييد علمهم بتأويله بحال كونهم قائلين آمنا به ليس بصحيح فإن الراسخين في العلم على القول بصحة العطف على الاسم الشريف يعلمونه في كل حال من الأحوال لا في هذه الحالة الخاصة فاقتضى هذا أن جعل قوله (يقولون آمنا به) حالا غير صحيح فتعين المصير

---

(١) سورة يوسف آية ١٠٠٠

(٢) سورة الاعراف آية ٥٣٠

(٣) سورة يوسف (٣٦)٠

(٤) تفسير ابن كثير ج ١ ـ ص٣٤٤ ـ ٣٤٧٠

إلى الاستئناف والجزم بأن قوله (والراسخون في العلم) مبتدأ خبره (يقولون آمنا به) .

(٢) قوله تعالى " آمنا به كل من عند ربنا " فيه إشارة إلى أنهم آمنوا بالمتشابه حتى ولو لم يعلموا معناه ، مثل إيمانهم بالغيبيات التي لم يدركوا حقائقها وإنما اعتمدوا فيها على السماع الثابت ولو كان المراد أنهم آمنوا بالمتشابه مع علمهم بمعناه لما كان لقوله "كل من عند ربنا " فائدة ولما كانت لهم مزية على بقية الناس الذين آمنوا بما عرفوا وترددوا فيما خفي عليهم معناه.(١) والله سبحانه وتعالى ينكر على الذين في قلوبهم زيغ أن يتبعوا المتشابه ويطلب منهم أن يفعلوا مثل الراسخين في العلم في إيمانهم بالمتشابه وقولهم — عن المحكم والمتشابه — "كل من عند ربنا " أي كل منهما المحكم الواضح الدلالة والمتشابه الذي خفيت دلالته فمثل ما كان المحكم حقا وصدقا بإدراكنا لمعناه فإن المتشابه كذلك لأنهما جميعا من مصدر واحد وهو الله تعالى وكأن الله تعالى يقول : هؤلاء عبادي ومع رسوخهم في العلم إذا لم يفهموا المتشابه آمنوا به . فلِمَ لا تسلكون سبيلهم ؟ وهذا شيء مستفاد من تأليف الكلام وسياقه

(٣) ورد عن بعض علماء السلف من الصحابة والتابعين وغيرهم ما يفيد ذلك فابن عباس رضي الله عنهما يقول : التفسير على أربعة أنحاء ، فتفسير لا يعذر أحد في فهمه ، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها ، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم ، وتفسير لا يعلمه إلا الله ، وقال عبد الرزاق كان ابن عباس يقرأ : (وَما يَعْلَمُ تأْوِيلَهُ إِلّاَ اللهُ وَيَقُولُ الرَّاسِخُونَ آمَنَّا بِهِ)

---

(١) فتح القدير ج ١ — ٣١٦ .

وكذا رواه ابن جرير عن عمر بن عبد العزيز ومالك بن أنس أنهم يؤمنون به ولا يعلمون تأويله ، وحكى ابن جرير أن في قراءة عبدالله بن مسعود : ﴿إِنْ تَأْوِيلُهُ إِلَّا عِندَ اللَّهِ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ واختار ابن جرير هذا القول (١) .

(٤) وجود ألفاظ في القرآن لا يعلم معناها لا من ناحية اللغة ولا من ناحية الشرع مما جعل كثيرا من المفسرين يعتبرونها من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله ومن هذه الألفاظ فواتح السور يقول الشوكاني رحمه الله تعالى: " إن من جملة ما يصدق عليه تفسير المتشابه الذي قدمناه فواتح السور فإنها غير متضحة المعنى ولا ظاهرة الدلالة لا بالنسبة إلى أنفسها لأنه لا يدري من يعلم بلغة العرب ، ويعرف عرف الشرع ما معنى الۤمۤ ، الۤر حمۤ طسۤ طسۤمۤ ونحوها لأنه لا يجد بيانها في شيء من كلام العرب ولا من كلام الشرع فهي غير متضحة المعنى لا باعتبارها نفسها ولا باعتبار أمر آخر يفسرها ويوضحها (٢) ... "

(٥) ورود آثار تفيد أن حبر الأمة وترجمان القران عبدالله بن عباس رضي الله عنهما سئل عن آيات فقال الله أعلم وهذا الصحابي هو وتلميذه مجاهد هما عمدة من يقول بأن الراسخين في العلم يعلمون المتشابه روى أبو عبيد بسنده أن رجلا سأل ابن عباس عن (يوم كان مقداره ألف سنة) فقال له ابن عباس فما : " يوم كان مقداره خمسين ألف سنة " ؟ فقال الرجل : إنما سألتك لتحدثني فقال ابن عباس : هما يومان ذكرهما الله في كتابه الله أعلم بهما (٣) .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ـ ص ٣٤٤ ـ ٣٤٧ .

(٢) فتح القدير للشوكاني ج ١ ـ ص ٣١٧ .

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية مج ١٣ ص ٣٧٢ .

هذه بعض أدلة الفريق الذي يقول بالوقف على اسم الجلالة وأن المتشابه لا يعلمه إلا الله وأما أدلة الفريق الثاني فهذه بعضها :

(١) إن الله سبحانه وتعالى مدحهم بالرسوخ في العلم فكيف يمدحهم وهم لا يعلمون ذلك ؟ [١]

(٢) كيف يخاطب العرب بشيء لا يفهمونه ولو كان ذلك كذلك لوجدت قريش في القرآن مطعنا وبما أنها لم تطعن في القرآن من هذا الباب دل ذلك على أنهم فهموه كله ٠

(٣) ورود أقوال عن السلف تفيد ذلك كقول ابن عباس : أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله [٢] وقال مجاهد : والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به ، وكذا قال الربيع بن أنس ٠

(٤) لم يقل أحد من السلف ولا من الأئمة المتبوعين : إن في القرآن آيات لا يعلم معناها ولا يفهمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أهل العلم والإيمان جميعهم [٣] ٠

(٥) ولا يوجد في القرآن لفظ لم يفهم معناه وما ضربتم به الأمثلة كفواتح السور له معنى أخذ به العلماء مثل دلالتها على الإعجاز أو للتنبيه ٠٠٠

هذه بعض أدلة هذا الفريق على أن الوقف على كلمة (العلم) وأن الراسخين يعلمون المتشابه وأنه لا يوجد في القرآن ما لا يفهم معناه عند جميع الناس أما عند البعض فهذا لا ريب فيه ٠

---

(١) فتح القدير للشوكاني ج ١ ـ ص ٣١٦ ٠

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ـ ص ٣٤٤ ـ ٣٤٧ ٠

(٣) مجموع فتاوى ابن تيميه مج ١٣ ص ٢٨٥ ٠

وقبل أن أتعرض لرأي ابن باديس في هذه المسألة أشير إلى نقطة مهمة وهي أن القول بعدم وجود لفظ في القرآن لا يفهم معناه كان – عند كثير من الناس – ناتجا عن أسباب فكرية عقائدية من أجل الوصول به إلى تأويلاتهم الفاسدة التي هي تحريف الكلم عن مواضعه وكانت له آثار سيئة في التفسير تتمثل في الجرأة على القول في كتاب الله بغير علم والتكلف في التفسير بدافع الحرص على إثبات أن لا وجود للفظ في القرآن لا يفهم معناه وتلافيا للصدام مع قول الخصوم مما أدى إلى حشو كتب التفسير بالظنون والأوهام التي لا صلة لها بالحق وقابلهم الفريق الآخر بنقيض قولهم وكثرت المناقشات وأقحموا مسألة الأسماء والصفات هنا مما أدى إلى التوسع في البدع والقول بغير علم .

اما ابن باديس فرغم أنني لم أعثر على قول له صريح يبين فيه معنى المتشابه إلا أنني لا أشك في انه لا يعتبر آيات الأسماء والصفات من المتشابه بل قد مر علينا ما يدل على أنه اقتفى آثار السلف في آيات الأسماء والصفات فهو يؤمن بأسماء الله وصفاته كما جاءت في القرآن والحديث بلا كيف .

أجاز ابن باديس أن يكون في القرآن ما لا يفهم معناه وبين الحكمة في ذلك ودفع الاعتراض الوارد على هذا القول وجاء بالأدلة من سنن الله في الكون والشرع والقدر والتي تتفق مع سنته تعالى في القرآن فلله سبحانه وتعالى سنة مكتملة في شرعه وقرآنه وتصاريف أقداره .

جاء كلام ابن باديس هذا عند تفسيره لقوله تعالى (يس) (١) من نفس السورة ولدقة كلامه وتركيزه أورده كاملا وهو يشمل ما ذكرته من الحكم والأدلة ورد الاعتراض:

قال رحمه الله تعالى " مثل هذا اللفظ مما افتتحت به بعض سور القرآن للعلماء فيه طريقتان :-

---

(١) يس آية ١ .

الطريقة الأولى :ـ

أنه لفظ له معنى يعلمه الله ، فهو من المتشابه الذي لا يعلمه الراسخون وإنما يؤمنون به ، ويردون علمه إلى عالمه .

سؤال وجوابه : القرآن أنزل للبيان ، ولا بيان إلا بالإفهام فكيف يكون في القرآن لفظ لا يفهم له معنى ؟ والجواب : أن عدم فهم معنى من بضع عشرة كلمة افتتحت بها بعض السور لا يخل ببيان القرآن لما أنزل لبيانه من عقائد وآداب وأحكام وغيرها من مقاصد القرآن " .

هذا تمهيد بين فيه الإمام أحد قولي العلماء في فواتح السور وأورد الاعتراض وأجاب عليه ومن كلامه هذا نستطيع أن نفهم أنه يذهب إلى القول بأن الراسخين لا يعلمون المتشابه وإنما يؤمنون به وبالتالي فهو يرى الوقف عند اسم الجلالة .

وبعد التمهيد أخذ يتوسع في توجيه قول هؤلاء فقال :

"إن الله تعالى أعطانا العقل الذي به ندرك الآيات التي نصبها لنا لنستدل بها على وجوده ووحدانيته وقدرته ، وعلمه وحكمته ، ولطفه ورحمته . وبالنظر في هذه الآيات نصل ـ بتيسير الله ـ بعقولنا إلى إدراك بدائع عجيبة ، وأسرار غريبة ما تزال تتجلى لنا مادمنا نتأمل فيها ونعتبر بها . وما يزال الإنسان يكتشف منها حقائق مضت عليه أزمان وهو يعدها من المحال ويجتني منها فوائد ما كانت تخطر له ـ في أحقابه الماضية ـ على بال .

غير أن استجلاء هذه الحقائق واستحصال هذه الفوائد من الآيات الكونية ـ على نفاستها وعظيم نفعها ـ محفوف بخطر الإعجاب بذلك العقل حتى يحسب أنه محيط بالحقائق كلها ، وأن مدركاتها يقينيات بأسرها فيؤديه حسبانه الأول إلى الفتنة بالمدركات فيحسب أنْ لا شيء بعدها فقد يخرج إلى إنكار خالقها ، ويؤديه حسبانه الثاني إلى الذهاب في ظنونه وأوهامه وفرضياته ، إلى غايات لا نسب بين اليقين

وبينها ، فكان من لطف الله بالإنسان أن جعل لعقله حدا يقف عنده ، وينتهي إليه ليسلم من هذا الخطر خطر الإعجاب بالعقل .

ففي آيات الله الكونية حقائق كثيرة تقف العقول حيارى أمامها ، وقد تشهد آثارها ولا تستطيع أن تعرف كنهها كحقيقة الكهرباء في الكون . وحقيقة الروح والعقل في الإنسان فمثل هذه الحقائق المغلقة - التي يرتد عقل الإنسان إليه عنها خاسئا وهو حسير - هي التي تعرفه بقدره وبعظمة هذا الكون وفخامة أمره ، فيقف بعقله عند حد النظر والاعتبار والاستدلال ببديع الصنعة وعظيم النعمة على حكمة الله البالغة ونعمته السابغة دون خلط للأوهام بالحقائق ، ولا فتنة بالمخلوق عن الخالق .

هذه الحقائق التي خفيت عن العقل البشري فلم يدرك كنهها لم تقدح في دلالة آيات الأكوان على ما دلت عليه من وجود الخالق ووحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته وفضله وإحسانه ورحمته ، فكذلك لم يقدح في بيان القرآن ودلالة آياته خفاء معاني بضع عشرة كلمة من كلماته ، وكما كان خفاء تلك الحقائق في الآيات الكونية إيقافا للعقل عند حده ، وتعريفا له بقدره ، وتنبيها له على عظم آيات ربه - كذلك كان خفاء هذه المعاني في الآيات القرآنية لمثل ذلك " .

ويواصل الكلام مبينا وجود هذا الجلاء العام والخفاء الخاص - ولنفس الحكمة - في شرع الله وقدره إلى أن يقول :

" ففي خلق الله ، وفي شرع الله ، وفي قدر الله ، وفي كلام الله ما يخفى على العقول إدراك حقيقته أو حكمته ، أو معناه . لطفا من الله بالإنسان وتنبيها له . وقد قامت الحجة عليه فيما جهل بما عرف . وتجلت له بدائع الخلقة وجلائل النعمة فيما ظهر فآمن بوجود مثلها فيما خفي . إذ الرب الحكيم الرحيم لا يكون منه إلا ما هو حكمة وفيه نعمة . فكان الإنسان في القسم الأول مدركا

مستدلا معتبرا ، قد استعمل عقله فأداه إلى الإيمان واليقين فيما ظهر • وكان في القسم الثاني مصدقا مذعنا لربه صاغرا ، قد أدرك الحجة فآمن بالغيب فيما استتر فجمع بين النظر والاستدلال والتسليم والإذعان •

فهذا توجيه وجود لفظ لا نفهم معناه من كتاب الله — عند من يقول به — ببيان حكمته مع تنظيره بمثله في خلق الله وشرعه وقدره"(١)

أثر هذا القول على منهج تفسير القائل به :—

إن القائل بهذا الرأي — وهو وجود لفظ لا يفهم معناه في كتاب الله — لابد أن يتأثر منهج تفسيره للقرآن خاصة ومنهج نظره واعتقاده في خلق الله وقدره وشرعه عامة بأثر هذا القول ومن هذه الآثار : الاعتراف بالعجز المثمر لعدم التكلف في تفسير النصوص بناء على الأوهام والفروض البعيدة والظنون التي تكسو الحقائق ظلمة وتوقع الباحثين بعده في ضلالة أو حيرة وتصد عقول المقلدين عن النظر فيطول أمد الخطإ والجهل ، زيادة على ما تشحن به كتب التفسير من الأقوال الواهية والتفاسير المتناقضة والتي تذهب بجلال النص الإلهي وقدسيته وتظهر بعض آيات القرآن وكأنها متعارضة •

هذه المعاني وغيرها يشير إليها ابن باديس بقوله :

" قد رأيت كيف يقف العقل عاجزا أمام بعض أسرار الخلق والقدر والشرع والقرآن مع يقينه بما علم منها أن ما عجز عن إدراكه ما هو إلا مثل ما عرف في كمال في الخق والحكمة والنعمة إذ الجميع — ما عرف وما عجز عنه — من إله واحد حكيم خبير رحمان رحيم •

فليذكر الناظر في خلق الله وقدره وشرعه وكلامه دائما هذه الحقيقة • وهي

---

(١) تفسير ابن باديس ص ٣٥٨ •

ثبوت الحق والحكمة والنعمة في جميعها وإمكان عجز عقله في بعض المواضع والأحوال عن إدراكها ... "(١)

ثم يبين عمله في خلق الله وهو النظر والبحث فإذا استغلق عليه شيء ذكر عجزه واعترف به وأحجم عن اتخاذ الأوهام والفروض والظنون تفسيرا له ، ويبين كذلك عمله في قدر الله وهو الاعتبار في تصاريف القدر والاتعاظ بأحوال البشر فإذا واجهه من تصاريف القدر ما لم يعرف ما فيه من عدل وحكمة فليكن موقفه هو هو وهكذا مع شرع الله إلى أن يقول " ويكون عمله في كتاب الله هو التفهم والتدبر لآياته والتفطن لتنبيهاته ووجوه دلالاته واستثارة علومه من منطوقه ومفهومه على ما دلت عليه لغة العرب في منظومها ومنثورها وما جاء من التفاسير المأثورة وما نقل من فهوم الأئمة الموثوق بعلمهم وأمانتهم ، المشهود لهم بذلك من أمثالهم .

فإذا وقف أمام المتشابه رده إلى المحكم ، وإذا انتهى إلى فواتح السور ذكر عجزه ، فآمن بما لها من معنى ، وقال : الله به أعلم "(٢)

ومن كلامه في الفقرة الأخيرة نستطيع أن نعرف موقفه من المتشابه وما المراد به عنده ولا يستبعد أن يكون موافقا — فيه — الراجح الذي ذكرته سابقا في بداية هذا البحث .

ويزيد ابن باديس فيقرر أن هذا المنهج يزداد به صاحبه إيمانا وعلما لأنه سبيل الراسخين في العلم حيث يقول :

" فهذا السير النظري والعمل العلمي المبني على اليقين بعدل الخالق جل جلاله وحكمته ورحمته في خلقه ، وقدره وشرعه وكلامه ومعرفة العبد بقدره ومقامه يزداد السائر على مقتضاه إيمانا وعلما وفوائد جمة ويسلم من الغرور والأوهام والفتنة وهو سبيل الراسخين الذين يقولون فيما لا يفهمونه : "آمنا به كل من عند

---

(١) تفسير ابن باديس ص ٣٦١ .

(٢) تفسير ابن باديس ص ٣٦١ — ٣٦٢ .

ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب"(١) (٢)

نلاحظ أن ابن باديس ممن يقولون بأن الوقف في الآية على اسم الجلالة وأن الراسخين في العلم لا يعلمون المتشابه ٠

اتضح لنا موقفه من هذه المسألة وهي (هل في القرآن ما لا يفهم معناه؟) وهو أنه لا يمنع ذلك بل يجيزه وقد رأينا كيف أنه بيّن الحكمة ورد الاعتراض وشَكَّل وَنَظَّر وبيَّن العمل في المتشابه الذي لا تظهر دلالته إلا بغيره والمتشابه الذي لا تظهر دلالته مطلقا وكان في كل هذا معتمدا على أدلة عقلية صحيحة وهي سنة الله في خلقه وشرعه وقدره ، وأدلة نقلية صريحة وهي قوله تعالى " والراسخون في العلم ٠٠٠ " الآية (٣) ٠

بقي الآن أن نعرف ما مدى تطبيقه لهذه القاعدة في تفسيره ؟

ابن باديس لا يحدد كلمات خاصة في القرآن يحكم عليها بأنها مما لا يفهم معناه وإنما هو يجيز أن يوجد مثل ذلك حتى ولو لم يوجد لأنه لا ينطلق في تقرير هذه القاعدة من وجود فروع لها بل ينطلق من أنها لا تتعارض مع سنة الله وحكمته في خلقه وشرعه وقدره بل تتفق معها ثم استنادا إلى الآية السابقة وموقف بعض العلماء الموثوقين من فواتح السور ، فابن باديس يرى أنه ينبغي قبول هذا القول مع بذل الجهد في التدبر والتأمل في آيات القرآن بواسطة الوسائل التي سبق أن ذكرها فإذا فتح الله على المفسر فذلك محض فضل منه ومنة وإلا فليرد علمه إلى الله تعالى قائلا الله أعلم حتى ولو كان معتقدا أنه لا يعلمه إلا هو سبحانه ، وكأن ابن باديس رحمه الله يرى أنه لا داعي

---

(١) آل عمران آية ٧ ٠

(٢) تفسير ابن باديس ص ٣٦١ ـ ٣٦٢ ٠

(٣) آل عمران آيه ٧ ٠

للخوض في هذه المسألة خصوصا في إبطال القول بأنه لا يوجد في القرآن مالا يفهم معناه لأنه يرى أن هذا جائز عقلا و شرعا وعليه أدلة من النصوص وأقوال الصحابة رضي الله عنهم وعلمهم ولا خير إلا في اتباع طريق السلف وكل شيء لم تستبعده عقولهم وقبلته فهو الحق .

لذا نرى ابن باديس يسير في تفسيره على هذا النهج فيشرح أو يتابع قول من سبقه في شرح كل لفظ في القرآن حتى ولو كان من الألفاظ التي قيل فيها إنها من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله كما فعل في الحروف المقطعة ، فرغم أنه مر علينا قبوله لقول من قال بأنها من المتشابه ووجه قولهم ودافع عنه واحتج له إلا أنه يذكر كذلك قول الفريق الآخر في تفسيرها وأن لها معنى ويختار من الأقوال التي قيلت فيها ما رجح عنده يقول ـ بعد ذكره لعدة آراء فيها ـ : " وقال بعضهم : إنها حروف تعجيز وإفحام وتقريع ، لأن القرآن الذي عجزوا عن معارضته ، من هذه الحروف وأخواتها تركبت كلماته فكأنما يقال لهم " ماهذا الذي عجزتم عنه إلا كلام من جنس كلامكم . وما ركبت كلماته إلا مما ركبت منه كلماتكم " وهذا لعجزهم أفضح ، ولتقريعهم أوجع " ثم يضيف ما يدل على ميله لهذا القول :

" ومما يؤيد هذا أن أكثر هذه الفواتح ذكر بعده الكتاب المعجز وصفاته مثل : قوله تعالى " الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ " (١) (٢) ويأتي بعدة فواتح لسور مختلفة .

وإذا انتهى إلى نص من القرآن أو الحديث استعصى عليه فهمه توقف فيه حتى ولو لم يكن من النصوص التي قيل فيها إنها من المتشابه كما فعل عند تفسيره لقوله تعالى " وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ " (٣) إذ جاء بحديث عائشة رضي الله عنها

---

(١) البقرة آية ١ .

(٢) تفسير ابن باديس ص ٣٦٣ .

(٣) الفلق آية (٤) .

(أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كَانَ إِذَا اشْتَكَى الإِنْسَانُ الشَّيْءَ مِنْهُ أَوْ كَانَتْ بِهِ قُرْحَة أَوْ جُرْح قَالَ النَّبِيُّ بِإِصْبَعِهِ هَكَذَا (تَعْنِي وَضَعَهَا عَلَى الأَرْض كَمَا فَسَّرَهَا سُفْيَانُ بِالْعَمَلِ) ثُمَّ رَفَعَهَا وَقَالَ : بِسْمِ اللَّهِ تُرْبَةُ أَرْضِنَا بِرِيقَةِ بَعْضِنَا لِيُشْفَى بِهِ سَقِيمُنَا بِإِذْنِ رَبِّنَا ٠) (١) ثم قال :

« إن القرآن كتاب الدهر ومعجزته الخالدة فلا يستقل بتفسيره إلا الزمن وكذلك كلام نبينا صلى الله عليه وآله وسلم المبين له ، فكثير من متون الكتاب والسنة الواردة في معضلات الكون ومشكلات الاجتماع ، لم تفهم أسرارها ومغازيها إلا بتعاقب الأزمنة وظهور ما يصدقها من سنن الله في الكون ٠٠ " إلى أن يقول " وهكذا تأتي بعض المتون من كلام الله وكلام رسوله معجزة للعقول فتتطاير من حولها الفهوم والآراء تطاير الشعراء ويظن كل عقل أن حرفته آلة لتفسير تلك المتون والعلوم حرف العقول والزمان من وراء الكل يصيح أن انتظروا (٢) ٠٠٠ "

---

(١) فتح الباري ج ١٢ ص ٣١٧ ٠ كتاب الطب باب رقية النبي صلى الله عليه وسلم ومسلم كتاب السلام باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة ج ٤ ـ ص ١٧٢٤ ـ فؤاد عبد الباقي ٠

(٢) تفسير ابن باديس ص ٤٩١ ٠

المبحث الثامن : القاعدة السابعة

إعمال العقل بالتفكير وعدم التقليد

هذه القاعدة تتناول – بالخصوص – نقطتين اثنتين :

الأولى : إعمال العقل في أقوال المفسرين السابقين – عند إرادة الاستفادة منها – وعدم قبولها دون نظر أو تمحيص كما يفعل كثير من المفسرين في متابعة بعضهم بعضا بمجرد التقليد .

الثانية : عدم التوقف عن إعمال العقل في نصوص الوحي لاستنباط معان جديدة إكتفاء بما استنبطه من قبلنا من المفسرين واستغناء بهذه الأقوال التي وصلت إلينا عن غيرها والجمود عليها بل ينبغي الاستمرار في عملية تفسير القرآن ومحاولة الكشف عن معانيه وأسراره مع الاستعانة بأقوال السابقين .

التفصيل في النقطة الأولى :–

أما الاستفادة من أقوال المفسرين السابقين لعصر المفسر فهذا أمر لا يشك فيه وإنما الكلام في طريقة الاستفادة من هذه الأقوال فإن كثيرا من المفسرين يعتمدون التقليد في نقل أقوال العلماء وروايتهم لها سواء كانت هذه الأقوال آراء اجتهادية أم آثارا وقصصا وأحاديث وغيرها مما يدخل في تفسير النص دون تمحيص أو تحقيق مما أدى إلى الحيرة والارتباك والذي يرجع إلى كتب التفسير مستقريا لهذه المسألة فيها سيجد الأمثلة الكثيرة التي تؤكد ذلك.فهذا عدد من المفسرين منهم الرازي وأبو حيان والألوسي والصاوي المحشي على الجلالين وغيرهم يتابعون – تقليدا – الزمخشري في ذكره لقصة تبين في نظره – مدى فقه أبي حنيفة باللغة ومعاني القرآن وخلاصتها أن أبا حنيفة طلب من الناس أن يسألوا قتادة عن نملة سليمان هل هي ذكر أو أنثى ؟ فأفحم قتادة ثم أجاب أبو حنيفة .(١) مع أن في هذه القصة ما يناقض الغرض الذي سيقت لأجله مما يدل على عدم

---

(١) الكشاف ج ٣ – ص ٢٨٠ .

صحتها وأنها من نسج الخيال (١) وهو دليل على أن الذين نقلوها من المفسرين انما قلدوا فيها الزمخشري دون أن يعملوا فيها النظر. (٢) واذا كان مجال القصص ميدانا واسعا تبارى فيه المفسرون لابراز براعتهم في تقليد بعضهم فان ناحية الآثار من المرويات عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانت هي الأخرى مجالا للتقليد وهذه الناحية أخطر لأنها تدخل فيما يسميه الناس تفسيرا بالمأثور. فهذا الثعلبي -عند تفسيره لسورة الفلق- ساق (٣) حديثا بدون اسناد (٤) مفاده أن سبب نزول المعوذتين هو قصة سحر النبي صلى الله عليه وسلم ومع أن هذا لم يصح سببا لنزولها فان كثيرا من المفسرين (٥) تساهلوا في حشر هذا الحديث في تفسيرها متابعين في ذلك الثعلبي دون اشارة الى ما في هذا الحديث من غرابة ونكارة كما قال الامام ابن كثير رحمه الله وبعضهم لم يكتف بايراده بل صرح بأنه سبب نزول المعوذتين (٦) مما دعا الامام ابن باديس الى التنبيه بقوله " وقد تساهل كثير من المفسرين في حشر هذا السبب في تفسيرهما وفي حشر كثير مما لم يصح في فضائلهما ولنا فيما صح غنية فيما لم يصح " (٧) وحتى العلماء الذين عرف عنهم التحرر من التقل

---

(١) البحر المحيط ج ٧ - ص ٦١ وكذلك روح المعاني للألوسي ج ٧ - ص ١٧٧ .

(٢) انظر التفسير الكبير - الرازي ج ٢٤ - ص ١٨٧ وكذلك حاشية الصاوى على الجلالين ج ٣ - ص ١٩٠ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٤ - ص ٥٧٤ .

(٤) قال ابن كثير : هكذا أورده بلا اسناد وفيه غرابة وفي بعضه نكارة شديدة.

(٥) انظر القرطبي وأبو حيان والألوسي والشوكاني والجلالين .

(٦) أبو حيان والألوسي والجلالين .

(٧) التفسير ص: ٤٧٧ .

قال الزرقاني في مناهل العرفان : ص(١٠٩) " اذا جاءت روايتان في نازل واحد من القران وذكرت كل من الروايتين سببا صريحا غير ما تذكره الأخرى وكانت احداهما صحيحة والأخرى ضعيفة فالاعتماد على الصحيحة في بيان السبب "

أقول : والحديث الذى رواه الثعلبي ليس ضعيفا فقط بل هو كما قال فيه ابن كثير .

والاستقلالية في الرأي لم يسلموا من هذا الخطأ . فالإمام الشوكاني يقع في التقليد كثيرا والسبب في ذلك - والله أعلم - ثقته في بعض المفسرين قبله كالقرطبي الذي اعتمد عليه في تفسيره كثيرا حتى قال بعض العلماء : "إن تفسير الشوكاني خلاصة لتفسير القرطبي والدر المنثور للسيوطي "ولا يعترض على القرطبي إلا نادرا"(١) ومن أمثلة ذلك تقليده للقرطبي في تفسير قوله تعالى " ... وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ... "(٢) الآية قال القرطبي : " فيه وجهان : أحدهما أن ذلك عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم من قول العرب (قَدِمَ القومُ عَلَى وُجُوهِهِمْ) إذا أسرعوا . الثاني : أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في هوانه وتعذيبه وهذا هو الصحيح لحديث أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن رجلا قال : يانَبِيَّ اللَّهِ كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ ؟ قَالَ صَلَّى الله عليه وآله وسلم : أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرِّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ القيامة ؟؟ "(٣) فاستدلال القرطبي بالحديث على صحة القول الثاني غير صحيح لأن المشي الوارد في الحديث ليس هو السحب إذ المشي يكون بإرادة الشخص نفسه وأما السحب فيكون بفعل الغير وهم الملائكة ، والحديث نص قاطع على أن الكافر يمشي يوم القيامة على وجهه دون سحب من أحد ، ومع هذا الفارق الواضح بين مدلول الحديث وما جاء في القول الثاني من معنًى فإن الشوكاني - هو كذلك - لم يفرق بينهما ونقل قولي القرطبي نصا إلا أنه استدل زيادة على الحديث بقوله تعالى في الآية الأخرى (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ

---

(١) القائل هو المرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي الجنكي صاحب "أضواء البيان" : انظر : الإمام الشوكاني مفسرا : للغماري ص ١١٢ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) الاسراء ٩٧ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن القرطبي جزء ١٠ ص ٣٣٣ - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م . والحديث أخرجه البخاري في ك : التفسير ب : "الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم" انظر : الفتح ٨/ ٤٩٢ .

عَلَى وُجُوهِهِمْ .. "(١) والحقيقة أن الأقوال ثلاثة إثنان ذكرهما القرطبي والثالث ما دل عليه الحديث(٢) والقول المتعين في تفسير آية الإسراء هو الثالث لنص الحديث كما قال ابن باديس(٣) " يساقون إلى جهنم مقلوبين على وجوههم ... " ويقول أيضا :

« رفعوا وجوههم في الدنيا عن السجود لله فأذل الله تلك الوجوه فمشوا عليها في المحشر.. " واستدل بحديث أنس السابق الذكر ثم قال " من هذا الحديث علمنا أنه يجب فيما يرد من الأخبار عن اليوم الآخر أنه يحمل على ظاهره ولو كان غير معتاد في الدنيا لأن أحوال العالم الآخر لا تقاس على أحوال هذا العالم "(٤) .

فابن باديس ـ الذي من قواعد تفسيره " إعمال الفكر ونبذ التقليد " كانت على ذهنه بقية غشاوة من التقليد واحترام آراء الرجال حتى في دين الله وكتاب الله ... كما حكى لنا هو عن نفسه إلا أنه بكلمة شيخه النخلي: " اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة وهذه الأقوال المختلفة وهذه الآراء المضطربة يسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح ... " فتحت أمام ذهنه آفاق واسعة لا عهد له بها(٥) ومن ذلك اليوم عرف كيف يتعامل مع أقوال العلماء المتقدمين فلم يرفض هذه الأقوال كلية بل اعتمد عليها في تفسيره ونصح من يريد فهم القرآن

---

(١) سورة القمر ٤٨ .
(٢) فتح القدير ج ٣ / ٢٦٠ ـ ٢٦١
(٣) انظر ابن الجوزي والألوسي .
(٤) التفسير ٢٤٧ .
(٥) ابن باديس حياته وآثاره ج ٢ ـ ص ١٤٠ .

بأن يستعين في ذلك – زيادة على السنة وأقوال الصحابة والتابعين – بأنظار العلماء الراسخين والاهتداء بهديهم في الفهم عن رب العالمين (١) وهو دائم التكرار لهذه النصيحة وفي كل مناسبة إلا أنه لم يكن أسير التقليد في الاعتماد على أنظار العلماء بل كان له تفكيره الحر الذي صوره لنا – وهو ينصح طالب العلم – بقوله " فعلى الطالب أن يفكر فيما يفهم من المسائل وفيما ينظر من الأدلة تفكيرا صحيحا مستقلا عن تفكير غيره " ثم يبين لنا النية التي ينبغي أن تكون عند الناظر لأقوال غيره فقال " وإنما يعرف تفكير غيره ليستعين به ثم لا بد له من استعماله فكره هو بنفسه " ويضيف مرة أخرى موضحا الثمرة من هذا التفكير " بهذا التفكير الاستقلالي يصل الطالب إلى ما يطمئن له قلبه ويسمى – حقيقة – علما ، وبه يأمن الوقوع فيما أخطأ فيه غيره ويحسن التخلص منه إن وقع فيه " (٢)

ويزيد فيعطي لنا صورة عملية عن الاستقلال الفكري فيقول " فلا كل ما نسمعه أو نراه أو نتخيله نقوله ، فكفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع كما جاء في الصحيح بل علينا أن نعرضه على محك الفكر فإن صرنا منه على علم قلناه ... وإلا طرحناه " (٣)

وهو قد سار في تفسيره على هذا المنهج إذ كانت له شخصيته القوية واستقلاله الكامل وأسلوبه المتميز وطريقته الخاصة في الفهم والاستنباط دون أن يكون لنظره في أقوال العلماء تأثير على حرية فكره وابراز رأيه المقتنع به وخير شاهد على هذا قول الإبراهيمي " وقد قرأنا له في بعض افتتاحيات مجلة " الشهاب " أنه يعتمد في هذه الدروس على تفاسير مخصوصة في مواضع مخصوصة كالطبري في

---

(١) التفسير ٢٣٤ .

(٢) انظر ص ١٦٨ أو الشهاب ٨ - ١١ - شعبان ١٣٥٤ - نوفمبر ١٩٣٥ م ص ٤٥٢

(٣) التفسير ١٣٤ .

المأثور والكشاف في أسرار الإعجاز وذلك صحيح ومفيد لمن يجعل فهوم الرجال مقاييس لفهمه ولا يعطيها أكثر من أنها فهوم تصيب وتخطيء أما المعنى الصحيح لكتاب الله فيستجليه من البيان العربي والشرح النبوي ... " إلى أن يقول " ... وإذا كان من دواعي الغبطة ختم تفسير القرآن على هذه الطريقة فإن من دواعي الأسف أنه لم ينتدب من مستمعي هذه الدروس من يقيدها بالكتابة ... "(١)

وهذا المنهج – وهو عدم تقليد العلماء في أقوالهم وإنما ينظر فيها ليستفاد منها – يؤدي – حتما – إلى إحدى نتيجتين وهما :

(١) إما الأخذ بأحد القولين أو الأقوال بناء على الدليل القوي .

(٢) وإما إنشاء قول آخر جديد لم يقل به أحد .

وكل من النتيجتين نجد لها أمثلة في تفسير ابن باديس .

ولا يفهم من هذا أن ابن باديس كان في استقلال فكره ينساق مع الرأي المذموم وهو القول في كتاب الله بغير علم فهذا مالا يفعله مثله وهو القائل " من قال صدقا عن غير علم فهو آثم من جهة واحدة وهي اتباعه ما ليس له به علم ومخالفته لمقتضى هذا النهي "(٢) بل كان في الغالب ملتزما ألا يقول في مواضع الخلاف إلا بالتقدير الصحيح حسب القواعد المقررة عند علماء التفسير ونجد برهان ذلك في قوله – عند ما أدلى برأي جديد في تفسير قوله تعالى " وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ... "(٣) الآية –

---

(١) ابن باديس حياته وآثاره ج ٢ – ص ١٠٤ – ١٠٥ .

(٢) التفسير – بتصرف – ص ١٣٥ – عند آية " ولا تقف ما ليس لك به علم " الاسراء ٣٧ .

(٣) الاسراء ١٢ .

ما نصه (... وهو تقدير صحيح لا معارض له من جهة اللفظ ولا من جهة المعنى وسالم من دعوى تقدير محذوف ومفيد لكثرة المعنى بأربع آيات : بالليل وقمره والنهار وشمسه فالتقرير به أولى ولذلك فسرنا الآية عليه " (١)

وأحيانا نجد عنده اختيارات أو تفردات مثل ما هي دليل على الاستقلالية في الفكر والتحرر من التقليد فهي — في نظري والله أعلم — دليل على الميل نحو العقل الذي ينتابه أحيانا وهو بعض أثر من آثار المدرسة العقلية كتفسيره لقوله تعالى " ... رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ... " (٢) الآية :

« فإن المفسرين السطحيين يحملونه على ظاهره ، وأي عاقل يطلب بعد الأسفار ؟ والحقيقة : أنهم لم يقولوا هذا بألسنتهم وإنما هو نتيجة أعمالهم ، ومن عمل عملا يفضي إلى نتيجة لازمة فإن العربية تعبر عن تلك النتيجة بأنها قوله ، وهذا نحو من أنحاء العربية الطريفة . ولا زال الناس على عاميتهم — يقولون فيمن عمل عملا يستحق عليه الضرب أو القتل : إنه يقول : اقتلني أو اضربني وهو لم يقل ذلك وإنما أعماله هي التي تدعو إلى ذلك فالمعنى أن أعمالهم هي التي طلبت جزاءها اللازم لها المرتبط بها ارتباط اللازم بالملزوم والدال بالمدلول فكأن ألسنتهم قالت ذلك ... " (٣)

التفصيل في النقطة الثانية :—

إن القرآن الذي أنزل على المجتمع العربي الأول ليصلح حاله هو نفسه الذي ينبغي أن يتخذه الناس اليوم دستورا لحياتهم ولا يمنع من هذا ما وصل إليه

---

(١) التفسير ص ٦٠

(٢) سبأ — ١٩

(٣) التفسير ٥١٩ وذكر الرازي ثلاثة أقوال في الآية آخرها ما قال به ابن باديس ونقل هذه الأقوال أبو حيان .

البشر اليوم من تقدم في النواحي العقلية والاجتماعية وفي كل نواحي الحياة لأن الله تعالى الذي أنزل القرآن ليكون كتاب البشرية في آخر فترة من عمر هذه الدنيا يعلم مسبقا التطورات التي تطرأ على حياة البشر قبل أن تحدث وهو الذي قدرها . ولما كان هذا القرآن هو كتاب الإنسانية في كل زمان ومكان حتى قيام الساعة مهما ارتقت وتطورت لزم من ذلك أن تتصف نصوصه بالعموم وهذا ما اتفق عليه علماء الإسلام وهو أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وكما أتى القرآن لأول نزوله بالعجائب والمعجزات في إصلاح البشر فإنه حقيق بأن يأتي بتلك المعجزات في كل زمان بشرط أن يجد ذلك الطراز العالي من العقول التي فهمته ، وذلك النمط السامي من الهمم التي نشرته وعممته ، فإن القرآن لا يأتي بمعجزاته ولا يؤتي آثاره في إصلاح النفوس إلا إذا تولته بالفهم عقول كعقول السلف وتولته بالتطبيق العملي نفوس سامية وهمم بعيدة كنفوسهم وهممهم (١) .

وكيف استخدم السلف عقولهم حتى فهموا القرآن ؟ إنهم فهموه فيما وراء النص حسب حاجات عصرهم إذ كانوا يعيشون عصرهم فلم يسبقهم الزمن بل كانوا يواكبون تطورات الزمن فيفسرون القرآن تفسيرا يعيشونه ويمارسونه ومعلوم أنه لم يخل عصر من عصور التاريخ الإسلامي من مفسرين لكتاب الله وكثير منهم كانوا يفسرون القرآن بواسطة الوسائل المتاحة في كل عصر وحسب حاجات كل عصر لذلك نجد التفاسير تختلف من فترة لأخرى لأنها تتأثر بطبيعة تلك الفترة ، والمفسر البارع هو الذي يستغل استغلالا كاملا في تفسيره للقرآن ما أنتجه الفكر البشري من ثقافات وما أظهره الله من سنن في الكون والاجتماع . فالزمن إذاً عنصر مهم في تفسير القرآن ولذا " فكل عالم إنما يعطي صورة زمنه بعد أن يكيف بها نفسه " (٢) .

---

(١) الابراهيمي ــ تفسير ابن باديس ص ٢٨ .

(٢) تفسير ابن باديس ص ٤٨٩ .

إلا أنه في العصور الأخيرة نتيجة للتخلف العام الذي وقع فيه المسلمون والجمود الفكري الذي انتشرت آثاره في كل الميادين بما فيها التفسير والركون إلى التقليد صار المفسر لا يعيش عصره وهو يفسر القرآن بل الحياة في واد وهو في واد وانتشرت بسبب هذا كله مفاهيم باطلة وظهرت انحرافات في فهم القرآن ليس فقط بين عامة المسلمين بل حتى بين من يسمون بالعلماء فكان من نتائج غلق باب الاجتهاد وإقبال الناس على المتون والمختصرات الإكتفاء في التفسير بمثل الجلالين الذى يكاد يقتصر على شرح الكلمات ، وإن أرادوا التوسع ففي الخازن مجال لمن يريد القصص والحكايات العجيبة من الإسرائيليات ، فمنعوا القرآن الذي لا تنقضي عجائبه من أن يعطي الناس هذه العجائب ، وكانت للطريقة التي سار عليها الجلالان ـ من الاختصار الشديد بحيث يكتفيان بذكر من نزلت فيه الآية أو مَنِ المقصود بالخطاب مثل : (وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ) نزلت فيمن كان يغتاب النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كأمية بن خلف والوليد بن المغيرة (١) ..

ومثل : « (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ) أي أهل مكة منكري البعث » (٢) وهكذا ـ سيما وأن هذا الكتاب كان هو المعتمد في التدريس بالمعاهد والمساجد في الفترة الأخيرة أقول كانت لهذه الطريقة آثار سيئة على فهم الناس لنصوص القرآن ولمهمة القرآن الأساسية وهي إصلاح المجتمع إذ تكون عند الناس اعتقاد أن كل ما في القرآن من كلام عن الكفار والعصاة إنما هو خاص بقريش وقد قاسى منهم ابن باديس الأمرين يظهر ذلك في قوله " وإذا ذكرت لهم هذا قالوا : تلك آيات نزلت في مشركي مكة فكيف تطبقونها على من يشهد الشهادتين؟ » (٣)

---

(١) تفسير الجلالين ص ٥١٩ . سورة الهمزة الآية ١ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٦٨ . سورة الأنبياء الآية ١ .

(٣) مجالس التذكير من كلام البشير النذير ـ ص ٢٠٥ .

فأصبح تنزيل القرآن على أمراض المجتمع وربط النصوص بالواقع من تحريف الكلم عن مواضعه وأما تدبر القرآن وتأمله خصوصا آيات الكون وعجائبه لاستثارة العلوم منه والتفكر في أسباب انحطاطنا وتقدم غيرنا وما هي الأسباب التي أخذوا بها حتى تقدموا وما هي انحرافاتنا حتى تأخرنا فهذا ما لم يكن يخطر على بال الكثير من الناس لأنهم شغلوا عنه "بخريدة العجائب وبدائع الزهور والحوت والصخرة وقرن الثور" (١) .

فهذا الجمود الفكري والعقلي الذي كان من آثاره في التفسير التوقف عند بعض المعاني التي استنبطها السلف وعدم التجاوز لها إلا إلى الخرافة والخيال ، وعدم تطبيق آيات القرآن على الواقع وفهمها على أنها مقيدة بزمان ومكان وأشخاص أي أن القرآن نزل لفترة مضت وانتهت ، وعدم التأمل في سنن الله في الكون والاجتماع التي تفسر من خلالها آيات كثيرة في القرآن وغيرها من الآثار يبين مدى أهمية هذه القاعدة وهي إعمال العقل بالتفكير وعدم التقليد ، والمقصود منها عند ابن باديس .

ولأهمية هذه المسألة وخطورتها تعرض لها ابن باديس في تفسيره باستفاضة مبينا طريقة التفكير الصحيح والوسيلة إلى الفهم والاستنباط وبالتالي إلى الرقي والازدهار (٢) .

ولمعرفة ما لهذه القاعدة من أثر واضح على تفسير ابن باديس أقدم بعض فروعها ضمن المطالب الآتية :

---

(١) ـ التفسير ص ٢٣٢ ـ وانظر كذلك : ص ١١٩ من البحث .

(٢) ـ راجع الفصل الخامس ص ١١٩ .

المطلب الأول

التفسير العلمي والاجتماعي :

تمهيد :-

القرآن الكريم كتاب خوطبت به البشرية كلها على مختلف أجناسها وفي جميع عصورها ، وتحدى الله تعالى به هذه البشرية في كل زمان مهما بلغت من العلم والتقدم فمعاني هذا القرآن تواكب سير العقل البشري في رقيه بل تسبقه ، وهذا يقتضي أن تفسيره يتجدد عبر العصور كلما اتسعت آفاق الفكر الإنساني وظهرت له سنن الله في الكون وتدبيره في الاجتماع ، فالزمن إذاً أحد أدوات تفسير القرآن وهذا ما يقرره ابن باديس بقوله "إن القرآن كتاب الدهر ومعجزته الخالدة فلا يستقل بتفسيره إلا الزمن وكذلك كلام نبينا صلى الله عليه وآله وسلم - المبين له " وهذا الكلام وإن كان يعم جميع آيات القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلا أنه بالتي تتحدث عن العلوم الكونية والظواهر الاجتماعية أحق وعليها أصدق " فكثير من متون الكتاب والسنة الواردة في معضلات الكون ومشكلات الاجتماع لم تفهم أسرارها ومغازيها إلا بتعاقب الأزمنة وظهور ما يصدقها من سنن الله في الكون ، وكم فسرت لنا حوادث الزمن واكتشافات العلم من غرائب آيات القرآن ومتون الحديث وأظهرت منها للمتأخرين مالم يظهر للمتقدمين وأرتنا مصداق قوله صلى الله عليه وآله وسلم في وصف القرآن " لا تنقضي عجائبه "(١).

وهذا يستدعي - في نظر ابن باديس - من العلماء المفكرين ألا يتلقوا هذه المتون بالفكر الخامد والفهم الجامد بل عليهم أن يترقبوا من سنن الله في الكون وتدبيره

---

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي عن الحارث الأعور عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات وفي إسناده مجهول وفي حديث الحارث مقال . انظر: جامع الترمذي بشرح التحفة ٢١٨/٨ ك: فضائل القرآن ، ب: ما جاء في فضل القرآن انظر ص ٢٢٨ من هذا البحث

في الاجتماع ما يكشف لهم عن حقائقهما ، ويكلون إلى الزمن وأطواره تفسير ما عجزت عنه أفهامهم .

وبعد ما دعم ابن باديس قوله هذا بالتجربة التفسيرية والكلمة النبوية أردف بما يزيد ذلك تأكيدا وهو صنيع السلف فقال : " وقد أثر عن جماعة من فقهاء الصحابة بالقرآن قولهم في بعض هذه الآيات : "لم يأت مصداقها أو تأويلها بعد" يعنون أنه آت وأن الآتي به حوادث الزمان ووقائع الأكوان ... "(١)

وسار في تفسيره على هذا فكان يشير من حين لآخر وكلما سنحت له الفرصة واتفقت المناسبة إلى ما تتضمنه آيات هذا الكتاب المعجز من لفتات وإشارات نحو بديع صنع الله في الكون وعجيب تدبيره في حياة البشر، وأبدأ بالتفسير العلمي ثم الاجتماعي مبينا طريقته فيهما مع بعض النماذج .

أولا : التفسير العلمي :-

أثناء تعرض الإمام للإشارات العلمية في القرآن كان يحاول إبراز حقيقتين اثنتين .

الأولى : أن هذه الحقائق العلمية التي جاء بها القرآن قبل أن يكتشفها البشر ما هي إلا وجه من وجوه إعجازه كقوله " لنقف خاشعين متذكرين أمام معجزة القرآن العلمية .. "(٢)

الثانية : وهي في نفس الوقت تنبيه لنا ولفت لأنظارنا لما يحويه الكون من عجائب وخيرات خلقت من أجلنا فهو يشجعنا على البحث والتنقيب للاستفادة منها والتنافس في اكتشافها وإخضاعها لصالحنا إذ من " أساليب الهداية القرآنية إلى

---

(١) التفسير ص ٤٨٨ - ٤٨٩ .

(٢) التفسير ص ٦١ .

العلوم الكونية أن يعرض علينا القرآن صورا من العالم العلوي والسفلي في بيان بديع جذاب ، يشوقنا إلى التأمل فيها والتعمق في أسرارها " مثل قوله تعالى في سورة النمل (١) (٢) " الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. " فهو هنا يذكر لنا ما خبأه في السموات والأرض لنشتاق إليه . وننبعث في البحث عنه واستجلاء حقائقه ومنافعه بدافع غريزة حب الاستطلاع ومعرفة المجهول ومثل هذا انبعث أسلافنا في خدمة العلم واستثمارها في الكون إلى أقصى ما استطاعوا ومهدوا بذلك السبيل لمن جاء بعدهم ولن نعزهم إلا إذا فهمنا الدين فهمهم وخدمنا العلم خدمتهم" (٣) .

ولم يصرح بمنهجه في هذا النوع من التفسير إلا أنني بالتأمل فيما جاء عنه من تفسير علمي وجدته — والله أعلم — كأنه يشترط شرطا واحدا وهو أن تكون المعلومة العلمية من الحقائق التي اتفق عليها علماء العصر وذلك من كثرة ذكره لكلمة الإجماع أو الاتفاق كقوله " واتفق علماء الفلك في العصر الحديث بعد الاكتشافات والبحوث العلمية أن جرم القمر — كالأرض — كان منذ أحقاب طويلة وملايين السنين شديد الحمو والحرارة ثم برد فكانت إضاءته في أزمان حموه وزالت لما برد" (٤) وكقوله أيضا — بعد ذكره لبعض المكتشفات العلمية — : " فهذه حقائق علمية كونية أجمع عليها علماء العصر أنها من المكتشفات الحديثة ، ولم تكن معلومة عند أحد من الخلق قبل اكتشافها ولا كانت عندهم الآلات الموصلة إلى معرفتها .." (٥)

شيء آخر يحسن بي أن أذكره هنا وهو أنه لم يكن مكثرا من هذا التفسير بل المسائل التي وردت عنه تعد على الأصابع وفهمت ذلك — رغم عدم توفر كل تفسيره — من

---

(١) التفسير ص ٣٥٠

(٢) آية ٢٥

(٣) التفسير ص ٣٥٠

(٤) التفسير ص ٦٠ .

(٥) التفسير ص ٣٧٢ .

عبارة جاءت عنه عدَّدَ فيها أهم ما اشتمل عليه القرآن من إشارات إلى الحقائق العلمية في معرض استدلاله على أن القرآن كلام الله ووحيه فاقتصر على عدد معين ولو أنه تعرض لأكثر لذكره ٠

بعد ما ذكر بعض الأدلة الأخرى على أن القرآن كلام الله قال " ٠٠٠ وما فيه من حقائق كونية كانت مجهولة عند جميع البشر وما عرفت لهم إلا في هذا العصر الأخير ومن أشهرها مسألة الزوجية الموجودة في جميع هذا الكون حتى أصغر جزء منه وهو الجوهر الفرد المركب من قوتين : موجبة وسالبة ٠٠٠ ومنها مسألة حياة النبات ٠٠٠ ومنها مسألة تلاقح النباتات بواسطة الرياح التي تنقل مادة التكوين من الذكر إلى الأنثى ٠٠٠ "(١)

ثانيا : التفسير الاجتماعي :ـ

(١) لله سنة نافذة

مثل ما لله من سنن في الكون فإن له كذلك سنة في المجتمع تتصرف حياة البشرية على مدى التاريخ وفقها سواء في الفقر والغنى ، أو التقدم والتأخر أو النصر والهزيمة

هذه السنة يقررها ابن باديس بقوله :ـ وهو بصدد الحديث عن وراثة أرض الدنيا ـ " ولله سنن نافذة بمقتضى حكمته ومشيئته في ملك الأرض وسيادة الأمم يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، من أخذ بنوع من تلك السنن بلغت به وبلغ بها إلى ما قدر له من عز وذل وسعادة وشقاء وشدة ورخاء ٠ وكل محاولة لصدها عن غايتها ـ وهو آخذ بها ـ مقضيى عليها بالفشل ٠ سنة الله

---

(١) التفسير ص ٣٧٢ ٠

ومن ذا يبدلها أو يحولها ؟ " فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا (١) وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا " ثم " لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ " (٢) (٣)

(٢) لا محاباة :ـ

وهذه السنة في جريانها لا تحابي أحدا بل متى توفرت الأسباب التي وضعها الله تعالى حصلت النتيجة المقررة وفق تلك السنة فهي مطردة ومحكمة ولا يمكن أبدا تخلفها حتى ولوكان القائم بالأسباب من المسلمين وهذا ما يقرره كذلك الإمام ابن باديس فعند قوله تعالى " مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ .. (٤) " الآية وبعد تفسيره لها قال : " وقد أفادت هذه الآيات كلها أن الأسباب الكونية التي وضعها الله تعالى في هذه الحياة وسائل لمسبباتها موصلة ـ بإذن الله تعالى ـ من تمسك بها إلى ما جعلت وسيلة إليه بمقتضى أمر الله وتقديره وسننه في نظام هذه الحياة والكون ولوكان ذلك المتمسك بها لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا يصدق المرسلين .

ومن مقتضى هذا : أن من أهمل تلك الأسباب الكونية التقديرية الإلهية ، ولم يأخذ بها لم ينل مسبباتها ولوكان من المؤمنين وهذا معلوم ومشاهد من تاريخ البشر في ماضيهم وحاضرهم ... " (٥)

هذا بالنسبة لعمارة الأرض وكذلك في كل النواحي فمثلا بالنسبة للتمكين في الأرض يقول الإمام : " فعلى الأمم التي تريد أن تنال حظها من هذا الوعد (٦) أن تصلح

---

(١) فاطر ٤٣ .

(٢) الاعراف ٣٤ .

(٣) التفسير ٤٤٩ .

(٤) الاسراء ١٨ .

(٥) التفسير ٦٦ .

(٦) (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) الانبياء ١٠٥ .

أنفسها الصلاح الذي بينه القرآن فأما إذا لم يكن لها حظ من ذلك الصلاح فلاحظ لها من هذا الوعد وإن دانت بالإسلام "(١)

(٣) سنة الله لا تتخلف :-

وإذا ما رأيناها تخلفت في أمة فمعنى ذلك أنه لم يحن الأجل بعد •

يوضح لنا الإمام ذلك وهو بصدد الحديث عن سنة الله تعالى في إهلاك الأمم الظالمة فيقول :" القرى التي قضي عليها بالهلاك والاستئصال هذه قد انتهى أمرها بالموت وفات عن العلاج مثل عاد وثمود من الأمم البائدة • وأما القرى التي قضي عليها بالعذاب الشديد فهذه لا تزال بقيد الحياة فتداركها ممكن وعلاجها متيسر مثل الأمم الإسلامية الحاضرة فمما لا شك إن فينا لظلما وعتوا وفسادا وكفرا بأنعم الله وإننا من جراء ذلك لفي عذاب شديد ولا نعني بهذا أن الأمم الإسلامية مخصوصة بهذا بل مثلها وأقوى منها في أسباب العذاب والهلاك غيرها من أمم الأرض وإن لهم لقسطهم من العذاب الشديد وإذا لم يأت المقدار المماثل من الهلاك أو العذاب لما عندهم من أسبابهما فلأنه لكل أمة أجل ولما يأت ذلك الأجل بعد فإذا جاء لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون "(٢)

وهكذا نجد ابن باديس يستخلص سنن الله في المجتمع من القرآن ويمثل لها من الواقع القديم والحديث فعند قوله تعالى " وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ... " الآية(٣) يفيض في الكلام عن أطوار الأمم مبتدئا كلامه بقوله " الأمم كالأفراد تمر عليها ثلاثة أطوار : طور الشباب وطور الكهولة

---

(١) التفسير ص ٤٤٨ •

(٢) نفس المصدر ص ١٦٣ •

(٣) الاسراء ٥٩ •

وطور الهرم ... " ويستمر في التفصيل والتقسيم محللا مدللا ومنظرا مع التمثيل بالواقع الإسرائيلي القديم والواقع الإسلامي الحديث في مساحة ست صفحات (١) .

المطلب الثاني

التفسير الإشاري

لم أجد له نموذجا لهذا النوع ولكن عرفت موقفه منه _ وهو أنه يجيزه بشروط _ من خلال اقتباسه لتفسير أحد شيوخ الصوفية الذي أعقبه بتوجيه بين فيه قيمة وقدر هذا النوع من التفسير ووجه قبوله ثم حدد الشروط التي يقبل بها مثل هذا التفسير (٢) .

فعند قوله تعالى " وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ : مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ .. " الآية (٣) وبعد أن تطرق إلى عدة مباحث فيها قال : " سأل سليمان عن حال نفسه . فقال مالي لا أرى الهدهد ولم يسأل عن حال الهدهد فيقل ما للهدهد لا أراه _ فأنكر حال نفسه قبل أن ينكر حال غيره . فنقل الحافظ الإمام ابن العربي عن الإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري شيخ الصوفية في زمانه قال : "إنما قال مالي لا أرى لأنه اعتبر حال نفسه إذ علم أنه أوتي الملك العظيم وسخر له الخلق ، فقد لزمه حق الشكر بإقامة الطاعة وإدامة العمل ، فلما فقد نعمة الهدهد توقع أن يكون قصر في حق الشكر فلأجله سلبها فجعل يتفقد نفسه فقال مالي ... "

بعد إيراد الشيخ ابن باديس لهذا التفسير عن هذا الإمام قال :

" مثل هذه المعاني الدقيقة القرآنية الجليلة النفيسة من مثل هذا الإمام الجليل من أَجَلِّ علوم القرآن وذخائره .. " ثم بين الشروط التي بها يقبل مثل هذا

---

(١) التفسير ص (١٥٩ _ ١٦٥) .

(٢) التفسير ٣٣٦ .

(٣) النمل _ الآية ٢٠ .

النوع من التفسير بقوله :" إذ هي معان صحيحة في نفسها .

ومأخوذة من التركيب القرآني أخذا عربيا صحيحا

ولها ما يشهد لها من أدلة الشرع .

وكل ما استجمع هذه الشروط الثلاثة فهو صحيح مقبول ومنه فهم عمر وابن عباس رضي الله عنهما أجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من سورة النصر

أما ما لم تتوفر فيه الشروط المذكورة وخصوصا الأول والثاني فهو الذي لا يجوز في تفسير كلام الله وهو كثير في التفاسير المنسوبة لبعض الصوفية : كتفسير ابن عبد الرحمن السلمي من المتقدمين والتفسير المنسوب لابن عربي من المتأخرين "(١)

---

(١) التفسير ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ .

المطلب الثالث

تنزيل الآيات على واقع الحياة :ـ

لم يقصر ابن باديس آيات القرآن على زمن نزولها فقط ، ولم يجعل دلالتها خاصة بأقوام مخصوصين أو زمان ومكان محددين . ولكنه اعتبر دلالاتها عامة ، ومعانيها شاملة تنطبق على كل زمان ومكان ، فكان يخضع حوادث الحياة القائمة في وقته لنصوص القرآن الكريم إما بالتوسع في معنى النص أو بحمل الشبيه على التشبيه مرتكزا على قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وكثيرا ما يضع مثل هذه العناوين : " تنزيل " ، " تنظير " " تطبيق " على الهامش ثم يبين تحتها تطابق أحوال الناس لمنطوق الآية أو مفهومها أو إشاراتها الدقيقه التي تخفى على غير المتدبر وأكثر الميادين كانت مجالا لتوسع الإمام في تطبيق الآيات على الواقع فيها هي الدعوة والعقائد والأمراض العقلية والنفسية والاجتماعية بصفة عامة .

فكان إذا فسر آية لها سبب نزول لا ينسى أن ينبه على أن هذا السبب لا يقصر حكمها على من نزلت فيه بل يعم غيره لعموم لفظها كما فعل عند قوله تعالى "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا"(1) إذ بعد أن بين أنها نزلت في حق السابقين الأولين من المؤمنين الذين كانوا مبغوضين من أهل مكة المشركين مهجورين منهم مزهودا فيهم أوضح عموم حكم الآية بقوله :

" عموم الوعد لعموم اللفظ " :ـ

الإيمان ـ وهو التصديق الصادق المثمر للأعمال والأعمال الصالحة ـ وهي المستقيمة النافعة المبنية على ذلك الإيمان ـ هما اللذان جعلهما الله سببا في تحقيق جعل هذا الود لما قال تعالى "ان الذين امنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا" فيعم ذلك كل أهل الإيمان والعمل الصالح وهم أولياء الله و "إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ

---

(1) مريم ـ ٩٠ .

إِلاَّ الْمُتَّقُونَ "(١) وبعد أن بين سبب الود وسبب الجعل أردف قائلا :

" بشارة وتثبيت :

في الآية من سبب نزولها بشارة لدعاة الحق وأنصار السنة ومرشدي الأمم عندما يقومون بدعوة القرآن في عشائرهم ويلقون منهم النفور والإعراض والبغض والإنكار ويجدون أنفسهم غرباء بينهم يعاديهم من كانوا أحبابهم ويقاطعهم أقرب الناس قرابة إليهم ويصبح يؤذيهم من كان يحميهم ويدافع عنهم .... "(٢)

وهكذا كان يفعل في بقية الآيات التي ورد فيها سبب نزول ونفس الشيء في الآيات التي وردت بخصوص قريش أو اليهود أو المنافقين فإنه كان دائم التنبيه إلى أن ذلك لا يقتضي حصر حكمها فيمن جاءت فيهم بل يتعدى إلى غيرهم ممن يشتركون معهم في الوصف كقوله " فالآية وإن كانت في الكافر والمشرك فهي تتناول بطريق الاعتبار أهل الأهواء والبدع ... "(٣) وقوله أيضا "كما لا تجوز طاعة الكافرين في شيء مما يمليه عليهم كفرهم كذلك لا تجوز طاعة العصاة في شيء مما تمليه عليهم معصيتهم لأن الجميع فيه مخالفة لدين الله وكما يجاهد أهل الكفر بالقرآن العظيم الجهاد الكبير كذلك يجاهد به أهل المعصية لأنه كتاب الهداية لكل ضال والدعوة لكل مرشد وفي ذكر الكافرين تنبيه على العصاة من التنبيه بالأعلى على الأدنى لاشتراكهم في العلة وهي المخالفة "(٤).

وقد وجد الإمام ابن باديس في قاعدة (العبرة بعموم اللفظ ..) سندا قويا في أن يفسح لآيات القرآن الكريم المجال لتطبق في الواقع الذي يعيشه الناس وهو

---

(١) الانفال (٣٤).

(٢) التفسير ٤٣٥ ـ ٤٣٦.

(٣) التفسير ٢٢٨ الفرقان آية ٢٧.

(٤) التفسير ص ٢٥١ الفرقان آية ٥٢.

تارة يذكر هذه القاعدة بصراحة كما فعل عند قوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ﴾ (١) حين قال " العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب والحكم يعم بعموم اللفظ كما أن ذكر سبب القتل في الآية لا يقتضي التخصيص ، لأنه ذكر لتصوير الحال الذى كانوا عليه فالقتل حرام لأى سبب كان " وبعد هذا التمهيد بين - عطيا - عموم الآية بذكر أمثلة لأنواع القتل الأخرى فقال :" وهذا الفعل الذى كان في الجاهلية على الوجه المتقدم - وهو فعل مؤد الى قطع النسل وخراب العمران - لا تسلم منه الأمم الأخرى في مختلف الأزمنة والبلدان ، اما بالقتل بعد الولادة ، واما بافساد الحمل بعد التخليق وهو حرام باتفاق ، وقد يكون بالامتناع من التزوج أو بعدم الانزال في الفرج وهو العزل " (٢) وفي أكثر الأحيان يتوسع في معني الآية بناء على هذه القاعدة دون ذكرها كما فعل عند قوله تعالى : ﴿ وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ... ﴾ (٣) حيث قال - تحت عنوان جانبي :

---

(١) الاسراء ، ٣١.

(٢) التفسير : ١١٨.

الامتناع عن التزوج والعزل ليسا من الأمور المتفق على تحريمها ، بل العزل مختلف فيه ونقل النووى - فى شرح مسلم أول كتاب النكاح - الاتفاق على عدم حرمة الامتناع من التزوج الا أني رأيت فى كتب متأخرى المالكية مايفيد أن الامتناع عن التزوج يحرم ان خاف الممتنع على نفسه الوقوع فى الزنا (انظر الشرح الصغير للدردير ، أول كتاب النكاح). وفى سكوت ابن باديس عن هذين النوعين - بعد تصريحه باتفاق الحرمة فى القتل بعد الولادة وافساد الحمل بعد التخليق - اشارة الى الخلاف الذى ذكرته .

(٣) الاسراء : ٨٢.

تطبيق : نزول الآيات في الكافرين لا يمنع من تطبيقها على من شاركهم في مثل الحال الذى أنكرته عليهم من المؤمنين لأن الوصف المذموم مذموم سواء أكان المتصف به مؤمنا أم كان كافرا . . ." (١)

والخلاصة أن ابن باديس رحمه الله تعالى كان يؤمن أن القرآن الكريم كتاب الدهر يعالج كل مشاكل البشر عبر كل العصور لذا ينبغي أن ينزل على الواقع ويطبق على الحياة وكان كثيرا مايقرر هذه الحقيقة ويدعو الى " أن نقرأ القرآن ونتفهمه حتى تكون آياته على طرف ألسنتنا ومعانيه نصب أعيننا لنطبق آياته على أحوالنا ، وننزلها عليها كما كانت تنزل على الأحوال والوقائع . . ." (٢)

---

(١) التفسير : ١٩٠.

(٢) التفسير : ٢٤١.

المطلب الرابع

التوسع فى استنباط المعاني الدقيقة

كان ابن باديس يرى أن هذا القرآن غزير المعاني ،كثير الفوائد ،فمهما استنبط منه العلماء ،وفسره المفسرون فان عجائبه لا تنتهي ،مصداقا لما روى فى الأثر " لا تنقضي عجائبه "(١) وكان يرى أن هذا يدعونا الى تلمس هذه الفوائد والمعاني فيه ومحاولة بذل أقصى مايمكن من جهد في التنقيب عن خباياه والغوص وراء جواهره واكتشاف درره ولآليه ،ولا ينبغي الوقوف عند الحد الذى وقف عنده السابقون ،معطلين عقولنا عن التدبر والتفكير مكتفين بما وجدنا عليه آباءنا ،فالقرآن صالح لكل زمان ومكان وهذا يقتضي أن تكون معانيه متجددة ،لتتلاءم مع كل عصر ، وهذا يستلزم أن يكون المفسر على درجة كبيرة من الفطنة والذكاء والعلم الشامل ،وهكذا كان ابن باديس كما قال عنه زميله الابراهيمي :"كان للأخ الصديق عبد الحميد بن باديس رحمه الله ذوق خاص في فهم القرآن كأنه حاسة زائدة خص بها ،يرفده بعد الذكاء المشرق والقريحة الوقادة والبصيرة النافذة بيان ناصع واطلاع واسع ،وذرع فسيح في

---

(١) قال الترمذى : هذا حديث غريب لا نعرفه الا من حديث حمزة الزيات وفي اسناده مجهول وفى حديث الحارث مقال . قال صاحب التحفة : (٨ / ٢٢١) : قوله : وفى اسناده مجهول ،أى لجهالة أبي المختار الطائي وابن أخي الحارث الأعور . قال الحافظ فى ترجمة (الحارث) كذبه الشعبي فى رأيه ورمي بالرفض وفي حديثه ضعف و (الحارث) : هو الحارث الأعور .
قال ابن كثير :« لم ينفرد بروايته حمزة بن حبيب الزيات بل قد رواه محمد بن اسحاق عن محمد بن كعب القرظي عن الحارث الأعور فبرئ حمزة من عهدته على أنه وان كان ضعيف الحديث فانه امام فى القراءة . والحديث مشهور من رواية الحارث الأعور وقد تكلموا فيه بل قد كذبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده . أما انه تعمد الكذب فى الحديث فلا والله أعلم .
وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين على رضى الله عنه وقد وهم بعضهم فى رفعه وهو كلام حسن صحيح على أنه قد روى له شاهد عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم " اهـ . انظر فصل فضائل القرآن فى آخر تفسير ابن كثير الحديث الثالث .

العلوم النفسية ، والكونية وباع مديد في علم الاجتماع ، ورأى سديد في عوارضه وأمراضه يعد ذلك كله شجاعة في الرأى وشجاعة في القول لم يرزقهما الا الأفذاذ المعدودون في البشر.(١)

فكان ابن باديس يعمل ذكاءه هذا ، ويمعن نظره في استنباط المضامين الفكرية التي تستفاد من النص عن طريق اللزوم الفكرى أو الاشارات الضمنية للكلام بما فيها من تلويح أو تلميح أو تعريض أو كناية أو غير ذلك .

وكان لدى شرحه للنص يقوم بابراز هذه المضامين ، والدلالة على المواطن الكلامية التي استفاد هذه المضامين منها ، وهذه عملية من عمليات الاستنباط الذى اختص الله به المتدبرين من أهل العلم.(٢)

والنماذج على ذلك كثيرة منها :-

قوله عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم . . . ﴾ الآية :(٣) " والابتغاء " : هو طلب الشئ بسعي اليه ومحبة فيه . ويسمي - تعالى - طلب أسباب الحياة ابتغاء تنبيها على هذا السعى وهذه المحبة ، فهما الشرطان اللازمان للفوز بالمطلوب . كما يسمي - تعالى - المطلوب بالابتغاء فضلا من الرب . وفضله من رحمته ، ورحمته واسعة لا تضبطها حدود ، ولا تحصرها الأعداد - تنبيها على سعة هذا الفضل ليذهب الخلق في جميع نواحيه ويأخذوا بجميع أسبابه مما أذن لهم فيه . وليكونوا

== والشاهد الذى أشار اليه ابن كثير هو مارواه الدارمي موقوفا على عبد الله بن مسعود : ٢ / ٤٣١ كتاب فضائل القرآن ، وقد رأينا كيف أن ابن كثير يميل الى وقفه .

(١) تفسير ابن باديس ص: ٣٢ .

(٢) عبد الرحمه حسن حبنكه الميداني - قواعد التدبر الأمثل . . ص: ١٥٥ .

(٣) الاسراء : ١٢ .

- اذا ضاق بهم مذهب - آخذين بمذهب آخر من مسالك هذا الفضل الرباني الواسع غير المحصور، وتنبيها أيضا على قوة الرجاء في الحصول على البغية لأن طلبهم طلب لفضل رب كريم ».

« ويقول تعالى : " من ربكم " - والرب المالك المدبر لمملوكه بالحكمة فيعطيه في كل حال من أحواله مايليق به ،ليكون الخلق بعد قيامهم بالعمل راضين بما ييسره الله من أسباب ومايقسمه لهم من رزق ثقة بعدله وحكمته ،فلا يبغي أحد على أحد بتعد أو حسد ».

« فهذه الكلمات القليلة الكثيرة وهي : " لتبتغوا فضلا من ربكم " جمعت جميع أصول السعادة في هذه الحياة : بالعمل مع الجد فيه، والمحبة له والرجاء في ثمرته الذى بهقوام العمران. وبالرضا والتسليم للمولى الذى به طمأنينة القلب وراحة الضمير. وبالكف للقلب واليد عن الناس الذى به الأمن والسلام ".(١)

ومنها أيضا :

قوله عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ والأرض فرشناها فنعم الماهدون ﴾.(٢)

" دقيقة كونية في الآية القرآنية :

شأن الفراش أن يكون ماتحته لا يصلح للجلوس والنوم عليه وما تحت وجه الأرض هو كذلك لا يصلح للحياة فيه ،فان تحت القشرة العليا من الأرض: المواد المصهورة، والمياه المعدنية، والأبخرة الحارة مما تنطق به البراكين المنتشرة على وجه الأرض في أماكن عديدة فكانت القشرة العليا من الأرض مثل الفراش تماما ".(٣)

ومن أراد الاستزادة فعليه مراجعة التفسير.(٤)

---

(١) تفسير ابن باديس ٦٢-٦٣.

(٢) الذاريات : ٤٨.

(٣) المصدر السابق :ص٤٦١.

(٤) انظر الصفحات : ٢١٦، ٢٢١، ٢٣١، ٢٤٧، ٢٥٦، ٢٦٠، ٢٧٢، ٢٩٠، ٢٩٥، ٣٢٢، ٣٢٥، ٣٣٠، ٣٣٨، ٣٨٢، ٤٢١، ٤٢٣، ٤٦٥.

المبحث التاسع

القاعدة الثامنة

الاهتمام بالغاية من التفسير

لكل عمل غاية ، ولا ينبغي أبدا أن يشرع الإنسان العاقل في عمل دون أن تكون له غاية يقصدها وهدف يطلبه ، وإلا كان من العابثين ، " فعلى كل ذي سعي في الحياة أن يعين غايته التي يقصد إليها ، ويستعد بكل ما يساعده على الوصول إليها "(١) .

غاية المفسر هي غاية إنزال القرآن

ينبغي أن تكون غاية المفسر من تفسيره هي نفسها التي من أجلها أنزل القرآن ، " فقد أنزله الله تعالى هداية عامة لجميع البشر لما فيه سعادتهم الدنيوية والأخروية ، بتنوير العقول ، وتزكية النفوس ، وتقويم الأعمال ، وإصلاح الأحوال وتنظيم الاجتماع البشري على أكمل نظام ، وإن كل ما خالفه فهو ضال(٢) .

لقوله تعالى "كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ"(٣) .. "فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"(٤) ، "وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ"(٥) ولقوله صلى الله

---

(١) انظر ص ١٦٨ أو الشهاب ٨ - ١١ - شعبان ١٣٥٤هـ نوفمبر ١٩٣٥م ص ٤٥١

(٢) هكذا كتبت ولعلها "ضلال"

(٣) سورة إبراهيم آية (١)

(٤) الاعراف آية ١٥٧ .

(٥) الاسراء آية ٨٢ .

عليه وسلم في خطبته يوم عرفة في حجة الوداع : " قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ : كِتَابَ اللَّهِ " رواه مسلم . (١) (٢)

ويتلخص هذا كله في " أن يهتدي المفسر في نفسه وأن يهدي غيره " (٣)

ويجب على المفسر المجاهد أن يجعل هذه الغاية ـ قبل الشروع في التفسير وأثناءه ـ نصب عينيه ويلزم نفسه العمل بها ولها ولا يحيد عنها ، ولا يشغله عنها شاغل ، كأن يجعل الوسائل غايات ، أو أن يهتم بغايات جزئية إهتماما يجعله يخل ويقصر في الاهتمام بهذه الغاية التي من أجلها أنزل القرآن .

وعلى هذا سار ابن باديس في تفسيره ، ومن خلال فروع هذه القاعدة يظهر ذلك .

المطلب الأول

عدم التوسع في المباحث الجانبية كاللغويات

كثير من المفسرين ينساق مع المباحث اللفظية ـ مثلا ـ وينسى ما سيقت من أجله الآيات من الهداية القرآنية حتى يخيل للقارئ أن الكتاب كتاب نحو وصرف وبلاغة وأدب لا كتاب تفسير ، ويخرج عن مقصوده ، ويضيع الجهد في غير فائدة ويحرم الناس من خير القرآن وبركته : وقد اعتبر ابن باديس هذا المسلك نوعا من أنواع هجر القرآن التي توعد الله تعالى مرتكبيها بالوعيد الشديد ، يقول رحمه الله تعالى بهذا الصدد : " ودعانا القرآن إلى تدبره وتفهمه ، والتفكر في آياته ولا يتم ذلك إلا بتفسيره وتبيينه ، فأعرضنا عن ذلك وهجرنا تفسيره وتبينه .

فترى الطالب يفني حصة كبيرة من عمره في العلوم الآلية دون أن يكون طالع ختمة واحدة في أصغر تفسير كتفسير الجلالين مثلا ، بل ويصير مدرسا متصدرا ولم يفعل

---

(١) مسلم بشرح النووي ٨/١٨٤ ك: الحج ب: حجة النبي صلى الله عليه وسلم

(٢) ابن باديس ـ العقائد الاسلامية ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٣) الشهاب ٨ ـ ١١ ـ شعبان ـ ١٣٥٤ ـ نوفمبر ـ ١٩٣٥ ص ٤٥١

ذلك ، وفي جامع الزيتونة – عمره الله تعالى – إذا حضر الطالب بعد تحصيل (التطويع)[1] في درس تفسير ، فإنه – ويا للمصيبة يقع في خصومات لفظية بين الشيخ عبد الحكيم وأصحابه في القواعد التي كان يحسب أنه فرغ منها من قبل فيقع في خصومة من الخصومات أياما أو شهورا فتنتهي السنة وهو لا يزال حيث ابتدأ أو ما تجاوزه إلا قليلا دون أن يحصل على شيء من حقيقة التفسير ، وإنما قضى سنته في المماحكات بدعوى أنها تطبيقات للقواعد على الآيات كأن التفسير إنما يقرأ لأجل تطبيق القواعد الآلية لا لأجل فهم الشرائع والأحكام الإلهية[2] ."

وعمل ابن باديس في تفسيره على تجنب هذا الانحراف فاستعمل اللغة وسيلة لا غاية ، فكان لا يذكر منها إلا بالقدر الذي يحتاج إليه لتوضيح المعنى والمتتبع لمواطن استعمال ابن باديس اللغويات في تفسيره يتحقق من ذلك .

المطلب الثاني

عدم التوسع في فن من فنون الشريعة – كالفقه مثلا – على حساب الغاية العظمى وهي الهداية .

فكان في مسائل الفقه أو العقيده مثلا يقتصر على تقرير أصول المسائل التي يفيدها النص بالمنطوق أو المفهوم دون تشعباتها مع ربط كل ذلك بالأدلة .

ولم يفعل كما فعل كثير من المفسرين في صنيعهم متأثرين باختصاصهم في العلوم التى غلبت عليهم وعرفوا بها .

فالمحدث يحرص على حشد الآثار سواء صحت أم لم تصح اتفقت أم تعارضت

---

(١) أعلى شهادة في جامع الزيتونة في تلك الفترة .

(٢) تفسير ابن باديس – ص ٢٣٢ – ٢٣٣ .

والفقيه يتوغل في الفروع ، والمتكلم يتوسع في العقائد وكل لا يفيض إلا في ماهو مولع به ٠

وهكذا نجدهم يحكمون في القرآن نحلهم ومذاهبهم وصناعاتهم الغالبة عليهم ، فأضاعوا هديه وبلاغه وأبعدوا الأمة عنه ، وصرفوها عن حكمه وأسراره ٠ (١)

أما ابن باديس فقد عمل حذره من هذا ، وبذل جهده لئلا يقع في مثله :

والأمثلة الشاهدة على ذلك كثيرة منها :

عند تفسيره لقوله تعالى " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ٠٠٠ " (٢) الآية وبعد أن أفاض في جوانب عديده تتعلق بالهداية حتى وصل إلى المفاضلة بين الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام قال: " وفي المفاضلة بين الأنبياء والملائكة في الأجر والثواب خلاف كبير وتفويض أمر ذلك إلى الله تعالى في مقام التذكير أسلم " (٣) ٠

وعند تفسيره لقوله تعالى " أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٤) قال :

" الأحكام :

قد قال بكفر تارك الصلاة جماعات كثيرة من الفقهاء والمحدثين سلفا وخلفا مستدلين بحديث جابر (٥) ، وحديث بريدة (٦) الصريحين في كفره ، وذهبت جماعات

---

(١) البشير الابراهيمي — تفسير ابن باديس ص ٣٠ — ٣١ ٠

(٢) الاسراء آية ٧٠ ٠

(٣) تفسير ابن باديس ص ١٧١ ٠

(٤) الاسراء آية ٧٨ ٠

(٥) ولفظه : " بَيْنَ الرجلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تركُ الصَّلَاةِ " رواه مسلم كتاب الإيمان باب بيان اطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة ، ج ١ ص ٨٨ تحقيق فؤاد عبد الباقي ٠

(٦) ولفظه " العَهْدُ الذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ " رواه الترمذى وصححه أبواب الايمان ج ٤ — ص ١٢٦ ورواه غيره ٠

أخرى كذلك إلى عدم كفره على عظم جرمه ، مستدلين بحديث عبادة بن الصامت المتقدم[(١)] ، الصريح في جعله في المشيئة ، والكافر مقطوع له بدخول النار ، ويجيبون عن حديث جابر وبريدة بأن المراد من كفر تارك الصلاة هو الكفر العملي .

والكفر قسمان : اعتقادي وهو الذي يضاد الإيمان ، وكفر عملي وهو لا يضاد الإيمان ومنه كفر تارك الصلاة غير المستحل للترك ، وكفر من لم يحكم بما أنزل الله كذلك وبهذا يجمع بين الأحاديث .

وكفى زاجرا للمرء عن ترك الصلاة أن يختلف في إيمانه هذا الاختلاف[(٢)] .

المطلب الثالث

ترك الإطناب في المبهمات

ومما يبنى على هذه القاعدة ترك الاطناب في المبهمات أي عدم التوسع فيما ورد في القرآن مبهما كبقرة بني إسرائيل[(٣)] وغراب ابني آدم[(٤)] وكلب أصحاب الكهف[(٥)] وهدهد سليمان[(٦)] وغير ذلك ، لأن العبرة لا تتوقف على تفصيله ولذا جاء به القرآن مبهما

---

(١) ولفظه " خمسُ صَلَواتٍ كَتَبَهُنَّ اللَّهُ عز وجل على العِبَادِ ، فمَنْ جاءَ بهنَّ لَمْ يُضَيِّعْ مِنْهُنَّ شيئا استخفافًا بحقهِنَّ ، كانَ لَهُ عند الله عهدٌ أن يُدخله الجنةَ وَمَنْ لم يأتِ بهنَّ فليس له عند الله عهدٌ ، إنْ شاءَ عذَّبَهُ وَإِنْ شاءَ أدْخَلَه الجنةَ» رواه مالك ـ كتاب صلاة الليل ، باب الامر بالوتر ج ١ ص ١٢٣ تحقيق فؤاد عبد الباقى .

(٢) تفسير ابن باديس ص ١٧٧ .

(٣) البقرة آية ٦٧ .

(٤) المائدة آية ٣١ .

(٥) الكهف آية ١٨ .

(٦) النمل آية ٢٠ .

كان ابن باديس في تفسيره لا يفصل في ذلك إلا إذا ورد تفصيل من السنة الصحيحة أو روايات تاريخية أخرى لا يضر الاستشهاد بها مع الفائدة في ذلك .

فعند تفسيره لقوله تعالى " حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ .. "[1]

الآية قال رحمه الله تعالى : " اتوا على وادي النمل " هبطوا إليه من مكان أعلى منه . وهو بالشام أو بالحجاز ، لم تتوقف العبرة على تعيينه فلم يعين .. "[2]

المطلب الرابع

تنزيل الآيات على الواقع وربط النصوص بالأحداث

وقد سبق أن ذكرت ذلك في فصل " أهداف التفسير "[3] فلا داعي لتكراره هنا .

المطلب الخامس

التركيز على العقائد والأخلاق ودوام الإشارة إلى الفائدة العملية من النص القرآني .

يلاحظ في تفسير ابن باديس أن أكثر الموضوعات التي كان مهتما بإبرازها والتوسع فيها : العقائد والأخلاق ، ويكفي للتحقق من ذلك اطلاعة واحدة على تفسيره .

وأما استخلاصه - بعد الشرح - للفائدة العملية فأكاد أجزم بأنه لا توجد آية لم يشر بعد تفسيرها إلى الفائدة العملية ، ولهذا فكل تفسيره نماذج ناطقة بذلك .

---

(١) النمل آية ١٨ .

(٢) تفسير ابن باديس ص ٣٢٩ .

(٣) انظر ص (١٢٢) و (٢٢٤)

المطلب السادس

التلقـــي للتنفيـــــــذ

لم يفسر ابن باديس القرآن ليضيف للمكتبة الاسلامية سفرا جديدا في التفسير وإنما فسره ليعمل به الناس فو رسط عهم له من مفسره و لذا لم يكتبه هو و لم يدونه أحد من تلامذته ، وقد سبق أن تكلمت على هذا في فصل " صلة ابن باديس بالتفسير .. " (١)

وهذا مبني على أن الغاية من التفسير ليست الثقافة وإنما هي العلـــم والعمل ، وهذا لا يتم إلا بهذه الطريقة التي اتبعها ابن باديس في تفسيره .

---

(١) انظر ص (٨٤) .

المبحث العاشر

القاعدة التاسعة

الاعتماد على اللغة

لا شك أن اللغة أداة أساسية لفهم القرآن الكريم إذ هي لغته التي بها أنزل (١) قال تعالى "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" (٢) وقال أيضا "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ..." (٣) الآية وقال أيضا "فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا" (٤) وقال أيضا "كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" (٥)

ولا يعقل أن ينزل كتاب من عند الله تعالى بلغة معينة ولا تكون تلك اللغة هي الوسيلة لفهمه . حتى وإن قلنا بأن فهمه يحتاج إلى أمور أخرى معها إلا أنها هي الأداة الأساسية التي يفهم طبقا لقواعدها من غير تكلف ولا تعسف . (٦)

وهكذا اعتبرها ابن باديس ونص عليها كثيرا في تفسيره مثل قوله ـ وهو يبين عمل الناظر في كتاب الله تعالى ـ : "يكون عمله في كتاب الله هو التفهم والتدبر لآياته والتفطن لتنبيهاته ، ووجوه دلالاته واستثارة علومه من منطوقه ومفهومه على مادلت عليه لغة العرب في منظومها ومنثورها ..." (٧)

---

(١) كلمة لابن باديس ـ في كتاب : ابن باديس حياته وآثاره : ج ٤ ـ ص ١٢٨ .

(٢) يوسف آية ٢ .

(٣) ابراهيم آية ٤ .

(٤) مريم آية ٩٧ .

(٥) فصلت آية ٣ .

(٦) الامام الشهيد حسن البنا ـ مجموعة رسائل الامام الشهيد حسن البنا ص ٢٦٨ .

(٧) تفسير ابن باديس ص ٣٦٢ .

وقاعدته في الاعتماد على اللغة كأداة للتفسير تنبني على أساسين :

الأول : لا يلتفت إلى اللغة مع التفسير النبوي :

أي أن القرآن والحديث إذا علم تفسيرهما من جهة النبي صلى الله عليه وسلم لم يحتج في ذلك إلى أقوال أهل اللغة بل المعنى الذي حدده الرسول صلى الله عليه وسلم هو المعتمد .

وعلى هذا الشرط سار في تفسيره وعلى ذلك أمثلة كثيرة كقوله عند تفسيره لقوله تعالى " وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَة ." (١) :-

" : كيف يكون التهجد ؟

فأما اللفظ فإنه يفيد ترك النوم للعبادة فيشمل تركه كله أو بعضه بأن لم ينم أصلا . أو لم ينم أولا ثم رقد أو نام أولا ثم قام . لكن ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينام ثم يقوم فبينت السنة العملية أن التهجد المطلوب هو القيام بعد النوم " (٢) .

وقال أيضا — عند تفسيره لقوله تعالى — " وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ " (٣)

" الذكر : المراد به هنا اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء قبل أن يخلق الخلق ، وجاءت تسميته بالذكر فيما رواه البخاري (٤) في مواضع من صحيحه عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالارضَ " (٥)

---

(١) الاسراء آية ٧٩ .

(٢) تفسير ابن باديس ص ١٨٠ .

(٣) الانبياء آية ١٠٥ .

(٤) فتح الباري ج ٧ — ص ٩٨ — كتاب بدء الخلق باب ما جاء في قوله تعالى (وَهُوَ الذِي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) .

(٥) تفسير ابن باديس ص ٤٤٣ ، ٤٤٤ .

وقال أيضا عند قوله تعالى " وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ... "(١)

" الإرث : انتقال ما كان للميت إلى الحي ، فيقوم فيه الوارث مقام الموروث سواء أكان مالا أو ملكا أو علما أو مجدا والمراد هنا : الملك والنبوة . لأن من ميزة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنهم يخرجون من الدنيا دون أن يتعلقوا بشيء منها فلا يورثون دينارا ولا درهما وإنما يورثون العلم وفي الصحيح "إِنَّا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ وَمَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَة "(٢) فلم يرث سليمان من داود مالا وإنما ورث ما نوه به من العلم والملك وما دل عليه ذلك من النبوة ... "(٣)

الثاني :

لا يؤخذ المعنى من مجرد ما يدل عليه اللفظ بحكم الوضع بل لا بد من النظر إلى المقام والسياق والملابسات كأسباب النزول والأحداث وعادات العرب وتاريخهم وعادة القرآن في الكلام .

كقوله عند تفسيره لقوله تعالى " اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ "(٤)

---

(١) النمل آية ١٦.

(٢) فتح الباري ج ١٥ ص ٥ كتاب الفرائض باب قول النبي صلى الله عليه وسلم " لا نورث ما تركنا صدقه ".
ومسلم : كتاب الجهاد باب قول النبي صلى الله عليه وسلم " لا نورث ما تركنا صدقه " ج ٣ ـ ص ١٣٧٩ . تحقيق : فؤاد عبد الباقي .

(٣) تفسير ابن باديس ص ٣٢١ ـ ٣٢٢ .

(٤) النمل آية ٢٦.

" قد يتماثل اللفظان ولكن يجب أن يعبر (١) كل واحد بمعنى لائق بالمقام الذي قيل فيه فلقد جاء في حق سليمان عليه السلام : " وأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيءٍ " (٢) ووصف الهدهد بلقيس بأنها " أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شيءٍ " (٣) ولما كان المتحدث عنه أولا هو سليمان فكل شيء يعم ما يحتاج إليه من أمر النبوة وملك النبوة ، كما أنه قد قال عنها " وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ " (٤) وقال عن الله " رب العرش العظيم " (٥) فعرش عظيم بين عروش الملوك وعرش الله عظمته أعظم من السموات والأرض ، وهكذا لا بد من اعتبار المقام في فهم الكلام ... " (٦)

---

(١) أي يفسر .

(٢) النمل آية ١٦ .

(٣) النمل آية ٢٣ .

(٤) النمل آية ٢٣ .

(٥) النمل آية ٢٦ .

(٦) تفسير ابن باديس ص ٣٥١ .

الفصل الرابع
مصادر تفسيره وطريقته

المبحث الأول

مصادر تفسيره

في خطبة افتتاح دروس التفسير التي كان يستهل بها ابن باديس دروسه في التفسير كل عام ذكر مصادره التفسيرية قائلا :

" وعمدتنا فيما نرجع إليه من كتب الأئمة : تفسير ابن جرير الطبري الذي يمتاز بالتفاسير النقلية السلفية ، وبأسلوبه الترسلي البليغ في بيان معنى الآيات القرآنية ، وبترجيحاته لأولى الأقوال عنده بالصواب .

وتفسير الكشاف الذي يمتاز بذوقه البياني في الأسلوب القرآني وتطبيقه فنون البلاغة على آيات الكتاب والتنظير لها بكلام العرب ، واستعمالها في آفانين الكلام .

وتفسير أبي حيان الأندلسي الذي يمتاز بتحقيقاته النحوية واللغوية وتوجيهه للقراءات .

وتفسير الرازي الذي يمتاز ببحوثه في العلوم الكونية مما يتعلق بالجماد والنبات والحيوان والإنسان، وفي العلوم الكلامية ومقالات الفرق والمناظرة في ذلك والحجاج .

إلى غير هذا مما لا بد لنا من مراجعته من كتب التفسير والحديث والأحكام وغيرها مما يقتضيه المقام .

نقول هذا ، ليعرف الطلبة مصادر درسنا ومآخذ ما يسمعونه منا ." (١)

وبالرجوع إلى تفسيره وجدت عددا آخر من المصادر كان يعتمد عليها ولعلها من ضمن التي عناها بقوله: " إلى غير هذا مما لا بد لنا من مراجعته "، ولم يفصح عنها وهي: أحكام القرآن لابن العربي ، أحكام القرآن للجصاص وكتب الحديث المختلفة ،

---

(١) تفسير ابن باديس ص ٥٣ .

مثل الموطأ والمسند والكتب الستة وصحيح ابن حبان ومستدرك الحاكم ، والشفاء للقاضي عياض ومعجم الطبراني وسنن البيهقي وبعض كتب الشروح الحديثية مثل الفتح لابن حجر والقبس لابن العربي وبعض معاجم اللغة مثل : اللسان والصحاح وكتب أخرى في فنون مختلفة مثل اعلام الموقعين والاتقان وغيرهما .

وسوف أسلط الضوء على هذه المصادر حتى تتضح الطريقة التي انتهجها الامام في تعامله مع تلك المصادر وأخذه منها .

فأولا : نظرة خاطفة على هذه المصادر :

وبالتأمل في هذه الطريقة نلاحظ الأمور التالية :-

(١) ان ابن باديس يعتبر القواعد الأساسية لتفسير القرآن - كما سبق ذكره - هي اللغة والمنقول والمعقول ، فالآية تفسر بناء على مادلت عليه لغة العرب ، أو ماجاء فيها من التفاسير المأثورة ، أو مانقل من فهوم الأئمة الموثوق بعلمهم وأمانتهم ، وهذه الفهوم ماهي الا نتاج للعقول .

فهذه القواعد الثلاث هي أساس التفسير عنده ، فأراد ابن باديس أن يعتمد المصدر الأساسي في كل قاعدة من هذه القواعد الثلاث فجمع بين تلك المصادر التفسيرية الأربعة وهي : تفسير الطبرى ، وهو في المأثور الذى يجمع بين المرفوع أو مافي حكمه وبين المعقول مما فهمه السلف ، ولا يخلو من تحقيقات لغوية نفيسة ، وتفسير الزمخشرى وتفسير أبي حيان وهما في اللغة بفنونها : البلاغة والنحو والصرف والمفردات والقراءات وما الى ذلك مما يتصل بالناحية اللسانية ولا يخلو أن من المعاني الصحيحة وتفسير الرازى وهو في المعقول ، خصوصا مايتصل بعلم الأكوان وعلم الكلام .

وقولي في كل كتاب من هذه الكتب الأربعة : " انه متخصص في فن كذا " انما هو بالنظر الى مايغلب عليه والا فكل واحد منها فيه شئ من الناحيتين الأخريين .

واختيار ابن باديس لهذه المؤلفات الأربعة لا يعني اقتصاره عليها واستغناءه بها

عن غيرها وانما المراد أنها من أهم التفاسير التي كل منها يمثل بوضوح احدى طرق التفسير السابقة .

(٢) مما يدل على أن ابن باديس كان ذا منهجية علمية في أخذه من المصادر - بل ان هذا الأمر جزء من مهنته التي هو متخصص فيها وهي العلم والتعليم بكل ما في هاتين الكلمتين من معان ، وما يتصل بهذه المسألة من أمور هي ضرورية لها ومن مستلزماتها مثل البحث في المراجع والمصادر والقراءة والفهم والتحقيق . . الخ - أنه أصاب في كل فن من فنون العلم المصدر المعتمد فيه ، وهذا يفيدنا أن ابن باديس كان لا يأخذ أى علم الا من المصدر المتخصص فيه ، أليس تفسير الطبرى هو أول الكتب وأصحها وأحسنها في المأثور ؟ (١) وكذلك بالنسبة لبقية الكتب التي اعتمدها فكل - كما قال هو - عمدة في الناحية التي ذكرها وكاف فيها .

(٣) ان معظم آيات القرآن تدور حول العقائد والأخلاق والأحكام - وهي التي تتوقف على فهمها والعمل بها هداية الانسان واستقامته - وقد فسرها السلف الصالح وفهموها وعملوا بها ويكاد الانسان يقول : ما ترك السلف للخلف شيئا . وأما مايهتدى اليه الخلف من المعاني الجديدة فتلك فوائد ومعان أخرى زائدة على المعني الأصلي نتيجة غنى النص بالمعاني فهو الذى لا تنتهي عجائبه ، أو يحدث للخلف تفسير لبعض الآيات التي توقف فيها السلف لأنه لم يأت تأويلها بعد كآيات الكون وعجائبه .

ان ابن باديس رحمه الله تعالى يضع تفسير السلف الموضع اللائق به فهو لا يتجاوزه الى غيره ، والمطالع لأقواله يتضح لديه بأن قناعة ابن باديس أن علماء السلف قد فسروا أكثر آيات القرآن الكريم ، ولذلك فهو لا ينظر في أقوال العلماء الخالفين الا اذا لم يجد في الموضوع تفسيرا لعلماء السلف يسعفه ويروى ظمأه .

---

(١) والفاضل بن عاشور يرى أن تفسير يحيي بن سلام التميمي البصرى الافريقي (ت. ٢٠٠هـ) هو أقدم التفاسير الموجودة اليوم على الاطلاق وهو الذى يعتبر مؤسس طريقة التفسير بالمأثور التي سار عليها بعده ابن جرير الطبرى واشتهر بها . انظر التفسير ورجاله ٤٢ ، ٤٣ .

فالمعنى المقصود الأول من النص هو المعنى الأصلي قد اتضح بأقوال السلف ولذا كان ابن باديس شديد التحرز والاحتياط في أخذ هذا المعنى فلم يعتمد أي مصدر كان، بل اختار تفسير الطبري ليجعله هو المصدر الهام في إعطائه هذا المعنى الأساسي الذي هو المقصود الأول من نزول النص، ومن كلامه السابق في المصادر الأربعة يتضح للباحث ماذا يريد من كل مصدر : فهو يريد من تفسير الطبري المعنى الرئيسي الذي تتصل به كل المعاني الأخرى، وهذا ما يدل عليه قوله " الذي يمتاز بالتفاسير النقليه السلفية ... " أما الزمخشري فهو لا يريد منه في الغالب إلا بعض المعاني الفرعية التي تتضح بواسطة الجوانب اللغوية والبلاغية (*) وهكذا الأمر في بقية المصادر كل في مجاله

ولكن على أي أساس اختار تفسير الطبري كمصدر هام ليأخذ منه المعنى الأصلي ؟ إن اختياره مبنيّ على الثقة فيه، فالطبري من الموثوق فيهم، وهذه الثقة تثبت للشخص عند ابن باديس بشرطين :

الأول : قربه من عهد النبوة .

الثاني : استقامته على طريق السلف الصالح .

وهذان الشرطان توفرا في هذا التفسير، فهو أقدم تفسير كامل مستقل ومنهجه قويم لأنه يعتمد المأثور بأسانيده.

قال ابن تيمية رحمه الله عنه " هو من أجل التفاسير وأعظمها قدرا " (١) وقال أيضا " وأما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحها تفسير محمد بن جرير الطبري فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة وليس فيه بدعة " (٢) .

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية مج ١٣ – ص ٣٦١ .

(٢) نفس المصدر والمجلد ص ٣٨٥ .

(*) وخصوصا التي لا علاقة لها بالعقائد .

(٤) اقتصر الإمام على هذه الأربعة لأن أغلب المفسرين عالة على هؤلاء بالرجوع إليهم والأخذ عنهم ولا تكاد تجد شيئا جديدا عند كثير من المفسرين غيرهم ، لهذا اكتفى ابن باديس بها عن غيرها ، ثم كما سبق أن أشرت - إن اللفظ القرآني لا يحتاج في تفسيره إلا إلى اللغة أو المنقول أو المعقول ، وهذه المصادر التي اقتصر على ذكرها ابن باديس هي خير من جمع هذه الأسس الثلاثة . وهذا لا يعني أن المصادر الأخرى لا يوجد فيها شيء جديد ألبتة وإنما المقصود أنه أقل مما في هذه ، وقد ألمح الإمام إلى أنه سيرجع كذلك إلى غير هذه المصادر بقوله : " إلى غير هذا مما لا بد لنا من مراجعته من كتب التفسير والحديث والأحكام وغيرها مما يقتضيه المقام " غير أنه بتعيين تلك الأربعة وتسميتها علمنا أنها هي عمدته وأصل مصادره .

(٥) هذه الطريقة التي اتبعها ابن باديس في ذكر مصادره في خطبة دروسه خلافا لكثير من المفسرين تنسجم مع هدفه في التفسير ومنهجه في إصلاح طرق التدريس والتعليم ، فالغاية التي قصدها من تفسيره (١) ينبغي ألا يعترض طريقها شيء يعطلها أو يمنعها ، وفي ذكر المصادر أثناء الدرس تشويش لفكر السامع وصرفه عما هو مشغول به ومشدود إليه من معاني القرآن ثم ما الفائدة من ذكر المصدر أثناء الدرس إذا كان المدرس قادرا على نقل ما فيه وربطه بما عنده حتى يصبح الكلام كله كأنه كلام واحد ؟ وهذه هي طريقته في الغالب حيث إنه يقتبس بالمعنى لا بالنص وكأنه يفضل أن يقدم لطلابه الكلام متصلا ببعضه ، منسقا ، منسجما بأسلوب سلس سهل على نمط الأساليب العصرية حتى لا يشعر المستمع أن بين ما اقتبسه وما هو من إنشائه تباينا ، فأراد ابن باديس أن يجمع بين الحسنيين وهما :

---

(١) انظر ص (٩٩)

(أ) ذكر المصادر وعدم إغفالها وقد فعله في المقدمة .

(ب) التصرف في عباراتها بما يتفق مع الأساليب العصرية السهلة ثم يدمجها ضمن كلامه هو ، فيصل إلى الثمرة التي يريدها وهي أخذه للمعنى المراد من المصدر دون أن يشعر المستمع أن في كلام الإمام كلاما لغيره .

(٦) بخصوص الأحكام الفقهية نجده يعتمد على كتابين : أحكام القرآن لابن العربي ، وأحكام القرآن للجصاص . والسؤال المطروح : لم لم يعتمد على كتب الفروع الفقهية ؟ ولم اعتمد على كتاب ابن العربي دون القرطبي ؟

والجواب سهل فالإمام من أهدافه في دعوته الإصلاحية : إصلاح التعليم ومن أهم المسائل في هذا الهدف : الرجوع بالفروع إلى الأصول وربط الأحكام بالأدلة ، وكتب الفقه وخاصة عند علماء المالكية المتأخرين غالبا ما تكون خالية من الأدلة النقلية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فهو لا يريد أن يتوسع في آيات الأحكام مثل ابن العربي أو القرطبي لأنه لم يقصد في تفسيره ذلك وإنما قصد بتفسيره الهداية والإصلاح في كل النواحي ومن جملة هذا الإصلاح ربط الفروع بالأصول لكن دون خروج عن حد التفسير كما فعل القرطبي وصاحب أضواء البيان مثلا حيث نجد أحدهما يقف عند مسألة فقهية — ذكرها القرآن مجملة — فيفصل فيها مستدلا بما في كتب الفقه والخلاف وشروح الحديث متبعا فروعها ومسائلها ولا يكاد يترك منها شيئا ذكر في كتب الفقه حتى يصبح التفسير فقها محضا .

لكن ابن باديس يرى أن القرآن بيّن أصول الأحكام وأمهات مسائل الحلال والحرام ولا بد للمفسر أثناء تفسيره أن يتعرض لهذه الأصول والأمهات بشيء من التوضيح دون خروج عن حد التفسير .

وأحكام القرآن لابن العربي يعتبر أصلا لتفسير القرطبي ،

هذا ما جعل ابن باديس يكتفي به عن القرطبي ، وأمر آخر هو أن ابن العربي مستقل متحرر عن التقليد ، مجتهد قدير على الإستدلال والحجاج .

(٨) بعد هذا كله نستخلص أن جميع مصادره تنقسم إلى أربع مجموعات

الأولى : مصادر التفسير العامة .

الثانية : مصادر التفسير الخاصة بالأحكام الفقهية

الثالثة : معاجم اللغة العربية .

الرابعة : مصادر الحديث .

ثانيا :طريقته في الإستفادة من جميع هذه المصادر :ــ

اتبع ابن باديس في الإستفادة من هذه الكتب طريقتين :

الأولى : اقتباس قول صاحب الكتاب بنصه ناسبا له إلى صاحبه واضعا له بين قوسين ٠

نماذج على ذلك :

(١) عند قوله تعالى " والذِينَ لَا يَشْهدُونَ الـزُّورَ ٠٠٠ "(١) الآية قال: " قال جار الله في الكشاف عن هؤلاء الموصوفين من عباد الرحمن : "إنهم ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطائين فلا يحضرونها ولا يقربونها تنزها عن مخالطة الشر وأهله وصيانة لدينهم عما يثلمه لأن مشاهدة الباطل شركة فيه ٠٠٠ " إلى آخر كلامه(٢)

ثم قال الإمام : وهذا كما قال "(٣)٠

(٢) وعند قوله تعالى " وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ٠٠٠(٤) " الآية قال : "قال الإمام ابن العربي ــ في تعليل عدم دخوله صلى الله عليه وسلم في هذا الخطاب " لما هو عليه من الخلال والجلال وشرف المنزلة وقوة النفس على الوظائف وعظيم العزم على المقاصد(٥) ٠٠ " إلى آخر كلامه(٦)

وعند قوله تعالى " والذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ٠٠(٧) " وبعد

---

(١) الفرقان آية ٧٢٠

(٢) الكشاف ج ٣ ــ ص٢٣٢٠
مطبعة الإستقامة بالقاهرة ــ ط ٢(١٩٥٣)م

(٣) تفسير ابن باديس ص٢٨٧٠

(٤) الإسراء آية ٢٩٠

(٥) أحكام القرآن ــ ج ٣ ــ ص١١٩٣ ــ عيسى البابي الحلبي وشركاه ــ ط ٢(١٩٦٨)م

(٦) تفسير ابن باديس ــ ص١١٢٠

(٧) الفرقان آية ٦٨٠

أن تعرض الإمام ــ أثناء شرحه لهذه الآية ــ لاتخاذ اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ــ قال "قال الجصاص " ولما كان التحليل والتحريم لا يجوز إلا من جهة العالم بالمصالح ثم قلد هؤلاء أحبارهم ورهبانهم في التحليل والتحريم وقبلوه منهم وتركوا أمر الله تعالى فيما حرم وحلل صاروا متخذين لهم أربابا .. " (١) إلى آخر كلامه (٢) .

(٣) عند قوله تعالى " وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا ... " (٣) الآية قال "قال الجوهري :
" قَرِبْتُهُ أَقْرَبُهُ قُرْبَانًا : أي دَنَوْتُ منه " (٤) (٥)

وفي موطن آخر عند قوله تعالى " وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ ... " (٦) الآية في شرح كلمة " نافلة " قال "قال الجوهري " عَطِيَّة التطوع من حيث لا تجب ومنه نافلة الصلاة .. " (٧) (٨)

(٤) وعند قوله تعالى " قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ .. " (٩) الآية قال :
" أخرج البخاري في كتاب التفسير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ج ٣ ــ ص ١٠٤ .
دار الكتاب العربي ــ بيروت ، مصور عن الطبعة الأولى سنة ١٣٣٥ هـ .

(٢) تفسير ابن باديس ص ٢٧٦ .

(٣) الإسراء آية ٣٢ .

(٤) الصحاح ج ١ ــ ص ١٩٨ .

(٥) تفسير ابن باديس ص ١١٩ .

(٦) الإسراء ٧٩ .

(٧) الصحاح ــ ج ٥ ــ ١٨٣٣ .

(٨) تفسير ابن باديس ١٧٩ .

(٩) الفرقان ٧٧ .

قال : " خَمْسٌ قَدْ مَضَيْنَ الدُّخَانُ وَالقَمَرُ والرُّومُ والبَطْشَةُ واللِّزَامُ " ورواه في مواضع أخرى من صحيحه .(١) (٢)

الطريقة الثانية :ــ

أن يقتبس بالمعنى لا بالنص ، وهذه الطريقة هي الأكثر استعمالا عنده ، وتارة يشير إلى المصدر وفي أغلب الأحيان لا يشير بل يدرج الكلام المقتبس ضمن كلامه بعد أن يكون قد تصرف فيه .

فعند قوله تعالى " وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا "(٣) قال الطبري :

" ولو شئنا ــ يا محمد ــ لأرسلنا في كل مصر ومدينة نذيرا ينذرهم بأسنا على كفرهم بنا فيخف عنك كثيرا من أعباء ما حملناك منه ويسقط عنك بذلك مؤنة عظيمة ولكنا حملناك ثقل نذارة جميع القرى لتستوجب بصبرك عليه إن صبرت ما أعده الله لك من الكرامة عنده والمنازل الرفيعة ... "(٤)

تصرف ابن باديس في كلام الطبري تصرفا قليلا ثم نقله في الصورة التالية :

" لو أردنا لأرسلنا في كل بلدة ومصر رسولا ينذرهم ويخوفهم من حلول نقمتنا بهم بكفرهم بنا ومعصيتهم لنا فيخف عنك عبء ما حملت ويسقط عنك بذلك تعب كثير ولكنا لم نرد ذلك وحملناك أنت وحدك أعباء وأثقال النذارة لجميع القرى ليظهر فضلك بعموم رسالتك ويعظم أجرك بعظيم جهادك وصبرك .. "(٥)

---

(١) فتح الباري ج ١٠ ــ ص١٩٢ .

(٢) تفسير ابن باديس ٣٠٥ .

(٣) الفرقان ٥١ .

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ــ مصطفى البابي الحلبي ــ ط ٢ ــ ١٩٥٤ م ج ١٩ ، ص٢٣ .

(٥) تفسير ابن باديس ص٢٤٨ ، ٢٤٩ . ويلاحظ أن في هذا التصرف زيادة معنى على أصل كلام الطبري وهو ظهور فضل النبي صلى الله عليه وسلم بعموم رسالته

وعند قوله تعالى "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا "(١)

قال الزمخشري : "سيحدث لهم في القلوب مودة ويزرعها لهم فيها من غير تودد منهم ولا تعرض للأسباب التي توجب الود ويكتسب به الناس مودات القلوب من قرابة أو صداقة أو اصطناع بمبرة أو غير ذلك ، وإنما هو اختراع منه ابتداء إختصاصا منه لأوليائه بكرامة خاصة .. "إلى أن يقول " والسين إما لأن السورة مكية وكان المؤمنون حينئذ ممقوتين بين الكفرة فوعدهم الله تعالى ذلك إذا جاء الإسلام ... " إلى آخر كلامه .(٢)

تصرف ابن باديس في هذه العبارة شيئا ما ثم نقلها في قوله : " تكسب مودة الناس بأسباب متعارفة بينهم منها القرابة ومنها الصداقة ومنها صنائع المعروف ومآثر الإحسان . أما هذا الود الذي وعد الله به الذين آمنوا وعملوا الصالحات فسببه جعل من الله له في قلوب العباد لهم دون تودد منهم ولا توقف على تلك الأسباب ... "إلى أن يقول " فهذا نوع من الود خاص يكرمهم الله به وينعم عليهم به الرحمن ... "(٣)

---

(١) مريم ٩٦ .

(٢) الكشاف ج ٣ ـ ص ٣٦ ـ ٣٧ .

(٣) تفسير ابن باديس ص ٤٣٦ .

المبحث الثاني

طريقته في تفسير الآية أو مجموعة الآيات

درج ابن باديس في تفسيره ، على تفصيل القول في الآية أو مجموعة الآيات التي يتناولها بالتفسير جملة — كمقطع أو وحدة تفسيرية — ضمن هذه القواعد الأساسية وهي : التمهيد ، المناسبة ، المفردات ، التراكيب ، المعنى ، الأحكام ، مرتبة على هذا الشكل يضاف إليها في بعض الأحيان : سبب النزول ، إذا كان للآية سبب نزول خاص ، ونقاط أخرى يراها ضرورية في بيان بعض الآيات دون بعض وهي : تفسير القرآن بالقرآن أو بالأثر إن وجد ، وفضل السورة : وهناك نقطتان مهمتان لا يكاد يتخلى عن التعرض لهما في جميع تفسيره وهما : الاستنباط ، الفائدة العملية .

وترتيب هذه القواعد مجموعة عنده على النحو التالي : التمهيد ، فضل السورة، المناسبة ، سبب النزول ، المفردات ، التراكيب ، التفسير بالقرآن والمأثور ، المعنى، الأحكام ، الاستنباط ، الفائدة العملية .

هذا الترتيب الذي سار عليه ابن باديس في تفسيره هو المقصود بـ " طريقته في تناول الآية أو مجموعة الآيات " وهي عبارة عن " منهجه " الذي اتبعه في تفسير الآية أو الآيات .

وسوف أسلط الضوء على كل قاعدة من تلك القواعد المشار إليها فيما يلي : —

فأولا : التمهيد :—

قبل أن يبدأ ابن باديس في تفصيل شرح الآية يقدم لذلك بكلمة تمهيدية تتضمن في الغالب ملحظا في الآية أو الآيات يحسن إبرازه قبل البدء في الشرح (١) أو الإشارة

(١) انظر ص ٨١ ، ٨٧ ، ١٤٧ من تفسيره

إلى قاعدة عامة ينبني عليها فرع تحدثت عنه الآية [١] أو الإجابة عن سؤال يتبادر إلى ذهن القارىء لأول وهلة [٢] أو بيان المقصود الأساسي من الآيات أو المحور الذي تدور حوله مجموعة الآيات [٣] إلى غير ذلك من المعاني التي — بالتتبع للتمهيدات التي جاء بها ابن باديس — وجدته يضمنها إياها ٠

وهذه بعض النماذج توضح ذلك :—

(أ) عند تفسيره لقوله تعالى " وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ٠٠ " الآية [٤] قال رحمه الله تعالى :

" تمهيد " :—

الله هو الخالق والوالدان — بوضع الله — هما السبب المباشر في التخليق والله هو المبتديء بالنعم عن غير عمل سابق وهما يبتدئان بالإحسان عن غير إحسان تقدم والله يرحم ويلطف وهو الغني عن مخلوقاته وهم الفقراء إليه ، وهما يكنفان بالرحمة واللطف الولد وهما في غنى عنه وهو في افتقار إليهما ٠ والله يوالي إحسانه ولا يطلب الجزاء وهما يبالغان في الإحسان دون تحصيل الجزاء ٠ فلهذه الحالة التي خصهما الله بها وأعانهما بالفطرة عليها قرن ذكرهما بذكره فلما أمر بعبادته أمر بالإحسان إليهما في هذه الآية ٠٠٠ " [٥] ٠

---

(١) انظر تفسير ابن باديس ص ١١٥ ، ١٤٩ ٠

(٢) انظر تفسير ابن باديس ص ٤١٧ ٠

(٣) انظر المصدر السابق ص ٤٥٩ ٠

(٤) سورة الإسراء ٢٣ ٠

(٥) تفسير ابن باديس ص ٨٧ ٠

(ب) عند تفسيره لقوله تعالى " وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا "(١) قال رحمه الله •

" تمهيد : —

اللسان أداة البيان وترجمان القلب والوجدان والكلام به يتعارف الناس ويتقاربون ، وبه يتحاجون ويتفاصلون ، ولولاه لما ظهرت ثمرات العقول والمدارك ولما تلاقحت الأفكار والمشاعر ولما تزايدت العلوم والمعارف ولما ترقى الإنسان في درجات أنواع الكمالات ولما امتاز على بقية الحيوانات •

فهو رابطة أفراد النوع الإنساني وعشائره وأممه • وبريد عقله وواسطة تفاهمه •

فإذا حسن قويت روابط الألفة وتمكنت أسباب المحبة وامتد رواق السلام بين الأفراد والعشائر والأمم وتقاربت العقول والقلوب بالتفاهم وتشابكت الأيدي في التعاون والتوازر ويجني العالم من وراء ذلك تقرر الأمن واطراد العمران •

وإذا قبح كان الحال على ضد ذلك فالكلام السيىء قاطع لأواصر الأخوة باعث على البغضاء والنفرة يبعد بين العقول فتحرم الإسترشاد والإستمداد والتعاون ، وبين القلوب فتفقد عواطف المحبة وحنان الرحمة وهما أشرف ما تتحلى به القلوب ، وإذا بطلت الرحمة والمحبة بطلت الألفة والتعاون وحلت القساوة والعداوة وتبعهما التخاصم والتقاتل وفي ذلك كل الشر لأبناء البشر •

---

(١) سورة الاسراء ٥٣ •

فالمحصل للناس سعادتهم وسلامتهم والمبعد لهم عن شقاوتهم وهلاكهم هو القول الحسن . ولهذا أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يرشد العباد إلى قول التي هي أحسن ، فقال تعالى " وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ "(١)

وأكثر التمهيدات التي توجد في تفسيره تتميز بالطول مع العمق في الفكرة والقوة في الأسلوب ، والصحة في الفهم ، والبعد في النظرة ، والشمول في التصور ، والإحاطة بالمسألة ، ولعل ما قدمته من نماذج تكون كافية لإعطاء صورة واضحة عن طريقته في هذا المبحث وهو مبحث التمهيد .(٢)

ثانيا : فضل السورة :ـ

لا بد من التنبيه إلى نقطتين قبل الكلام عن طريقة ابن باديس في بيان فضل السورة وهاتان النقطتان هما :

(١) لم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل سورة من سور القرآن الكريم حديث في فضلها ، وأغلب ما يذكره بعض المفسرين(٣) من آثار في فضائل السور فهو من الموضوع .(٤)

(٢) ليس كل ما ورد من حديث صحيح في سورة معينة هو من الآثار التي تبين فضائلها بل قد يكون هذا الحديث سببا لنزولها أو تفسيرا لها أو غير ذلك مما لا يدخل في أحاديث فضائل السور .

بنى ابن باديس منهجه في بيان فضل السورة على هاتين القاعدتين ، فالسور التي تعرض لتفسيرها من أولها هي : "الفرقان " و "يس" و "المعوذتان" ولم يذكر للأوليين أثرا في فضلهما ، وبالرجوع إلى تفاسير المأثور مثل الطبري

---

(١) تفسير ابن باديس ـ ص١٤٧ ـ ١٤٨ ـ والآية سبق بيان سورتها .

(٢) انظر كذلك الصفحات ٧٥ ، ٨١ ، ١٠٢ ، ١٩٤ ، ٣١٢ ، ٣٩٨ ، ٤١٧ ، ٤٧٥ .

(٣) مثل الثعلبي والزمخشري والبيضاوي .

(٤) قال أبو بكر بن العربي في أحكامه (٧/١) ليس في القرآن حديث صحيح في فضل سورة إلا قليل سنشير إليه ، وباقيها لا ينبغي لأحد منكم أن يلتفت إليها "

وابن كثير نجد أنهم لم يذكروا لسورة الفرقان شيئا من هذا القبيل[١] ، وأما سورة (يس) فقد رويت في فضلها آثار إلا أنها من قسم الضعيف[٢] ، ولهذا نجد ابن باديس قد اقتصر على ذكر الحديث الذي بيّن فضل المعوذتين مع الإشارة إلى تساهل كثير من المفسرين في سوق مالم يصح في فضائلهما . قال رحمه الله .

" فضل المعوذتين :ــ"

أما السورتان فيكفي في فضلهما ما أخرجه مسلم[٣] في صحيحه عن عقبة بن عامر الجهني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتْ اللَّيلة لَمْ يُرَ خَيْرٌ مِثْلُهُنَّ قطّ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ، وَقُلْ أَعوذُ بِرَبِّ النَّاسِ " ... الخ[٤]

ثم قال ــ " وقد تساهل كثير من المفسرين في حشر ... كثير مما لم يصح في فضائلهما ولنا فيما صح غنية فيما لم يصح"[٥]

ثالثا : المناسبة :ــ

وقع خلاف بين العلماء حول هذه المسألة وهي : هل بين سور القرآن الكريم وآياته ترابط وتناسق بناء على نظام محكم ينتج عنه تناسب أم لا ؟

ذهب إلى القول الثاني عدة من العلماء المتقدمين وعابوا على من يلتمس في تفسيره بيان وجه ارتباط الآي بعضها ببعض وعدوا هذا من التكلف ومن هؤلاء سلطان العلماء العز بن عبد السلام الذي يقول :" المناسبة علم حسن لكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث فضلا عن أحسنه فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض[٦] "

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ــ ص ٣٠٨ . (٢) المصدر السابق نفس الجزء (٥٦٢ ــ ٥٦٣) وانظر كذلك عارضة الأحوذي ج ١١/ص ١٧ .

(٣) صحيح مسلم ج ١ ــ ص ٥٥٨ تحقيق فؤاد عبد الباقي .

(٤) تفسير ابن باديس ص ٤٧٦ . (٥) تفسير ابن باديس ص ٤٧٧ .

(٦) البقاعي : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ــ ج ١ ــ ص ٧ .

وذهب إلى القول الأول بعض من العلماء المتقدمين منهم الشاطبي [(١)] والسيوطي [(٢)] والبقاعي الذي ألف في هذا الموضوع كتابه " نظم الدرر في تناسب الآيات والسور " وغيرهم وتبعهم بعض المتأخرين منهم محمد عبده وابن باديس ، ويكاد يكون القول بتناسب السور مبنيا على القول بأن ترتيب السور توقيفي وابن باديس ممن يذهب هذا المذهب ، يقول رحمه الله " وترتيب السور توقيفي ليس من صنيع جامعي المصحف [(٣)] .. " وأما ترتيب الآيات ، فقول أكثر العلماء إن لم يكن كلهم - على أنه توقيفي [(٤)] ، ولذا نجد ابن باديس يقول بالتناسب بين السور والآيات ويعتني بذلك اعتناء بالغا وصرح بذلك في مقدمته التي كان يفتتح بها دروسه في التفسير قال رحمه الله تعالى " على عادتنا في تفسير الألفاظ بأرجح معانيها اللغوية ، وحمل التراكيب على أبلغ أساليبها البيانية ، وربط الآيات بوجوه المناسبات [(٥)] . "

ومن خلال تتبعي للمواطن التي ذكر فيها المناسبة لاحظت أنه غير ملتزم بذلك في كل السور والآيات ، ففي تفسيره لأول آية من سور الفرقان و (يس) لم يذكر المناسبة بينهما وبين السورتين اللتين قبلهما ، وكذا عند تفسيره لكثير من الآيات وجدته يغفل هذه المسألة . وكأنه لا يرى المناسبة بين كل سورتين وبين كل آيتين فهو لا يكاد يذكر وجه المناسبة إلا بين آيات ذات موضوع واحد ، وينبني على هذا شيء لاحظته في تفسيره وهو أنه كان لا يتكلف في البحث عن وجوه المناسبات بين الآيات ، كما يفعله كثير من المفسرين ، وكأنه بذلك يقف موقفا وسطا بين الفريقين فلا يمنع وجود المناسبات مطلقا ولا يحاول جاهدا إيجادها عند كل سورتين وبين كل آيتين .

وهذه بعض النماذج توضح ذلك :-

(أ) عند تفسيره لقوله تعالى " وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا [(٦)] " قال رحمه الله تعالى .

---

(١) الموافقات : للإمام الشاطبي جـ ٤ ص ٤١٤ - ٤١٥ .

(٢) الإتقان للإمام السيوطي جـ ٢ ص ١٠٨ . (٣) تفسير ابن باديس ص ٤٧٨ .

(٤) الإتقان ١/١٠٤ . (٥) المصدر السابق ص ٥٣ .

(٦) الاسراء ٨٢ .

" المناسبة :ـ "

لما جاء في الآية السابقة الإخبار بمجيء الحق[1] وفي مجيئه صحة الأرواح والأبدان والأحوال ، وبزهوق الباطل، وفي ذهابه ذهاب العلل والأمراض كذلك جاء في هذه الآية بذكر القرآن ، والإخبار عما فيه من الشفاء والرحمة ، تنبيها على أنه هو الشافي من أمراض الباطل وعلله ، وأنه هو مصدر الحق وحجة ناصره ، ومحصل الرحمة لأتباعه والمتمسكين به ".[2]

(ب) عند تفسيره لقوله تعالى "وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ... " الآية[3] قال رحمه الله تعالى .

" لما طعنوا في رسالته بأنه بشر يفعل ما يفعله البشر بقولهم : "مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ"[4] رد الله عليهم بأن هذا هو حال جميع المرسلين من قبله ، واحتج عليهم بما يعلمون من ذلك بما يسمعون من أهل الكتاب جيرانهم ، وبما عندهم من أخبار عاد وثمود من بني جلدتهم ."[5]

(جـ) عند تفسيره لقوله تعالى : "إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ"[6] قال رحمه الله :

" اشتملت الآيات المتقدمة على ذكر الرسول وصفته ، ورسالته التي جاء بها

---

(١) آية ٨١ "وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا" .

(٢) تفسير ابن باديس ص١٨٤ .

(٣) سورة الفرقان ٢٠ .

(٤) سورة الفرقان ٧ .

(٥) تفسير ابن باديس ص٢١٤ .

(٦) سورة (يس) ١٢ .

ـ وهي القرآن ـ ووصفها . والمرسل وهو العزيز الرحيم ، والمرسل إليهم وتعميمهم بالنذارة ، وانقسامهم إلى معرضين معاندين ومقبلين متبعين ، فجاءت هذه الآية مشتملة على ما تكون فيه نتيجة ذلك وثمرته وهو يوم القيامة .

ووجه آخر وهو أن أمهات أصول العقائد ثلاثة : الإيمان بالله ، والإيمان برسول الله ، والإيمان باليوم الآخر . وقد انتظمت الآيات المتقدمة تقرير الأصل الثاني بالقَسَم عليه على ما تقدم من البيان ، وانتظمت الأصل الأول ضمنا بذكر العزيز الرحيم . فجاءت هذه الآية لتقرير الأصل الثالث ".(١)

(د) عند تفسيره للمعوذتين قال رحمه الله :

" وأما المناسبة الخاصة بين السورتين وبين سورة الإخلاص فهي : أن سورة الإخلاص قد عرّفت الخلق بخالقهم بما فيها من التوحيد والتنزيه والتمجيد فإذا قرأت القرآن وتدبرته على ترتيبه ، ووجدت توحيد الله منبثا في آياته وسوره ، متجليا ذلك التجلي الباهر بما عرضه وصوره ، سادًّا ببراهينه على النفوس كل ثنية وكل مطلع ، كانت آخر مرحلة يقطعها فكرك من مراحل التوحيد في القرآن هذه السورة المعجزة على قصرها ، فكأنها توكيد لما امتلأت به نفسك من معاني التوحيد ، وكأنها وصية مودع مشفق بمهم يخشى عليك نسيانه فيعمد فيها من الكلام إلى ما قل ودل ولم يمل .

ومن صدقك في توحيدك لله في ربوبيته وإلهيته ... أن تنقطع عن هذا الكون وتكون منه ، وكأنك لست منه بصدق معاملتك لله وإخلاص توحيدك إياه فأنت وقد آمنت وصدقت ، وخرجت من سورة الإخلاص متشبعا بمعانيها ومنها معنى ـ الصمد ـ تستشعر أن العالم كله عجز وقصور ، وأن خيراته مكدرة بالشرور ، وأن لا ملجأ إلا(٢) ذلك الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد

---

(١) تفسير ابن باديس ص ٣٨٩ .

(٢) هكذا جاءت في الكتب التي بين يدي ولعلها (وأن لا ملجأ إلا إلى ذلك) فسقطت (إلى) .

ولم يكن له كفوا أحد نتجيء المعوذتان بعد الإخلاص مبينتين لذلك الإلتجاء الذي هو من تمام التوحيد (١) . "

ومثلما كان يتعرض لبيان وجه المناسبة بين السور والآيات كان يفعل ذلك أيضا عند جمل الآية الواحدة ، وألفاظ الجملة الواحدة .

فعند تفسيره لقوله تعالى "وَالذِينَ لَا يَدعُونَ مع اللَّهِ إِلَهًا آخرَ ولا يَقتُلُونَ النفسَ التِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحقِ ، ولَا يزْنُونَ ... (٢) "الآية

قال رحمه الله تعالى

" وجه ترتيب هذه الصفات المنفيات :

" قامت الشريعة على المحافظة على حقوق الله ، وحقوق عباده ، وحق الله على عباده : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا .

فمن دعا مع الله غيره ، وأشرك به سواه ، فقد أبطل حق الله وأعدم عبادته

ومن قتل النفس فقد تعدى على أول حق جعله الله لعباده بفضله وهو حق الوجود ، وعمل على إبطال وجودهم وفناء نوعهم وزوال عبادتهم ، فلهذا قرن قتل النفس بدعاء غير الله معه .

ولما كان الزنى فيه بطلان النسب وفساد الخلق والجسد وذلك مؤد إلى الاضمحلال والزوال ، والشرور والأهوال ، قرن بقتل النفس فذلك قتل حقيقي وهذا قتل معنوي . (٣) "

وبعد أن توسع في شرح الآيتين الأوليين من سورة الفلق قال : " وبهذا تظهر المناسبة الدقيقة بين " رب" و " الفلق " ثم أضاف :

---

(١) تفسير ابن باديس ص ٤٧٩ .

(٢) الفرقان ٦٨.

(٣) تفسير ابن باديس ص ٢٧٣ .

(١) " فإن رب الناس ومربيهم وسائقهم إلى ما يكمل وجودهم هو الذي تنكشف لعلمه سرائرهم ، والفلق نور يكشف للعيان كل المبصرات فترى على حقائقها ومقاديرها ، لا يزيغ البصر في شيء منها ولا يطغى . والإنسان مهما يكن عالما فقد تخفى عليه حقائق المعقولات فيزيغ فكره ويطغى .

(٢) ومناسبة أخرى وهي أن الشر ظلام ، وقد أجرى الله في فطر البشر تصور الشر كالظلام ، وأجرى على ألسنتهم تشبيه الشر بالظلام ، ذلك أن ما يلا بس إحساسهم من الأنس بالنور والبشاشة له ، هو عين ما يلابسه من الأنس والبشاشة للخير ، وأن ما يضايقهم من وحشة الظلام وتوقع الهلاك فيه : هو عين ما يضايقهم من ذلك في الشر " (١)

---

(١) تفسير ابن باديس ص ٤٨٣ .

رابعا : سبب النزول :

مما يعتبره سببا للنزول الملابسات والواقع التاريخي كقوله — عند آية "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا "(١) .

" سبب النزول ، ووعد السابقين :

كان السابقون الأولون من المؤمنين أول الإسلام بمكة — مبغوضين من أهل مكة المشركين مهجورين منهم مزهودا فيهم .

ومن أشد الآلام على النفس وأشقها أن يعيش الإنسان بين قومه مبغوضا مهجورا مزهودا فيه خصوصا مثل تلك النفوس الحية الأبية .

فأنزل الله ، هذه الآية تأنيسا لأولئك السادة ووعدا لهم بأن تلك الحالة لا تدوم وأنه سيجعل لهم ودا فيصيرون محبوبين مرغوبا فيهم "(٢) .

ومن القواعد التي اعتمدها في هذا البحث :

ألا يعتبر من النصوص كسبب للنزول إلا ما صح طبقا لقواعد المصطلح وكان نصا في سبب النزول لا تفسيرا أو مبينا لفضل السورة مثلا ولهذا نجده ينبه على هذا أثناء شرحه للمعوذتين بقوله " وحديث مسلم(٣) هو أصح ما ورد في نزولهما وأما ما يذكر في نزولهما في قصة سحر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فان ذلك لم يصح سببا لنزولها ، وإن كان لقصة السحر وصاحبها لبيد بن الأعصم أصل ثابت في الصحيح ، وقد تساهل كثير من المفسرين في حشر هذا السبب في تفسيرهما .. ولنا فيما صح غنية فيما لم يصح "(٤) .

---

(١) سورة مريم ٩٦ .

(٢) تفسير ابن باديس ص ٤٣٥ .

(٣) انظر ص (٢٥٧)

(٤) تفسير ابن باديس ص ٤٧٧ . وسبق تخريج حديث سحر النبي صلى الله عليه وسلم ، أنظر ص (١٥٢)

خامسا : تفسير القرآن بالقرآن وبالمأثور

اهتم كثيرا بهذا النوع من التفسير فحث عليه وعمل به أثناء تدريسه فعند قوله تعالى " أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ... "(١)

قال رحمه الله تعالى :

" بيان القرآن للقرآن :

في هذه الآية : أنهم يلقون تحية وسلاما وقد بين من يتلقاهم بذلك في قوله تعالى : " وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ "(٢) فالملائكة هم الذين يتلقونهم بالسلام والدعاء لهم بالطيب وهو مما يدخل في التحية لأن من طيبهم طيب حياتهم " .

ثم أردف مبينا كثرة هذا النوع من التفسير ، داعيا إلى الأخذ به ... :

" وما أكثر ما تجد في القرآن بيان القرآن ، فاجعله من بالك تهتد ـ إن شاء الله ـ إليه "(٣) .

وأما السنة فقد رأينا فيما سبق أن من قواعد منهجه في التفسير " العمل بالمنقول "(٤) ، وهذه القاعدة نجدها واضحة في تفسيره كثيرا فهو حريص على تفسير القرآن بالحديث وما أعظم فرحته وابتهاجه عند العثور على نص نبوي فيه تفسير لآية فعند قوله تعالى " وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا "(٥) أورد حديث " أُعطيتُ خمسًا لم يُعطَهنَّ أحدٌ قبلي ... " الحديث(٦) . ثم قال : " فتعميم رسالته وختم

---

(١) الفرقان ٧٥ .

(٢) الزمر ٧٣ .

(٣) تفسير ابن باديس ص ٣٠٢ .

(٤) انظر ص (١٥٠)

(٥) الفرقان ٥١ .

(٦) صحيح مسلم ج ١ ـ ص ٣٧٠ تحقيق فؤاد عبد الباقي .

النبوة به في هذا الحديث الصحيح من طريقيه من مقتضى معنى الآية : فإنه لما عمت رسالته ، ولم يكن معه رسول في حياته ، وختمت به النبوة ، فلا يكون كذلك بعد وفاته ، ثبتت له كرامة الخصوصية ، وعظمة المنزلة ، وجزالة المثوبة ، وهو ماكنا بيناه في معنى الآية . " ثم قال مظهرا استحسانه لهذا التطابق بين الآية والحديث — " وما أحسن التفسير تعضده الأحاديث الصحاح " (١) .

وقد ذكرت — في فصل قواعد منهجه عند مبحث العمل بالمنقول — (٢) بعض الأسس التي اعتمد عليها في التفسير بالمأثور .

وهذه بعض النماذج تبين لنا عمله بهذا النوع من التفسير .

(أ) عند قوله تعالى " وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ " (٣) قال رحمه الله تعالى .

" وقد بين القرآن من هم الصالحون بيانا شافيا كافيا بذكر صفاتهم مثل قوله تعالى : " مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ " (٤)

(ب) وعند تفسيره لقوله تعالى " الْخَنَّاسِ " (٥) قال رحمه الله تعالى

" الخناس : وصف مبالغة في الخانس من الخنوس وهو التأخر بعد التقدم ومن ملابسات هذا المعنى ومكملاته في

---

(١) تفسير ابن باديس ص ٢٤٩ .

(٢) انظر ص (١٥٣) .

(٣) الأنبياء ١٠٥ .

(٤) آل عمران ١١٣ — ١١٤ .

(٥) سورة الناس ٤ .

المحسوس : أنه يذهب ويجيء ويظهر ويختفي إغراقا في الكيد ، وتقصيا في التطور حتى يبلغ مراده ٥ فالله تعالى يرشدنا بوصفه بهذه الصفة إلى أن له في عمله كـرا وفرا ، وهجوما وانتهازا واستطـرادا على التصوير الذي صوره إبليس فـي ماحكى الله عنه : " ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَـن شَمَائِلِهِـم " (١) (٢)

(جـ) وعند قوله تعالى " وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا " (٣) قال رحمه الله :

" تمثيل واستدلال

جاء في الصحيح من طرق مجموع ألفاظها : أَنَّ رَهْطًا مِنَ الْيَهُودِ دَخَلُوا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآله وَسَلَّم ، فَقَالُوا : السَّامُ عَلَيْكُم (وَالسَّامُ الموتُ) فَفَهِمَتهَا عائشةُ رضي اللَّهُ عَنْهَا ، فَقَالَتْ : وَعَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْكُم ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَهْلًا ياعائشةُ عليكِ بالرفقِ وإياكِ والعُنفَ والفُحشَ ، إنَّ اللَّه يُحِبُّ الرفقَ في الأُمـور كُلِّهـا فقالت له عائشة : أَوَلَمْ تَسْمَعْ ما قَالُوا ؟ فقال لها : أَوَلَمْ تَسْمَعِي ما قُلْتُ ؟ رَدَدْتُ عليهم قد قُلْتُ : " وَعليكُمْ " فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِم (لانه دعاء بحق) ولا يُسْتَجَابُ لَهُم فِيَّ (لانه دعاء بباطل وظلم) (٤) اهـ الحديث

" فقد خاطبه هؤلاء الجاهلون بالسوء فقال لهم كلمة سالمة من القبـح

---

(١) الأعراف ١٧ ٠

(٢) تفسير ابن باديس ٤٩٧ ٠

(٣) الفرقان ٦٣ ٠

(٤) صحيح مسلم ج ٤ ـ ص ١٧٠٦ ـ ١٧٠٧ تحقيق فؤاد عبد الباقي ٠

ليس فيها لفظ الإذاية ، وهو السالم بعيدة عن الإفحاش خالصة للرفق ، فهي من القول السلام أي ذي السلام من مقتضى الآية على الوجه الأول من وجهيها • ففي الحديث مثال لقول السلام في خطاب الجاهل ، ودليل على عموم الحكم وإحكامه •" (١)

هذه بعض النماذج في التفسير بالقرآن والسنة ، ومن خلال التتبع لكل الآيات التي فسرها الإمام ابن باديس يلاحظ أنه لا يكتفي بما أورده علماء السنة أو المفسرون بالمأثور مثل الطبري وابن كثير والسيوطي والشوكاني من نصوص في تفسير القرآن بل كان يأتي بهذه النصوص وغيرها مما يدل على عميق فقهه للسنة وإحاطته بها وقد تركت الأمثلة الكثيرة المؤكدة لذلك خوف الإطالة •

سادسا : المفردات :ـ

بالإستقراء لما جاء عنه من تفسير ظهر أن طريقته في شرح المفردات وتحديد المعنى المراد من اللفظة القرآنية تنبني على الأسس التالية :

(١) إذا جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم تفسير لا يلتفت إلى غيره مثل ما فعل عند قوله تعالى " الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا " (٢) ، فلفظ الآية يحشرون

---

(١) تفسير ابن باديس ص ٢٦٣ •

(٢) سورة الفرقان : ٣٤ •

على وجوههم " اعتمادا على اللغة ــ يحتمل عدة معان منها : الإسراع بهم إلى جهنم كما تقول العرب : تقدم القوم على وجوههم أي مسرعين. أو يسحبون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في هوانه وتعذيبه ، (١) أو يمشون على وجوههم كما نمشي نحن اليوم على أرجلنا ، وهذه المعاني الثلاثة كلها يحتملها اللفظ إلا أنه جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تفسير هذه الآية لما سأله رجل بقوله : "يَا نَبِيَّ اللهِ كَيْفَ يُحشَرُ الكافرُ عَلَى وَجْهِهِ ؟ قال صلى الله عليه وسلم : " أَلَيْسَ الذِي أَمشَاهُ على الرِّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يومَ القِيَامَةِ ؟ " (٢) وبهذا النص تحدد وتعين المعنى المراد من الآية وهو المعنى الأخير وبطلت الإحتمالات ، وهذا ما ذهب إليه ابن باديس رحمه الله حيث يقول : " يساقون إلى جهنم مقلوبين على وجوههم" ثم زاد فبين ذلك أكثر بقوله : " رفعوا وجوههم في الدنيا عن السجود لله ، فأذل الله تلك الوجوه فمشوا عليها في المحشر " (٣) .

فتبين بهذا المثال أنه كان لا يقدم على تفسير النبي صلى الله عليه وسلم أي تفسير آخر .

(٢) ونفس الشيء مع تفسير الصحابة والتابعين وعلماء القرآن فتفسيرهم كذلك مقدم ، وقولهم حاكم على قول غيرهم ، كقوله عند تفسيره لآية "لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ" (٤)

---

(١) انظر : أحكام القرآن للقرطبي ــ الجزء ١٠ ص ٣٣٣ .

(٢) الحديث : سبق تخريجه في ص (٢٠٨) .

(٣) تفسير ابن باديس ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٤) سورة النمل ٢١ .

" (عَذَابًا شَدِيدًا) بنتف ريشه هكذا فسره ابن عباس وجماعة من التابعين "(١) رغم أنه ليس في الآية ما يفهم خصوص نتف الريش من لفظ العذاب الشديد " . وكقوله عند تفسيره لآية " قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا "(٢) :-

" تفسير أثري :-

أخرج البخاري في كتاب التفسير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : " خَمْسٌ قَدْ مَضَيْنَ : الدُّخَانُ ، وَالْقَمَرُ ، وَالرُّومُ ، وَالْبَطْشَةُ ، وَاللِّزَامُ " ورواه في مواضع أخرى من صحيحه ، وعنى بالدخان : المذكور في قوله تعالى " يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ "(٣) وبالقمر : المذكور في " وَانْشَقَّ الْقَمَرُ "(٤) وبالبطشة : المذكورة في " يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى "(٥) وباللزام المذكور في هذه الآية "(٦) وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على شدة تمسك ابن باديس بالتفسير المأثور وتقديمه عند وجوده حتى على اللغة ، والأمثلة كثيرة(٧) .

(٣) وإذا لم يجد تفسيرا أثريا اعتمد على اللغة في بيان معنى اللفظ وله في هذا طريقة خاصة نجملها في النقاط التالية .

(٦) إن لم يكن للفظ معنى إلا ما دل عليه أصله الذي اشتق منه أو له معان أخرى غير المعنى الأصلي الذي وضع له لكن لا قرينة تصرفه عن معناه الأصلي إلى تلك المعاني فسره بما يدل عليه في الوضع كقوله عند آية " فَمَحَوْنَا

---

(١) تفسير ابن باديس ص ٣٣٨ .

(٢) الفرقان ٧٧ .

(٣) سورة الدخان ١٠ .

(٤) سورة القمر ١ .

(٥) سورة الدخان ١٦ .

(٦) تفسير ابن باديس ص ٣٠٥ .

(٧) انظر ص ٢٤٩ ، ٣٠٥ ، ٣٩٩ من تفسير ابن باديس .

آيَةَ اللَّيْلِ "[١] فمحونا : المحو هو الإزالة : إزالة الكتابة من اللوح ، وإزالة الآثار من الديار ، فمحو "آية الليل" إزالة الضوء منها "[٢] .

(ب) وإن كان للفظ عدة معان نظر فيها وبين المراد منها في الآية ، وهو في هذا المجال فارس الميدان يصول ويجول بما آتاه الله تعالى من فقه في لغة العرب فقد أوتي — كما قال الإبراهيمي — " ملكة بيانية راسخة "[٣] وكان له حب شديد لهذه اللغة الشريفة كما يسميها . وكم كان يحلو له أن يبين سعتها ودقتها وما لها من مزايا على بقية اللغات ولا يكل ولا يمل من التنويه والإشادة بها كلما سنحت فرصة — كقوله عند تفسير آية " ...... يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ .."[٤] " فمن حكمة اللغة العربية الشريفة أن سمت أصوات الحيوانات نطقا كما سمت — في المتعارف — اللفظ الذي يعبر به عما في الضمير نطقا ، لأن الأصوات لغير الإنسان تقوم مقام الألفاظ للإنسان فهي طريق تفاهمها وطريق فهم ما يمكن لإنسان فهمه عنها .

فلله هذه اللغة ما أعمق غورها وما أدق تعبيرها "[٥]

وكقوله — عند تفسيره لسورة الفلق — قال رحمه الله تعالى :

" الفلق : الفجر المفلوق المفرى ، ومن لطائف هذه اللغة الشريفة أن الفتح[٦]

---

(١) سورة الاسراء ١٢ . (٢) تفسير ابن باديس ص ٦٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٦ . (٤) النمل ١٦ . (٥) تفسير ابن باديس ٣٢٣ .

(٦) معاني بعض هذه الكلمات :

الفلح : الشق والقطع — انظر اللسان ٢/٥٤٨

الفجر : أصل الفجر الشق — انظر تاج العروس ١٣/٢٩٩ — د . حسن نصار ط — الكويت .

الفلق : فَلَقْتُ الشيء فَلْقا : شققته — انظر الصحاح ٤/١٥٤٤

الفَرْقُ : الفصل بين الشيئين — انظر اللسان ١٠/٣٠١

الفَتْقُ : فَتَقْتُ الشيء فتْقا : شققته — انظر الصحاح ٤/١٥٣٩

الفَرْيُ : أَفْرَيْتُ الشيء : شققته فانْفَرَى وَتَفَرَّى : أي انْشَقَّ — انظر الصحاح ٦/٢٤٥٤ .

الفَقْأُ : الفَقْءُ : الشق — انظر اللسان ١/١٢٣ .

والفلح والفجر والفلق والفرق والفتق والفرى والفأ والفقأ والفقه كلها ذات دلالات واحدة ، وتخصيصها بمتعلقاتها باب من فقه اللغة عظيم ... "(١)

وكان كثير الرجوع باللفظة إلى أصلها ، كثير الإعتماد على المعاجم الأساسية في اللغة كاللسان والصحاح اللذين يصرح بهما ومعجم مقاييس اللغة وأساس البلاغة اللذين يفهم من صنيعه أنه يأخذ منهما . وكان كثير الإستشهاد بالشعر الفصيح وخاصة الجاهلي والإسلامي والأمثلة على ذلك كثيرة ومنها : قوله عند تفسير الآية " وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ... "(٢) الآية " ابتداء الأشد من البلوغ إذا كان معه رشد ، ولا يزال يتدرج حتى يستكمل في الأربعين كما قال تعالى " حَتَّى بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً "(٣) فالأربعون هي سن الإستكمال والإستواء والتمام في القوى ، وهي السن التي بعث الله فيها النبي — صلى الله عليه وسلم — للعالمين بشيرا ونذيرا ، ولا يزال الإنسان في قوته مالم تعرض الطوارئ — إلى الخمسين ، قال الشاعر(٤) :

أَخُو الخَمْسِينَ مُجْتَمِعٌ أَشُدِّي ... وَنَجَّذَنِي مُدَاوَرَةُ الشُّؤُونِ(٥)

ثم يأخذ في التراجع "(٦)

وقوله — أيضا — عند تفسير قوله تعالى " وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ... "(٧)

---

(١) المصدر السابق ص ٤٨١ .

(٢) سورة الاسراء ٣٤ .

(٣) سورة الاحقاف ١٥ .

(٤) هو سُحَيم بن وَثِيل .

(٥) نَجَّذَنِي : قال في الصحاح : رجل مُنَجَّذٌ : مُجرّب أحكمته الأمور . ج ٢ ص ٥٧١ وقال أيضا المداورة كالمعالجة ج ٢ — ص ٦٦٠ ، ورواية البيت في الصحاح هكذا : " أخو خمسين ... " .

(٦) تفسير ابن باديس ص ١٢٣ .

(٧) الاسراء ٣٦ .

الآية " ... فالقفوا تباع عن غير علم ، فهو أخص من مطلق الاتباع ، ولذلك اختيرت مادته هنا . ولكونه اتباعا بغير علم ، جاء في كلام العرب بمعنى قول الباطل .

قال جرير : (١)

وَطَالَ حَذَارِي خِيفَةَ البَيْنِ وَالنَّوَى :. وَأُحْدُوثَةٍ مِنْ كَاشِحٍ مُتَقَوِّفِ (٢)

أي متقول بالباطل (٣) " .

وقوله : — عند تفسيره لقوله تعالى — " وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ ... " (٤) " الهجود : النوم ، والهاجد : النائم وجمعه هجود ومنه : (٥)

" أَلَا طَرَقَتْنَا وَالرِّفَاقُ هُجُودُ " (٦)

والتهجد : ترك الهجود ، كالتحرج والتأثم في ترك الإثم والحرج وبناء تَفَعَّل يكثر في التحصيل كتعلّم وتقدّم ، وجاء قليلا في معنى الترك . والمراد منه هنا ترك النوم للقيام للعبادة (٧) " .

---

(١) الديوان ص ٢٩٥ .

(٢) في الديوان " وَطَالَ حَذَارِي غربةَ البين والنوى — وأحدوثة من كاشح يتقوف " والكاشح : الذي يضمر لك العداوة . الصحاح ج ١ — ص ٣٩٩ .

(٣) تفسير ابن باديس ١٢٩ و" متقوف " من " قوف " وهي بمعنى " قفا " التي أصلها من " قفو " اختلفت المادة والمعنى واحد . انظر الصحاح واللسان

(٤) سورة الاسراء ٧٩ .

(٥) أورد الطبري هذا البيت عند قوله تعالى : " فتهجد به نافلة لك " الاسراء ٧٩ دون أن ينسبه لأحد . قال المحقق : لم أقف على قائله . أنظر تفسير الطبري ١٥ / ١٤١

(٦) وتمامه : فباتت بِعَلَّاتِ النَّوالِ تَجُودُ . وعَلَّات جمع علّة : اسم للمرة من العلل : وهو السقي الثاني بعد الأول ، والنوال : العطاء ، وهجود : جمع هاجد أي نائم كقعود جمع قاعد وجلوس جمع جالس .

(٧) تفسير ابن باديس ص ١٧٩

وقد نص على أنه من قواعد منهجه في تفسير القرآن شرح الألفاظ بناء "على ما دلت عليه لغة العرب في منظومها ومنثورها"[١].

وكان يعتمد على الراجح من معاني اللغة كما بين ذلك هو نفسه في مقدمة تفسيره التي هي عبارة عن خطبته التي كان يفتتح بها دروس التفسير، حيث يقول "على عادتنا في تفسير الألفاظ بأرجح معانيها اللغوية"[٢].

فإن كان للكلمة عدة معان – كما قلت – وكلها مقبولة أو مرادة اعتبرها جميعا، إما لأنها ترجع إلى أحدها، كقوله – في تفسير الآية "وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ..."[٣] –: "هونا: هان الأمر يهون هونا بمعنى سهل، ومنه "هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ"[٤] أي سهل.

ومن صفات المؤمن أنه هيّن ليّن من الهوْن بمعنى السهولة في أخلاقه ومعاملته ...

وفسر الهون في الآية بالحلم، والوقار، والسكينة، والتواضع والطاعة، وكلها ترجع إلى السهولة واللين وفسر بعدم الفساد في الأرض، وعدم التجبر والتكبر، لأنها كلها أضداد للسهولة واللين"[٥].

وكقوله – عند آية "وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا"[٦] – "من قال ما لم يسمع: سئل يوم القيامة سمعه فشهد عليه ..." إلى أن يقول: "هذه الثلاثة تسئل على وجوه منها ما تقدم، وهو الذي يرتبط به هذا الكلام بما تقدم من النهي.

ومنها سؤال السمع: لم سمع ما لا يحل؟ ولم لم يسمع ما يجب؟ ..."[٧]

---

(١) تفسير ابن باديس ص ٣٦٢.

(٢) المصدر السابق ص ٥٣.

(٣) الفرقان ٦٣.

(٤) مريم ٢١.

(٥) تفسير ابن باديس ص ٢٥٩.

(٦) سورة الاسراء ٣٦.

(٧) تفسير ابن باديس ص ١٣٨، ١٣٩.

وأحيانا يرجح أحد المعاني ، ويعتمد في ذلك على وسائل عديدة منها :

(١) القراءات :-

كقوله - عند تفسير قوله تعالى "وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ" (١) : "الزبور بمعنى المزبور أي المكتوب والمراد به جنس ما أنزله الله من الوحي على رسله عليهم الصلاة والسلام وأمر بكتابته . وقرأ حمزة : "الزُّبور" (٢) "(بضم الزاي) جمع زَبْر (٣) أي كتاب فعينت هذه القراءة أن المراد بالزبور في القراءة الأولى الكتب المنزلة لا خصوص زبور داود عليه السلام . (٤) (٥)

(٢) السياق :

قوله تعالى "لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ... " الآية (٦)

لأهل العلم في هذه الآية ثلاثة أقوال .

الأول : نهاهم أن يتعرضوا لدعاء الرسول عليهم فإنه مستجاب بخلاف دعاء الناس . روي هذا عن ابن عباس والحسن وأخذ به الطبري . (٧)

الثاني : نهاهم أن يدعوه باسمه أو بغلظ وجفاء بل بلين وتواضع روي هذا عن مجاهد وقتادة ورجحه ابن كثير . (٨)

---

(١) سورة الانبياء ١٠٥ .

(٢) انظر النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج ٢ - ص ٢٥٣ .

(٣) بفتح الزاي وسكون الباء كدَهْر ودُهُور . وفي الصحاح بكسر الزاي كقِدْر وقدور ٢ / ٦٦٧

(٤) تفسير الطبري ج ١٧ ص ١٠٣ .

(٥) تفسير ابن باديس ص ٤٤٣ . وزَبَرَ : كَتَبَ والزَّبْر : الكتابة الصحاح ٢ / ٦٦٧ .

(٦) سورة النور ٦٣ .

(٧) تفسير الطبري ج ١٨ ص ١٧٧ .

(٨) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ - ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

الثالث : نهاهم عن الإبطاء والتأخر إذا دعاهم

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله عن القول الأول : " هذا الوجه يأباه ظاهر القرآن لأن قوله تعالى (كدعاء بعضكم بعضا) يدل على خلافه ولو أراد دعاء بعضهم على بعض لقال : لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ عَلَيْكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ " (١) ونقل أبو حيان عن ابن عطية قوله " ولفظ الآية يدفع هذا المعنى " (٢)

أخذ ابن باديس بالقول الثالث حيث قال :

" المعنى :

لا تنزلوا دعاء الرسول لكم إذا دعاكم إلى الحضور عنده منزلة دعاء بعضكم بعضا للحضور ، فتحسبون أنفسكم مخيرين إن شئتم أجبتم وإن شئتم تخلفتم ، فتارة تجيبون وتارة تتخلفون ، فإجابة دعوته ، والإسراع إليه واجب محتم عليكم ، والتخلف أو التباطؤ ـ لغير عذر واضح ـ محرم عليكم ... " (٣) وهذا المعنى يؤيده سياق الكلام كما قال أبو حيان : " ويدل عليه " فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ " (٤) وهذا القول موافق لسياق الآية ونظمها " (٥)

(٣) عموم اللفظ :ـ

قوله تعالى " وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا " (٦) .

---

(١) انظر أضواء البيان ج ٦ ص ٢٥٢ .

(٢) انظر البحر المحيط ج ٦ ص ٤٧٦ .

(٣) تفسير ابن باديس ص ٤٣٠ ، ٤٣١ .

(٤) سورة النور ٦٣ .

(٥) انظر البحر المحيط ج ٦ ص ٤٧٦ .

(٦) الاسراء ٨٠ .

(١)
للعلماء في هذه الآية عدة أقوال ومنها :

(أ) مدخل صدق : هو المدينة ، مخرج صدق : هو مكة ، روي هذا عن ابن عباس والحسن وقتادة •

(ب) مدخل صدق : أي أمتني إماتة صدق ، مخرج صدق : أي أخرجني بعد الممات من قبري يوم القيامة مخرج صدق • روي عن ابن عباس كذلك •

(جـ) مدخل صدق : أدخلني في أمرك الذي أرسلتني به من النبوة مدخل صدق وأخرجني منه مخرج صدق ، روي عن مجاهد •

(د) مدخل صدق : هو الجنة ، مخرج صدق ، من مكة إلى المدينة ، روي عن الحسن •

(هـ) مدخل صدق : أدخلني في الإسلام مدخل صدق ، روي عن ابن صالح •

(و) أدخلني مكة آمنا وأخرجني منها آمنا • روي عن الضحاك (٢)

رجح الطبري الأول لدلالة السياق عليه وهو قوله " وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا •• " الآية (٣) وتابعه على ذلك ابن كثير (٤) وأخذ صاحب الكشاف بالقول الثاني مستدلا بما قبله من ذكر البعث (٥) •

وأما أبو حيان فقد اعتبر هذه الأقوال على سبيل التمثيل لا التعيين إذ اللفظ يتناول جميع الموارد والمصادر (٦) ، وهو بهذا قد أخذ بعموم اللفظ •

---

(١) انظر تفسير الطبري ج ١٥ ص ١٤٨ ــ ١٥١ •

(٢) انظر تفسير الطبري ج ١٥ ص ١٤٨ ــ ١٥١ •

(٣) الاسراء ٧٦ •

(٤) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ــ ص ٥٨ ، ٥٩ •

(٥) انظر الكشاف ج ٢ ص ٥٣٦ •

(٦) انظر البحر المحيط ج ٦ ص ٧٣ •

بعد استعراض أقوال العلماء في تفسير هذه الآية ننتقل إلى قول ابن باديس فيها . يقول رحمه الله تعالى :

" ترجيح

إذا نظرنا إلى ما تقدم من قوله تعالى "وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا " الآية قيل إن المراد بمدخل الصدق هو المدينة ومخرج صدق هو مكة وتكون مكة مخرج صدق لأنه يخرج منها على حق ويقين وبصيرة وبإذن من الله تعالى وتأييده وتكون المدينة مدخل صدق لذلك كذلك .

وإذا نظرنا إلى عموم اللفظ حملنا الآية على العموم اعتبارا بحكم اللفظ ولا يفوت اعتبار المناسبة لما تقدم فإن الخروج من مكة ودخول المدينة يكون مما دخل في العموم دخولا أوليا . فالحمل على العموم ـ كما رأيت ـ محصل لاعتبار اللفظ واعتبار المناسبة ولذلك اخترناه (١) . "

ويلاحظ من قول ابن باديس هذا أن القولين المعتبرين عنده من الأقوال السابقة هما : الأول الذي أخذ به الطبري وابن كثير والقول الذي اعتمده أبو حيان ثم رجح بينهما . وسبب اقتصاره على هذين القولين هو قوتهما إذ الأول يؤيده السياق كما ذكرناه عن الطبري ووضحه ابن باديس . والثاني يؤيده عموم اللفظ ومعلوم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

(٤) أصل الوضع اللغوي :-

قوله تعالى " وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (٢) "

---

(١) ابن باديس حياته وآثاره ج ١ ـ ص ٣٢١ .

(٢) الانبياء ١٠٥ .

للعلماء في هذه الآية أقوال أهمها (١) :ـ

(أ) أرض الجنة . روي عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير وأبي العالية ومجاهد

(ب) أرض الكفار في الدنيا روى عن ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة

اختار الطبري القول الأول وتبعه كل من الزمخشري (٢) وأبو حيان (٣) والقرطبي (٤)

ضعّفا القول الثاني بأن الأرض في الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم

واختار الشوكاني (٥) القول الثاني قال : "وعليه أكثر المفسرين" : وجمع

ابن كثير بين القولين (٦) فقال : "وراثة الأرض في الدنيا والآخرة".

وأما ابن باديس فقد اختار القول الثاني مستدلا بأصل الوضع لكلمة الأرض حيث

وضعت ـ أول ما وضعت ـ للأرض الدنيوية ودعم استدلاله هذا بقول ابن

عباس رضي الله عنهما .

يقول ابن باديس رحمه الله : " الأرض : جنس الأرض الدنيوية لأن هذا

اللفظ موضوع لها فإذا أطلق انصرف إليها وبهذا فسرها ابن عباس من

طريق علي بن أبي طلحة وهي أصح طرقه " .

ثم دفع اعتراض القرطبي السالف بقوله :

" إشكال وحله :

---

(١) انظر تفسير الطبري ج ١٧ ص ١٠٣ .

(٢) انظر الكشاف ج ٣ ص ١٠٩ .

(٣) انظر البحر المحيط ج ٦ ص ٣٤٤ .

(٤) انظر احكام القرآن للقرطبي ج ١١ ص ٣٤٩ .

(٥) انظر فتح القدير للشوكاني ج ٣ ص ٤٣٠ .

(٦) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ـ ص ٢٠١ .

قال أناس : إن أرض الدنيا كما يستولي عليها الصالحون يستولي عليها غيرهم والأرض التي لا يرثها إلا الصالحون هي أرض الجنة فيجب تأويل الآية بها

والجواب : إن هذا التأويل إنما يحتاج إليه ان لو كانت الآية هكذا "إن الارض لا يرثها إلا عبادي الصالحون" بطريق الحصر فيهم . أما لما كانت الآية لا حصر فيها فلا حاجة إلى هذا التأويل بل في لفظ الإرث وربطه بوصف الصلاح دلالة على أنها كانت لغيرهم فانتقلت إليهم وإنها تزول مع زوال وصف الصلاح وقد جاء التنبيه على أن الأرض يرثها الصالحون وغيرهم في قوله تعالى "إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ" (١) فيرثها الصالحون نعمة ويرثها غيرهم فتنة ونقمة كل ذلك حسب مشيئة الحكيم الخبير" .

ثم أورد اعتراضا أخر وهو : ما الفائدة في تخصيص الصالحين بالذكر في هذه الاية ؟ وأجاب عليه بما يلي :-

(١) إن هذه الآية خوطب بها أول الناس : الصحابة بمكة وهم الصالحون في الأرض ليعلموا ما وعدهم الله به وليعلموا ان قوة الباطل إلى ضعف وأن ضعف الحق إلى قوة .

(٢) ولأن شأن الصالحين إذا كانوا أن يكونوا قليلا سيما أول أمرهم فهم بحاجة إلى أن يعلموا هذا الوعد ليزدادوا إيمانا وقوة وثباتا .

(٣) ولأن الخلق مفتونون بالكثرة في العدد والعدة غافلون عن القوة الروحية والأخلاقية وما ينشأ عنهما من استقامة لا يحسبون لذلك حسابا فيحتاجون إلى العلم بأن الصالحين نائلون حظهم من هذا الوعد وإن كانوا قلة في الناس . و"كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ" (٢) (٣) .

---

(١) سورة الاعراف ١٢٨ .

(٢) البقرة ٢٤٩ .

(٣) تفسير ابن باديس ص ٤٤٤ ، ٤٤٧ .

سابعا : التراكيب :ـ

في مبحث التراكيب يتعرض ابن باديس لمسائل النحو والصرف والبلاغة وتتلخص طريقته المتبعة في هذه المسائل في النقاط التالية :

(١) لا يتعرض لها إلا في حالة الضرورة وهي إذا كان المعنى لا يتضح أو لا تنكشف معان أخرى إلا بتوضيح هذه المسائل .

(٢) لا يتوسع فيها إلا بقدر الحاجة .

(٣) يميل دائما نحو المشهور والراجح .

(٤) يستشهد بنصوص القرآن والسنة وفصيح النظم والنثر من أقوال العرب على ما يذهب إليه .

(٥) قد يجتهد فيبدي رأيه الخاص في مسألة نحوية أو صرفية أو بلاغية .

(٦) كثيرا ما يشرح القاعدة النحوية أو البلاغية بأسلوب سهل مع التمثيل .

وسأورد الآن بعض النماذج على ذلك قد يتخللها بعض الشرح لزيادة التوضيح

(١) نماذج النحو والصرف .

(أ) قال ـ عند تفسيره لقوله تعالى " وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ .. " الاية (١)

" وقد اتفق الكاتبون على الآية ممن رأينا على أن المراد من لفظ " الآية في الموضعين واحد :

---

(١) الاسراء ١٢ .

فإما أن يراد بها نفس الليل والنهار والإضافة في "آية الليل" و "آية النهار" للتبيين كإضافة العدد للمعدود .

أو يراد بها الشمس والقمر فيكون : "وَجَعَلْنَا اللَّيلَ والنهارَ آيتينِ" على تقدير مضاف في الأول تقديره هكذا : وجعلنا نَيِّرَيِ الليل والنهار أو في الأخير مقدرا هكذا : وجعلنا الليل والنهار ذوي آيتين .

وأما على تقريرنا المتقدم فإن لفظ "آيتين" صادق على الليل والنهار ، ولفظ "آية الليل" ، و "آية النهار" صادق على الشمس والقمر ، وعليه يكون تقدير الآية هكذا : وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا قمر الليل وجعلنا شمس النهار مبصرة وهو تقدير صحيح لا معارض له من جهة اللفظ ولا من جهة المعنى ، وسالم من دعوى تقدير محذوف ، ومفيد لكثرة المعنى بأربع آيات : بالليل وقمره والنهار وشمسه فالتقرير به أولى ، ولذلك فسرنا الآية عليه "(1)

(ب) قال ـ عند تفسيره لقوله تعالى "وَلَا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً "(2) : "نصب "مرحا" بـ "تمش" لأنه متضمن له تضمن الكلي لجزئيه ، إذ المرح جزئي من جزئيات المشي ، فكأنه قال : لا تمرح مرحا . ونظيره قول الشاعر(3) .

يُعْجِبُهُ السَّخُونُ والبَرُودُ ... وَالتَّمْرُ حُبًّا مَالَهُ مَزِيدُ (4)

فنصب "حبا" بـ "يعجب" لأن الإعجاب متضمن للحب ، أو نصب على أنه حال كـ "جاءني

---

(1) تفسير ابن باديس ص ٦٠ .

(2) الاسراء ٣٧ .

(3) جاء به صاحب اللسان عند كلمة (سخن) بدون نسبة أنظر ج ١٣ /ص ٢٠٦

(4) روايته في اللسان هكذا "يعجبه السخون والعصيد" والسخون من المرق ما يسخن ، والعصيد : العصيدة : دقيق يلت بالسمن ويطبخ ٣/ ٢٩١ عند (عصد)

زيد ركضا " . ونصب " طولا " على أنه تمييز ، أي من جهة الطول والتقدير " ولن يبلغ طول الجبال "(١)

(جـ) قال عند قوله تعالى " فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ، وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ " الآية .(٢) "أوزعني أن أشكر" : ألهمني شكر نعمتك، وتحقيقه في اللغة والتصريف : أنك تقول : وزعت الشيء أي كففته وأوزعني الله الشيء : أي جعلني أزع ذلك الشيء أي أكفه : كما تقول ركبت الفرس وأركبني زيد الفرس أي جعلني أركبه . فأوزعني شكر نعمتك أي اجعلني أزع أي أكف شكر نعمتك أي أمنعه من أن يذهب عني . وينفلت مني : فالمقصود : اجعلني ملازما لشكرك فلا أنفك لك شاكرا "(٣)

(د) قال ـ عند قوله تعالى " كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ .. " الاية(٤) " قدم المفعول وهو "كلا" ردا على من يعتقد أن الله تعالى يمد بعضا دون بعض . وفيه إيجاز بالحذف ، والأصل : كلا الفريقين : يعني فريق مريدي العاجلة ومريدي الآخرة "(٥)

(هـ) قال ـ عند قوله تعالى " وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا "(٦) .

" قرة أعين : تركيب كنائي فإذا كانت القرة من القر فهو كناية عن السرور ، لأن العين في حالة السرور باردة . وإذا سالت منها دموع في حالة الفرح كانت باردة . وإذا كان الإنسان في حالة حزن فالعين تكون سخنة بسبب ثورة النفس وآلامها التي تثير الحرارة ، فإذا سالت منها دموع الحزن كانت سخنة ومما يقال على هذا : أقر الله عين المحق ، وأسخن عين المبطل .

---

(١) تفسير ابن باديس ص ١٤٠ .

(٢) سورة النمل ١٩ .

(٣) تفسير ابن باديس ص ٣٣١ ، ٣٣٢ .

(٤) الاسراء ٢٠ .

(٥) تفسير ابن باديس ص ٧٦ .

(٦) الفرقان ٧٤ .

وجاء عليه قول أبي تمام (١) .

فَأَمَّا عُيُونُ العَاشِقِينَ فَأُسْخِنَتْ ** وَأَمَّا عُيُونُ الشَّامِتِينَ فَقَــرَّتِ

فقرة أعينهم على هذا ، كناية عن سرورهم بأزواجهم وذريتهم ، بما عليه من الخير والكمال وإعانتهم لهم عليهما .

وإذا كانت القرة من القرور ، فهي كناية عن سكون النفس بحصولها على ما يرضيها من الأزواج والذرية . ومعنى هذا أن النفس إذا لم تحصل على ما يرضيها تعلقت بما عند غيرها وتشوفت إليه ، فتمتد إليه العين ويطمح إليه البصر ، وإذا حصلت على ما يرضيها زالت عن ذلك التعلق وانكفت عن التشوف فسكنت العين فلم تمتد إلى غير ما عندها ، ولم يطمح البصر إليه ولهذا كما كان قرور العين كناية عن رضى النفس وسكونها كان امتداد العين كناية عن اضطراب النفس وتشوفها وتعلقها ، وعليه قوله تعالى : " وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى" (٢) فقرة أعينهم على هذا كناية عن رضى أنفسهم بما يكون لهم من أزواج وذرية موصوفين بالصفات المرضية من طاعة الله في القيام بوظائف الدين والدنيا وإعانتهم لهم على القيام بها " (٣) .

ثامنا المعنى :-

بعد ما يفرغ من شرح المفردات وتوضيح التراكيب يعمد إلى المعاني المستخلصة من النص فيصيغها في أسلوب سهل بعبارات واضحة مؤدية للمعنى المراد تشمل جميع ما ورد في التفصيل من أقوال متعادلة أو مقتصرة على القول الراجح ، بأسلوب بعيد كل البعد عن التعقيد والتعميم يمكن لمن لا يريد التوسع الإقتصار عليه فهو كاف شاف

قال - عند قوله تعالى " وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا " (٤) .

" المعنى : "

يقول تعالى : وعباد الرحمن ومماليكه القائمون بحق العبودية له ، هم

---

(١) الديوان بشرح الخطيب التبريزي ج ١ ص ٣٠٠ . (٢) سورة طه ١٣١ .

(٣) تفسير ابن باديس ص ٢٩٥ - ٢٩٦ . (٤) الفرقان ٦٣ .

أهل الرفق والسهولة الذين يمشون على الأرض هينين في مشيهم ، وفي معالجتهم لشؤون الحياة ومعاملتهم للناس لحلمهم وتواضعهم ، غير مستكبرين ولا متجبرين ولا ساعين في الأرض بالفساد . وإذا خاطبهم السفهاء بما لا ينبغي من الخطاب قابلوهم بالحلم ، وقالوا لهم سلاما لأنهم سلموا من الجهل فسلم المخاطب لهم من أن يجهلوا عليه ولو جهل ، أو قالوا لهم من الكلام ما فيه سلامة من الأذى والمكروه ." (١)

---

(١) تفسير ابن باديس ص ٢٦١ .

الفصل الخامس
منهجه في شرح الحديث

المبحث الاول

علاقة ابن باديس بشرح الحديث

وكيفية تدريسه للموطإ وختمه له

لا شك أن لدراسته في تونس ورحلته إلى كل من الحجاز والشام ومصر صلة باتخاذه شرح الحديث - كما اتخذ تفسير القران - منطلقا لدعوته الإصلاحية إذ أن دعوة محمد عبده كانت ترتكز على الرجوع بالناس إلى الكتاب والسنة ، وقد رأينا كيف كان ابن باديس متأثرا بها إلى حد ما (١) . وكان لقاؤه بشيخه الهندي أحمد الفيض آبادي الذي كان عالما حكيما داعيا إلى الكتاب والسنة (٢) من بين الأسباب التي وطدت صلته بالحديث وشرحه وكان من بين الكتب التي كان يدرسها هذا الشيخ في المسجد النبوي صحيح مسلم (٣) ، فلا يستبعد أن يكون ابن باديس قد حضر هذه الدروس وتأثر بها مما جعله هو أيضا يشرح الموطأ .

سبب اختياره للموطأ :-

اختار الشيخ عبد الحميد بن باديس - من بين كتب الحديث - كتاب موطأ مالك بن أنس رحمه الله وقام بشرحه ولعل مرد ذلك إلى عدة أسباب منها :-

(١) لأنه أحد أصلي مذهب مالك ، إذ أن هذا المذهب يرتكز ويستمد من : الموطأ والمدونة ، وجل سكان الجزائر - إن لم يكن كلهم - مالكيون فمن الحكمة أن يدرس لهم كتاب حديث - زيادة على أنه من الكتب المعتمدة في السنة (٤) - يخدم المذهب الذي عليه أغلبية الناس حتى يكون ذلك سببا في استئناسهم وجلب قلوبهم .

---

(١) انظر ص (٨٥) .

(٢) انظر ص (٥٤) . حيث أوردت إعجاب الابراهيمي الشديد به .

(٣) انظر مجلة مجمع اللغة العربية العدد ٢١ - سنة ١٩٦٤م ص ١٣٥ ، ١٤٠ .

(٤) قال الإمام الشافعي رحمه الله : " ما على ظهر الأرض كتاب - بعد كتاب الله - أصح من كتاب مالك " تدريب الراوي ١/ ٩١ . وقول الشافعي هذا محمول على ما قبل ظهور الصحيحين

(٢) كان ابن باديس يرى بأن هذا الكتاب - رغم ما حظي به من اهتمام العلماء لم يوفه شراحه حقه من ناحية معينة فأراد أن يقوم هو بهذا الواجب جاء هذا في عبارة صريحة من الشيخ رحمه الله تعالى اذ يقول : "ان هذا الموطأ هو أقدم كتاب لنا ألفه امام عظيم من أتباع التابعين ، وهو كتاب يعلمنا العلم والعمل ، ويعرفنا كيف نفهم وكيف نستنبط وكيف نبني الفروع على الأصول ، يعطينا هذا كله وأكثر منه بصريح بيانه وبأسلوب ترتيبه للأحاديث والآثار والمسائل . وان شراح هذا الكتاب الجليل لم يوفوه حقه - في نظرى القاصر - من هذه الناحية وهي من أعظم نواحيه" (١) .

وقد بدأ ابن باديس شرح الموطأ في حدود سنة ١٩٢٤ م وختمه (٢) في حدود سنة ١٩٣٩ م / ١٣٥٨ هـ كان يلقيه في الجامع الأخضر ارتجالا مثل التفسير ووقت هذا الشرح كان بعد صلاة الفجر من كل يوم ما عدا أيام العطلة الأسبوعية والعطل الموسمية حتى ختمه فاحتفل الناس به مثل احتفالهم بختم التفسير .

وحين ختم شرح هذا الكتاب بالجامع الأخضر أقيم بمناسبة ذلك احتفال عظيم حضرته وفود من أنحاء القطر الجزائرى ، ولا بأس من التقاط بعض الصور لهذا الحفل بقلم أحد تلامذة الامام (٣) - وكان حاضرا - اذ يقول " قبل الاحتفال (٤) وجهت مراسيم الدعوة الخاصة للعلماء والأدباء والأعيان من عمالة قسنطينة مصحوبة ببيان الزمان والمكان ، وتألفت

---

(١) مجالس التذكير من حديث البشير النذير : ص ٣٢٧ .

(٢) المصدر السابق : ص ٣٣٠ .

(٣) الشيخ الجيلاني بن محمد .

(٤) انظر : ص ٩٠ تجد التعليق على الاحتفال بالختم .

لجنة أدبية للنظر في شؤون الحفلة ... وقررت اللجنة برنامجها الأدبي مساء يوم الإثنين على الساعة الثامنة .

.... ومساء يوم الأربعاء حادي عشر ربيع الثاني بدأت الوفود تصل تباعا ... وبعد أداء صلاة المغرب انبرى أهالي قسنطينة المضاييف الكرام يتنافسون في تكريم ضيوفهم كما هي عادتهم ...

وما كاد مؤذن العشاء يعتلي المنار حتى تكاملت تلك الوفود المكرمة في الجامع الأخضر المعمور حيث يؤدون صلاة العشاء ويسمعون بعدها درس الختم من الأستاذ الحكيم .

وبعد الفراغ من الصلاة وضع كرسي الدراسة في وسط الجامع وحلق حوله الوفود والمستمعون وانتظمت الصفوف الأمامية من العلماء والأدباء . ولما اتسقت قلائد الحلقات ، واكتمل نظام الصفوف وعلت السكينة وساد السكوت كأن على الرؤوس الطير طلع الأستاذ من مقصورته كالبدر ليلة تمامه في موكب من الجمال الإلهي (*) والجلال النبوي ، فاشرأبت الرؤوس لطلعته المباركة وتطلعت النفوس وخفقت الأفئدة في الصدور خفقة السرور ، فاعتلى كرسي الدراسة وأنشأ ينشر على مستمعيه الكرام تلك الدرر الغالية والحكم البالغة بفصاحة نادرة وبلاغة ساحرة ونبرات موسيقية تمتزج بالأرواح امتزاج الماء بالراح (١) . فهز النفوس بعظاته (الحسنية) (٢) ، وخلب العقول بتحقيقاته العلمية ، وأبحاثه النفيسة

ختم الأستاذ درسه - الذي استغرق نحو ساعة ونصف - بدعوات مأثورة وتلا على الحاضرين آخر ما كتب بنسخة الموطأ اليدوية الأثرية فبين أنها مكتوبة بخط صاحبها في القرن السابع الهجري فيما أظن .

---

(١) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ٣٣٥ .

(٢) لعله يشير إلى الحسن البصري .

(*) هذا التعبير خطأ

ثم قدمت للناس أنواع من الحلوى تسمى " الزلابيا "

وتكرم أهل قسنطينة على الحاضرين بمضخات ماء الزهور حتى عبقت

الروائح وامتزج مسك الختام بطيب الوئام .

ثم انتقل الناس من المسجد إلى مدرسة التربية والتعليم حيث أقيم

حفل رائع تبارى فيه الخطباء ، وترنم الشعراء وعاشت قسنطينة ليلة زاهرة . " (١)

ومما تجدر ملاحظته أن الإمام بن باديس لم يكتب هذا الشرح ولم

يقم أحد من تلامذته بذلك فضاع هذا الخير الكثير كما ضاع التفسير ، ولم يبق منه

إلا بعض الأحاديث كان الإمام قد شرحها بقلمه ونشرها على صفحات مجلته " الشهاب "

على شكل مقالات تحت عنوان " مجالس التذكير من حديث البشير النذير " ثم جمعت هذه

الأحاديث في كتاب من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية بالجزائر بنفس العنوان

وأضيف إليها كل ما يتصل بالسنة أو صاحبها ـ عليه الصلاة والسلام ـ مما تركه

الإمام .

ولم تكن هذه الأحاديث كلها من الموطأ فقط بل معها أحاديث من

المصنفات الأخرى كالصحيحين والسنن ، وعنون لها بهذا العنوان : (مجالس

التذكير) ـ أي مواضع الجلوس لاستماع العلم والوعظ والارشاد الباعث على التذكير

وذهاب الغفلة والجهل والنسيان ـ لأنه يعتبر أن حاجة العباد إلى تذكيرهم

بأمور دينهم هو أعظم ما يحتاجون إليه وأشرف وألزم ، وأن الأنبياء والرسل عليهم

الصلاة والسلام ما أرسلوا إلا لهذه المهمة العظيمة (٢) ، ولمشروعية

التذكير وحاجة الناس إليه أفرد له الإمام بابا في مجلته " الشهاب "

---

(١) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ٣٣٥ .

(٢) عمار الطالبي ابن باديس حياته وآثاره ج١ ص١٢٦

عنون له بالعنوان المشار إليه وقال :

" وسيكون هذا الباب من " المجلة " مجالا لفنون من التذكير.. " (١)

كان هو الأصل في وجود هذه الآيات المفسرة والأحاديث المشروحة ، وكان مقتفيا في هذا آثار الشيخ محمد رشيد رضا كما اقتفى أثرهما معا الشيخ حسن البنا رحمهم الله جميعا . (٢)

وبالتأمل في كل ما وصل إلينا من دروس – لها صلة بالسنة النبوية الشريفة تنسب إلى الإمام نلاحظ أنها تنقسم – من ناحية التوسع والاختصار في الشرح – إلى ثلاث فئات .

الفئة الأولى : توسع في شرحها وهي التي تعرض لها ضمن موضوع معين قصد البحث فيه ابتداء مثل مسألة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم . (٣)

الفئة الثانية : أحاديث الموطأ : إذا اعتبرنا شرحه لآخر حديث فيه نموذجا لطريقته التي اتبعها في كل أحاديثه فإننا نلاحظ أنه توسط في الشرح فلم يختصر ولم يسهب . (٤)

الفئة الثالثة : وهي الأحاديث التي شرحها على صفحات " الشهاب " فإنه اختصر شرحها بما يتناسب مع مستوى القراء . (٥)

---

(١) عمار الطالبي ابن باديس حياته وآثاره ج١ ص ١٢٨

(٢) انظر ص (٤٧)

(٣) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ٢١٧ .

(٤) المصدر السابق ص ٣١٥ .

(٥) انظر مجالس التذكير من حديث البشير النذير من ص ٣٣ .

وهناك بعض الأحاديث كان يأتي بها ويعلق على بعضها دون شرح لها ويترك البعض الآخر دون شرح أو تعليق (١) .

إن الأهداف التي كان يتوخاها ابن باديس من شرحه للحديث والقواعد التي اعتمدها هي نفسها التي سبقت في منهج تفسيره ولهذا لم أر داعيا لإعادة الحديث عنها هنا ، واكتفيت بالكلام عن مصادره وطريقته في شرح الحديث .

---

(١) المصدر السابق من ص١٨٧ ـ الى ـ ص٢١٧ .

المبحث الثاني

المصادر والطريقة

أولا : المصادر

إن أسلوبه في تفسير القرآن وشرح الحديث ، أسلوب دعوي إصلاحي إرشادي ، أي أنه لا يريد بعمله ذلك تثقيف المستمع أو القارئ فحسب وإنما المراد تفهيمه بأخصر طريق وحمله على العمل بما فهم .

ويبنى على هذا أمران هما :

(١) أنه لا يتوسع في المباحث التي هي بمثابة وسائل لا مقاصد كاللغويات والأصول والمصطلح وغيرها ، بل يتكلم في مثل ذلك بالقدر الذي يخدم الغاية العظمى من بعث الرسل وإنزال الكتب وهي فهم نصوص الوحي والعمل بها .

(٢) يلاحظ — للأسباب السابقة — عدم ذكره للمصادر كثيرا بل يقتصر على الإستفادة منها بالاقتباس إما نصا أو معنى ، فقصده الكبير من المصادر هو الاستعانة بها على تجلية معاني الآية والحديث وتوثيق هذه المعاني وتدعيمها بأقوال أهل الرسوخ في العلم الذين هم حجة على الناس ولهذا كان يرى أن هذا المقصود يتحقق دون الإكثار من ذكر المصادر ، ومن هنا يظهر لمن استعرض تفسيره أو شرحه للحديث — قلة المصادر الوارد ذكرها أثناء الشرح .

وأذكر الآن بعض مصادره وطريقة استفادته منها :

(١) كتب الحديث :—

الكتب الستة وموطأ مالك ومسند أحمد وكثير من كتب السنة الباقية مثل : مستدرك الحاكم ومعجم الطبراني ، وسنن البيهقي والدارقطني وصحيح ابن خزيمة وابن حبان .

(٢) كتب شرح الحديث :ـ

فتح الباري ، إرشاد الساري للقسطلاني ، السنوسي على شرح الأبي لمسلم ، شرح الموطأ للباجي ٠

(٣) كتب التفسير : تفسير ابن كثير ، تفسير الشوكاني ، تفسير الثعالبي تفسير البيضاوي ٠

(٤) كتب التراجم :ـ

الإصابة ، الإستيعاب ، طبقات ابن سعد ، تهذيب التهذيب ، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (١) ٠

(٥) اللغة : لسان العرب ٠

(٦) كتب أخرى : مثل جامع بيان العلم لابن عبد البر ٠

زيادة على المصادر التي ذكرتها في الباب السابق عند الكلام عن مصادر التفسير ٠

ثانيا : طريقته في الاستفادة منها

له طريقتان :

فالطريقة الأولى : تتمثل في أخذ النص ونقله ومن أمثلة ذلك :ـ

(١) عند شرحه لحديث "إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَاتِ ٠٠٠ " (٢) الحديث وذكره لسبب ورود هذا الحديث قال : قال القسطلاني (٣) : " قد اشتهر أن سبب هذا الحديث قصة مهاجر أم قيس المروية في المعجم الكبير للطبراني ٠٠ " إلى آخر كلام القسطلاني (٤) ٠

---

(١) لابن فرحون المالكي ت ٧٩٩ ٠

(٢) فتح الباري ج ١ ـ ص ٢٨ ـ أول حديث فيه ومسلم ج ٣ ـ ص ١٥١٥ كتاب الامارة ، فؤاد عبد الباقي ٠

(٣) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ج ١ ـ ص ٥٥ ٠

(٤) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ٦١ ٠

(٢) وعند شرحه لحديث الذي قتل تسعة وتسعين نفسا وأكمل المائة بالراهب • قال " قال الإمام محمد السنوسي – رادا على الأبي (١) – تسمية النبي صلى الله عليه وسلم الرجل الثاني بالعالم والأول بالراهب يدل على أن الراهب ليس بعالم •••• " إلى آخر كلامه (٢) • (٣)

(٣) وعند شرحه لنفس الحديث قال " قال مالك رحمه الله : " لا يؤخذ العلم عن أربعة : سفيه معلن السفه ، وصاحب هوى يدعو إليه ، ورجل معروف بالكذب في حديث الناس وإن كان لا يكذب على الرسول عليه وآله الصلاة والسلام ورجل له فضل وصلاح لا يعرف ما يحدث به " ذكره ابن عبد البر في جامع العلم (٤) (٥) • "

(٤) عند شرحه لحديث " نِعْمَ الْقَوْمُ أَنْتُمْ لَوْلَا أَنَّكُمْ تُشْرِكُونَ : تَقُولُونَ : مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ •• " إلى آخر الحديث (٦) قال : " قال أبو عمر ابن عبد البر في كتاب الإستيعاب : " إن سفيان وشعبة وزائدة ••• رووا عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن حراش عن الطفيل حديثه هذا ••• وقال أبو عمر : وفي حديث زائدة عن الطفيل أنه رأى في المنام أن قائلا يقول له من اليهود : نِعْمَ الْقَوْمُ أنتم لولا قولكم ما شاء اللهُ وَمَا شَاءَ محمدٌ ثم رأى ليلة أخرى رَجُلًا مِنَ النَّصَارَى فقال له مثل ذلك فأخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقام خطيبا فقال : لا تقولوا : مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ محمدٌ وقولوا : ماشاء الله وحده ، وزاد بعضهم فيه : ثم ما شاء محمد (٧) (٨) • "

---

(١) صحيح مسلم • ج ٤ – ص ٢١١٨ تحقيق فؤاد عبدالباقي " ك : التوبة ب : قبول توبة القاتل •

(٢) أنظر شرح الأبي لـ " مسلم " المسمى : إكمال إكمال المعلم مع حاشية السنوسي " مكمل إكمال الإكمال " ج ٧ / ١٦٦ •

(٣) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ١٠٦ •

(٤) سير أعلام النبلاء ٨ / ٦٧

(٥) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ١٠٧ •

(٦) سنن ابن ماجه – جزء ١ – ص ٣٩٢ – تحقيق محمد مصطفى الأعظمي •

(٧) الاستيعاب على هامش الإصابة ج ٢ – ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ •

(٨) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ١١٠ •

(٥) وعند شرحه لحديث " عَلَى رِسْلِكُما إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ (١) ... " قال: قال ابن دقيق العيد رحمه الله : " في الحديث دليل على التحرز مما يقع في الوهم نسبة الإنسان إليه مما لا ينبغي ... وهذا متأكد في حق العلماء ومن يقتدي بهم ، فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلا يوجب ظن السوء بهم وإن كان لهم فيه مخلص لأن ذلك سبب إلى إبطال الإنتفاع بعلمهم " (٢) (٣)

---

(١) مسلم ج ٤ ـ ص ١٧١٢ تحقيق فؤاد عبد الباقي .

(٢) احكام الاحكام شرح عمدة الاحكام ج ٢ / ٤٥

(٣) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ١٨٣ .

أما الطريقة الثانية فيأخذ معنى النص ومن أمثلة ذلك

(١) عند شرحه لحديث : "عَلَيْكُمْ بالصِّدْقِ فإنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلى البِر ..." (١)

قال : " قد كتب الله مقادير الأشياء قبل أن يخلق السموات والأرض وجفت الأقلام وجرت المقادير كما في الصحيح (٢) ، فهذه الكتابة كتابة أخرى من باب الجزاء للعامل على عمله يستحق بها صاحبها وصف الصديقين وثوابهم أو وصف الكذابين وعقابهم " (٣)

(٢) وفي شرحه لحديث توسل الرجل الضرير بالنبي صلى الله عليه وسلم (٤) قال " ومن هذا حديث البخاري في سؤال أم أنس ابن مالك من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو لأنس خادمه فدعا له ... " (٥) (٦)

(٣) وعند تفسيره لحديث اتباع رمضان بستة من شوال (٧) قال: " من صام رمضان وصام بعده ستة أيام من شوال كان ذلك من عمله كصيام الدهر ، لأن الله تعالى جعل الحسنة بعشر أمثالها ، فشهر رمضان بعشرة أشهر ، وستة أيام بعده بشهرين فذلك تمام السنة . وجاء هذا التفسير عند النسائي من طريق ثوبان مرفوعا . " (٨) (٩)

---

(١) مسلم ج ٤ — ص ٢٠١٢ ، ٢٠١٣ تحقيق فؤاد عبد الباقي ، والفتح ٥٠٧/١٠

(٢) المصدر السابق ج ٤ — ص ٢٠٤٠ .

(٣) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ١١٨ .

(٤) سيأتي تخريجه ص (٣٠٢-٣٠٣) .

(٥) فتح الباري ١٤٤/١١ ك: الدعوات ب: دعوة النبي صلّى الله عليه وسلّم لخادمه ..

(٦) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ٤٢ . وفيه استدلال ابن باديس بالحديث على الحديث بمشروعية أمر دل الحديث الأول عليه .

(٧) مسلم ج ٢ — ص ٨٢٢ تحقيق فؤاد عبد الباقي .

(٨) أشار المزي - في تحفة الأشراف (١٢٨/٢) - إلى أنه في السنن الكبرى

(٩) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ٥٥ .

ثانيـــــا

الطريقة التي اتبعها في تناول الحديث بالشرح

تناول ابن باديس نص الحديث بالشرح ضمن المباحث التالية :

(١) التمهيد : قبل دراسة الحديث دراسة تفصيلية يعطي للقارئ صورة عن المناسبة التي قيل فيها الحديث أو الملابسات التي أحاطت به أو إزالة إشكال لا يفهم الحديث إلا بإزالته أو توضيح غموض ... إلخ

(٢) السند : ويتعرض فيه لدراسة رجال السند أو ترجمة راو أو ذكر تعدد الطرق .

(٣) سبب الورود : يذكر السبب الذي أدى إلى قول هذا الحديث إن وجد .

(٤) المتن : ويذكر فيه اختلاف الروايات أو الزيادات ويبين الصحيح منها والضعيف والراجح والمرجوح .

(٥) المفردات : ويتعرض فيه لشرح الكلمات الغريبة .

(٦) التراكيب : يبين فيه الإعراب والوجوه البلاغية ومعاني الجمل .

(٧) المعنى : يصيغ المعاني التي وردت في الحديث بأسلوب سهل وعبارة جامعة مانعة يفهمها أي قارئ ، وأحيانا يفرع فروعا لبعض المسائل الهامة ، ويعنون لها بعناوين يشرح تحتها تلك المسائل ويزيدها بيانا .

(٨) الأحكام : يذكر فيه الأحكام المستفادة من الحديث في الأصول أو الفروع محللا ومدللا ومناقشا ومرجحا ومحققا وأحيانا يفرد مسائل بالبحث تحت عناوين بارزة وجذابة لأهميتها واستحقاقها لأن يوقف عندها .

ويستحسن أن أسوق شاهدا على طريقته في تناول الحديث :

عند شرحه لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إِذَا سَمِعْتَ الرجلَ يقولُ هَلَكَ الناسُ فهو أَهلكُهم" والذي ترجم له بقوله : " من رغب عن سنتي فليس مني " قال رحمه الله تعالى :

(١) السند :ـ

رواه مالك (١) عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة ومسلم (٢) عن يحيى بن يحيى عن مالك ٠

(٢) المتن :ـ

روي بوجهين ثابتين : الأول فهو أهلكُهم برفع الكاف : اسم تفضيل والثاني بفتح الكاف : فعل ماض ٠

(٣) الألفاظ :ـ

الهلاك : الإستحالة إلى الفساد وذهاب حالة الصحة والإستقامة التي تصدر عنها الفوائد ، ويكون بها الاستعداد ٠ يقال هلك زيد إذا مات وهلك الطعام إذا تغير واستحال ، فهلاك الناس فسادهم في أحوالهم بفساد عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم وذلك عنوان ذهابهم واضمحلالهم وأهلكُهم على الوجه الأول : أشدهم هلاكا ، وعلى الوجه الثاني : أوقعهم في الهلاك ٠

---

(١) شرح الزرقاني مج ٤ ص ٤٠٠ دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت ط ـ ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨م (باب ما يكره من الكلام) ٠

(٢) صحيح مسلم ـ كتاب البر والصلة ـ باب النهي عن قول : هلك الناس ج ٤ ص ٢٠٢٤ ـ تحقيق فؤاد عبد الباقي ٠ ولفظ مسلم :(إذا قال الرجل

(٤) المعنى :-

على الوجه الأول : إذا سمعت الرجل يقول هلك الناس : يعيبهم وينقصهم ويحقر من أمر جماعتهم فقد صار بذلك أعظم هلاكا منهم لا رتكابه معصية كبيرة تعدت إلى غيره وعمتهم وهي معصية الكبر الذي هو احتقار المرء من عداه فهذا قد تكبر على جميع الناس فكان عظم هلاكه على حسب عظم معصيته بهذا العموم في الكبر والاحتقار .

وعلى الوجه الثاني - إذا سمعت الرجل : يقول هلك الناس يثبطهم ويقنطهم فهو بذلك التثبيط والتقنيط أياسهم من رحمة الله و صدهم عن الرجوع إليه بالتوبة ودفعهم إلى الاستمرار فيما هم عليه ، فأوقعهم بكلمته تلك في الهلاك : هلاك البؤس والقنوط والاندفاع في الشر .

(٥) الأحكام :-

على الوجه الأول - لا يجوز الحكم على عموم الناس بالشر والفساد ولو كان ذلك ظاهرا بينهم فاشيا فيهم لأنه حكم بدون علم ، وظن سوء بمن قد يكون في غمار الناس على خلاف ما عليه أكثرهم . هذا إذا حكم حكما لمجرد الإخبار فأحرى وأولى إذا زاد على ذلك تحقيرهم .

وعلى الوجه الثاني - لا يجوز لمن رأى الناس في حالة سيئة أن يقنطهم من رحمة الله وإمكان تدارك أمرهم وإصلاح حالهم .

هذا إذا كان يحمله على ذلك ما تعظمه من سوء حالهم في ظاهر أكثرهم وأحرى وأولى إذا كان يحمله على ذلك صدهم وتثبيطهم عن التوبة والأخذ بأسباب الإصلاح .

(٦) توجيه :ـ

كان الحديث الشريف مفيدا لعدم الجواز لما ذكر لأنه سيق مساق الذم لهذا القول ووصف قائله بأنه أعظم الناس هلاكا أو أوقع الناس في الهلاك وما أدى إلى أحد هذين لا يكون إلا ممنوعا •

ويؤيد هذا الحديث في المنع الأدلة الدالة على منع الحكم بدون علم وظن السوء بالناس وتحقيرهم وتقنيطهم عن الخير وصدهم عنه •

(٧) تقييد وتعميم :ـ

قد يقول الإنسان : هلك الناس إشفاقا عليهم وتحزنا لما هم فيه فلا يكون مثل من قاله تحقيرا وتقنيطا ، غير أنه يبقى في عبارته ذلك التعميم الذي هو حكم بغير علم ، مع ما توقعه هذه العبارة من القنوط ـ خصوصا إذا تكررت ـ ولو لم يقصده القائل ، فلا ينبغي أن تقال هذه العبارة ومثلها من كل ما يفيد هلاك جميع الناس •

(٨) الآداب :ـ

على الوجه الأول ـ على من يريد أن يرشد المسلمين ويعمل لإصلاح حالهم أن ينظر إليهم بعين الشفقة والحنان لا بعين الزراية والإحتقار •

فإن الشفوق تدفعه شفقته إلى المبالغة في العناية بتتبع الأدواء واستقصاء أنواع العلاج ، بخلاف الزاري المحتقر فإنه يترفع بنفسه عن الناس ويتركهم فيما هم عليه ، وإن باشر شيئا من معالجتهم فإنه يباشره عن استثقال واشمئزاز لا يصل معهما إلى داء الأمة شيء من علاجه ولن يستطيع هو معهما صبرا على الاستمرار في عمله أو على إتقان القليل منه •

على أن الشفوق تشعر نفوس الأمة منه بتلك الشفقة فتقابله بمثلها وبالامتثال لما يأتيها منه لمعالجتها واثقة منه بنصحه منقادة لإرشاده راجية نيل الخير على يده ، والزاري المحتقر تشعر منه الأمة بذلك فتقابله بمثله وتنقبض نفوسها عنه وتقوى ريبتها في قوله وفعله وقد تصارحه ببعضه فتؤدي الحال بينهما إلى العداوة والمقاطعة ويكون خيرا له لو تركهم — من أول الأمر — وشأنهم .

وعلى الوجه الثاني : على مرشدي المسلمين أن يعانوا أدواءهم بالعلاجات النافعة ويشخصوها لهم عند الحاجة بالعبارات الرقيقة المؤثرة ، في رفق وهوادة مجتنبين كل ما فيه تقنيط أو تثبيط . وأن يعرفوهم بأنهم — وإن ساءت نواح من أحوالهم — فهنالك نواح ما تزال صالحة . وهنالك علاجات من الإسلام قريبة ناجعة ، وأن يعرفوا ما فيهم من فضائل وما لهم من مجد ، وما لهم بهذا الإسلام من قدر وعز ليثيروا فيهم النخوة ، ويبعثوهم على العمل والخير ، وإذا ذكروا لهم سيئاتهم ذكروا لهم قرب السبيل إلى النجاة منها بالإقلاع عنها فيسرعون بالتوبة والإنابة .

(٩) أصل عام في التربية :—

هذا الحديث أصل عظيم في التربية المبنية على علم النفسية البشرية ، فإن النفوس عندما تشعر بحرمتها وقدرتها على الكمال تنبعث بقوة ورغبة وعزيمة لنيل المطلوب ، وعندما تشعر بحقارتها وعجزها تقعد عن العمل وترجع إلى أحط دركات السقوط .

فجاء هذا الحديث يحذر من تحقير الناس وتقنيطهم وذلك يقتضي أن المطلوب هو احترامهم وتنشيطهم .

وهذا الأصل العظيم الذي عليه هذا الحديث الشريف يحتاج إليه كل مرب سواء أكان مربيا للصغار أم للكبار ، وللأفراد أم للامم ، إذ التحقير والتقنيط

وقطع حبل الرجاء قتل للنفوس نفوس الأفراد والجماعات وذلك ضد التربية ، والإحترام والتنشيط وبعث الرجاء إحياء لها وذلك هو غرض كل مرب ناصح في تربيته :

فاللهم صل على هذا النبي الكريم العظيم الرحيم الذي علمته ما لم يكن يعلم وكان فضلك عليه وعلينا به عظيما ، فكم من علوم وأسرار انطوت عليها أحاديثه الشريفة قد أتت على ما لم تعرفه البشرية إلا بعد حين ، ولا عجب فهو الذي أوتي جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصارا . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ." (1)

بعد أن سقت هذا النموذج الكامل الذي يبين بوضوح طريقة ابن باديس في تناوله لاي نص حديثي بالشرح ، وتظهر من خلاله المباحث التي يطرقها ، والمسائل التي يحرص على أن يتعرض لها ، يجدر بي الآن أن ألقي الضوء على بعض هذه المباحث بشيء من الشرح والتحليل والتمثيل .

أولا : السند :ـ

لا يتعرض لسند حديث مروي في الصحيحين أو في أحد الكتب التي يبين أصحابها درجة الحديث ، وإنما يتكلم على سند حديث لم يرو في الكتب التي اشترطت الصحة ولم يبين مخرجه درجته ، فيدرس رجاله معتمدا في ذلك على كتب التراجم المشهورة فيبين حالة كل راو ثم يحكم على الحديث ، وقد يتعرض لطرقه المختلفة إذا كان في ذلك فائدة كتقوية السند أو إضافة شيء من المتن .

وفي بعض الأحيان يترجم لراو واحد أو أكثر في سند صحيح لتعلق فهم الحديث بمعرفة شخصية ذلك الراوي .

وتارة يذكر مخرجي الحديث ومظان وجوده ، ويشرح كل ما يتعلق بالسند مثل قول الترمذي " حسن صحيح " .

---

(1) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ٧٨ ـ ٨٢ .

وأورد – فيما يلي – نموذجا واحدا من " مجالس التذكير من حديث البشير النذير" تظهر فيه طريقته التي سبقت الإشارة إليها :

قال: " قال أبو عيسى الترمذي " حدثنا محمود بن غيلان نا عثمان ابن عمر نا شعبة عن أبي جعفر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمان ابن حُنيف أن رجلا ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ادع الله أن يُعافِيَني ... " إلى آخر الحديث [١] ثم قال الترمذي (هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبي جعفر وهو غير الخطمي) ثم قال ابن باديس رحمه الله :

السند :–

محمود بن غيلان [٢] : ثقة من رجال البخاري ومسلم

عثمان بن عمر [٣] : هو ابن فارس العبدي المتوفى سنة ٢٠٩ هـ ثقة روى عنه الستة ، وهو الراوي عن شعبة ولهم عثمان [٤] بن عمر بن موسى التيمي متقدم غير هذا .

أبو جعفر : هكذا عند الترمذي غير منسوب وقال فيه " هو غير الخطمي " يعني أبا جعفر [٥] يزيد بن عمير الأنصاري الخطمي ، لكن ابن ماجة قال : "حدثنا أحمد بن منصور بن يسار ثنا عثمان بن عمر ثنا شعبة عن أبي جعفر المدني" [٦] إلى آخر السند والمتن فصرح بأن أبا جعفر هو المدني . وهذا هو أبو جعفر القاري يزيد بن القعقاع [٧] . قال ابن

---

(١) سيأتي تخريجه

(٢) تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٣) المصدر السابق ج ٧ ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٤) المصدر السابق ج ٧ ص ١٤٣ .

(٥) في التهذيب : عمير بن يزيد بن عمير ابن حبيب الأنصاري أبو جعفر الخطمي ج ٨ – ص ١٥١ .

(٦) سنن ابن ماجة ج ١ – ص ٢٥٢ تحقيق محمد مصطفى الأعظمي ، وفيه " سيار " بدل " يسار " .

(٧) التهذيب ج ١٢ ص ٥٨ .

سعد :كان ثقة قليل الحديث وكان إمام أهل المدينة في القراءة فسُمّي القاري لذلك •(١)

عمارة بن خزيمة بن ثابت(٢) : الأنصاري روى له أصحاب السنن الأربعة وثقه النسائي وابن حبان وابن سعد

عثمان بن حُنيف(٣) : هو الأنصاري الأوسي الصحابي المشهور

مخرجو الحديث :

رواه ابن ماجة في باب ما جاء في صلاة الحاجة من سننه(٤) والنسائي(٥) والحاكم(٦) والبيهقي(٧) وابن خزيمة(٨) والطبراني(٩) •

رتبة الحديث العلمية والعملية :

قال فيه الترمذي كما تقدم : حسن صحيح غريب • فالصحيح ما رواه العدل الضابط عن مثله إلى آخر سنده سالما من العلة والشذوذ فإذا خف الضبط في بعض رواته فهو الحسن •

وما يقول فيه أبو عيسى الترمذي " حسن صحيح " أقوى ما يقول فيه

---

(١) نفس المصدر والجزء والصفحة •

(٢) نفس المصدر السابق ج ٧ ـ ص٤١٦ •

(٣) مات في خلافة معاوية انظر الاصابة ج ٢ ـ ص ٤٥٩ •

(٤) سبق بيان موضعه •

(٥) عمل اليوم والليلة،تحقيق: د • فاروق حمادة ، ط : الافتاء ، ص٤١٧ •

(٦) ج ١ ـ ص٣١٣ •

(٧) دلائل النبوة،تحقيق: د • عبد المعطي قلعجي ،دار الكتب العلمية بيروت ط١ ج ٦ /١٦٦ •

(٨) ٢ / ٢٢٥ ك: الصلاة ب : صلاة الترغيب والترهيب •

(٩) المعجم الكبير ٩ /١٧ تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ،مطبعة الوطن العربي العراق •

" حسن " فقط ، لأن وصفه بالصحة مع وصفه بالحسن يفيد أن خفة الضبط في بعض رجاله تكاد لا تؤثر عليه حتى كأنها لم تحطه عن رتبة الصحيح التام . وأما الغريب فهو ما انفرد بروايته راو فقط . وإذا كان ذلك المنفرد ثقة فذلك الإنفراد لا يضر فالغرابة لا تنافي الصحة والحسن وغرابته جاءته من انفراد أبي جعفر به كما تقدم . وصححه أيضا ابن ماجه والحاكم والبيهقي والطبراني .

فبعد ما عرفنا من حال سنده وتصحيح هؤلاء الأئمة له حصل لنا العلم الكافي ــ وهو الظن الغالب ــ بثبوته . وحيث كان بهذه المنزلة من الثبوت فإنه صالح لا ستنباط الأحكام الشرعية العملية منه "(١) .

ثانيا : المتن :ــ

وإذا كان للحديث عدة روايات لا يورد منها إلا ما فيه شيء يوضح المعنى أو يكمل الصورة أو يزيل لبسا أو يرفع إشكالا أو يدفع تعارضا وما أشبه ذلك ، ثم إن كان بين الروايات شبه تعارض فانه يسعى لإزالته بالجمع أو الترجيح ، وأحيانا يأتي بأحاديث أخرى تؤيد حديث الباب وتعضده .

ومن الأمثلة التي توضح ذلك قوله ــ عند شرحه لحديث ربيعة بن كعب الأسلمي :(كنتُ أَبيتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيتُه بوَضُوئه وحاجَتِه فقال لي : سَلْ ، فقلت أسألُكَ مرافقَتَك في الجَنَّة ، قال : أَوَغيرَ ذلك ؟ قلت : هو ذاك ، قال فأَعِنّي على نفسِكَ بكثرة السجودِ) رواه مسلم(٢) واللفظ له وأبو داود(٣) والطبراني(٤) في الكبير .

---

(١) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ٣٩ .

(٢) ج ١ ــ ص ٣٥٣ تحقيق فؤاد عبد الباقي .

(٣) مختصر سنن أبي داود للمنذري ج ٢ / ٩٤ أبواب قيام الليل

(٤) المعجم الكبير ٥ / ٥٠ تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، الدار العربية للطباعة بغداد .

زيادة بيان :ـ

قد جاء هذا الحديث عند الطبراني بأبسط (١) من رواية مسلم وذكر الرواية المطولة يوضح لنا الرواية المختصرة ، ورواية الطبراني كما في " الترغيب والترهيب" (٢) هي هذه : " قال كعب : كنتُ أخدمُ النبي صلى الله عليه وآله وسلم نَهاري فإذا كانَ الليلُ آويتُ إلى بابِ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فَبِتُّ عِنْدَه . فلا أَزالُ أَسْمَعُهُ يَقولُ : سُبْحانَ اللهِ ، سُبْحانَ اللهِ ، سُبْحانَ رَبِّي حَتَّى أَمَلَّ أو تَغْلِبَنِي عَيْنِي فَأَنام . فقالَ يومًا : يا رَبِيعَةُ سَلْنِي فَأُعْطِيكَ فَقُلْتُ أَنْظِرْنِي حَتَّى أَنْظُرَ ، وَذَكَرْتُ أَنَّ الدُّنْيا فانيةٌ مُنْقَطِعَةٌ فَقُلْتُ يا رَسولَ اللهِ أَسْأَلُكَ أَنْ تَدْعُوَ اللهَ أَنْ يُنجِيَني مِنَ النَّارِ وَيُدْخِلَنِي الجَنَّةَ فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم ثُمَّ قَالَ : مَنْ أَمَرَكَ بِهَذا ؟ قُلْتُ : ما أَمَرَني بِهِ أَحَدٌ وَلَكِنِّي عَلِمْتُ أَنَّ الدُّنْيا مُنْقَطِعَةٌ فانِيَةٌ وَأَنْتَ مِنَ اللهِ بِالْمَكانِ الذي أَنْتَ مِنْهُ فَأَحْبَبْتُ أَنْ تَدْعُوَ اللهَ لي ، قالَ إِنِّي فاعِلٌ فَأَعِنِّي عَلى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ "

ثم قال ابن باديس رحمه الله :

" النظر في الروايتين

بينت المطولة أنه كان يخدمه بالنهار والليل ، وأنه ما سأل إلا بعد النظر والتفكر ، وأنه لم يسأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يعطيه الجنة وإنما سأله أن يدعو الله تعالى له لعلمه أن دعاءه مستجاب والنبي صلى الله عليه وآله وسلم وعده بأنه يفعل ما طلبه منه وهو دعاء الله تعالى له . غير أن الرواية المطولة فيها أنه سأل النجاة من النار ودخول الجنة ، والرواية المختصرة فيها أنه سأل مرافقته له في الجنة وهي أخص من مطلق الدخول "

---

(١) أي بأوسع .

(٢) ١١٩/١ ك: الصلاة

ثم قال ابن باديس رحمه الله :

" الجمع والترجيح

كل ما في المطولة مما هو زائد على المختصرة غير معارض لشيء فيها ، فهو مع المختصرة حديث واحد روي مطولا مختصرا وإن تفاوتت طريقاه . وما جاء فيها معارضا لشيء في المختصرة فهو سؤال دخول الجنة المعارض لسؤال المرافقة ، فإننا نأخذ بما في المختصرة ترجيحا لها لقوة سندها "(1)

ثالثا : المفردات :-

منهجه في شرح المفردات يرتكز على القواعد الآتية :

(١) إذا ورد للكلمة شرح نبوي في حديث آخر اقتصر عليه دون ذكر للخلاف مثل قوله - عند حديث " من صَامَ رمضانَ ثم أَتبعَه سِتا من شَوال كان كصيام الدهر "(2) -: " الدهر : أصل معناه مدة الدنيا ويطلق على أمد من الزمان قل أو كثر والمراد به هنا : السنة كما جاء مصرحا به في بعض روايات الحديث "(3) .

(٢) إذا لم يرد من السنة ما يبين المراد وجاء تفسير عن أحد الأعلام اعتمده مثل قوله - عند حديث "إِياكُم والدُّخُولَ على النِّسَاءِ فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله أفرأيت الحموَ ؟ قال الحَمْوُ الموت "(4) : " الحمو : على وزن دلو : قال الليث بن سعد هو أخ الزوج وما أشبهه

---

(١) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ٤٨ - ٥٥١

(٢) سبق تخريجه ص (٣٠٦) .

(٣) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ٥٤ وانظر ايضا ص ٦٩ .

(٤) فتح الباري ٩/٣٣٠ ك : النكاح ب : لا يخلون رجل بامرأة الا ذو محرم ومسلم بشرح النووي ١٤/١٥٣ ك : السلام ب : تحريم الخلوة بالأجنبية

من أقارب الزوج ابن العم ونحوه، فالأحماء أقارب الزوج والأختان أقارب الزوجة، والأصهار يقال عليهما ".(١)(٢)

(٣) وأما إذا لم يرد تفسير من طريق السنة أو من طريق الأعلام الذين قولهم حجة فإنه يرجع إلى أصل الكلمة كقوله – في شرح كلمة " وبارك على محمد" من الصلاة الإبراهيمية –: " وأما البركة المطلوبة في جميعها أيضا فهي لغة –: النماء والزيادة والمقصود هنا: زيادة الخير والكرامة وتكثير الأجر والمثوبة".(٣)(٤)

(٤) فإن احتمل اللفظ عدة تفسيرات كلها تليق بالمقام ولا تعارض بينها ولا مرجح بل ترجع إلى أصل واحد اعتبرها جميعا كقوله – عند شرح "اللهم صل على محمد" من الصلاة الإبراهيمية –: " قد تنوعت عبارات العلماء سلفا وخلفا في تفسير صلاته تعالى على من ذكر من خلقه ففسرت بالرحمة... وفسرت بالمغفرة، وفسرت بثنائه عند الملائكة على المصلى عليه – من باب ذكرته في ملأ خير منه –(٥) وفسرت بإعطائه وإحسانه، وفسرت بتعظيمه ولا خلاف في الحقيقة بين هذه التفاسير فإن مغفرته من رحمته وإن ثناءه من رحمته وإن إعطاءه وإحسانه من رحمته وإن تعظيمه من رحمته فرجعت كلها إلى تفسيرها بالرحمة".(٦)

---

(١) صحيح مسلم، نفس المصدر السابق والجزء والصفحة

(٢) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ١٧٨.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ٤/١٢٣–١٢٥ ك: الصلاة. ب: الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

(٤) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ٢٣٣.

(٥) فتح الباري ١٣/٣٨٤، ك: التوحيد، ب: قول الله تعالى (ويحذركم الله نفسه).
وصحيح مسلم بشرح النووي ١٧/١٢، ك: الذكر، ب: فضل الذكر والدعاء وحسن الظن.

(٦) مجالس التذكير من حديث البشير النذير، ص ٢٢٠.

(٥) فإذا كان لا بد من الترجيح بين المعاني فإنه يعتمد على وسائل متعددة منها : النص، الأصل، العموم، السياق، الظاهر، وغيرها :

وهذه نماذج على ذلك :

(أ) عند شرحه لحديث الثلاثة الذين دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يُعَلِّم أصحابه في المسجد، فجلس أحدهم في فرجة والثاني خلف الحلقة وذهب الثالث حتى قال صلى الله عليه وسلم " أَمَّا أَحَدُهُم فَأَوَى إِلَى اللَّهِ فَآوَاهُ اللَّهُ، وأَمَّا الآخَر فاستَحْيَا فاسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ، وأما الآخر فأعرضَ فأعرضَ اللَّهُ عنه"[١] قال رحمه الله تعالى : " فسر بعضهم استحياء الثاني بأنه لم يدخل للحلقة وفسره آخرون بأنه استحيا من الذهاب عن المجلس، والتفسير الثاني أرجح، لأن سد الفرجة مطلوب فلا يمدح بالاستحياء منه . ولأنه جاء في رواية أنس عند الحاكم[٢] " ومضى الثاني قليلا ثم جاء فجلس" وهذا نص في المراد"[٣] .

(ب) أثناء كلامه عن كلمة (الصلاة) الواردة في الصلاة الإبراهيمية قال : " لو قلنا بعد هذا : إن الصلاة لها معنيان : الدعاء والرحمة لكانت من باب المشترك والاشتراك خلاف الأصل، فلذا نقول كما قال جماعة من المحققين : إن الصلاة معناها واحد وهو الدعاء"[٤]

(ج) عند شرحه لكلمة (آل) من الصلاة الإبراهيمية قال : " ومن فسره بالأتباع رأى

---

(١) فتح الباري ١/١٥٦، ك:العلم، ب:من قعد حيث ينتهي به المجلس . وصحيح مسلم بشرح النووي ١٤/١٥٧ ـ ١٥٩، ك:السلام، ب: الجلوس في المجلس .

(٢) المستدرك ٤/ ٢٥٥ .

(٣) مجالس التذكير من حديث البشير النذير، ص ٦٩ .

(٤) المصدر السابق، ص ٢٢٠ .

أن اتباعه بالإيمان به أمر لا بد منه في الدخول تحت لفظ الآل هنا ، فإنه من كان من أقاربه غير متبع له — كأبي لهب — غير داخل في لفظ الآل هنا قطعا • فحمل اللفظ على الأتباع لأنه المعنى المشتمل على الوصف الذي لا بد منه في هذا المقام ورأى أيضا أن هذا المعنى أعم فهو الأنسب بمقام الدعاء • وكما أن مساق حديث الصدقة [(١)] عين معنى الأقارب هنالك كذلك مقام الدعاء يرجح معنى الأتباع هنا ولا معارضة بين الروايات التي فيها لفظ الآل مرادا به الأتباع والرواية التي فيها الأزواج والذرية لأن تلك جاءت بالمعنى العام وهذه خصصت بالذكر نوعا من ذلك العام لمزية فيه ••• " ثم يقول " ولهذه الأدلة نرى هذا التفسير أرجحها " [(٢)] •

(٦) كان يستشهد بالشعر زيادة عن القرآن والحديث في بيان معاني الألفاظ كقوله عند كلامه عن كلمة (آل) : " ومنه قول الأعشى

فَكَذَّبُوهَا بِمَا قَالَتْ فَصَبَّحَهُمْ ٭ ذُو آلِ حَسَّانَ يُزْجِي السُّمَّ والسلعا [(٣)]

وأكثر استشهاده من الشعر الجاهلي ، والشعر الإسلامي • [(٤)]

(٧) وأكثر اعتماده في المعاجم على اللسان والصحاح

رابعا : التراكيب :- ويتعرض فيها للإعراب والبلاغة ومعاني الجمل

الإعراب :—

يمكن أن أجمل القواعد التي سار عليها في المسائل النحوية والصرفية والإعرابية في النقاط التالية •

(أ) لا يعرب إلا إذا كان هناك داع للإعراب كإيضاح المعنى •

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٧/١٧٧ـ١٧٩ ك: الزكاة ب: ترك استعمال آل النبي صلى الله عليه وسلم على الصدقة •

(٢) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ٢٣٦ ، ٢٣٧ •

(٣) وفي الديوان " يزجي الموت والشرعا " ص ١٠٦ والشرع ، الواحدة شرعة : حبالة الصيد ، والبيت من قصيدة له في مدح هوذة بن علي الحنفي • يزجي : يسوق الصحاح ٦/٢٣٦٧ السلع : قال ابن منظور : السلع السَّم

(٤) المراد صدر الاسلام

(ب) لا يتوسع في الإعراب ولا يذكر الخلاف بين النحاة بل يقتصر على الوجوه المحتملة الراجحة فيعتبرها جميعا أو يرجح .

(جـ) لا يلجأ إلى التكلف في الإعراب .

(د) المحذوف المقدر يتحدد عنده تبعا لسياق الكلام .

(هـ) يرجح ما يتلاءم مع ظاهر اللفظ ولا يلجأ إلى التقدير .

(و) كثيرا ما يتبع الإعراب بشرح توضيحي مع الدليل .

وهذه نماذج توضح ذلك .

(١) من حديث الترمذي عن عثمان بن حُنيف أن رجلا ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ادع الله أن يُعافيَني . قال إن شئتَ دعوتُ وإن شئتَ صبرتَ فهو خير لك . قال : فادعهُ ، قال : فأمره أن يتوضأ فيُحسِن وُضُوءه ويدعو بهذا الدعاء : " اللهم إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيك محمدٍ نبي الرَّحمة إني توجّهتُ بك إلى ربي في حاجتي هذه لتُقضى لي اللهم فشفّعه فيَّ ... "(١)
قال ابن باديس رحمه الله " قوله ، إني أتوجه بك يحتمل أن يكون على ظاهره فالسؤال والتوجه والتوسل بذات النبي صلى الله عليه وسلم ويحتمل أن يكون على تقدير مضاف هكذا : " بدعاء نبيك " في العبارة الأولى و " بدعائك " في العبارة الثانية ... " ثم يقول " الراجح هو الأول .. لأن ذلك هو ظاهر اللفظ ولا موجب للتقدير "(٢)

(٢) عند حديث ربيعة بن كعب الأسلمي السابق الذكر(٣) ، تعرض الإمام لإعراب جملة (أوْ غير ذلك) فقال :

---

(١) سبق تخريجه ص (٣٠٢-٣٠٣)

(٢) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٣) ص (٣٠٤)

" أوْ : على وجه تسكينها هي (أوْ) التي للتخيير أو للإضراب وعلى وجه فتح الواو هما كلمتان : همزة الاستفهام والواو العاطفة . (غير) معطوف على مرافقتك من عطف لفظ في كلام على لفظ في كلام آخر عندما يقصد المتكلم ربط كلامه بكلام المتكلم قبله لنحو تلقينه فيكون مجموع الكلام هكذا : " أسألك مرافقتك في الجنة أو غير ذلك " والكلام وإن كان خبرا فهو في قوة الطلب ولذلك كانت (أو) للتخيير . هذا كله على وجه (أو) التي للتخيير ، وأما إذا كانت للإضراب فتقدير الكلام : بل أسأل غير ذلك .

وأما إذا كانت الهمزة للاستفهام فإن الواو عطفت جملة على جملة وتقدير الكلام : (أتتركُ ما سألتَ وتسألُ غيرَ ذلك ؟)

والاستفهام هنا المراد به الطلب : يطلب منه أن يترك سؤال المرافقة ويسأل غيره . "(١)

(٣) عند حديث "إنما الأعمال بالنيات .."(٢) قال رحمه الله : " بالنيات " يتعلق بمحذوف تقديره : "معتبرة" ودل على هذا المتعلق الخاص ما جاء بعده من التفصيل بين الهجرتين والمقام الذي ألقيى فيه الكلام "(٣).

البلاغة :

(أ) بنفس طريقته فيما سبق ، لا يتعرض للوجوه البلاغية إلا على قدر الحاجة كتوضيح المعنى أو بيان المستوى الرفيع للأسلوب النبوي الشريف .

---

(١) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ٤٩ .

(٢) سبق تخريجه ص ٢٩٢

(٣) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ٦٠ .

(ب) يربط بين الناحية الشكلية للمسألة البلاغية والناحية المعنوية أي يبين أثر الوجه البلاغي في دقة المعنى أو وضوحه أو عمقه أو شموليته وعمومه وهكذا حتى لا تبقى تلك القواعد البلاغية ـ لدى طالب العلم أو القارئ عموما ـ عبارة عن نظريات جافة لا يعرف لها أثرا في واقع الكلام العربي • ولهذا كان يكثر من الشرح الذي يبين به علاقة الوجه البلاغي بالمعنى الذي يريده المتكلم صلى الله عليه وسلم •

ويقتصر على الرأي الراجح والمشهور لدى علماء البلاغة دون تعرض منه لوجوه الاختلاف إلا إذا كان لوجه معين سند من الدليل فإنه يذكره ويبسط القول فيه مبينا اعتباره •

وهذه نماذج توضح ذلك •

(أ) قال ـ عند شرح حديث ربيعة بن كعب الأسلمي السابق ـ (١) : "حذف مفعول (سل) للتعميم وهو المناسب لمقام الإفضال في النوال" (٢)

(ب) قال ـ عند شرح حديث "إنما الأعمال بالنيات" (٣) ـ : "إنما للحصر والمحصور فيه هو الجار والمجرور ، وما أفادته الباء من معنى السببية أي لا سبب تعتبر به الأعمال إلا النيات نظيره : إنما زيد قوي بقومه أي لا سبب لقوته إلا قومه ، فأفاد التركيب حصر اعتبار الأعمال في نياتها والمقصود بها لا في صورها وظواهرها" (٤) •

---

(١) انظر ص (٣٠٤)

(٢) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ٤٩ •

(٣) سبق تخريجه ص (٢٩٣) •

(٤) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ٦١ •

(جـ) قال ـ عند شرح حديث " المؤمن للمؤمن كالبنيان ٠٠ "[١] ـ : " الجملة الأولى خبرية لفظا طلبية معنى أي ليكن المؤمن للمؤمن كالبنيان ، وجيء بالطلب على صورة الخبر تنبيها على أن هذا المطلوب هو الشأن الذي لا ينبغي أن يكون سواه فهو بحيث يخبر عنه لا أن يطلب والجملة الثانية استئنافية لبيان وجه التشبيه "[٢] ٠

(د) قال ـ عند شرح حديث " عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر ٠٠ "[٣] " عبر بالمضارع في " يصدق " و " يكذب " و " يتحرى " ليفيد التجدد وأن ذلك هو شأنه الذي يتكرر منه "[٤] ٠

(هـ) قال ـ عند شرح حديث " إياكُم والدخولَ على النِّساءِ ٠٠٠ "[٥] " الحمو : الموت تشبيه بليغ كزيد أسد ٠ وفي الموت استعارة تصريحية ، شبه فساد البيوت وخرابها وانحلال روابطها بالموت بجامع الهلاك والزوال في كل فجاء ـ عليه وعلى آله الصلاة والسلام بهذا التركيب البليغ البالغ

---

(١) وتمامه " يشدّ بعضه بعضا ثم شبك بين أصابعه " فتح الباري ٥/ ٩٩ ك : المظالم ب : نصر المظلوم ٠ وصحيح مسلم بشرح النووي ١٦/ ١٣٩ ك : الايمان ٠

(٢) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ٩٩ ٠

(٣) وتمامه " ٠٠ وإن البِرَّ يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يَصْدُق ويَتَحَرّى الصِدق حتى يُكتب عند الله صِدّيقا ، وإياكم والكذبَ فإن الكذبَ يهدي إلى الفجورِ وإن الفجور يهدي إلى النار ٠ وما يزال الرجل يكذب ويَتَحَرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذابا " الفتح ١٠/ ٥٠٧ ك : الأدب ب : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين " ومسلم بشرح النووي ١٦/ ١٦٠ ك : البر والصّلة ب : قبح الكذب ٠

(٤) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ١١٦ ٠

(٥) سبق تخريجه ص (٣٠٦) ٠

للمبالغة في التحذير والبلوغ إلى غاية التأثير "[1].

(و) قال ـ عند شرح حديث " رُوَيْدَكَ سَوْقَكَ بِالْقَوَارِير ... "[2]:

" ولما كان يدعوه إلى الرفق اقتضى الحال أن يعبر عن المطلوب الرفق به ـ وهن النساء ـ بالقوارير على طريق الاستعارة التصريحية حيث شبههن بها بجامع الرقة واللطف والضعف، وحذف لفظ المشبه وذكر لفظ المشبه به فكانت اللفظة المجازية بالغة غاية البيان عن حالة النساء، وكان التركيب بها بالغا غاية البلاغة باشتماله على ما اقتضاه حال الدعاء إلى الرفق مما صورهن بصورة تدعو إلى الرفق وتستوجبه[3].

خامسا : الأحكام :ـ

يتعرض ـ عند شرحه لأي حديث ـ لبيان الأحكام المستنبطة منه سواء كانت في الأصول أو الفروع، وبالتأمل في كل الأحاديث التي شرحها وهي بين أيدينا نلاحظ أنها أحاديث عقائد وأخلاق وآداب لا أحاديث أحكام فقهية، وسبب هذا أنه كان يتعمد نشر هذا النوع من الأحاديث في مجلة "الشهاب" لإصلاح الفرد والمجتمع وتظهر له طريقتان في بحث أحاديث الفقه والعقائد

تتمثل الطريقة الأولى في الاقتصار على سرد الفوائد والأحكام من الحديث الواحد بعد الآخر دون بحث أو تدليل أو نقاش وتشعب ويشبه في هذا إلى حد كبير الشيخ الداعية محمد ابن عبد الوهاب في كتابه (التوحيد). وهذه الطريقة هي الأكثر اتباعا :

أما الطريقة الثانية فتتمثل في التوسع في بعض المسائل بالبحث والتحقيق عندما تدعو الضرورة لذلك

---

(١) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ١٧٨. (٢) النص الكامل كما جاء في البخاري: "ويحك يا أنجشة، رويدك سوقا بالقوارير" ـ فتح الباري ١٠/٥٣٨، ك: الأدب ب: ما يجوز من الشعر. ومسلم بشرح النووي ١٥/٨٠، ك: الفضائل، ب: رحمته صلى الله عليه وسلم بالنساء والرفق بهن.

(٣) مجالس التذكير من حديث البشير النذير، ص ٢٧٥.

وهو في كل لا يترك الوسائل تطغى على المقاصد ، ويحرص على ربط الفروع بأدلتها ، ناصرا لمذهب السلف في العقائد ولما أيدته الأدلة من الأحكام الفقهية غير متعصب لمذهب بعينه .

وهذه بعض النماذج توضح ذلك .

(أ) قال ـ عند شرح حديث " أَمَا وَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ لَأَعْرِفُهَا لَكُمْ : قولوا : ماشاء الله ثم شاء محمد "[1] ـ :

" الأحكام :ـ

أفاد الحديث :

النهي عن القرن بين مشيئة الخالق ومشيئة المخلوق بالواو وجواز القرن بينهما بـ (ثم)

وأثبت للمخلوق مشيئة ولكنها مقيدة ومتأخرة بخلاف مشيئة الخالق فإنها سابقة ومطلقة مستقلة " وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ "[2] .

وأفاد أن القرن بين مشيئة الخالق ومشيئة المخلوق شرك وأن من فعل ذلك يقال له قد أشركت لأنه لما قُصت عليه الرؤيا وفيها قوله : " لولا أنكم تشركون " أقر ذلك ولم ينكره .

وأن كلمة الشرك لا يجوز أن تقال ولو كان قائلها لا يعتقد المساواة بين الخالق والمخلوق ، كما هو حال الصحابة الذين لا يشك في علمهم بذلك .

وأن قائل كلمة الشرك هذه وإن كان يقال له : أشركت كما تقدم ـ لا يخرج بذلك من الإيمان حيث كان لا يعتقد التسوية .

---

(١) والنص الكامل له كما جاء في سنن ابن ماجه : عن حذيفة بن اليمان ، أن رجلا من المسلمين رأى في النوم أنه لقي رجلا من أهل الكتاب فقال : نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون ، قال تقولون : ماشاء الله وشاء محمد ، وذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم : .. إلخ الحديث كما هو في الصلب .
انظر : صحيح ابن ماجة ، ج ٣٦٢/١ ، بترتيب الشيخ ناصر الدين الالباني .

(٢) سورة التكوير ، ٢٩ .

فإنه لم يحكم بردتهم بتلك الكلمة وإنما نها هم عن قولها "(١)

(ب) قال ـ عند شرح حديث " " دخول النبي صلى الله عليه وسلم على أم حَرَام بنت مَلْحان فأطعمته وجلست تَفْلي في رأسه فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ثم استيقظ وهو يضحك قالت فقلت : ما يضحكك قال : ناس من أمتي عُرِضوا عليَّ غُزاة في سبيل الله يركبون ثَبَجَ(٢) هذا البحر ملوكا على الأَسِرة أو مثل الملوك على الأسرة ـ يشك إسحاق ـ قالت : فقلت : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم ، فدعا لها ثم وضع رأسه فنام ثم استيقظ يضحك قالت فقلت : يا رسول الله ما يضحكك قال أناس من أمتي عُرِضوا عليَّ غزاة في سبيل الله ملوكا على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة كما قال في الأولى قالت فقلت يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم قال أنت من الأولين قال : فَرَكِبَتِ البحر في زمان معاوية بن أبي سفيان فَصُرِعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت"(٣) .

الأحكام :ـ

فيه :

دخول الرجل على محرمه دون حضور الزوج .

وفيه سنة إطعام الزائر .

وفيه تصرف المرأة فيما تحت يدها من مال زوجها من الطعام بالمعروف .

---

(١) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ١١٢ .

(٢) ثبج البحر : وَسَطُهُ وهو مُعْظَمُه ومحل هَوْله انظر الصحاح ـ ج ١ ـ ص ٣٠١

(٣) فتح الباري ٦/١٨ ، ك: الجهاد ، ب: فضل من يصرع في سبيل الله فمات فهو منهم . وصحيح مسلم بشرح النووي ١٣/٥٧ ، ك: الإمارة ، ب: فضل الغزو في البحر .

(٤) ورد عن العلماء أقوال كثيرة في تعليل جواز مباشرة أم حرام لرسول الله صلى الله عليه وسلم منها قول ابن عبد البر أنها من محارمه بالرضاعة . انظر : الفتح ١١/٨٠ ك الاستئذان ب : من زار قوما

وفيه مباشرة محرم الرجل له في غير العورة

وفيه سنة القيلولة .

وفيه سنة إظهار السرور بالنعم والطاعات .

وفيه جواز سؤال من بدر منه ما لا يعرف سببه

وفيه الاهتمام بكل ما يصدر منه صلى الله عليه وسلم .

وفيه جواز ركوب البحر .

وفيه جواز التوسع بالحلال .

وفيه فضل الغزو في البحر .

وفيه سؤال الشهادة .

وفيه سنة طلب الدعاء ممن ترجى إجابته .

وفيه الدعاء ممن طلب منه .

وفيه غزو النساء مع الرجال "[1] .

(ج) قال — عند شرحه لحديث الأعمى الذي طلب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله له ليشفيه .. —[2] : " ثم إنه توسل : بذاته بحسب مقامه عند ربه ، وهذا على الوجه الأول[3] من الوجهين المتقدمين في فصل التراكيب أو توسل بدعائه وهذا على الوجه الثاني منهما ، فمن أخذ بالوجه الأول قال يجوز التوسل بذاته ومن أخذ بالوجه الثاني قال إنما يتوسل بدعائه ، ثم

---

(١) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ١٣٤ — ١٣٥ .

(٢) سبق تخريجه ص (٣٠٣) .

(٣) انظر ص (٤٠-٤١) . من المصدر السابق .

ان من أخذ بالوجه الأول فهذا الدعاء حكمه باق بعد وفاته كما كان في حياته ، ومن أخذ بالوجه الثاني لا يكون بعد وفاته لأن دعاءه انما كان في حياته لمن دعا له. فالوجهان المتقدمان ـ كما ترى ـ هما مثار الخلاف في جواز التوسل بذاته وعدم جوازه ، فمن أخذ بالوجه الأول جوز ، ومن أخذ بالثاني منع .

سؤال : فان قلت قد عرفنا القولين وعرفنا مدركهما فما هو الراجح عندك منهما .

جوابه : الراجح هو الوجه الأول الذى يجوز السؤال بذات النبى صلى الله عليه وآله وسلم نظرا لمقامه العظيم عند ربه لوجهين : الأول : ان ذلك هو ظاهر اللفظ ولا موجب للتقدير ولا منافاة بين أن يكون في قوله " اسألك وأتوجه اليك بنبيك " وقوله " اني توجهت بك " قد سأل بذاته ، وفي قوله اللهم شفعه في "[1] قد سأل قبول دعائه له وسؤاله ـ والثاني انه لما كان جائزا السؤال من المخلوقين بماله مقام عظيم عندهم فلا مانع من أن يسأل الله تعالى بنبيه بحسب مقامه العظيم عنده .

سؤال آخر : بعد مارجحت جواز التوسل بذاته صلى الله عليه وسلم نظرا لمقامه العظيم عند الله تعالى ، فهل يقاس عليه غيره من كل ذى مقام عند الله تعالى فيتوسل به أو يكون هذا مقصورا عليه ؟

جوابه : القياس في باب العبادات ضعيف واذا ارتكب هنا فلا يقاس عليه الا كل ذى مقام محقق عند الله تعالى .

سؤال آخر : بعد ما عرفنا حكم سؤال الله تعالى بأهل المكانة عنده من مخلوقاته فهل الأفضل هو سؤاله بمخلوقاته أو سؤاله بأسمائه وصفاته وأعمال العبد في طاعاته ؟

جوابه : الأفضل هو سؤاله تعالى بأسمائه وصفاته وأعمال العبد في أنواع طاعاته وذلك لوجهين : الأول : أن ذلك هو مقتضى النص القرآني الصريح القطعي

---

(١) انظر نص الحديث ص: ٣١٠ .

في قوله تعالى : " وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فادْعُوهُ بها " [(١)] ويشمل ذلك تسميته بها ونداءه بها وسؤاله بها . الوجه الثاني : ما جاء في السنة العملية في أحاديث كثيرة ثابتة مستفيضة كان سؤاله تعالى فيها كلها بأسمائه وصفاته ، منها حديث (أسألك بكُلِّ اسم هو لكَ سَمَّيْتَ به نفسَك) رواه أحمد في [(٢)] مسنده عن عبدالله بن مسعود ومنها حديث رجل كان يصلي في المسجد فقال : اللهم إني أسألك بأنَّ لكَ الحمدَ لا إله إلا أنت الحَنَّان المَنَّان بَديع السَّموات والأَرض يا ذا الجَلالِ والإِكْرام يا حيُّ يا قيومُ أسألك .... فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم دَعا اللَّهَ باسْمِه الأَعظَم الذِي إِذَا دُعي به أجَابَ وإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى . رواه أصحاب السنن الأربعة [(٣)] من طريق أنس .

ومنها حديث ، إني أَسأَلُك بعِلمِكَ الغَيْبَ وَقُدرَتِك عَلَى الخَلْقِ ، رواه النسائي [(٤)] والحاكم [(٥)] من طريق عمار بن ياسر ، وهكذا سائر الأحاديث التي جاءت في هذا الباب كلها متواردة على دعاء الله تعالى بأسمائه وصفاته . وهي كلها تحقيق وبيان لقوله تعالى " ولِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فادْعُوهُ بِهَا . " هذا كله في دعائه تعالى بأسمائه وصفاته وأما ما جاء في دعائه والتوسل إليه بعمل العبد في أنواع طاعاته فمنها حديث بريدة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سمع رجلا يقول : اللَّهُمَّ إني أَسأَلُكَ بِأَنِي أَشْهَد (والشهادة عمل العبد) أَنَكَ أَنتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ الأحد الصَّمَد الذي لم يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَه كُفُوًا أَحد . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ بِالاسْمِ الأَعْظَمِ الذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى وَإِذَا دُعِي به أَجاب . رواه أبو داود [(٦)] والترمذي [(٧)] وحسنه وابن ماجه [(٨)] وابن حبان في [(٩)] صحيحه والحاكم [(١٠)] إلا أنه قال : لقد دعوت الله باسمه الأعظم وقال صحيح على شرط الشيخين ، قال

---

(١) الاعراف ١٨٠ (٢) صحيح : المسند (٥/٢٦٦ : أحمد محمد شاكر) والتوسل (ص ٣٠) للالباني (٣) مختصر ابي داود للمنذري (٢/١٤٥) والترمذي شرح التحفة ٩/٥٢٩ وابن ماجة بتحقيق الاعظمي ٢/٣٤٧ والنسائي ٣/٤٤ ك: السهو ب: الدعاء بعد الذكر . وهو صحيح انظر التوسل للالباني ص ٣٠ (٤) النسائي (٣/٤٦) ك: السهو ب: الدعاء (٥) المستدرك (١/٥٢٤) ك: الدعاء صححه الحاكم ووافقه الذهبي قال الالباني في التوسل ص ٢٩ : وهو كما قالا» (٦) مختصر سنن ابي داود (٢/١٤٤) أبواب الوتر باب الدعاء (٧) شرح التحفة (٩/٤٤٥) (٨) ابن ماجة تحقيق الاعظمي (٢/٣٤٦ ـ ٣٤٧) وصححه الالباني في صحيح سنن ابن ماجة (٢/٣٢٩) (٩) صحيح ابن حبان (٢/١٢٥) ك الرقائق ب: الادعية
(١٠) المستدرك (١/٥٠٤) كتاب الدعاء

الحافظ عبد العظيم المنذري[1]: قال شيخنا الحافظ أبو الحسن المقدسي : رإسناده لا مطعن فيه. ومنها حديث الثلاثة الذين آووا إلى غار فانحطت على فم غارهم صخرة

من الجبل فانطبقت عليهم فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالا عملتموها صالحة لله فادعوا الله تعالى بها لعله يفرجها عنكم فدعا أحدهم ببروره والديه فانفرجت منها فرجة، ودعا الثاني بعفته عن الزنا بعد ما كاد فانفرجت فرجة، ودعا الثالث بوفائه لأجيره فانفرجت البقية، وهذا حديث صحيح مشهور رواه الشيخان وغيرهما[2]. ومن ذلك حديث سارة زوج إبراهيم عليه السلام لما مد الجبار الظالم إليها يده يريدها على السوء، قامت توضأ وتصلي وقالت "اللهم إن كنتُ آمنتُ بك وبرسولك وأحصنتُ فَرْجي إلاَّ على زوجي فلا تُسَلِّط عَلَيَّ الكافر" فغط حتى ركض برجله، فقالت: "اللهم إن يَمُت يقال هي قَتَلَتْه" فأُرسل فعاد إليها وعادت إلى الدعاء كالمرة الأولى، وفي الثانية تركها وقال: أرجعوها إلى إبراهيم رواه مفصلا البخاري[3] في كتاب البيوع من صحيحه من طريق أبي هريرة فانظر إليها كيف توسلت لربها بإيمانها الذي هو أشرف أعمالها، وبعفتها وإحصانها لفرجها ولم تتوسل إليه برسوله وخليله زوجها إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

سؤال آخر بعد ما عرفنا رجحان سؤاله تعالى بالأسماء والصفات والطاعات، فهل ثبت عن الصحابة سؤالهم وتوسلهم بذاته ؟

جوابه : لم يثبت عن واحد منهم شيء من ذلك فيما لدينا من كتب السنة المشهورة بل ثبت عدولهم عن ذلك في وقت مقتض له لو كانوا يفعلونه وذلك في حديث استسقاء عمر بالعباس رضي الله تعالى عنهما فقد أخرج البخاري في صحيحه بسنده عن أنس : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس ابن عبد المطلب فقال : اللهمَّ إنا كنا نتوسَّل إليك بنبينا صلى الله عليه وسلم فَتَسْقِينا وَإنا نتوسَّل إليكَ بِعَمِّ نبينا فاسْقِنَا قال فيُسْقَون[4]" ومعنى

---

(١) الترغيب والترهيب ٢/ ٢١٥ ك: الذكر والدعاء

(٢) فتح الباري ٦/ ٥٠٥ ك: أحاديث الأنبياء ب: حديث الغار.
و مسلم بشرح النووي ١٧/ ٥٥ ك: الذكر ب: قصة أصحاب الغار.

(٣) فتح الباري ٦/ ٣٨٨ ك: أحاديث الأنبياء ب: قول الله تعالى: "واتخذ الله إبراهيم خليلا". ومسلم بشرح النووي ١٥/ ١٢٣ ك: الفضائل ب: من فضائل ابراهيم الخليل.

(٤) فتح الباري ٢/ ٤٩٤ ك: الاستسقاء ب: سؤال الناس الامام الاستسقاء إذا قحطوا.

الحديث أنهم كانوا يتوسلون بالنبي صلى الله عليه وسلم يدعو لهم في الاستسقاء ويدعون ثم صاروا يتوسلون بالعباس فيدعو لهم ويدعون فالتوسل هنا قطعا بدعائهما لا بذاتهما ، ووجه الاستدلال بهذا الحديث على مرجوحية التوسل بالذات : أن الصحابة لم يقولوا في موقفهم ذلك : اللهم إنا نتوسل إليك بنبينا ، أي بذاته ومقامه ، بل عدلوا عن ذلك إلى التوسل بالعباس يدعو لهم ويدعون كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل في الاستسقاء .

ولقد استدل بعضهم بعدول الصحابة عن التوسل بذات النبي صلى الله عليه وسلم في هذا المقام على منعه . ونحن لما بينا قبلُ من دليل جوازه إنما نستدل بِعُدُ ولِهم على مرجوحيته .

سؤال آخر : قد عرفنا فيما تقدم مشروعية سؤال المؤمن من أخيه المؤمن في حياته أن يدعو له ، فهل يشرع الذهاب إلى القبر وطلب الدعاء من الميت ؟

جوابه : لو كان هذا جائزا لفعله الصحابة في الحديث المتقدم ولذهبوا إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم يسألونه أن يدعو لهم كما كان يدعو لهم في حياته ، ولم يرد في حديث عن واحد منهم أنه كان يذهب إلى القبر النبوي ويطلب منه صلى الله عليه وسلم أن يدعو له بل جاء عن ابن عمر ـ وهو من عُرف بشدة اتباعه وتحرّيه ـ أنه كان يقف فيسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم على أبي بكر ثم على عمر رضى الله تعالى عنهما ثم ينصرف لا يزيد شيئا ، خرجه مالك في الموطأ[1] .

ثم لخص كل ما فات في سبع نقاط وبعدها قال

" هذه سبع مسائل كثر فيها هذه الأيام القال والقيل ، وتعرض لها من

---

(١) ـ الموطأ : ترتيب فؤاد عبد الباقي ، ج ١ / ١٦٦ ، ك: قصر الصلاة في السفر ب : ما جاء في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم .

الكتاب الأصيل والدخيل، وقد من الله بتحريرها على هذا الوجه الذي لم أره لغيري، وقد كنت في تحريرها - علم الله - باحثا منصفا متجردا فما كان فيها من حق وصواب فهو من الله، وما كان فيها - عياذا بالله - من باطل وخطأ فهو مني، وأستغفر الله، والخير قصدت، وحسبنا الله ونعم الوكيل" (١).

وبهذا المثال يستطيع القارئ أن يعرف طريقة الأستاذ ابن باديس في بحث الموضوعات العقائدية في شرح الحديث، والأمثلة كثيرة نكتفي بما سبق والله المستعان.

---

(١) مجالس التذكير من حديث البشير النذير: ص ٢٤-٤٧.
هذه خلاصة عن حكم التوسل في الشرع.
ينقسم التوسل الى قسمين: توسل مشروع، وتوسل ممنوع.
أولا: التوسل المشروع: وهو ثلاثة أنواع:
النوع الأول: التوسل بأسماء الله تعالى وصفاته، وهو مشروع بنص القرآن والسنة وعمل السلف الصالح. قال تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها..﴾ الآية الأعراف (١٨٠) والأحاديث كثيرة منها: مارواه الترمذي وحسنه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقول: ياذا الجلال والاكرام فقال: "قد استجيب لك فسل". ومثله الأحاديث الثلاثة الأولى في ص (٣١٩) والتي جاء بها ابن باديس كدليل على هذا النوع.
النوع الثاني: توسل الداعي بطاعته من ايمان وعمل صالح، وهو مشروع أيضا بالقرآن والسنة وعمل السلف. قال تعالى - حكاية عن أولي الألباب: "ربنا اننا سمعنا مناديا ينادي للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار" آل عمران (١٩٣)، ومن السنة أحاديث كثيرة، منها حديث بريدة (انظر الحديث الرابع من الأحاديث التي أوردها ابن باديس ص ٣١٩) وحديث الثلاثة الذين آووا الى الغار (انظر هامش ٢ - ص ٣٢٠).
النوع الثالث: توسل المرء بدعاء غيره وهو على وجهين: أحدهما: أن تكتفي عن دعائك بدعاء من سألته الدعاء وهو مأذون فيه مالم يكن ذريعة الى منهي عنه كسؤال الدعاء من الميت والغائب لما فيه من مظنة الاعتقاد بعلم الغيب.
والوجه الثاني: أن تسأل الدعاء من الحي الحاضر، فيدعو لك وتتوجه أنت الى الله داعيا متوسلا بدعائه، ويدل على مشروعية هذا النوع من التوسل بوجهيه حديث استسقاء عمر بالعباس، انظر ص (٣٢٠) وحديث الأعمى الذي مر في ص (٣١٠).
ثانيا: التوسل الممنوع: وهو على ضربين: توسل شركي وتوسل بدعي.
التوسل الشركي: وهو مبني على اعتقاد الداعي أن المدعوين يملكون وحدهم أو مع الله النفع والضر والعطاء والمنع والتأثير في حصول المطلوب والمسؤول ومن أمثلته:
١- دعاء الميت مطلقا ودعاء الحي فيما ليس من مقدوره ولا مما هو في طوق البشر ودائرة الأسباب، وهذا شرك صريح لأن الدعاء عبادة وكل عبادة فانها لا تكون الا لله، فالدعاء لا يكون الا لله وهذا قياس من الضرب الأول من الشكل الأول مقدمته الصغرى دليلها من نفسها لأنها من لفظ الحديث الصحيح الذي رواه الترمذي وغيره (الدعاء هو العبادة) انظر ص: (٣٧٠)، ومقدمته الكبرى معلومة من الدين بالضرورة ومن أدلتها "اياك نعبد" و"ألا تعبدوا الا الله" ولذا فقد ترتبت عليها النتيجة الواضحة.
٢- دعاء الله مع غيره كأن يقول الشخص "يا الله ياسيدي عبد القادر" وحكمه كسابقه.
٣- التوسل في الدعاء بالمخلوقين اذا كان المتوسل يعتقد أن هؤلاء المتوسل بهم لهم تأثير في حصول المطلوب بالتوسل اما بفعل الله تعالى لأجلهم واما بفعلهم أنفسهم مما يعده كرامة لهم، والقصد الى أحد ذينك الأمرين شرك لأن التوحيد يقتضي الا فاعل مع الله ولا مؤثر في ارادة الله.
التوسل البدعي:-
١- اذا قال القائل "أسألك بحق فلان" وأراد القسم على الله فهذا غير صحيح شرعا لوجهين أحدهما: ان الحلف بالمخلوق للمخلوق ممتنع شرعا فكيف به للخالق. ==

. . . .

== ثانيهما : أن فيه اعتقاد حق للمخلوق على الخالق وهو اعتقاد فاسد الا فيما أحقه الله على نفسه تفضلا منه ، ولم يكن الصحابة يفعلونه لا في حياته ولا بعد مماته لا عند قبره ولا غير قبره ولا يعرف هذا في شئ من الأدعية المشهورة بينهم.

٢- اذا قال القائل : "أسألك أو أتوسل اليك بفلان" وهو لا يقصد الا ذاته "أي أتوسل اليك بذات فلان".

٣- اذا قال القائل" أسألك أو أتوسل اليك بجاه فلان أو حقه أو حرمته أو بركته أو مقامه أو قدره عندك يا الله.

فهذان النوعان من التوسل حتى وان كان فيهما نزاع بين العلماء الا أن الراجح هو المنع لأدلة كثيرة منها :-

١- لم يأت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق صحيح شئ يدل عليه.

٢- عدول الصحابة رضي الله عنهم عن ذلك في وقت مقتض له لو كانوا يفعلونه وذلك في حديث استسقاء عمر بالعباس رضي الله تعالى عنهما.

٣- حديث الأعمى لا حجة لهم فيه لأنه صريح في أنه انما توسل بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعته ، وهو طلب من النبي صلى الله عليه وسلم الدعاء وقد أمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول : " اللهم شفعه فيّ " ولهذا رد الله عليه بصره لما دعا له النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك مما يعد من آيات النبي صلى الله عليه وسلم. ولو توسل غيره من العميان الذين لم يدع لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالسؤال به لم تكن حالهم كحاله .

٤- هذا سؤال الله تعالى بسبب لا يناسب اجابة الدعاء ، اذ لا مناسبة بين كون فلان له جاه عند الله تعالى أو له حق بوعد الله تعالى الصادق وبين اجابة دعاء هذا السائل فكأنه يقول : لكون فلان من عبادك الصالحين أو له جاه عندك أجب دعائي وأي مناسبة في هذا وأي ملازمة ؟ .

٥- هذا التوسل -على فرض جوازه- ذريعة الى الشرك خصوصا عند العوام ، ومعلوم أن الاسلام حرص كل الحرص على سد ذرائع الشرك ، ومن هنا وجب القول بمنعه .

وهناك نوع آخر من التوسل البدعي وهو أن يقال للميت أو الغائب من الانبياء والصالحين ادع الله لي أو ادع لنا ربك أو اسأل الله لنا ، فهذا غير جائز فهو من البدع التي لم يفعلها أحد من سلف الأمة والله تعالى أعلم .

انظر : قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لابن تيمية ، والتوصل الى حقيقة التوسل ل : محمد نسيب الرفاعي .

الباب الثالث

دعـــوتـــه

تمهيد

عاش المسلمون فترة من الزمن كانت لهم فيها سيادة العالم وقيادته بما كانوا عليه من دين صحيح على مستوى الفرد والأمة ثم بعد مدة بدأ فيهم الانحراف عن الصراط السوي الذي كان سببا لضعفهم وتأخرهم ، ولا زالت زاوية الانحراف في انفراج ولا زالت آثاره تعظم حتى وصل بهم الأمر إلى الحالة التي هم عليها أواخر الدولة العثمانية أي القرن الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد ثم ظهرت الحملات الصليبية على العالم الإسلامي فازدادت الحالة سوء على سوء ولا أريد الآن أن أتتبع خط الانحراف من بدايته إلى نهايته[1] وإنما يكفي أن أذكر موجزا عنه في القرون الأخيرة وآثاره على الشعب الجزائري خاصة. وهذا كتمهيد للكلام عن المنهج الذي اتبعه ابن باديس في دعوته الإصلاحية في الجزائر.

إن الفرق التي ظهرت في تاريخ الإسلام قد تأثرت أفكارها بفلسفة الإغريق وعقلانيتهم فانحرفوا عن عقيدة الإسلام الصحيحة فأصبحت تلك العقيدة السهلة ذات التصور الصحيح والوجدان الحي والسلوك العملي عبارة على قضايا ذهنية تجريدية باردة تخمد الإيمان وتثير الشكوك والشبهات المناقضة للإيمان ولا تحرك الوجدان ولا تؤدي إلى سلوك واقعي ، ويصعب فهمها على الطلبة فضلا عن العامة ، وأصبحت هذه الطرائق الكلامية المعقدة تصنف فيها التصانيف ، وتدرس لأبناء المسلمين على مدى الزمن على أنها هي العقيدة. ومن مصائب هذه العقيدة الفكر الإرجائي القائل بأن الإيمان هو مجرد التصديق وأنه لا تضر مع الإيمان معصية بل يستطيع العبد أن ينال رضى ربه ولو لم يعمل — بما في قلبه من وجدانات ومشاعر طيبة ، هذا الفكر الذي لو لم يكن من نتائجه إلا ترك العمل لكان كافيا في الحكم عليه بفساده ، أضف إلى ذلك الصوفية التي من انحرافاتها تشويه العقيدة والتصور

---

(١) انظر كتاب واقعنا المعاصر : للاستاذ محمد قطب.

وتحريف الشرع بالبدع والخرافات والشعوذة والدعوة إلى الانزواء والهروب من الواقع وترك العمل والاكتفاء بالحياة مع المشاعر والتواكل بدل التوكل والاعتذار بالقضاء والقدر على ترك العمل ومعاداة الدنيا وعدم الأخذ بالأسباب وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . هذه الصوفية التي كانت تتبناها الدولة العثمانية وتنشرها وتتخذها هي الدين ضربت أطنابها في كل أرجاء العالم الإسلامي لقلة العلماء أو انعدامهم واحتمائها بقوة النظام المستبد الذي لا يرضى بأي إصلاح ، حتى إصلاح التعليم وفتح باب الاجتهاد في الفقه عارضهما العلماء الجامدون والشيوخ الصوفيون بمساعدة الدولة العثمانية.

فهذه العوامل الأربعة : الفكر الإرجائي والفكر الصوفي واستبداد العثمانيين ، وعدم التذكير من العلماء أدت إلى أن تصبغ حياة الأمة كلها بصبغة واحدة وهي : فساد في التصور وفساد في السلوك ، فكل المفاهيم قد فسدت وانحرفت في حس الناس (فلا إله إلا الله) عندهم أصبحت مجرد كلمة تقال باللسان والقلب عنها غافل والسلوك عنها بعيد ، والعبادة لا تخرج عن مفهوم الشعائر التعبدية مع التهاون في أدائها والقضاء والقدر ما هو إلا ذريعة لترك العمل والاعتذار به عن المعصية : والدنيا والآخرة لا يلتقيان أبدا فمن أراد إحداهما فعليه ترك الأخرى ... إلخ . حتى أصبح للدين في النهاية صورة باهتة خاوية من الروح ، ومن هذا الفساد نتجت كل أنواع الفساد في المجالات الأخرى .

ـ ففي المجال العلمي :

١ ـ زهد الناس في العلوم الدنيوية واقتصروا على العلوم الشرعية ،

٢ ـ وحتى العلوم الشرعية لم تكن تدرس كما ينبغي أن تكون الدراسة بل كانت تتصف بالجمود والتعقيد والتعصب والتقليد مع محاربة التفكير والتجديد .

ـ وفي المجال الاقتصادي : رضي الناس بما هم عليه ولم يفكروا في الوسائل التي بها يتقدمون مع الزمن وتقاعسوا وتواكلوا وانصرفوا عن عمارة الأرض ورضوا بالفقر على أنه قدر من الله لا ينبغي السعي إلى تغييره خوفا من الوقوع في خطيئة التمرد على قدر الله .

ـ وفي المجال الحربي فالأمر واضح لأن الجهاد عند الصوفية هو جهاد

النفس الذي لا ينتهي إلى الأبد ، إذًا لا داعي للتفكير في جهاد العدو ولا في وسائله .

بعد كل هذا جاء الاستعمار الفرنسي كغزو صليبي حاقد يريد الانتقام من الإسلام الذي أذلهم به عبد الرحمن الغافقي وصلاح الدين الأيوبي ومحمد الفاتح وأمثالهم ، جاء الاستعمار ومعه التكنولوجيا ، والصناعة والتقدم ، والمسلمون في تلك الحالة من الخواء الروحي والضعف العقيدي فأصابهم الانبهار الذي يؤدي إلى الانهيار الداخلي والهزيمة النفسية والنظر إلى النفس بازدراء واحتقار وإلى العدو بإعجاب واحترام ، فانكر المسلم نفسه ولم يعتبرها من فصيلة الآدميين بل الآدمي الحقيقي هو الأوروبي وما خلق هو إلا لخدمته لأن الله تعالى قضى أن يكون سيدا له .

هذه الحالة وصل إليها الشعب الجزائري بعد مدة من دخول الاستعمار الذي عمل على إيجاد طائفتين مختلفتين والحرص على توسيع الهوة بينهما :

(١) طائفة المتمسكين ببقايا الإسلام المشوه من شيوخ الطرق وأتباعهم والعلماء الجامدين الذين يعتبرون أن ما هم عليه هو صميم الإسلام .

(٢) طائفة المثقفين بالثقافة الغربية التي أفرزتها سياسة التغريب المتبعة من طرف الاستعمار وتتميز بإنكار ذاتيتها وتوجيه السخرية والزراية لهذا الإسلام الذي تمثله الطائفة الأولى .

ظلت الأحوال هكذا حتى عهد ابن باديس الذي رآه بنفسه وصوره لنا بقوله " رأينا كما يرى كل مبصر ما نحن عليه معشر المسلمين من انحطاط في الخلق وفساد في العقيدة وجمود في الفكر وقعود عن العمل وانحلال في الوحدة وتعاكس في الوجهة وافتراق في السير . حتى خارت النفوس القوية وفترت العزائم المتقدة ، وماتت الهمم الوثابة ، ودفنت الآمال في صدور الرجال ، واستولى القنوط القاتل واليأس المميت فأحاطت بنا الويلات من كل جهة وانصبت علينا المصائب من كل جانب .

رأينا هذا كله كما رآه المسلمون كلهم وذقنا منه الأمرّين مثلهم .. "(١)

---

(١) عمار الطالبي ابن باديس حياته وآثاره – ج ٣ – ص ٢٤ .

ويحدثنا أيضا عن الحالة الدينية والدنيوية التي كان عليها الشعب الجزائري من فساد كامل شامل ، فساد في الفكر والدين تبعه تخلف وانحطاط في الناحية المادية الدنيوية ، نتج عن كل هذا هزيمة داخلية واستسلام للواقع ويأس وقنوط وتفرق واغتراب وضياع ، يوضح كل هذا ابن باديس بقوله : " قد فُتنا بغيرنا من أمم الغرب وفُتنوا هم أيضا بنا " ثم يبين حقيقة هذه الفتنة من الطرفين فيقول :

" فنحن ندين بالإسلام وهو دين السعادة الدنيوية والأخروية ولكن حيثما كنا – إلا قليلا – لسنا سعداء لا في مظاهر تديننا ولا في أحوال دنيانا " ثم يشرح ذلك بقوله " ففي الأولى نأتي بما يبرأ منه الإسلام ونصرح بأنه من صميمه ، وفي الثانية ترانا في حالة من الجهل والفقر والتفرق والذل والاستعباد يرثي لها الجماد ، فلما يرانا الغربيون على هذه الحالة ينفرون من الإسلام ويسخرون منه إلا من نظر منهم بعين العلم والانصاف فإنه يعرف ما نحن عليه هو ضد الإسلام ، فكنا فتنة عظيمة عليهم وحجابا كثيفا لهم عن الإسلام ... وهم من ناحيتهم نراهم في عز وسيادة وتقدم علمي عمراني فننظر إلى تلك الناحية منهم فنندفع في تقليدهم في كل شيء حتى معائبهم ومفاسدهم ونزدري كل شيء عندنا حتى أعز عزيز إلا من نظر بعين العلم .. "(1) رأى ابن باديس كل هذا وعاشه وذاق منه الأمرّين ثم عزم على الإصلاح إلا أنه قبل أن يشرع في العمل وقف وقفة تأمل وتدبر للمجتمع الجزائري ليعرف كيف يعمل .

مكث وقتا يفكر في العلاج الذي به يخرج الشعب الجزائري من ربقة الاستعمار هذا الاستعمار الذي طال أمده ولم تزده تلك الثورات التي قامت ضده إلا حقدا على هذا الشعب وتضييقا وشاء الله أن يجتمع الإمام ابن باديس مع الشيخ الإبراهيمي في المدينة المنورة ويمكثا ثلاثة أشهر يُعملان النظر في وضع الجزائر وكيفية تخليصها مما هي فيه حتى وصلا إلى ما يحدثنا عنه الإبراهيمي بقوله : "كان من نتائج الدراسات المتكررة

---

(1) تفسير ابن باديس ص ٢٢٢ - ٢٢٣

للمجتمع الجزائري ــ بيني وبين ابن باديس منذ اجتماعنا في المدينة المنورة أن البلاء المنصب على هذا الشعب المسكين آت من جهتين متعاونتين عليه ، وبعبارة أوضح من استعمارين مشتركين يمتصان دمه ويتعرقان لحمه ويفسدان عليه دينه ودنياه : استعمار مادي هو الاستعمار الفرنسي ، يعتمد على الحديد والنار واستعمار روحاني يمثله مشائخ الطرق المؤثرون في الشعب والمتغلغلون في جميع أوساطه ... إلخ "(١) .

ورأى الإمام رحمه الله بثاقب فكره أن الاستعمار الفرنسي ما تمكن من استعباد هذا الشعب إلا لأنه ترك دينه الذي فيه قوته وعزته ، فعم الجهل بالفقر وخلت الساحة من الافراد المتنورين والعلماء المصلحين ، فتفرقت كلمة الناس وتشتت جمعهم مما سهل على الاستعمار وأعوانه التحكم فيه وقيادة بسهولة وقد بين هذا بقوله " ما أصيب المسلمون في أعظم ما أصيبوا به إلا بإهمالهم لأمر الاجتماع ونظامه ، إما باستبداد أئمتهم وقادتهم وإما بانتشار جماعتهم بضعف روح الدين فيهم وجهلهم بما يفرضه عليهم ، وما ذلك إلا من سكوت علمائهم وقعودهم عن القيام بواجبهم في مقاومة المستبدين ، وتعليم الجاهلين ، وبث روح الإسلام الإنساني السامي في المسلمين "(٢) .

فرأى ابن باديس أنه لا فائدة من إظهار العداوة للإستعمار الفرنسي مادام الأفراد المتنورون ــ وهم قلة ــ ضعفاء والسواد الأعظم من الناس في جهل وغفلة ولو أراد الإنسان أن يؤلبهم على الاستعمار لتألبوا عليه هو بإيعاز من الاستعمار نفسه أو من تلقاء أنفسهم ، والاستعمار لا تزعزعه إلا غضبة الشعب وثورته ، لكن أي شعب

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية المصرية عدد ٢١ سنه ١٩٦٤ من ص ١٣٠ ــ ١٤٠ .

(٢) تفسير ابن باديس ص ٤٢٩ .

هذا ؟ ليس هذا الشعب الذي أشرب قلبه قابلية الاستعمار كما يسميها مالك بن نبي[١] رحمه الله والذي أبى أن يغير ما بنفسه حتى يغير الله ما به من استعباد وذل وهوان ... بل لا يخيف الاستعمار إلا الذين تحررت نفوسهم وأرواحهم من العبودية لغير الله تعالى وكسروا قيود الفكر فاستنارت عقولهم بهدي الكتاب والسنة وجاهدوا أنفسهم بفعل الطاعات وترك المنهيات قبل أن يجاهدوا عدوهم بالسلاح ، ومخطئ كل الخطأ من أراد أن يخوض المعركة بشعب ترك دينه ونسي هويته وفقد شخصيته وتنكر لتاريخه ، شعب استولى عليه القنوط القاتل ، واليأس المميت فأصبح ليس له ثقة لا بالله ولا بنفسه ، وأصبح ينظر إلى الاستعمار الفرنسي وكأنه قضاء محتوم رضي به الله تعالى فمن حاربه فقد حارب الله تعالى ومن فكر في إخراجه فقد فكر في رد قضاء الله وقدره وهو الله سبحانه الذي لا راد لقضائه فشعب هذا تفكيره وهذه نفسيته من العبث أن يدفعه إنسان للمطالبة بالاستقلال وكيف يطالب بالاستقلال وهو نفسه غير مستقل في نفسه وروحه وفكره وضميره ووجدانه ولذا يقول الشيخ الطيب العقبي ـ الرجل الثالث في جمعية العلماء ـ معبرا عن رأي هذه الجمعية في عدم بدئها بالمطالبة بالاستقلال واهتمامها بغيره وهذا من الامور التي أنشأت الخلاف بينهم وبين (مصالي الحاج) رئيس حزب الشعب الجزائري :- (" لا نوافق السيد الحاج مصالي ومن معه من الإخوان على فكرة طلب الاستقلال الذي هو بعيد عن الأمة الجزائرية وبعيدة عنه مادامت لم تستقل في أفكارها ومعلوماتها وكل مقومات حياتها ، ومادامت لا تقدر أن تحرر نفسها من ربقة بعض المرابطين واستعبادهم لها باسم الدين وهم أبعد الناس عن تعاليم الدين الصحيح وما جاء به الدين ، وكيف يطير من لا جناح له ولا ريش؟ ..."[٢])

---

(١) مفكر إسلامي جزائري (١٩٠٥م ـ ١٩٧٣م) أكثر كتاباته بالفرنسية ، ومن أهمها : الظاهرة القرآنية ، ومشكلات الحضارة . انظر: الاعلام ، للزركلي : ٥/٢٦٦ .

(٢) جريدة البصائر ـ لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين . العدد ٣١ بتاريخ ١٩/ جمادى الاولى/ ١٣٥٥ هـ الموافق ليوم ٧/٨/١٩٣٦م الصفحة الأولى .

فمن أجل كل هذا قرر الإمام ابن باديس رحمه الله أن تكون طريقته مع الاستعمار هي مداراته ولا يمنع هذا من المطالبة والاحتجاج في إطار القوانين وكأنه اعتبر بما جنته دعوة جمال الدين الأفغاني بسبب صرامتها وتعرضها للظالمين أينما كانوا مما جعل الإمام محمدا عبده يغير أسلوب دعوته ويدلي بهذه النصيحة لأهل تونس والجزائر : " العمل على مسالمة الحكومة وترك الاشتغال بالسياسة وبهذا يتم لهم كل ما يريدون من مساعدة الحكومة الفرنسية لهم ... إلخ "(١) والتي نظن أن الإمام ابن باديس قد استفاد بها ومما يقوي هذا الظن نشره لها في مجلته الشهاب(٢) .

لهذا كله نراه في دعوته الإصلاحية قد اختار الخطة الدينية على الخطة السياسية رغم طول الطريق في الأولى وقصرها في الثانية بتصريحه هو الذي يقول : " وبعدُ فإننا اخترنا الخطة الدينية على غيرها عن علم وبصيرة وتمسكا بما هو مناسب لفطرتنا وتربيتنا من النصح والإرشاد وبث الخير والثبات على وجه واحد ، والسير في خط مستقيم ، وما كنا لنجد هذا كله إلا فيما تفرغنا له من خدمة العلم والدين ، وفي خدمتهما أعظم خدمة وأنفعها للإنسانية عامة . ولو أردنا أن ندخل الميدان السياسي لدخلناه جهرا ولضربنا فيه المثل بما عرفنا من ثباتنا وتضحيتنا ولقدنا الأمة كلها للمطالبة بحقوقها ولكان أسهل شيء علينا أن نسير بها على ما نرسمه لها وأن نبلغ من نفوسها إلى أقصى غايات التأثير عليها فإن مما نعلمه ، ولا يخفى على غيرنا أن القائد الذي يقول للأمة : " إنك مظلومة في حقوقك وإنني أريد إيصالك إليها " يجد منها ما لا يجده من يقول لها : " إنك ضالة عن أصول دينك وإنني أريد هدايتك " فذلك تلبيه كلها وهذا يقاومه معظمها أو شطرها ، وهذا كله نعلمه ولكننا اخترنا ما اخترنا لما ذكرنا وبينا وأننا فيما

---

(١) عمار الطالبي ــ ابن باديس حياته وآثاره ــ ج ٣ ــ ص ٥٧ .

(٢) انظر " الشهاب " ج ٦ م ١١ ص ٣٦٥ .
غرة جمادى الاولى ١٣٥٤ هـ ــ ٨ / ١٩٣٥ م .

اخترناه بإذن الله لماضون وعليه متوكلون "[1] .

والخطة الدينية التي اتبعها ابن باديس في دعوته تتلخص في بناء قاعدة شعبية عريضة وواسعة في نفس الوقت أي متعادلة في العمق والانتشار ، يكون مبدؤها تربية جيل من الشباب قوي العقيدة متحد الفكرة مسلح بالعلم والإيمان وهذا ما اتفق عليه كل من ابن باديس والإبراهيمي الذي يقول "كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا بالمدينة في تربية النشئ هي : ألا نتوسع له في العلم وإنما نربيه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل ... فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي اعددناه من تلامذتنا ... والذي يحمل فكرتنا وعقيدتنا مسلح بالخطباء والكتاب والشعراء يلتف به مئات الآلاف من أنصار الفكرة وحملة العقيدة يجمعهم كلهم إيمان واحد وفكرة واحدة وحماس متأجج وغضب حاد على الاستعمار .."[2]

والخطوات التي خطاها ابن باديس للوصول إلى بناء هذه القاعدة تتمثل في مرحلتين هما :

(١) مرحلة البيان عن الدعوة .

(٢) مرحلة التربية والتعليم .

وقبل تفصيل الكلام عن هتين المرحلتين لا بد من الحديث ولو بإيجاز عن بعض حقائق الدين ومفاهيمه التي صححها ابن باديس ودعا الناس إليها ورباهم عليها ، وبعض صفات الداعية الذي يحمل هذا الدين ويقدمه للناس في صورته الناصعة وهاتان النقطتان هما موضوع الفصل القادم .

---

(١) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ــ ص ١٥ .

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية المصرية ــ عدد ٢١ ــ سنة ١٩٦٤ ــ من ص ١٣٠ ــ ١٤٠ .

الفصل الأول
أصول الدعوة وصفات الداعية

المبحث الأول

بعض حقائق الدين ومفاهيمه

أكثر حقائق الدين ومفاهيمه الأساسية قد فسدت عند المسلمين في القرون الأخيرة ، ولذا لا بد لكل داعية مصلح - قبل بدء دعوته - أن يكون على علم بهذه الحقائق والمفاهيم ليرجع الناس اليها ويربيهم عليها ، ومن أهم هذه المفاهيم:

أولا : الايمان :-

فالايمان عند السواد الأعظم من المسلمين ما هو الا عواطف ومشاعر تجيش في النفس ، وكلمة تلفظ باللسان ولا رصيد لها في الواقع فجاء ابن باديس ليصحح هذا المفهوم ، ويعلن أن " الايمان هو التصديق الصادق المثمر للأعمال الصالحة وهي المستقيمة النافعة المبنية على ذلك الايمان "(١) وبهذا أعاد للايمان مفهومه الصحيح بأن ضم للتصديق العمل الصالح ، ويؤكد على هذه المسألة أكثر بقوله " العمل الصالح من ثمرات الايمان الدال وجودها على وجوده وكمالها على كماله ونقصها على نقصه وعدمها على اضطرابه ووشك انحلاله واضمحلاله "(٢) فهناك تلازم بين الايمان القلبي والعمل بالجوارح فـ " على قدر ثبوت الايمان ورسوخه يكون الثبات والدوام على الأعمال "(٣).

ويذهب ابن باديس - في تصحيح هذا المفهوم - الى أبعد من هذا عندما يجعل الايمان الصحيح نوعا من أنواع الذكر القلبي ، فهو يقول رحمه الله

---

(١) تفسير ابن باديس - ص ٤٣٥ .
كلامه هذا يوهم أنه يرى أن الأعمال لا تدخل في مسمى الايمان ولكن بالتأمل في عبارته وتأليفها من الناحية النحوية نجد خلاف ذلك . فهو قد أخبر عن (الايمان) بـ (هو التصديق الصادق المثمر للأعمال الصالحة) فخبر المبتدأ يتضمن شيئين لا شيئا واحدا وهما التصديق الصادق والأعمال الصالحة . فالايمان مبتدأ وجملة (هو التصديق الصادق المثمر للأعمال الصالحة) كلها خبر . بقي الآن الكلام عن تعبيره بـ (المثمر للأعمال الصالحة) وهذا محمول على أنه يريد أنها لوازم له أي متى وجد الايمان الباطن وجدت كما قال ابن تيمية رحمه الله تعالى في الجزء السابع من فتاواه (ص ٣٦٣) وقول القائل : (الطاعات ثمرات التصديق الباطن) يراد به شيئان : يراد به أنها لوازم له فمتى وجد الايمان الباطن وجدت وهذا مذهب السلف وأهل السنة . . . " الخ كلامه ودليل حطنا كلام ابن باديس هذا المحمل تقريره للايمان بأنه : هو القول باللسان والعمل بالقلب والعمل بالجوارح " انظر ص (١٧٧) من هذا البحث .

(٢) المصدر السابق - ص ٢٧٩ .

(٣) المصدر السابق - ص : ٧٣ .

تعالى " العقد الجازم بعقائد الإسلام في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر كله ، عقدا عن فهم صحيح وإدراك راسخ تتحلى به النفس بمقتضيات تلك العقائد وتتذوق حلاوتها وتتكون لها منها إرادة قوية في الفعل والترك تملك بها زمامها تلك الإرادة التي لا تكون إلا عن عقيدة راسخة في النفس ويقين مطمئن به القلب . ولذا كان هذا الضرب من ذكر القلب متفرعا عن الضرب الأول ومبنيا عليه "[1] .

والأعمال الصالحة التي ضيعها الناس واكتفوا بالإيمان الشعوري المزعوم يبرز ابن باديس مكانتها وأهميتها بأنها هي ميزان صلاح الفرد " لأن صلاح النفس وهو صفة لها خفي كحقائقها ، وكما أننا نستدل على وجود النفس وارتباطها بالبدن بظهور أعمالها في البدن كذلك نستدل على اتصافها بالصلاح وضده بما نشاهده من أعمالها . فمن شاهدنا منه الأعمال الصالحة وهي الجارية على سنن الشرع وآثار النبي صلى الله عليه وآله وسلم - حكمنا بصلاح نفسه وأنه من الصالحين ومن شاهدنا منه خلاف ذلك حكمنا بفساد نفسه وأنه ليس منهم ولا طريق لنا في معرفة صلاح النفوس وفسادها إلا هذا الطريق ..."[2]

ودل الأمة على الصلاح الذي به تستحق وراثة الأرض التي وعدها الله بها في مثل قوله " وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ "[3] وهذا الصلاح هو الذى بينه القرآن وعبر عنه بأساليب مختلفة وأمة "إذا لم يكن لها حظ من ذلك الصلاح فلاحظ لها من هذا الوعد وإن دانت بالإسلام"[4] هذا الاسلام الذي أطلق

---

(١) الشهاب ج ٢ - م ٥ - شوال ١٣٤٧هـ - مارس ١٩٢٩م ص ٤

(٢) تفسير ابن باديس - ص ٩٨ .

(٣) سورة الانبياء ١٠٥ .

(٤) تفسير ابن باديس ص ٤٤٩ .

عليه ابن باديس اسم " الإسلام الوراثي " فمثل هذا الإسلام " لا يمكن أن ينهض بالأمم "[1] لأن الإسلام الذي ينهض بالأمم هو الذي "تظهر آثاره في الحين على أهله ويقلب الشخص سريعا من حال إلى حال وبذلك تعرف إسلاما من إسلام "[2] وهذه بعض أصول دعوته المتصلة بالإيمان :

(١) التوحيد أساس الدين ، فكل شرك — في الاعتقاد أو في الفعل — فهو باطل مردود على صاحبه .

(٢) العمل الصالح المبني على التوحيد به وحده النجاة والسعادة عند الله فلا النسب ولا الحسب ولا الحظ بالذي يغني عن الظالم شيئا .

(٣) اعتقاد تصرف أحد من الخلق مع الله في شيء ما شرك وضلال ، ومنه اعتقاد الغوث والديوان .

(٤) بناء القباب على القبور ووقد السرج عليها والذبح عندها لأجلها والاستغاثة بأهلها ضلال من أعمال الجاهلية ومضاهاة لأعمال المشركين فمن فعله جهلا يُعَلَّم ومن أقره ممن ينتسب إلى العلم فهو ضال مضل .

(٥) الأوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السلف ومبناها كلها على الغلو في الشيخ والتحيز لأتباع الشيخ وخدمة دار الشيخ وأولاد الشيخ إلى ما هنالك من استغلال .. ومن تجميد للعقول وإماتة للهمم وقتل للشعور وغير ذلك من الشرور "[3] .

---

(١) الشهاب - ج ٣ - م ١٤ - ربيع الأول ١٣٥٧هـ - مايو ١٩٣٨م ص ١٠٦

(٢) الشهاب ج ٢ - م ١٥ - صفر ١٣٥٨هـ - مارس ١٩٣٩م ص ٦٧

(٣) نشرة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعنوان :
" ملحق :
جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
قانونها الأساسي ومبادئها الإصلاحية : "
دار الكتب الجزائر بدون تاريخ . إلا أن الأصول التي هي من وضع ابن باديس أرخت بـ ٤ ربيع الاول سنة ١٣٥٦ هـ .

والخلاصة ــ كما يقول ابن باديس ــ "الدين كله عمل صالح وتوحيد خالص"(١)

ثانيا : العبادة :

كان المعنى المعروف للعبادة عند الناس هي الشعائر التعبدية بل لا ينصرف ــ إذا أطلق ــ إلا إلى الصلاة ، فإذا قال أحد : فلان يعبد الله كثيرا : فهم الناس : أنه يصلي كثيرا ، وأما ما عدا ذلك من أعمال الخير فليست من العبادة ــ هذا هو المفهوم السائد عند أغلبية المسلمين عن العبادة ، فجاء ابن باديس ليعيد لهذا المصطلح الشرعي حقيقته ومعناه الصحيح فنص على أن "العبادة نهاية الذل والخضوع مع الشعور بالضعف والافتقار وإظهار الإنقياد والامتثال ودوام التضرع والسؤال"(٢)

فالعبادة بهذا المفهوم الواسع يدخل فيها

(١) ذل القلب وخضوعه : "فمن خضع قلبه لمخلوق على أنه يملك ضره أو نفعه فقد عبده" .

(٢) الشعور بالضعف والافتقار : "فمن شعر بضعفه وافتقاره أمام مخلوق على أنه يملك إعطاءه أو منعه فقد عبده" .

(٣) إظهار الانقياد والامتثال : "فمن ألقى قياده بيد مخلوق يتبعه فيما يأمره وينهاه غير متلفت إلى أنه من عنده أو من عند الله فقد عبده" .

(٤) دوام التضرع والسؤال : "فمن توجه لمخلوق قد عاه ليكشف عنه السوء أو يدفع عنه الضر فقد عبده" .

وبعد هذا التفصيل الدقيق لأنواع العبادة يؤكد مرة أخيرة ــ في لفظ موجز بأن "العبادة بجميع أنواعها لا تكون إلا لله"(٣)

---

(١) تفسير ابن باديس ص ٤٥٦ .

(٢) تفسير ابن باديس ص ٨٢ .

(٣) تفسير ابن باديس ــ ص ٨٣ .

ثالثا : الإسلام :ـ

كان للناس مفاهيم خاطئة عن الإسلام من نواح متعددة ، أوجز القول في بيان بعضها :

(أ) الإسلام دين جميع الرسل :

أكثر الناس كانوا لا يعرفون أن الإسلام ليس دينا خاصا بمحمد صلى الله عليه وسلم بل هو دين جميع الرسل في أصوله ، وإنما تختلف أديان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في بعض الشرائع .

هذه الحقيقة نص عليها الإمام بقوله " الإسلام هو دين الله الذي أرسل به جميع رسله "[١] ومما جاء في أصول دعوته قوله :ـ

(الإسلام هو دين الله الذي وضعه لهداية عباده ، وأرسل به جميع رسله وكمله على يد نبيه (محمد) الذي لا نبي بعده)[٢].

(ب) الإسلام دين عام :ـ

أي أنه لجميع البشر ، فالنصارى واليهود وهم أهل كتاب مخاطبون كذلك بهذا الدين كبقية الناس الذين لا كتاب ولا دين لهم وهذا الأمر ـ وإن كان منصوصا عليه في الكتاب والسنة ومعلوما من الدين بالضرورة ـ إلا أن الجهل أو الهزيمة النفسية تؤثر على كثير من الناس فتغيب عنهم هذه الحقيقة مما جعل ابن باديس ينص عليها كذا مرة كقوله : " يقرر الإسلام بطلان سائر الملل وأن لا دين عند الله إلا الإسلام "[٣] ويقول أيضا " لا نجاة لأحد عند الله تعالى إلا بالدخول في الاسلام "[٤] ويقول أيضا

---

(١) العقائد الاسلامية لابن باديس : ص ٢٥ .

(٢) ملحق :
جمعية العلماء المسلمين الجزائريين : مصدر سابق .

(٣) عمار الطالبي ـ ابن باديس حياته وآثاره ـ ج ٣ ـ ٤٨٧ .

(٤) العقائد الاسلامية لابن باديس ص ٢٤ .

" الإسلام هو دين البشرية الذي لا تسعد إلا به " (١) .

(ج) الإسلام دين إلهي :-

أي أنه مستمد من وحيى الله - الكتاب والسنة - لا من آراء البشر وأهوائهم وهذه الحقيقة أكد عليها كثيرا في كم موطن .

كقوله : " الوحي مصدر الإسلام :

إن جميع هذا الدين وحي من الله منزل على نبيه صلى الله عليه وسلم وهذا لأن مرجع الإسلام في أصوله وفروعه إلى القرآن وهو وحي من اللـــه وإلى السنة النبوية وهي وحي أيضا لقوله تعالى : "وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى " (٢) وكل دليل من أدلة الشريعة فإنه يرجع إلى هذيـــن الأصلين ولا يقبل إلا إذا قبلاه ودلا عليه ، وكل شيء ينسب للإسلام . ولا أصل له فيهما فهو مردود على قائله ، وقد قال صلى الله عليه وسلم " مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ (٣) (٤) .

ومما جاء في أصول دعوته قوله : -

(١) القرآن هو كتاب الإسلام .

(٢) السنة القولية والفعليه - الصحيحة تفسير وبيان للقرآن .

(٣) سلوك السلف الصالح - الصحابة والتابعين وأتباع التابعين - تطبيق صحيح لهدى الإسلام .

---

(١) ملحق

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين : مصدر سابق .

(٢) سورة النجم ٤ .

(٣) صحيح مسلم ج ٣ - ص ١٣٤٣ كتاب الاقضية ، باب نقض الاحكام الباطلة ورد محدثات الامور . تحقيق فؤاد عبد الباقي .

(٤) تفسير ابن باديس ص ٢٧٤ .

(٤) فهوم أئمة السلف الصالح أصدق الفهوم لحقائق الإسلام ونصوص الكتاب والسنة .

(٥) البدعة كل ما أحدث على أنه عبادة وقربة ولم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم فعله وكل بدعة ضلالة .

(٦) المصلحة كل ما اقتضته حاجة الناس في أمر دنياهم ونظام معيشتهم وضبط شؤونهم وتقدم عمرانهم مما تقره أصول الشريعة . (١)

(د) الاسلام دين شامل :-

أي أنه شامل في معالجته لجميع نواحي النفس البشرية : الناحية العقلية ، والناحية الروحية ، والناحية الجسدية .

(١) الجانب العقلي : فهو دين يحترم العقل ويفسح له مجاله الذي خلق له ويشجعه على العمل فيه كما يقول ابن باديس " الإسلام يمجد العقل ويدعو إلى بناء الحياة كلها على التفكير " ومن دلائل هذا التمجيد والدعوة إلى التفكير أنه " ينشر دعوته بالحجة والإقناع لا بالختل والإكراه (٢) وأن " كل ما دعا إليه من عقائد

---

(١) ملحق
جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

(٢) المصدر السابق .

وأخلاق وأعمال فهو مما تقبله الفطر السليمة وتدركه العقول بالنظر الصحيح "[١] وأن " القرآن قد جاء داعيا إلى النظر والتفكر والاعتبار والتدبير مبينا بما ساق من حجج الله وحجج رسله الطريق الأقوم في الإدراك الصحيح والسبيل الأسد في الفهم والتفهيم ، ناعيا على المقلدين تقليدهم ، كاشفا لأهل الباطل عن باطلهم ذاكرا من قواطع البراهين البينة الواضحة ، ما لا يبقى معه خفاء في الحق ولا ريب "[٢]

(٢) الجانب الروحي :-

فلا الرياضة الهندية ولا الإباحية الغربية ولا المجاهدة الصوفية تستطيع أن تلبي حاجات الروح والجسد على النحو الذي يرضي الله تعالى ويقوم به بناء وإصلاح يعود بالخير على النفس البشرية في الدنيا والآخرة والذي يحقق ذلك هو التربية الإسلامية التي يسميها القرآن بالتزكية " قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا "[٣] وهي التي عبر عنها ابن باديس بقوله " التنسك الإسلامي هو تجريد التوحيد وتزكية النفس وتقويم الأعمال وتصحيح النية ومحاسبة النفس ومراقبة الله في جميع الأعمال والزهد في الدنيا والعمل للآخرة والمبالغة في العبادات المشروعة والاعتصام بالورع موزونا ذلك كله ومضبوطا بالكتاب والسنة وما كان عليه أهل القرون الثلاثة الصحابة والتابعون وأتباع التابعين رضي الله عنهم أجمعين ... وهذا هو الذي يراد بالتصوف إذا جاء اسم التصوف في كلام علماء السنة والأثر "[٤]

---

(١) تفسير ابن باديس - ص ٣٨٤ .

(٢) المصدر السابق ص ١٨٧ .

(٣) سورة الشمس ٩ .

(٤) عمار الطالبي - ابن باديس حياته وآثاره - ٤/ص ١٩٨ .

(٣) الجانب المادي :ـ

يبين ابن باديس عناية الإسلام بهذا الجانب من خلال حديثه عن عناية الإسلام بالجسد فيقول : " الجسد آلة بديعة للروح لازمة لها في الدنيا وملازمة لها في الأخرى فمن العدل الإلهي أن يكون لها حظها هنالك كما كان لها حظها هنا ، ومن العدل الواجب على الإنسان أن يعطيها ـ كما يعطي للروح ـ حقها من الاعتناء ..." (١)

وهذا من شمولية الإسلام لجميع جوانب النفس البشرية ومن ذلك مراعاته ـ في تشريعاته ـ لطبيعة كل من الرجل والمرأة فتكوين جسم الرجل ليس كتكوين جسم المرأة بل بينهما فروق لا يعلم حقيقتها إلا من خلقهما " أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ " (٢) وبناء على هذا جاءت بعض الأحكام خاصة بالرجل وأخرى خاصة بالمرأة ، كانت سببا في إحداث شبهات عند قليلي العلم وضعفاء الإيمان والذين في قلوبهم مرض وزيغ فاعتبروا ذلك من عدم العدل بين نوعي الجنس البشري ، وراجت هذه الشبهات بين المسلمين مما دفع الدعاة إلى التحقيق فيها ، ومن هولاء ابن باديس الذي ناقشها بطريقة عجيبة نلخصها فيما يلي :ـ

(أ) يقرر ابن باديس أن الرجل والمرأة زوجان ضروريان لعمارة هذه الأرض لا يمكن أن يستغني أحدهما عن الآخر ، ولا توجد حياة بدونهما ولا يقوم أحدهما مقام الآخر ، وجعل الله ـ لكي يعمرا هذه الأرض ـ لكل مجاله ومهامه وهيأ الله كلا منهما للقيام بمهامه . قال ابن باديس رحمه الله : " هما زوجان مثلا زمان لا تكمل الوحدة البشرية إلا بكمالهما . وما الوحدة البشرية في ضرورية الزوجين

---

(١) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ١٤٢ .

(٢) سورة الملك ١٤ .

لتكوينها إلا كسائر المخلوقات الساري عليهما قانون الزوجية العام . ويبتدئ ذلك في أصغر جزء وأول مادة للتكوين ، وهو الجوهر الفرد في اللسان العلمي القديم ، والكهرب في اللسان العلمي الحديث فإنه مركب من قوتين زوجين موجبة وسالبة مصداق قوله تعالى "وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" (١) ويعم هذا القانون جميع المخلوقات ومنها الإنسان كما قال تعالى "وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا" (٢) .

هذا دليل الخلقة على ما بين الرجل والمرأة من لحمة اتصال ، وما لكل واحد منهما على الآخر من توقف لبلوغ الكمال " (٣)

(ب) وإذا منع الإسلام المرأة من بعض الأعمال والمهام فلأن ذلك لا يتناسب مع طبيعة خلقتها كما يبينه ابن باديس بقوله " لا تصلح المرأة للولاية من ناحية خلقتها النفسية ، فقد أعطيت من الرقة والعطف والرأفة ما أضعف فيها الحزم والصرامة اللازمين للولاية ، وفي اشتغالها بالولاية إخلال بوظيفتها الطبيعية الاجتماعية التي لا يقوم مقامها فيها سواها . وهي القيام على مملكة البيت وتدبير شؤونه وحفظ النسل بالاعتناء بالحمل والولادة وتربية الأولاد " (٤) .

(جـ) ومهمتها المتناسبة مع طبيعة خلقتها والتي خلقت من أجلها قد حددها ابن باديس في الفقرة السابقة ، ويكررها في عدة مواطن بمثل قوله " لا بقاء لأمة من الأمم إلا بانتظام أسرها وحفظ نسلها ، وقد خصص الله المرأة للقيام بهذين

---

(١) الذاريات ٤٩.

(٢) النبأ ٨ .

(٣) عمار الطالبي ــ ابن باديس حياته وآثاره ج ٣ ــ ص ٤٦٩ .

(٤) تفسير ابن باديس ص ٣٤٥.

الأمرين العظيمين و زودها من الرحمة والشفقة ما يعينها عليهما "

ثم يضيف ــ مبينا ضرورة تهيئتها لهذا العمل العظيم في الحياة بالتربية والتعليم : (" فتكون تربيتنا وتعليمنا لها بما يقوي فيها هذه الصفات: العفة وحسن تدبير المنزل والنفقة فيه ، والشفقة على الولد وحسن تربيته ")

ثم يبين أن كل زيادة على هذا فهي ضارة بها و ببني جنسها فيقول : " وكل زيادة على هذه ــ بعد تهذيب أخلاقها وتصحيح دينها وتحبيبها في قومها فهي ضارة بها أو مخرجة لها عن مهمتها العظيمة ملحقة الضرر بقومها .. "(١)

ويقول أيضا بصدد بيان مهمتها الخطيرة " خلقت لحفظ النسل وتربية الإنسان في أضعف أطواره " وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا "(٢) فهي ربة البيت وراعيته والمضطرة بمقتضى هذه الخلقة للقيام به . فعلينا أن نعلمها كل ما تحتاج إليه للقيام بوظيفتها ، ونربيها على الأخلاق النسوية التي تكون بها المرأة امرأة لا نصف رجل ونصف امرأة .

فالتي تلد لنا رجلا يطير خير من التي تطير بنفسها "(٣) .

فإذا أردنا رجالا صالحين فعلينا بتربية النساء تربية إسلامية كما يقول ابن باديس " البيت هو المدرسة الأولى والمصنع الأصلي لتكوين الرجال وتدين الأم هو أساس حفظ الدين والخلق " فإذا فعلنا ذلك فهو المطلوب وإلا فعلى الأقل يجب حفظهن من الانسلاخ من دينهن و شخصيتهن فجهلهن مع الاعتزاز بالدين والأصل أهون بل خير من التعليم مع التنكر لهما كما يقول أيضا " و شر من تركهن

---

(١) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ١٦٤ .

(٢) سورة الاحقاف ١٥ .

(٣) عمار الطالبي ــ ابن باديس حياته وآثاره ــ ج ٣ ــ ص ٤٦٩ .

جاهلات بالدين إلقاؤهن حيث يربين تربية تنفرهن من الدين أو تحقره في أعينهن فيصبحن ممسوخات لا يلدن إلا مثلهن ولئن تكون الأم جاهلة بالدين محبة له بالفطرة تلد للأمة من يمكن تعليمه وتداركه خير بكثير من أن تكون محتقرة للدين تلد على الأمة من يكون بلاء عليها وحربا لدينها ... "(١)

ومن شمولية الإسلام أنه نظام عام يتناول مظاهر الحياة جميعا فأهله ليسوا في حاجة إلى أن يستعينوا بغيرهم في غير مجال العلوم الكونية مثل الاقتصاد والسياسة والاجتماع ، وهذا ما سطره ابن باديس بقلمه قبل أكثر من نصف قرن حيث يقول "إن الإسلام عقد اجتماعي عام فيه كل ما يحتاج إليه الإنسان في جميع نواحي حياته لسعادته ورقيه ، وقد دلت تجارب الحياة كثيرا من علماء الأمم المتمدنة على أنّ لا نجاة للعالم مما هو فيه إلا بإصلاح عام على مبادئ الإسلام فالمسلم الفقيه في الإسلام غني به عن كل مذهب من مذاهب الحياة ... "(٢)

ويقول أيضا – مبينا شمولية الإسلام في تنظيم جميع نواحي الحياة واستغنائه عن بقية النظم الأخرى – : – "إن الاسلام الذي ندين به – وهو دين الله الذي أرسل به جميع أنبيائه ، وكمل هدايته وعمم الإصلاح البشري به على لسان خاتم رسله هو دين جامع لكل ما يحتاج إليه البشر أفرادا وجماعات لصلاح حالهم ومآلهم .

فهو دين لتنوير العقول وتزكية النفوس وتصحيح العقائد وتقويم الأعمال فيكمل الإنسانية وينظم الاجتماع ويشيد العمران ، ويقيم ميزان العدل ، وينشر الإحسان . فلا يحتاج بعد إلى ما يتناحر عليه الأوربيون من مبادئ أحزاب وجمعيات

---

(١) الشهاب - ج ٨ - م ١١ شعبان ١٣٥٤هـ - نوفمبر ١٩٣٥م - ص ٤٤٩

(٢) المصدر السابق ج ٣ – ص ٥٥٠ .

ليس في استطاعة شيء منها أن يصلح حالهم لا في السياسة ولا في الاجتماع دع عنك الأخلاق والآداب كما أنه لا يسلم واحد منها من قواعد منافية للفطرة أو مجانبة للعدل أو ضعيفة في العقل ، فالمسلم بطبيعة إسلامه بعيد عن كل هذه الجمعيات والأحزاب ....(١) "

ويقول أيضا " الإسلام دين الله الذي شرعه وارتضاه ... فهو تشريع تام عام لجميع أعمال الإنسان ، أعمال قلبه وأعمال لسانه وأعمال جوارحه وجميع معاملاته الخاصة والعامة بين أفراده وأممه ، ولا تخرج كلية من كلياته ولا جزئياته عن هذا الأصل العام المتجلي في جميع الأحكام وهو " الحق والخير والعدل والإحسان ."

وقد وضع عقلاء الأمم شرائع في بعض نواحي أعمال الإنسان ولكنها بإجماع المشرعين لا تخلو من نقص واعوجاج واضطراب ، فهم ما يفتئون يتبعونها بالتكميل والتقويم والتعديل على مر الأيام "(٢) .

ومن هنا نعلم أنه لا يجوز لنا أن نأخذ ما وصل إليه غيرنا إلا ما ليس عندنا وتقره شريعتنا ، فالاستفادة من الحضارة الغربية لا يكون إلا بهذا الشرط كما يراه ابن باديس القائل " وإنما ينفع المجتمع الإنساني ويؤثر في سيره من كان من الشعوب قد شعر بنفسه فنظر إلى ماضيه وحاله ومستقبله ، فأخذ الأصول الثابتة من الماضي ، وأصلح من شأنه في الحال ، ومد يده لبناء المستقبل يتناول من زمنه وأمم عصره ما يصلح لبنائه معرضا عما لا حاجة له به أو ما لا يناسب شكل بنائه الذي وضعه على مقتضى ذوقه ومصلحته "(٣) .

ويقول أيضا ــ بعبارة أوضح ــ " ونُحَسِّن ما كان من أخلاق الأمم

---

(١) محمد الصالح الصديق ــ الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس من آرائه ومواقفه ــ ص ٣٨ .

(٢) تفسير ابن باديس ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣

(٣) الشهاب ج ٣ ـ م ١٢ ـ ربيع الاول ١٣٥٥هـ جوان ١٩٣٦م ص ١٠٣

حسنا وموافقا لحالنا وتقاليدنا ونقبله ، ونُقَبِّح ما كان منها قبيحا أو مباينا لمجتمعنا وبيئتنا ونرفضه ، فلسنا من الجامدين في جمودهم ولا مع المتفرنجين في طفرتهم وتنطعهم ، والوسط العدل هو الذي نؤيده وندعو إليه "(١) .

وهو يرى أن العلوم والاكتشافات تراث إنساني مشترك لا تستقل به أمة دون الأخرى وإنما تستفيد به جميع الأمم كل على حسب ما يتناسب مع دينها " فإن العلوم والآداب والفنون تراث الإنسانية كلها لا تستقل فيها أمة عن أمة وأكمل الأمم إزاءها من تحسن كيف تحافظ على حسنها وتستفيد من حسن غيرها "(٢) .

وأما الحضارة الغربية بالصورة التي هي عليها الآن فإن رأيه فيها أنها " مدنية مادية في نهجها وغايتها ونتائجها فالقوة عندها فوق الحق والعدل والرحمة والاحسان ...

وعندها أن عمارة الأرض هي كل شيء ولو ضلت العقائد ، وفسدت الأخلاق واعوجت الأعمال وساءت الأحوال ، وعذبت الإنسانية بالأزمات الخانقة وروعت بالفتن والحروب المخربة الجارفة وهددت بأعظم حرب تأتي على الإنسانية من أصلها والمدنية من أساسها ، وهذه هي بلايا الإنسانية التي يشكو منها أبناء هذه المدنية المادية التي عمرت الأرض وأفسدت الإنسان "(٣) .

فمن شمولية الإسلام أنه مستقل بنظامه الإقتصادي المتكامل الذي من أصوله أنه " أشرك الفقراء مع الأغنياء في الأموال وشرع مثل القراض والمزارعة والمغارسة مما يظهر به التعاون العادل بين العمال وأرباب الأراضي والأموال "

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٨٠ .

(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ١٢٩ .

(٣) تفسير ابن باديس ص ٤٤٨ .

ومن شموليته كذلك أنه مستقل بنظامه السياسي المتكامل الذي من أصوله أنه " يجعل الحكم شورى ليس فيه استبداد ولو لأعدل الناس "[١] ٠

تعرض ابن باديس لبيان بعض أصول هذا النظام أقتصر على بعضها : —

(١) الخلافة هو المنصب الإسلامي الأعلى الذي يقوم على تنفيذ الشرع الإسلامي وحياطته بواسطة الشورى من أهل الحل والعقد من ذوي العلم والخبرة والنظر وبالقوة من الجنود والقواد وسائر وسائل الدفاع ٠

(٢) لا يتولى هذا المنصب إلا من ولته الأمة لأنها صاحبة الحق والسلطة في الولاية والعزل فلا يتولى أحد أمرها إلا برضاها فلا يورث شيء من الولايات ولا يستحق لاعتبار شخصي ٠

(٣) الأكفء هو الذي يتولى هذا المنصب لا خير الناس في سلوكه ، فإذا كان شخصان اشتركا في الخيرية والكفاءة وكان أحدهما أرجح في الخيرية والآخر أرجح في الكفاءة لهذا المنصب قدم الأرجح في الكفاءة على الأرجح في الخيرية ٠

(٤) للأمة الحق في مراقبة أولي الأمر لأنها مصدر سلطتهم[٢] وصاحبة النظر في ولايتهم وعزلهم ٠

(٥) يجب على الأمة — إذا رأت استقامة الأمير — أن تتضامن معه وتؤيده إذ هي شريكة معه في المسؤولية ٠

(٦) يجب على الأمة أن تنصح وترشد الوالي وتدله على الحق إذا ضل عنه وتقوّمه على الطريق إذا زاغ في سلوكه ٠

(٧) للأمة الحق في مناقشة أولي الأمر ومحاسبتهم على أعمالهم وحملهم على ما تراه هي لا ما يرونه هم ، فالكلمة الأخيرة لها لا لهم وهذا كله من مقتضى

---

(١) ملحق
جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ٠

(٢) لا يريد أنها هي التي تشرع وتقنن بل المراد انها هي التي تولي وتعزل

تسديدهم وتقويمهم عندما تقتنع بأنهم على باطل ولم يستطيعوا أن يقنعوها أنهم على حق •

(٨) الخطة التي يسير عليها الحاكم هي طاعة الله •

(٩) ما الوالي إلا منفذ لشرع الله فطاعة الأمة له ليست لذاته وإنما يطيعون الله باتباع الشرع الذي وضعه لهم ورضوا به لأنفسهم وإنما هو مكلف منهم بتنفيذه عليه وعليهم فلهذا إذا عصى وخالف لم تبق له طاعة عليهم •

(١٠) الناس كلهم أمام الشرع سواء لا فرق بين قويهم وضعيفهم فيطبق على القوي دون رهبة لقوته ، وعلى الضعيف دون رقة لضعفه •

(١١) صون الحقوق ، حقوق الأفراد وحقوق الجماعات فلا يضيع حق ضعيف لضعفه ولا يذهب قوي بحق أحد لقوته عليه •

(١٢) حفظ التوازن بين طبقات الأمة عند صون الحقوق • فيؤخذ الحق من القوي دون أن يقسى عليه لقوته فيتعدى عليه حتى يضعف وينكسر ، ويعطى الضعيف حقه دون أن يدلل لضعفه فيطغى عليه وينقلب معتديا على غيره •

(١٣) شعور الراعي والرعية بالمسؤولية المشتركة بينهما في صلاح المجتمع وشعورهما — دائما — بالتقصير في القيام بها ليستمرا على العمل بجد واجتهاد فيتوجهان بطلب المغفرة من الله الرقيب عليهما "(١) •

---

(١) الشهاب ج١١ - م١٣ ذي القعدة ١٣٥٦هـ - جانفي ١٩٣٨م ص٤٦٨ - ٤٧١

المبحث الثاني

الداعية وصفاته

رسل الله تعالى — ومنهم خاتمهم عليهم الصلاة والسلام — هم الدعاة الأوائل إلى دين الإسلام قال تعالى "وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ"(١) وقال تعالى "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا"(٢) فقام جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام بوظيفتهم أحسن قيام من بداية بعثتهم إلى أن لقوا ربهم ، يقول ابن باديس رحمه الله "فالنبي صلى الله عليه وسلم من يوم بعثه الله إلى آخر لحظة من حياته كان يدعو الناس كلهم إلى الله بأقواله وأفعاله وتقريراته وجميع مواقفه في سائر مشاهده .... والدعوة إلى الله على بصيرة هي سبيل نبيه — صلى الله عليه وسلم — وسبيل إخوانه الأنبياء صلى الله عليهم وسلم من قبله"(٣)

ويبين الإمام ابن باديس أن الأمة الإسلامية هي كذلك شريكة لرسولها في وظيفة الدعوة إلى الله تعالى إذ يقول "كما أن الجهاد بالقرآن العظيم هو فرض عليه فكذلك هو فرض على أمته ...(٤) فالمسلمون أفرادا وجماعات عليهم أن يقوموا بالدعوة إلى الله"(٥).

ويقول أيضا "كل من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فهو مأمور بتبليغ رسالته على الخصوص والعموم ، لمقتضى ما نطالب به من التأسي والاقتداء به صلى الله عليه وسلم ولقوله تعالى "قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي"(٦)

---

(١) سورة النحل ٣٦.

(٢) سورة الاحزاب ٤٥.

(٣) تفسير ابن باديس ٣٩٩ ، ٤٠١.

(٤) تفسير ابن باديس ص ٢٥٢.

(٥) المصدر السابق ص ٤٠٠.

(٦) سورة يوسف ١٠٨

فجعل من اتبعه داعيا معه إلى الله على بصيرة •

ولقد عرف السلف هذا فكانوا دعاة إلى الله بأقوالهم وأعمالهم المطابقة لها ، حتى انتشر الإسلام في أقل من ربع قرن في المعمور • " (١)

ويبين ابن باديس واجب الدعاة على الخصوص بقوله : " وكما أن الجهاد بالقرآن العظيم هو فرض عليه فكذلك هو فرض على أمته هكذا على الإجمال وعند التفصيل تجده فرضا على الدعاة والمرشدين الذين يقومون بهذا الفرض الكفائي على المسلمين •• " (٢)

ويثير الإمام ابن باديس مسألتين مهمتين تتعلقان بدعوة الداعي وهما :ـ

(١) هل الداعية مسؤول عن عدم استجابة الناس له ؟

(٢) من الذي يجازي الداعي على دعوته •

وأهمية المسألة الأولى آتية من أنه يخشى على الداعي من الكلل والملل والتوقف عن الدعوة إذا كان يتوقع وهو في بداية دعوته أن الناس سيستجيبون له وبعد ذلك يصدم بإعراضهم عنه ولهذا يقول الإمام " على الداعي أن يدعو ولا ينقطع عن الدعوة ولو لم يتبعه أحد لأنه يعلم أن أمر الهدى والضلال إلى الله وإنما عليه البلاغ " (٣)

ويبين ابن باديس أن رضا الله هو الحافز للداعي وأن النتائج قد تتأخر إلى ما بعد أجيال وإذا كان الأمر كذلك فعلى الداعي " أن يعمل موقنا برضاه ، موقنا بلقائه وعظيم جزائه ، فهو يعمل ولا يفشل ، وسواء عليه أوصل إلى الغاية التي يسعى إليها أم لم يصل إليها حال بينه وبينها موانع الدنيا أو مانع الموت كانت مما

---

(١) عمار الطالبي ـ ابن باديس حياته وآثاره ـ ج ٤ ـ ص ١٥ •

(٢) تفسير ابن باديس ص ٢٥٢ •

(٣) تفسير ابن باديس ص ٤١٦ •

تجنى ثماره في جيله أو لا تجنى ثماره إلا بعد أجيال "[١] .

وأما المسألة الثانية فخطورتها ناتجة من أنه لو انتظر الداعي الجزاء من الناس ثم تأخر هذا الجزاء لخشي عليه اليأس والفتور في العمل أو الانقطاع : يقول الإمام موضحا هذه المسألة " نفعل الخير عاما كما تعم خيرات الله تعالى العباد ، نفعله لأنه خير نستطعم لذته ، غير منتظرين جزاء إلا من الله لأن من انتظر الجزاء من الناس وفي هذه الحياة لا بد أن يميل بخيره عن جهة إلى جهة وربط يكون في ميله قد أخطأ وجه الصواب ولا بد أيضا أن ييأس فيفتر في العمل أو ينقطع عنه عند ما يرى عدم المكافاة من الناس وعدم ظهور أثر خيره في الحياة وأبناء الحياة "[٢]

مكانة الداعية :-

وللداعية إلى الله مكانة سامقة بين عباد الله الصالحين ، كيف لا والله تعالى يقول (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ "[٣] ويقول الإمام بن باديس مبينا قيمة الداعي " وقد سمى الله تعالى الجهاد بالقرآن جهادا كبيرا وفي هذا منقبة كبرى للقائمين بالدعوة إلى الله بالقرآن العظيم وفي ذلك نعمة عظيمة من الله عليهم حيث يسرهم لهذا الجهاد حتى ليصح أن يسموا بهذا الاسم الشريف " مجاهدون " فحق عليهم أن يقدروا هذه النعمة ويؤيدوا شكرها بالقول والعمل والاخلاص والثبات والصبر واليقين "[٤] .

---

(١) تفسير ابن باديس ص ٧٣ .

(٢) تفسير ابن باديس ص ٧٧ .

(٣) سورة فصلت ٣٣ .

(٤) تفسير ابن باديس ص ٢٥٣ .

كفاءة الداعية :ــ

كفاءة الداعية تتحقق بشروط ومن أهمها :

(١) العلم والفهم الصحيح والإيمان العميق :ــ

ينبغي على الداعي قبل أن يشرع في دعوته أن يكون عالما بما يدعو إليه وهو الاسلام فاهما لدقائقه له قدرة على التصدى لكل شبهة تلقى من طرف الأعداء. يقول ابن باديس " العلم قبل العمل ومن دخل في العمل بغير علم لا يأمن على نفسه من الضلال ولا على عبادته من مداخل الفساد والاختلال وربما اغتر به الجهال فسألوه فاغتر هو بنفسه فتكلم بما لا يعلم فضل وأضل "[١] .

هذا لعموم المسلمين ويتأكد في حق العلماء والدعاة لأنهم وهم يدعون الناس لابد لهم من أن يكونوا على علم بالغاية التي إليها يسعون والوسيلة التي بها يستعينون والأسلوب الذي عليه يسيرون ، ونجاح دعوتهم وفشلها يكون بقدر علمهم بذلك فابن باديس رحمه الله يشترط لنجاح الدعوة أن تكون " على بينة وحجة وإيمان ويقين "[٢] .

وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يقول ابن باديس " يدعو إلى الله على بينة وحجة يحصل بها الإدراك التام للعقل حتى يصير الأمر المدرك واضحا لديه كوضوح الأمر المشاهد بالبصر ، فهو على بينة ويقين من كل ما يقول ويفعل وفي كل ما يدعو من وجوه الدعوة إلى الله في حياته كلها في جميع أحواله "[٣] .

(٢) السلوك القويم :ــ

أن تكون أقوال الداعي وأفعاله مطابقة للإسلام بأن يمتثل أوامر الله

---

(١) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ١٠٧ .

(٢) تفسير ابن باديس ص ٤٠٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٩٩ .

تعالى فيفعلها ونواهيه فيتجنبها ويتحلى بالأخلاق الإسلامية المبنية على الإيمان العميق واليقين المتين لأن الذي يأمر الناس بالخير ولا يفعله لا يكاد يصدقه أحد فيما يدعو إليه بل يصبح فتنة للناس • والعقل السليم والفطرة السوية تأبى ذلك وترفضه • والاستقامة على الإسلام من الأمور الصعبة التي لا يقدر عليها إلا الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام والصحابة والتابعون ومن تبعهم من العلماء والمصلحين ذوي النفوس العظيمة والعزائم القوية • فالاستقامة دليل على قوة الإيمان وعمقه فهي ثمرة من ثمراته ، وأكثر ما يرغب الناس في الدين ويدفعهم إلى الدخول فيه هو هذا • ومن هنا نجد ابن باديس يشير إلى ذلك كله فيقول : " على أهل الحق أن يكون الحق راسخا في قلوبهم عقائد ، وجاريا على ألسنتهم كلمات ، وظاهرا على جوارحهم أعمالا "(١) ويقول " ومن الدعوة إلى الله ظهور المسلمين أفرادا وجماعات بما في دينهم من عفة وفضيلة وإحسان ورحمة وعلم وعمل ، وصدق وأمانة فذلك أعظم مرغب للأجانب في الإسلام ، كما كان ضده أعظم منفر لهم منه ، وما انتشر الإسلام أول أمره بين الأمم إلا لأن الداعين إليه كانوا يدعون بالأعمال كما يدعون بالقول ومازالت الأعمال عيارا على الاقوال "(٢) •

---

(١) الشهاب ج٤ - م٧ ص٢٢٩ . ذي الحجة ١٣٤٩هـ - أبريل ١٩٣١م

(٢) تفسير ابن باديس ص٤٠١ •

الفصل الثاني
منهج دعوته

المبحث الاول

البيان عن الدعوة

أو

التعريف بالإسلام

ان ابن باديس رحمه الله تعالى قد سار في دعوته ضمن مرحلتين اثنتين وهما : مرحلة التعريف بالدين : ومرحلة التربية والتعليم نلمس ذلك من أقواله وأعماله ولا يلزم أن يكون هناك فصل بين هاتين المرحلتين بل كثيرا ما تسيران جنبا إلى جنب نظرا لوحدة الدعوة وقوة الارتباط بينهما (١). وقد أشار إليهما ابن باديس بقوله " ومن الدعوة إلى الله مجالس الوعظ والتذكير :

(أ) لتعريف المسلمين بدينهم .

(ب) وتربيتهم في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم على ما جاء به ..." (٢)

وأحيانا يطلق على التعريف اسم " البيان عن الدعوة " (٣)

ولنبدأ بالحديث عن المرحلة الأولى وهي مرحلة التعريف بالإسلام

اتخذ ابن باديس من " التذكير " وسيلة لتعريف الناس بدينهم وتحبيبهم فيه ودعوتهم إلى العمل به وقد عرف التذكير بـ " أن تقول لغيرك قولا يذكر به ما كان جاهلا أو عنه ناسيا أو غافلا " (٤)

والتذكير عند ابن باديس على نوعين : تذكير بالقول وقد سبق تعريفه وتذكير بالعمل والسلوك لأنه يؤدي ما يؤديه القول أو أكثر وقد ذكره ابن باديس بقوله " وقد يقوم الفعل والسمت والهدى مقام القول فيسمى تذكيرا مجازا

---

(١) رسائل الشيخ الامام الشهيد حسن البنا — ص ١٦٠ طبعة دار الشهاب .

(٢) تفسير ابن باديس ص ٤٠٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٠٧ .

(٤) عمار الطالبي — ابن باديس حياته وآثاره ج ١ — ص ١٢٥ .

وتوسعا ويجمع الثلاثة قولك : "عباد الله الصالحون يذكرون الخلق بالخالق بأقوالهم وأعمالهم وسمتهم"(١)

بل الفعل – كما سبق أن أشرت – له تأثير أكثر من القول في كثير من الأحيان لأن الناس لا يصدقون شخصا يدعوهم بقوله ويخالفهم إلى ما ينهاهم عنه ، وإلى هذا أشار الإمام ابن باديس بقوله "... وما انتشر الإسلام أول أمره بين الأمم إلا لأن الداعين إليه كانوا يدعون بالأعمال كما يدعون بالقول ..."(٢)

الداعي لا يخص قوما بالتذكير :–

ينبغي على الداعي أو المذكر ألا يقصر دعوته على فرد أو جماعة أو فئة معينة بل الآيات والأحاديث وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم جاءت بعموم الدعوة وإطلاقها . نبه الإمام ابن باديس إلى ذلك بقوله "كان صلى الله عليه وسلم لا يفتأ مذكرا المؤمنين والكافرين ، والله يهدي من يشاء ويوفق من يريد ، وقد أمر بالتذكير مطلقا في قوله تعالى "فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّر"(٣) وكانت سيرته العملية في التذكير هي العمل بهذا الإطلاق ، فما كان يخص قوما دون قوم في الدعوة والتذكير"(٤) ثم يوضح إشكالا : وهو أن بعض الآيات ورد فيها الأمر بالتذكير مقيدا بالنفع فيقول "فكانت هذه السنة العملية دليلا على أن ما جاء على صورة التقييد في بعض الآيات ليس المراد منه التقييد ومن ذلك قوله تعالى "فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى"(٥)

---

(١) المصدر السابق ج ١ – ص ١٢٥ .

(٢) تفسير ابن باديس ص ٤٠١ .

(٣) سورة الغاشية ٢١ .

(٤) عمار الطالبي – ابن باديس حياته وآثاره – ج ١ – ص ١٢٧ .

(٥) سورة الاعلى ٩ .

فالشرط الصوري هو للاستبعاد ، أي استبعاد نفع الذكرى فيهم "(١)

وبهذه السنة العملية عمل ابن باديس رحمه الله تعالى ، فوجه دعوة الإسلام إلى الكفار من أهل الكتاب بما نشر — على صفحات مجلته الشهاب — من تفسير لبعض الآيات التي جاءت فيها دعوة اليهود والنصارى إلى الإسلام كقوله تعالى "يَاأَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ ... " الايات (٢) (٣)

ما يكون به التذكير :

يكون التذكير بكتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم شرحا وتفسيرا وتطبيقا وهذا ما يقرره ابن باديس رحمه الله في قوله " فالقرآن وبيانه القولي والعملي من سنة النبي صلى الله عليه وسلم بهما يكون تذكير العباد ودعوتهم لله رب العالمين ، ومن حاد في التذكير عنهما ضل وأضل وكان ما يضر أكثر مما ينفع إن كان هناك من نفع" (٤) .

أسلوب الدعوة والتذكير :—

بين ابن باديس أسلوب الدعوة وأنها تتم بثلاث طرق :

- الدعوة بالحكمة
- الدعوة بالموعظة الحسنة
- الدعوة بالجدال

هذه الطرق نصت عليها الآية " أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ

---

(١) عمار الطالبي : ابن باديس حياته وآثاره — ج ١ — ص ١٢٧ .

(٢) المائدة ١٥ ، ١٦ .

(٣) تفسير ابن باديس ص ٤١٧ .

(٤) عمار الطالبي — ابن باديس حياته وآثاره — ج ١ — ص ١٢٧ .

الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ " (١) فابن باديس رحمه الله يرى أن هذه الآية استوفت لنا طرق التذكير والدعوة إذ أن انحراف الناس محصور في نوعين : أمراض عقول (شبهات) وأمراض نفوس (شهوات) ، فالأول يعالج بالحكمة والثاني بالموعظة ، وأما الجدال فهو أسلوب عارض يكون عند وجود ما يقتضيه ، وبمثل هذا المعنى جاء قول ابن باديس " هذه الآية الكريمة جاءت في بيان كيفية الدعوة ، وبماذا تؤدى وكيف يدافع عنها " (٢) وقوله " فإن المقصود بالذات هو الدعوة ، وأما الجدال فإنه غير مقصود بالذات وإنما يجب عند وجود المعارض بالشبهة والصاد بالباطل عن سبيل الله فالدعوة بوجهيها أصل قائم دائم ، والجدال يكون عند وجود ما يقتضيه " (٣)

ثم تعرض إلى تعريف كل من الحكمة والموعظة والجدال وبيان بعض القواعد والآداب التي تتعلق بكل واحد من هذه الثلاثة : ولأهميتها رأيت ضرورة ذكرها في ثنايا هذا البحث :

أولا : الحكمة :-

تعريفها :-

عرفها بقوله : " هي العلم الصحيح الثابت المثمر للعمل المتقن ، المبني على ذلك العلم " .

ثم يشرح هذا التعريف بالمثال فيقول " فالعقائد الحقة ، والحقائق العلمية الراسخة في النفس رسوخا تظهر آثاره على الأقوال والأعمال حكمة ، والأعمال

---

(١) سورة النحل ١٢٥.

(٢) تفسير ابن باديس ص ٤٠٨.

(٣) المصدر السابق ص ٤١٥ .

المستقيمة والكلمات الطيبة التي أثمرتها تلك العقائد حكمة والأخلاق الكريمة كالحلم والأناة وهي علم وعمل نفسي حكمة والبيان عن هذا كله بالكلام الواضح الجامع حكمة ، تسمية للدال باسم المدلول " [1] .

وكأنه يرى أن الحكمة هي كل الدين لأنها تجمع أعمال القلب وأعمال الجوارح ، ويحتج لهذا التعريف بقوله تعالى " ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ " [2] فاسم الإشارة راجع إلى الآيات التي سبقت " وقد جمعت تلك الآيات كل ماذكرنا من العقائد الحقة والحقائق العلمية والأعمال المستقيمة والكلمات الطيبة والأخلاق الكريمة وسمى الله ذلك كله حكمة " [3]

ولهذا فإن الحكمة التي أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعو الناس إلى سبيل ربه بها هي ـ كما يقول ابن باديس " البيان الجامع الواضح للعقائد بأدلتها والحقائق ببراهينها والأخلاق الكريمة بمحاسنها ومقابح أضدادها والأعمال الصالحة ـ من أعمال القلب واللسان والجوارح ـ بمنافعها ومضار خلافها .

وهكذا كان بيانه لهذه الأشياء كلها بما صح من أحاديثه وجوامع كلمه وهكذا هو بيان القرآن لها كلها حيثما كانت من آياته .

فآيات القرآن وأحاديثه صلى الله عليه وسلم ـ في بيان هذه الأشياء البيان المذكور هما الحكمة التي كان يدعو إلى سبيل ربه بها ، وتلك الأشياء كلها أيضا حكمة وهي التي كان يعلمها كما في قوله تعالى " وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ " [4] " [5]

---

(١) تفسير ابن باديس ص ٤٠٨ .

(٢) سورة الاسراء ٣٩ .

(٣) تفسير ابن باديس ـ ص ٤٠٨ .

(٤) سورة البقرة ١٢٩ .

(٥) تفسير ابن باديس ـ ص ٤٠٩ .

وهناك قواعد وآداب تراعى عند الدعوة بالحكمة ذكرها ابن باديس نقتصر على بعضها :

(١) ألا نعتمد في بيان هذه العقائد الحقة والحقائق العلمية إلا على الكتاب والسنة الصحيحة مما طريقه هذان المصدران ، فلا تقبل في ذلك الأحاديث الضعيفة إلا بشروط وعلى هذا ينص ابن باديس " لا نعتمد في إثبات العقائد والأحكام على ما ينسب للنبي صلى الله عليه وسلم من الحديث الضعيف لأنه ليس لنا به علم ، فإذا كان الحكم ثابتا بالحديث الصحيح مثل قيام الليل ثم وجدنا حديثا في فضل قيام الليل بذكر ثواب عليه مما يرغب فيه جاز عند الأكثر أن نذكره مع التنبيه على ضعفه الذي لم يكن شديدا على وجه الترغيب "(١) .

(٢) أن نتبع أسلوب القرآن والرسول صلى الله عليه وآله وسلم في تقديم هذه العقائد والحقائق ونعرض عما أحدثه المتكلمون والفقهاء المتأخرون من الطرق المعقدة والملتوية ، ويقول الإمام ابن باديس رحمه الله :

" أما الإعراض عن أدلة القرآن والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية فإنه من الهجر لكتاب الله ، وتصعيب طريق العلم إلى عباده وهم في أشد الحاجة إليه ، وقد كان من نتيجة هذا ما نراه اليوم في عامة المسلمين من الجهل بعقائد الإسلام وحقائقه . "(٢)

(٣) أن نحدث الناس على قدر عقولهم لئلا نفتنهم

يقول الإمام : " فقد أمرنا أن نحدث الناس بما يفهمون ، وما حدث قوم بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان عليهم فتنة "(٣)

---

(١) تفسير ابن باديس ص ١٣٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٦ .

(٣) المصدر السابق ص ١٣٤ .

(٤) عدم التفصيل الشديد وذكر الخلاف لعموم الناس يقول الإمام — وهو يتحدث عن المفاضلة بين الأنبياء والملائكة في الأجر والثواب — "وفي ذلك خلاف كبير وتفويض أمر ذلك إلى الله تعالى في مقام التذكير أسلم" (١)

(٥) عدم الحكم على شخص بالكفر أو الفسق أو الضلال وإنما يكتفى بذكر الانحراف والضلال مع الأدلة على بطلان ذلك يقول الإمام : "فلا يقال للكافر عند دعوته أو مجادلته إنك من أهل النار ولكن تذكر الأدلة على بطلان الكفر وسوء عاقبته ولا يقال للمبتدع يا ضال وإنما تبين البدعة وقبحها ولا يقال لمرتكب الكبيرة يا فاسق ولكن يبين قبح تلك الكبيرة وضررها وعظم إثمها ، فتقبح القبائح والرذائل في نفسها وتجتنب أشخاص مرتكبيها ، إذ رب شخص هو اليوم من أهل الكفر والضلال ، تكون عاقبته إلى الخير والكمال ورب شخص هو اليوم من أهل الإيمان ينقلب والعياذ بالله تعالى على عقبه في هاوية الوبال." (٢)

ثانيا : الموعظة الحسنة :-

تعريفها : عرفها ابن باديس بقوله " الوعظ والموعظة : الكلام الملين للقلب ، بما فيه من ترغيب وترهيب فيحمل السامع إذا اتعظ وقبل الوعظ وأثر فيه على فعل ما أمر به وترك ما نهي عنه ، وقد يطلق على نفس الأمر والنهي" (٣)

ويستدل لهذا التعريف بقوله

" الاستدلال :

ففي حديث العرباض الذي رواه الترمذي (٤) وغيره "وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ

---

(١) تفسير ابن باديس ص ١٧١.

(٢) المصدر السابق ص ١٥١.

(٣) المصدر السابق ص ٤١٠.

(٤) بشرح التحفة ٧/٤٣٨ ، ٤٣٩ . وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح ونقل المنذري تصحيح الترمذي وأقره (٧/١١–١٢) وقال الالباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٣/١) صحيح

صلى الله عليه وسلم - مَوْعِظَةً وَجِلَتْ - خافت - مِنْهَا القُلُوبُ ، وذَرَفَتْ - سالت - مِنْهَا العيونُ ... إلخ " . فقد خطب فيهم خطبة كان لها هذا الأثر في قلوبهم . فهذه حقيقة الموعظة .

ويستدل لإطلاق الموعظة على الأمر والنهي بقوله تعالى " وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ .. "(١) أي يؤمرون به ، وقال تعالى " يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا "(٢) أي ينهاكم .

ثم يبين وجه اطلاق الوعظ على الامر والنهى بقوله " لان شأن الامر والنهى أن يقترن بما يحمل على امتثاله من الترغيب والترهيب "(٣)

ماتكون به الموعظة :-

يبين ابن باديس رحمه الله بم تكون الموعظة فيقول :

" يكون الوعظ بذكر أيام الله في الأمم الخالية ، وباليوم الآخر وما يتقدمه ، وما يكون فيه من مواقف الخلق وعواقبهم ومصيرهم إلى الجنة أو إلى النار وما في الجنة من .... وما في النار من ... وبوعد الله ووعيده .

وهذه أكثر ما يكون بها الوعظ ، ويكون بغيرها كتذكير الإنسان بأحوال نفسه ليعامل غيره بما يحب أن يعامل به ، وهو من أدق فنون الوعظ وأبلغها مثل قوله تعالى - وقد نهى أن يقال لمن ألقى السلم لست مؤمنا - : " كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُم "(٤) وقوله تعالى - وقد أمر بالعفو والصفح - : " أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ "(٥) .

---

(١) النساء ٦٦ .

(٢) النور ١٧ .

(٣) تفسير ابن باديس ص ٤١٠ .

(٤) سورة النساء ٩٤ .

(٥) سورة النور ٢٢ .

وبعد ما يضرب أمثلة للحكمة والموعظة من كتاب الله تعالى يشير إلى أنه قد تقترن الموعظة الحسنة بالحكمة في كثير من الآيات ويورد لذلك أمثلة وبعدها ينتقل إلى الكلام عن الموعظة الحسنة ويبين متى تسمى بهذا الاسم فيقول:

" حسن الموعظة :

الموعظة التي يحصل المقصود منها من ترقيق للقلوب يحمل على الامتثال لما فيه خير الدنيا والآخرة هي الموعظة الحسنة " .

ثم يوضح متى يحصل المقصود منها فيقول :

" وإنما يحصل المقصود منها إذا : حسن لفظها بوضوح دلالته على معناها ، وحسن معناها بعظيم وقعه في النفوس ، فعذبت في الأسماع واستقرت في القلوب وبلغت مبلغها من دواخل النفس البشرية فأثارت الرغبة والرهبة وبعثت الرجاء والخوف بلا تقنيط من رحمة الله ولا تأمين من مكره ، وانبعثت عن إيمان ويقين وتأدت بحماس وتأثر فتلقتها النفس من النفس وتلقنها القلب من القلب إلا نفسا أحاطت بها الظلمة وقلبا عم عليه الران . عافى الله قلوب المؤمنين "(١)

وعند حديثه على الجوانب التي ينبغي مراعاتها

زيادة على ما ذكرنيه الإمام ابن باديس إلى جوانب أخرى يحسن مراعاتها ليتحقق مقصود الموعظة وهي :

(١) نظر الواعظ - أثناء وعظه - إلى من يخاطبهم بعين الشفقة والرحمة أي أن تظهر على قسمات وجهه ومن خلال نبرات صوته ، وسياق كلامه ومعانيه علامات الشفقة عليهم والاحترام والإكبار لهم .. لا علامات الاحتقار مما يؤدي بهم

---

(١) تفسير ابن باديس ص ٤١١ .

إلى اليأس والقنوط من إصلاح حالهم • وإلى هذا أشار ابن باديس بقوله : " على من يريد أن يرشد المسلمين ويعمل لإصلاح حالهم أن ينظر إليهم بعين الشفقة والحنان لا بعين الزراية والاحتقار • " (١)

ثم يبين ما لهذا الخلق من أثر على نفسية الأمة التي يخاطبها فيقول رحمه الله تعالى :

" فتشعر نفوس الأمة منه بتلك الشفقة فتقابله بمثلها وبالامتثال لما يأتيها منه لمعالجتها واثقة منه بنصحه منقادة لإرشاده راجية نيل الخير على يده " (٢)

ويبين أثر كلام الزاري المحتقر للأمة على نفسيتها بقوله :

" والزاري المحتقر تشعر منه الأمة بذلك فتقابله بمثله وتنقبض نفوسها عنه وتقوى ريبتها في قوله وفعله ••• " (٢)

(٢) خلو الموعظة مما يقنط في رحمة الله أو يؤمن من مكره بل تثير الرغبة والرهبة وتبعث على الرجاء والخوف وتكون في " رفق وهوادة مجتنبين كل ما فيه تقنيط أو تثبيط ••• " (٣)

(٣) كونها موافقة للحال والزمان والمكان إذ لكل مقام مقال مقتديا بالخطب النبوية والخطب السلفية التي " كانت كلها على هذا المنوال تشتمل مع الوعظ والتذكير على ما يقتضيه الحال •• " (٤) وعلى الخطباء والوعاظ أن تكون لهم في نزول القرآن مُنَجَّمًا ــ " قدوة صالحة في توخيهم بخطبهم الوقائع وتطبيقهم خطبهم على مقتضى الحال • (٥)

(٤) ترك الموعظة عند خوف المفسدة

فالنهي عن المنكر يسقط إذا كان يؤدي إلى منكر أكبر ، وهذه قاعدة

---

(١) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ٨٠ ، ٨١ •

(٢) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ٨٠ ، ٨١ •

(٣) نفس المصدر السابق والصفحة •

(٤) تفسير ابن باديس ص ٢٤٢ •

(٥) نفس المصدر السابق والصفحة •

عظيمة من قواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم تغب عن ابن باديس فذكرها
- وهو بصدد شرحه لحديث الصحابي الجليل معقل بن يسار رضي الله عنه الذي
أخر نصيحته للأمير : عبيد الله بن زياد بن أبيه حتى زاره وهو في مرض الموت[1] -
بقوله :

" ترك الموعظة خوف المفسدة :

كان معقل بن يسار يرى من ظلم عبيد الله بن زياد وغشه للرعية ولم
يستطع أن يواجهه بما في هذا الحديث من الموعظة خوف أن يبطش به فتثور من أجل
قتله أو إذايته ثائرة بالبصرة تؤدي إلى سفك دماء المسلمين دون أن تكف ابن زياد
عن ظلمه فاتقاء لهذا لم يواجهه بالموعظة حتى جاء عبيد الله لعيادته - وقد علم
معقل أنه في مرض موته فاغتنم الفرصة وجابهه بالموعظة لما خلصت للمصلحة وأمن المفسدة[2] "

(٥) وضوح الموعظة وعدم تعقيد ألفاظها مع تجنب الآثار الواهية التي فيها أعظم
الجزاء على أقل الأعمال[3]

يرى ابن باديس أن الأسباب التي
تدفع بالداعية إلى الجدال هي المعارضة
من دعاة الباطل والمشاغبة بالشبه والاستطالة بالأذى والسفاهة ، فيضطر هو إلى
رد باطلهم وإبطال شغبهم ودحض شبههم[4] .

ويرى أن : (التي هي أحسن)
هي الطريقة الخالية من كلماتهم الباطلة والقبيحة وأساليبهم المتناقضة
والملتوية بل على الداعي أن يلتزم - في الجدال - كلمة الحق والكلمات الطيبة

---

(١) فتح الباري ، ١٣/١٢٦ ، ١٢٧ ، ك: الأحكام ، ب: من استرعى رعية فلم ينصح .
- ومسلم بشرح النووي ، ٢/١٦٥ ، ك: الايمان ، ب: استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار .

(٢) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ١٢٢ .

(٣) تفسير ابن باديس ص ٤١٢ .

(٤) المصدر السابق ص ٤١٣ .

(٥) نفس المصدر السابق والصفحة .

البريئة ، وأن يسلك في مدافعتهم طريق الرفق والرجاحة والوقار دون فحش ولا طيش ولا فظاظة (١)

ومن هذا يتبين لنا أنها طريقة خيرة ناجحة لما جمعته من الحسن في لفظها ومعناها ومظهرها وتأثيرها وإفضائها للمقصود من إفحام المبطل وجلبه ورد شره عن الناس واطلاعهم على نقصه وسوء قصده (٢) .

ويكشف لنا ابن باديس عن الحكمة في توصية الله تعالى بهذه الطريقة الأحسن في الجدال بأن أهل الباطل يسلكون في جدالهم لتأييد باطلهم الطرق الملتوية والأساليب المتناقضة ذات الكلمات القبيحة البذيئة ، ويخشى على الداعي أن يدفعه ذلك إلى مجاراتهم فنصحه الله تعالى بذلك (٣) .

ويرى ابن باديس أن منهج الجدل ينبغي أن يقوم على منهج القرآن والسنة ففيهما البيان الكافي الشافي للجدال بالتي هي أحسن كما فيهما البيان الشافي الكافي للحكمة والموعظة الحسنة

فعلينا أن نطلب هذا كله من الكتاب والسنة ونجهد في تتبعه وأخذه واستنباطه منهما ، وندأب على العمل بما نجده ، والتحلي به والالتزام له ، من هذه الأصول الثلاثة في الدعوة والدفاع عنها " (٤) .

على أنه إذا وردت علينا أي شبهة من أعداء الدين فعلينا أن نهرع للقرآن ففيه الرد على كل الشبه وهذا ما يصرح به ابن باديس قائلا " ولا نحسب شبهة ترد على الإسلام إلا وفي القرآن العظيم ردها بهذا الوعد الصادق من هذه الآية

---

(١) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٢) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٣) تفسير ابن باديس - ص ٤١٣ .

(٤) المصدر السابق ص ٤١٤ .

الكريمة [١] فعلينا عند ورود كل شبهة من كل ذي ضلالة أن نفزع إلى آي القرآن ولا اخالنا إذا أخلصنا القصد وأحسنا النظر إلا واجديها فيها وكيف لا نجدها في آيات ربنا التي هي الحق وأحسن تفسيرا [٢] ؟ "

ويقرر ابن باديس أن الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن أمر واجب ثم يوضح الحكمة في تنوع هذه الطرق بأن الدعوة بالحكمة إنما هي للتعريف بسبيل الرب جل جلاله ، والدعوة بالموعظة ترغيبا لتحبيب الدين للناس ، والجدال لدفاع من يصدون عن هذا السبيل ، ثم يعقب قائلا : "إذ لا قيام لشيء من الحق إلا بهذه الثلاث" [٣] .

ويرى ابن باديس أنه ينبغي للداعي أن يراعي عند الجدال أهمية أن يكون متحصنا بالعلم مدججا بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة مع الكلام البين والأسلوب الفصيح مقتديا " بالقرآن فيما يأتي به من كلام في مقام الحجاج أو مقام الإرشاد ، وليتوج دائما الحق الثابت بالبرهان أو بالعيان وليفسره أحسن التفسير وليشرحه أكمل الشرح وليقربه إلى الأذهان غاية التقريب [٤] .."

وأن يبين ما يستدعيه ذلك من

(أ) صحة إدراك .

(ب) وجَوْدة فهم .

(جـ) ومتانة العلم .

---

(١) سورة الفرقان ٣٣ .

(٢) تفسير ابن باديس ص ٢٤٤ .

(٣) تفسير ابن باديس ص ٤١٤ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٤٥ .

وهذا كله لتصور الحق ومعرفته ويستدعي كذلك :

حسن البيان وعلوم اللسان لتصوير الحق وتجليته والدفاع عنه ،

فالاقتداء بالقرآن – في هذه المسألة في نظر ابن باديس لا يتم إلا بأن نحصل هذه كلها ونتدرب فيها ونتمرن عليها حتى نبلغ إلى ماقدر لنا منها [1] . ويذيل كل هذا بقوله " هذا ما على أهل الدعوة والإرشاد وخدمة الإسلام والقرآن " [2]

(٢) ولا يكفي في نظر ابن باديس وجود العلم والأسلوب الواضح بل لا بد من تنظيم المعلومات وترتيبها ليسهل على الداعي الوصول إلى المراد ، وعلى الخصم الفهم إن كان يريد الفهم بما عنده من حسن قصد . فهذا هدهد سليمان نراه " متثبتا فيما أخبر ، بارعا فيما صور ، مستدلا فيما قرر وفيما أنكر بصيرا بكيد الشيطان للإنسان متفطنا لانبناء الضلالات بعضها على بعض خبيرا بترتيب الأدلة وحسن الاستنتاج " فكيف لا يعتبر به الدعاة الى الله ؟ و " فيما ذكر الله لنا من هذه العبر البالغة من هذا الحيوان الأعجم حث لنا على أن نسلك – عندما نخبر ونبين أو نبحث وننظر ونستدل ونرتب ونعلل – هذا المسلك " [3] ويضع ابن باديس بعض القواعد الهامة للداعية عند الجدال ومنها :

(١) ترك الفرصة للخصم بالكلام أو انتظاره حتى ينتهي ثم يدلي الداعي بحجته ولا يقاطعه قبل الانتهاء و (على المناظر أن يستمع لمناظره حتى يستوفي دعواه وحجته " [4] .

---

(١) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(٢) تفسير ابن باديس – ص ٢٤٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٥٢ .

(٤) المصدر السابق ص ٤٤١ .

(٢) تجنب ذكر العيوب والمثالب والاكتفاء بذكر الحجج بقصد إحقاق الحق وإبطال الباطل ، وبهذا ينصح ابن باديس رحمه الله فيقول : " على الداعي إلى الله والمناظر في العلم أن يقصد إحقاق الحق وإبطال الباطل وإقناع الخصم بالحق وجلبه إليه ، فيقتصر من كل حديثه على ما يحصل له ذلك ويتجنب ذكر العيوب والمثالب - ولو كانت هناك عيوب ومثالب - إقتداء بهذا الأدب القرآني النبوي في التجاوز مما في القوم عن كثير ، وفي ذكر العيوب والمثالب خروج عن القصد وبعد عن الأدب وتعد على الخصم وإبعاد له وتنفير عن الاستماع والقبول وهما المقصود من الدعوة والمناظرة " (١)

(٣) الحذر من المدافعة والمغالبة التي هي من فطرة الإنسان .

نبه على هذا الامام ابن باديس بقوله " فلنحذر من أن يطغى علينا خلق المدافعة والمغالبة فنذهب في الجدل شر مذاهبه ، وتصير الخصومة لنا خلقا ، ومن صارت الخصومة له خلقا أصبح يندفع معها في كل شيء ولأدنى شيء ، لا يبالي بحق ولا باطل ، وإنما يريد الغلب بأي وجه كان .. " (٢)

(٤) يحسن من الداعي استدراج الضال لقبول الهداية وذلك بمناصفته بأن يظهر له بأنه على ناحيته وهو على ناحيته وإظهار التساوي معه أمام علم الله تعالى وقدرته (٣) " قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً " (٤)

ومما يرجع إلى هذه الطرق الثلاث في الدعوة أو هو منها بعض الأعمال

---

(١) تفسير ابن باديس ص ٤١٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٤١٦ .

(٣) المصدر السابق ص ١٩٦ .

(٤) الاسراء ٨٤ .

المختلفة يذكرها ابن باديس في معرض بيانه لأقسام من الدعوة قال رحمه الله " ومن الدعوة إلى الله :

(أ) دروس العلوم كلها مما يفقه في دين الله ويعرف بعظمة الله وآثار قدرته ويدل على رحمة الله وأنواع نعمته ، فالفقيه الذي يبين حكم الله وحكمته داع إلى الله والطبيب المشرح الذي يبين دقائق العضو ومنفعته داع إلى الله ومثلهما كل مبين في كل علم وعمل .

(ب) ومن الدعوة إلى الله بيان حجج الإسلام ودفع الشبه عنه ونشر محاسنه بين الأجانب عنه ليدخلوا فيه وبين مزعزعي العقيدة من أبنائه ليثبتوا عليه .

(جـ) ومن الدعوة إلى الله مجالس الوعظ والتذكير لتعريف المسلمين بدينهم وتربيتهم في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم على ما جاء به ، وتحبيبهم فيه ببيان ما فيه من خير وسعادة لهم ... إلخ

(د) ومن الدعوة إلى الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو فرض عين على كل مسلم ومسلمة بدون استثناء ، وإنما يتنوع الواجب بحسب رتبة الاستطاعة

(هـ) ومن الدعوة إلى الله ظهور المسلمين - أفرادا وجماعات - بما في دينهم من عفة وفضيلة ، وإحسان ورحمة وعلم وعمل ، وصدق وأمانة فذلك أعظم مرغب للأجانب في الإسلام .

(و) ومن الدعوة إلى الله بعث البعثات إلى الأمم المسلمة ونشر الكتب بألسنتها وبعث المرشدين إلى عوام الأمم المسلمة لهدايتهم وتفقيههم "[1] .

---

(١) تفسير ابن باديس ص ٤٠٠ .

تطبيقة لهذا الأسلوب في الواقع

بعدما انتهيت من بيان أسلوبه في التعريف بالإسلام من الناحية النظرية أريد الآن أن ألقي نظرة على تطبيقه له في الواقع العملي ٠

كان نشاط ابن باديس في الدعوة إلى الله متنوعا ومنه :

(١) الدروس المسجدية التي كان يقدمها في الجامع الأخضر بقسنطينة بصورة نظامية (١) ،

(٢) محاضرات في مناسبات مختلفة (٢) ٠

(٣) دروس الوعظ والإرشاد في المدن والقرى

كان يقوم بجولات عبر مدن القطر وقراه نهاية كل سنة دراسية يلتقي خلالها بأبناء الشعب الجزائري فيعرفهم بدينهم ببيان حقائقه وأحكامه ، ويبصرهم بما أدخل عليه من البدع والخرافات وهكذا نقلت لنا مجلة الشهاب شيئا من هذه الرحلات التي كان يرحلها الإمام تعتبر صورة صادقة عما كان يقوم به من دعوة إلى الله ، اقتصر على نقل بعضها :

(أ) جاء في مجلة "الشهاب" بقلم الشيخ ابن باديس رحمه الله ما يلي :-

" رحلتنا إلى العمالة الوهرانية

تاريخ بداية الرحلة ونهايتها :

سافرت من العاصمة يوم الأربعاء ٢٧ محرم وحللت بها صبيحة الثلاثاء ١ ربيع الأول ٠

البلدان التي زرتها :

المدية ، البرواقية ، قصر البخاري ، الجلفة ، الأغواط ، آفلو ، سوقر

---

(١) انظر ص ٨٨ من هذه الرسالة ٠

(٢) انظر ابن باديس حياته وآثاره ج ٣ - ٤ عمار الطالبي ٠

تيارت ، فرندة ، معسكر ، سعيدة ، البيض ، وهران ، سيدي بلعباس ، تموشنت تلمسان ، مغنية ، الغزوات ، ندرومة ، آرزيو ، بريقو ، مستغانم ، زاوية الشيخ بن طكوك، غليزان .

ماذا كنت أقوم به في كل بلدة :ـ

كنت أزور في الأكثر قبل كل شيء المسجد لأن البداءة به هي السنة ولألفت نظر الأمة إلى حرمة المسجد وفضله وأنه هو الأحق بأن يقصد عند الملمات للوقوف بين يدي الله والحصول على أقرب أحوال العبد إلى مولاه وهي السجود فإن العامة فيما رأيت من كثير منهم يفزعون إلى البناءات المضروبة على الأضرحة ويظهرون فيها من الخشوع والخضوع ما لا أراه منهم في بيوت الله ... إلخ

موضوع الدرس ومادته

كانت الدروس كلها حثا على الفضائل وتنفيرا من الرذائل وبيانا لحقائق الدين التي بمعرفتها يكمل الإنسان في إسلامه وفي إنسانيته ، ودعوة للتوحيد والاتحاد والإحسان إلى جميع العباد وحثا على التآلف والتعاون مع جميع السكان على اختلاف الأجناس والأديان .

وكانت مادة الدرس دائما آية من كتاب الله مشفعة بحديث رسوله عليه وآله الصلاة والسلام ... إلخ

الأسئلة والأجوبة

أكثر ما سئلنا عنه بوجه عام هو التصوف والولاية والكرامة والتوسل فكنا نجيب بأن : ما كان من تزكية النفس وتقويم الأخلاق والتحقق بالعبادة والإخلاص فيها فهو التصوف المقبول وكلام أئمته فيه ككلام سائر أئمة الإسلام في علوم الإسلام لا بد من بنائه على الدلائل الصحيحة من الكتاب والسنة ولا بد من الرجوع عند التنازع فيه إليهما . وكنت أذكر ما يوافق هذا من كلام أئمة الزهد المتقدمين كالجنيد وأضرابه

وكنا نجيب بأن الولاية من الإيمان فأكمل الناس إيمانا أكملهم ولاية وأن الكرامة حق بحقيقتها وشروطها المذكوره في كتب الأئمة وأن تحققها هو المتوقف على وجود الصلاح الشرعي فيمن ظهرت على يده لا أن تحقيق الصلاح متوقف عليها وكنا نجيب بأن الدعاء هو العبادة وأنه مخ العبادة كما جاء في الحديث .. إلخ (١) .

ولا حاجة للتعليق على هذه الرحلة وبيان ما فيها من أعمال تطبيقية لما ذكرناه قبل من أسس نظرية .

(ب) ويقول أيضا رحمه الله :

" عرفتني تنقلاتي في بعض قرى مافي قلوب عامة المسلمين الجزائريين من تعظيم للعلم وانقياد لأهله إذا ذكروهم بحكمة وإخلاص .

ماحللت ببقعة إلا التف أهلها حولي يسألون ويستمعون في هدوء وسكون وكلهم أو جلهم منتمون للطرق

ماكنت أدعوهم في جميع مجالسي إلا لتوحيد الله والتفقه في الدين والرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ... إلخ "

إلى أن يقول ـ وهو يتحدث عن تنقلاته :

" نزلنا عند السيد الزيتوني بُوصَاع وسألَنَا عن الإسلام الصحيح فأجبنا بأنه : مافي القرآن والسنةِ بيانِ القرآن ، وبينا أثر القرآن في العرب وكيف تطوروا به ذلك التطور الغريب السريع من انحطاط الجاهلية إلى رقي الإسلام وما يناسب هذا من التذكير" (٢)

---

(١) عمار الطالبي ، ابن باديس حياته وآثاره ج ٤ ص ٣١٨ .
حديث (الدعاء هو العبادة) قال فيه الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . انظر تحفة الأحوذي ج ٩ ص ٣١١-٣١٢ . وأما حديث (الدعاء مخ العبادة) فقد قال فيه : حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة . ج ٩ ص ٣١١/٣١٢

(٢) المصدر السابق ج ٤ ـ ص ٢٩٧ .

(٤) الكتابات :ــ

كتب في " المنتقد " و " الشهاب " وهما الجريدتان الخاصتان به وكتب أيضا في جرائد الجمعية " الشريعة " " الصراط " السنة " البصائر " وكانت كتاباته هذه متنوعة يعالج بها جميع القضايا ، وأورد الآن كلمة لابن باديس يبين لنا فيها الغاية التي أنشئت لها كل من " المنتقد " و " الشهاب ":

قال رحمه الله : " في يوم النحر من ذي الحجة خاتمة شهور عام ثلاثة وأربعين وثلاثمائة وألف برزت جريدة " المنتقد " تحمل فكرة الإصلاح الديني بتنزية الإسلام عما أحدثه فيه المبتدعون وحرفه الجاهلون . وبيانه كما جاء في القرآن العظيم والسنة المطهرة وعمل به السلف الصالحون معلنة أن المسلمين بذلك وحده تصفو عقائدهم وتزكو نفوسهم وتستقيم أعمالهم وينبعثون عن قوة وبصيرة في الأخذ بأسباب الحياة الراقية والمدنية الطاهرة ، مشاركين لأمم الدنيا في خدمة الإنسانية وترقية وتوسيع العمران ، سالمين مما تشكو منه أمم الحضارة التي غلبت عليها المادية والأنانية وتفشت فيها أمراض ليست من التمدن الحقيقي في كثير ولا قليل . "

" برزت جريدة المنتقد تحمل هذا ... "

وبعد أن بين كيف أوقف الاستعمار هذه الجريدة أردف قائلا :

" صدرت جريدة الشهاب إثر تعطيل المنتقد على مباديه وخطته ... "(١)

---

(١) عمار الطالبي ــ ابن باديس حياته وآثاره ج ٤ ــ ص ٣٥٢ .

ومن أراد نماذج مفصلة عن عمله التطبيقي لأسلوبه النظرى في التعريف بالاسـلام والدعاية له فليرجع الى آثاره التي جمعها الدكتور عمار الطالبي في أربع مجلدات بعنوان "ابن باديس حياته وآثاره" . وسيجد القارىء في آثاره هذه نماذج عن الدعوة بالحكمة وبالموعظة وبالجدال كما سبق تعريفها والتفصيل فيها (١).

---

(١) ـ انظر : المصدر السابق ج ٣ ص٧٣ ، وص (٢٨٦ ـ ٢٩٧) وج ١ ص ٤٤٧ .

المبحث الثاني : التربية

تمهيد :

قد سبق أن ذكرنا أن هدف ابن باديس من دعوته الإصلاحية هو إيجاد قاعدة شعبية واسعة وصلبة تكون هي السلاح الأمضى لإخراج الاستعمار من الجزائر [١]، وهذه القاعدة لاتتم إلّا بإعداد الأفراد فردا فردا إذ بصلاح الفرد يكون صلاح المجموع [٢] ثم الربط بين هؤلاء الأفراد حتى يتكون منهم بناء متين ومحكم كما يقول ابن باديس رحمه الله - مستوحيا ذلك من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم [٣] - " الواجب على كل فرد من أفراد المؤمنين أن يكون لكل فرد من أفراد المؤمنين كالبنيان في التضام، والالتحام حتى يكون منهم جسد واحد كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر : (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) [٤] " [٥]

وإعداد الفرد والجماعة لايتم الّا بتربية الفرد والجماعة تربية من شأنها أن تثمر قوة للفرد وقوة للمجموع كما يصرح بذلك ابن باديس فيقول : "إن كل ما نأخذه من الشريعة المطهرة علما وعملا فاننا نأخذه لنبلغ به ما نستطيع من كمال في حياتنا الفردية والاجتماعية

---

(١) - انظر : ص ٣٣٠

(٢) - تغسير ابن باديس ص٩٦ .

(٣) - ونصه : "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ،ثم شبك بين أصابعه" في ص(٣١٣) تخريجه

(٤) - الفتح ١٠/٤٣٨ ، ومسلم بشرح النووى ١٦/ ١٣٩- ١٤٠ .

(٥) - مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص١٠٠ .

والمثال الكامل لذلك كله هو حياة محمد صلى الله عليه وسلم في سيرته الطيبة" (١)، ويحدد لنا معنى التربية بقوله: "هي القيام على إنشاء الشيء وتعاهده في جميع أطواره إلى التمام والكمال" (٢)، ومن معناها هذا نعلم أن الله سبحانه وتعالى هو أول من تولى هذه المهمة الخطيرة فهو "الرب" الذي يربي كل المخلوقات ويرعاها ، وعهد كذلك إلى الانسان أن يربي أخاه الانسان بأن يتعاهده بالغذاء البدني والروحي والعقلي من صغره إلى تمام رشده وعقله حتى يصل إلى درجة الكمال أو يقاربها على قدر طاقته واستعداده الفطري .

والحاجة إلى هذه التربية ماسة، وأهميتها واضحة وذلك لأمرين اثنين هما :

أولا : أن الله خلق الانسان لعبادته وتتمثل هذه العبادة في طاعات أمره بها ومعاص نهاه عنها ولا يمكن له أن يقوم بهذه العبادة إلا إذا كانت له نفس عظيمة لا تستهويها مغريات النفس وشيطان الانس والجن ، وعظمة النفس وقوتها لا تكتسب إلا بالتربية .

ثانيا : إن المهمة التي كلف بها المسلم في هذه الدنيا هي نشر هذا الدين وتحرير الناس من الاستعباد في الأرض كلها باعلان العبودية لله تعالى حتى يكون الدين كله لله ، وقبل الوصول إلى هذه الغاية سيجد المؤمن المجاهد أمامه صعوبات لا يصبر على التصدى لها إلا من مرّ بتربية إيمانية . وأما الذي لم يأخذ حظا من هذه التربية فلربما ضيع دينه فضلا عن الدعوة إليه ونشره، وما ثبت – عند ارتداد العرب – على الاسلام إلا الذين تربوا على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يشير إلى ذلك ابن باديس رحمه الله بقوله : "ولكن خواص أصحابه هم الذين لازموه وتفقهوا عليه وتربوا تحت رعايته ، وهؤلاء هم الذين ثبتوا على الاسلام لما ارتدت العرب بعد موته ، وثبت الله بهم الاسلام وكان ذلك – بإذن الله – من آثار الفقه في الدين والتربية النبوية" (٣). وعن أثر هذه التربية في حياة الفرد والجماعة يحدثنا ابن باديس فيقول: "نحن – المسلمين – ربينا تربية إسلامية على ألفة الجوع ، والتقلل من الأكل والاقتصار على قدر الحاجة، والمواساة في المطعم والمشرب ....

---

(١) – "الشهاب" ج٧ م ١٥ ص٣٤٤ – عدد اغسطس .
(٢) – تفسير ابن باديس ص٤٩٤ .
(٣) – عمار الطالبي ، ابن باديس حياته وآثاره ، ج ٤ ص ٩٥ .

وبهذه التربية استطعنا أن نبقى ونعيش في مثل ما عليه حالة معظم الأمة الجزائرية من الفاقة والعوز والجوع والمسغبة ،بينما هي تنظر إلى ما ينعم فيه غيرها من النعمة والرخاء ممّا لو أصاب أمّة أخرى لاجتاحها وأفناها ،أو لأثارها ودفعها إلى موارد العذاب والردى

وكما ربانا الاسلام هذه التربية من ناحية الغذاء فقد ربانا تربية أخرى من نواحي أخرى ، ربانا على محبة العلم والمعرفة والرغبة فيهما والتلهف على مافات منهما والاحترام لمن كان له حظ فيهما .

وبهذه التربية استطعنا ، رغم الفاقة ورغم الجوع ورغم التثبيط والمعاكسة أن نحافظ على قرآننا وخطنا ،وبقايا علوم لغتنا ، وديانتنا ، وجملة معارفنا فاندفعنا إلى تأسيس المكاتب العربية رغم ما يحول بينها وبيننا واندفعنا إلى المكاتب الحكومية فضاقت عنا وبقيت مئات الآلاف في أنياب الجهل والفقر من أبنائنا .

ولولا تلك التربية الاسلامية التي زرعتها القرون فاستقرت في قرارات النفوس وصارت من الخلق الموروث لكان ما نحن فيه من ظلم وتعاسة وتقديم كل أحد علينا في وطننا والترك لمعامل التجويع والتجهيل تخرج آلاتها الفتاكة المتنوعة للقضاء علينا ـ شاغلا لنا عن العلم وعن الشعور به وعن طلبه وعن المزاحمة عليه. " (١)

هذه التربية التي يذكر ابن باديس أنها هي السبب في محافظة المسلم على دينه ولغته وتاريخه وعلمه وشخصيته اتخذها طريقا لإعداد الشعب الجزائرى وتعبئته ،وهذه التربية هي المرحلة الثانية من مراحل دعوته التي ينصّ عليهما بقوله : "ومن الدعوة الى الله مجالس الوعظ والتذكير لـ :

١ ـ تعريف المسلمين بدينهم .

٢ ـ وتربيتهم في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم على ما جاء به... " (٢)

والآن أنتقل إلى تفصيل القول في منهج ابن باديس في تربية الفرد والجماعة.

---

(١) ـ مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ١٤٣

(٢) ـ تفسير ابن باديس ص ٤٠٠

المطلب الأول : تربية الفـــرد

الهدف من هذه التربيــــة :

الغاية من هذه التربية هي تكوين الانسان الصالح حسب المنهج الإسلامـــــي، والمسلم الصالح هو الذي استقام في عقيدته وأخلاقه وأعماله مع ربه ومع نفسه ومع النـــاس، وبهذا يسمى عابدا لله تعالى بالمفهوم الواسع لكلمة العبادة، ويبين ابن باديس رحمه اللـه تعالى مواصفات المسلم الصالح فيقول : "الصالح هو من استنار قلبه بالإيمان والعقائد الحقة وزكت نفسه بالفضيلة والأخلاق الحميدة، واستقامت أعماله وطابت أقواله، فكان مصدر خيـــر ونفع لنفسه وللناس، استقام نظامه في عقده وخلقه وقوله وعمله، فعظمت وزكت منفعته" ثم يقول : "وهذا هو معنى الصالحين حيثما جاء كما في قوله تعالى : (والشهداء والصالحين) [1] وكما في التشهد :(السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) [2]" ثم يستشهد بالقرآن علـى ما ذهب إليه من معنى الصلاح فيقول: "وقد بين القرآن من هم الصالحون بيانا شافيا وكافيـا بذكر صفاتهم مثل قوله تعالى : (مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُـــمْ يَسْجُدُونَ، يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِـــــي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ) [3]" [4].

المثال والنموذج في الصلاح :

والصلاح بالمعنى الذي جاء به القرآن قد تحقق في رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو ــ كما يقول ابن باديس ــ "المثال الكامل لذلك كله" [5] وذلك لأنه : "كان مثالا ناطقـا لهدي القرآن وتطبيقا لكل ما دعا القرآن إليه بالأقوال والأفعال والأحوال مما هو المثل الأعلـى

---

(١) ــ النساء ٦٩
(٢) ــ مسلم بشرح النووي ٤ / ١١٥، ١١٦، والفتح ٢ / ٣١١ .
(٣) ــ آل عمران ١١٣، ١١٤
(٤) ــ تفسير ابن باديس ص ٤٤٤، ٤٤٥
(٥) ــ مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ٣٢٨

في الكمال والحجة الكبرى عند جميع أهل الاسلام" (١)

ويزيد ابن باديس فيؤكد هذه النقطة بقوله : "سلوكه هو في حياته على هذا الصراط المستقيم من يوم عرف الدنيا حتى فارقها ،فكان يمثله على أكمل وجه لا يخلّ بشيء منه ثابتا عليه لا يحيد قيد شعرة عنه دون أن تحفظ عنه زلّة ....." (٢) ولهذا فقد صدّقت عائشة رضي الله عنها — لما سئلت عن خلق النبي صلّى الله عليه وسلم فقالت: (كان خلقه القرآن)(٣)" (٤).

ويأتي بعده في هذا الصلاح صحابته رضي الله عنهم الذين رباهم على يديه بالقرآن ،ولذا فإن ابن باديس جعل غايته من التربية القرآنية أن يُظهر رجال كرجال السلف، قال رحمه الله : "إننا —والحمد لله — نربي تلامذتنا على القرآن من أول يوم ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم وغايتنا التي ستتحقق أن يكون القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها" (٥)

<u>مصدر منهج التربية هو القرآن</u> :

وأما المنهج الذي يربي عليه الناس فهو القرآن الكريم ، لأنه هو الذي أخرج ذلك الجيل الفريد جيل الصحابة رضي الله عنهم،وإن هذا القرآن — كما يقول ابن باديس — الذي كون رجال السلف لا يكثر عليه أن يكون رجالا في الخلف لو أحسن فهمه وتدبره وحملت الأنفس على منهاجه . (٦)

ويقرر ابن باديس أن التربية الإسلامية تشمل الكائن البشري كلّه،لا تترك منه شيئا ولا تغفل عن شيء . جسمه وعقله وروحه،حياته المادية والمعنوية ... هذا ما يشير إليه

---

(١) — عمار الطالبي ،ابن باديس حياته واثاره،ج ٣ ،ص٢٥
(٢) — انظر ص (١٧٦)
(٣) — تفسير ابن باديس ،ص ٤٢١
(٤) — مسلم بشرح النووي ٦ ، ٢٥ / ٢٦
(٥) — عمار الطالبي ابن باديس حياته وأثاره ،ج ٢ ،ص١٤٢
(٦) — المصدر السابق ،ج ٢ ص١٤٢

بقوله : " العمل متوقف على البدن والفكر متوقف على العقل ،والإرادة متوقفة على الخلق، فالتفكير الصحيح من العقل الصحيح ،والإرادة القوية من الخلق المتين ،والعمل المفيد من البدن السليم ،فلهذا كان الإنسان مأمورا بالمحافظة على هذه الثلاثة : عقله وخلقه[1] وبدنه ودفع المضار عنها ،فيثقف عقله بالعلم ويقوم أخلاقه بالسلوك النبوي ويقوي بدنه بتنظيم الغذاء وتوقي الأذى والتريض على العمل " (٢).

ويقول أيضا مبينا اهتمام الإسلام بالمحافظة على الأبدان : "تتوقف الأعمال على سلامة الأبدان ،فكانت المحافظة على الأبدان من الواجبات .... فليس من الإسلام تحريم الطيبات التي أحلها الله كما حرم غلاة المتصوفة اللحم ،وليس من الإسلام تضعيف الأبدان وتعذيبها كما يفعله متصوفة الهنادك ومن قلدهم من المنتسبين للإسلام ،والميزان العدل في ذلك هو ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم ،وأصحابه رضي الله عنهم ..." (٣).

ويقول أيضا عن واجب الإنسان نحو بدنه الذي هو آلة بديعة لروحه : "ومن العدل الواجب على الإنسان أن يعطيها ــ كما يعطي للروح ــ حقها من الاعتناء" (٤) وبهذا يكون الإسلام ــ كما يقول ابن باديس ــ " هو دين لتنوير العقول وتزكية النفوس وتصحيح العقائد وتقويم الأعمال " (٥) ويقول أيضا : "الحياة حياتان حياة الروح وحياة البدن والحرية كذلك، وحياة الروح وحريتها هما أصل حياة البدن وحريته ،وشرائع الإسلام منتظمة لذلك كله " (٦).

وقد كان الإمام ابن باديس في غاية الاهتمام والتقدير لخطورة ودور (النفس ــ العقل ــ البدن) في حياة الأفراد والجماعة ،ولعل فيما سأورده ما يصور ذلك الاهتمام والتقدير :

فأولا : تربية النفس

١ــ حقيقتها : إن النفس التي خلقها الله تعالى وألبسها هذا البدن شيء مجهول عندنا ،لأنه لا يدرك بالحواس ، فلا نستطيع الوصول إلى كنهها وإدراك حقيقتها

---

(١) ــ يقصد بالخلق :نفسه التي هي أصل الأخلاق ،إذ أنه يعرّف الخلق بقوله : "الملكة النفسية التي تصدر عنها الأعمال" . انظر : عمار الطالبي ،ابن باديس حياته "،ج ١ص ١٢٦ ،٢٧

(٢) ــ تفسير ابن باديس ص ٢٥٦ ،٢٥٧ . (٣) ــ المصدر السابق ،ص ٤٥٦ ،٤٥٧ .

(٤) ــ مجالس التذكير من حديث البشير النذير ،ص ١٤٢ .

(٥) ــ عمار الطالبي ،ابن باديس حياته وآثاره ،ج ٣ ،ص ٣٤٢ .

(٦) ــ المصدر السابق ،ج ٣ ص ٤٨١ .

وإنما نعرفها من خلال آثارها ونتائجها ،وخفاؤها هذا هو الذي أدّى بكثير من الناس إلى إهمالها ،يقول الإمام ابن باديس رحمه الله تعالى : "صلاح النفس وهو صفة لها خفي كخفائها " (١) ،ويقول أيضا : " قد ينبثق الفرعان من أصل واحد ،ويهبط الأخوان من صلب واحد ،وتجمعهما رحم واحدة ويعيشان عيشة واحدة ثم يكون هذا في مستوى وهذا في مستوى دونه بمنازل .

وما ذلك الاختلاف مع ذلك الاتفاق إلّا لسرّ في النفس هو خفي كحقيقة النفس" (٢)

فخفاء النفس هذا هو الذي دفعنا إلى أن نحكم على صلاحها أو فسادها عن طريق آثارها وهي الأعمال التي تظهر على الجوارح فإذا كانت الأعمال صالحة كانت النفس كذلك والعكس صحيح . (٣)

٢ ـ خطورة شأنها : شأن هذه النفس خطير لما لها على كلّ الكيان الإنساني من التأثير الكبير ونستطيع معرفة قيمة هذه النفس من خلال الأمور التالية :

أ ـ إنها هي التي تتحكم في الإنسان كلّه إذ بصلاحها يصلح كلّ ما في الإنسان ظاهرا وباطنا وبفسادها يحدث العكس تماما ويقرر ابن باديس هذه الحقيقة فيقول : " فإذا صلحت النفس... صلح البدن كلّه بجريان الأعضاء كلّها في الأعمال المستقيمة... وإذا فسدت النفس... جرت أعمال الجوارح على غير وجه السداد ... " (٤)

ب ـ إن وظيفتها أن تعرج بالإنسان إلى الملأ الأعلى فهي الوسيلة الوحيدة لربط العبد بربه ، وهذا عندما تصلح ويصلح بها البدن فتستقيم أعماله على طاعة الله ،ويقرر ابن باديس هذه الحقيقة أيضا بقوله : " الإنسان مهيّأ للكمال بما فيه من الجزء النوراني العلوي وهو روحه... فبعبادة ربه يكمل فيرقى في مراتب الكمال ،ويدنو من الملأ الأعلى عند

---

(١) ـ تفسير ابن باديس ص٩٨

(٢) ـ عمار الطالبي ـ ابن باديس حياته وآثاره ـ ج ٤ ـ ص ٢٩٢

(٣) ـ انظر ص (٣٣٧)

(٤) ـ تفسير ابن باديس ص ٩٦

الرب الأعلى ذي الجلال والإكرام" (١) .

جـ ـ إن الاسلام أعطاها أهمية كبرى وأولاها عناية عظمى للأمرين السابقين وغيرهما، ويظهر هذا الاهتمام بها جليا في نصوص الكتاب والسنة وأحكام الشريعة الشيء الذي يشير إليه ابن باديس كذلك بقوله: "إن المكلف المخاطب من الإنسان هو نفسه، وما البدن إلا آلة لها ، ومظهر تصرفاتها .....

والعناية الشرعية متوجهة كلها إلى إصلاح النفوس . إما مباشرة وإما بواسطة .... فتكميل النفس الإنسانية هو أعظم المقصود من إنزال الكتب وإرسال الرسل وشرع الشرائع" (٢).

٣ ـ صفة النفس وطبيعتها الأصلية : الإنسان مركب من روح وبدن (٣) وهو مصدر الشهوات والغرائز ، أما الروح فهي مغطورة على الكمال كما يقول الإمام ابن باديس: "وإنها كريمة الخلقة .... لأنها فطرت على الكمال" (٤) لكن بمجرد اتصالها بالبدن صاحب الشهوة يقع بينهما تجاذب تبعا لطبيعة ومصدر كل منهما فالروح تريد السماء والبدن يريد الأرض.

فالإنسان " بجزئه الترابي ـ وهو بدنه ـ مخلوق أرضي ، وبجزئه النوراني ـ وهو روحه ـ مخلوق سماوي فإذا جذبه جزؤه الترابي بزمام الشهوة إلى السفليات الأرضية طار به جزؤه النوراني على بساط العقل إلى علويات السماء ، وهو لن يزال دائما بين هذا وذاك في انحطاط واعتلاء" (٥).

إذًا فهو بهذا على استعداد للكمال إذا هيئت له أسبابه وعلى استعداد للنقص والتسفل إذا وجدت دواعيه ، فهو مهيأ للكمال بما فيه " من الجزء النوراني العلوي وهو روحه ومعرض للسقوط والنقصان بما فيه من أخلاط عناصر جزئه الأرضي الظلمائي وهو جسده" (٦).

ويشير ابن باديس إلى عمليتي الارتقاء والسقوط هاتين ببيان أسباب كل منهما فيقول :

"ذلك أن النفوس بما ركب فيها من شهوة وبما فطرت عليه من غفلة ، وبما عرضت له من شؤون

---

(١) ـ تفسير ابن باديس ، ص٣٠٧ .
(٢) ـ تفسير ابن باديس ص ٩٦، ٩٧ .
(٣) ـ المراد به النفس صاحبة الدوافع والغرائز والشهوات .
(٤) ـ تفسير ابن باديس ، ص١١٥ .
(٥) ـ مجالس التذكير من حديث البشير النذير ، ص ١٤١ .
(٦) ـ تفسير ابن باديس ، ص٣٠٧ .

الحياة ، وبما سلط عليها من قرناء السوء من شياطين الإنس والجن لا تزال – إلّا من عصم الله – في مقارفة ذنب ومواقعة معصية صغيرة أو كبيرة من حيث تدري ومن حيث لا تدري ، وكل ذلك فساد يطرأ عليها " (١) يجعلها تنحط به إلى أسفل سافلين . وهذا ما يسمى في الاصطلاح القرآني بالتدسية ، وعكسها التزكية التي تكون بعبادة الإنسان ربه لأنّ نفسه لا ترتفع للاتصال بالملأ الأعلى إلّا إذا خلصت – كما يقول ابن باديس – من كدرات الجثمان ونجت من أسباب النقصان ولا يكون ذلك إلّا بعبادة ربها التي بها صفاء العقل وزكاء النفس وطهارة البدن في الظاهر والباطن (٢) .

٤ – حقائق نفسية تنبني عليها قواعد تربوية :

كان لابن باديس فقه نفسي واسع ، وخبرة بالنفس البشرية وقدرة على الكشف عن خفاياها ، وتحليل مواقفها ودوافعها ، وبيان حالاتها المختلفة ، شهد له بذلك البشير الإبراهيمي رحمه الله بقوله : "وله اطلاع واسع وذرع فسيح في العلوم النفسية والكونية ..." (٣) ويشهد له – أيضا – تفسيره وشرحه للحديث اللذان تركهما ، وهذا التمكن في العلوم النفسية ساعده على معرفة الطرق التربوية لتهذيب وتكوين النفس الإنسانية ، وهذه بعض الحقائق النفسية التي بنى عليها قواعد تربوية أسوقها تعضيدا لما سبق قوله

١ – الحقيقة الأولى : النفس مهيأة للخير والشر

قد سبقت الإشارة إلى هذه الحقيقة و معناها باختصار : أن الإنسان مفطور على الخير والصلاح من ناحية ، ومجبول على حب الشهوات غريزة من ناحية ثانية ، فإذا وجد الوسط الذي ينمي ما فيه من فضائل وينظم ما عنده من غرائز نشأ نشأة صالحة وإلّا كان العكس .

هذه حقيقة نفسية ذكرها ابن باديس في تفسيره وغيره مرارا (٤) ، ومن ذلك قوله : "الأخلاق الفاضلة – التي هي موجودة في فطرة الإنسان بأصولها وتنمو بحسن التربية

---

(١) – تفسير ابن باديس ص ٩٩

(٢) – المصدر السابق ص ٣٠٧

(٣) – المصدر السابق ص ٣٢

(٤) – انظر ص (٣٨٠)

وتنطمس بالإهمال ـ قد حفظها الله تعالى علينا بما وفقنا إليه من الإسلام ...» (١)

وإذا كان هذا هو حال النفس البشرية بطبيعة خلقتها فإنه ينبغي لمن أراد أن يتولى تربية الإنسان أن يراعي هذه الخصيصة في منهج تربيته، وهذه بعض القواعد التربوية التي تتناسب مع هذه الخصيصة النفسية أدركها ابن باديس وراعاها في عمله الإصلاحي التربوي :

القاعدة الأولى : مراعاة استعداد كلّ أحد

فالناس في استعدادهم للخير يختلفون، وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم ـ وهو سيد المربين ـ يراعي أثناء تربية أصحابه ـ وهم يمثلون الكمالات الإنسانية ـ ما أوتيه كلّ منهم من استعداد فطري فيربيه على مقتضاه، إذ كان صلّى الله عليه وسلّم ـ كما يقول ابن باديس ـ : "يعرف أخلاق أصحابه ونفسياتهم ومقدار استعدادهم فكان يعالج كلّ قسم بعلاجه ويوجهه في الحياة حسب استعداده، وقد تختلف أجوبته في بيان المقدم من أشياء بحسب حال السائل وحاجته وقد يحذر أحدا من شيء ويقدم غيره إليه حسب قدرة هذا عليه وضعف ذاك عنه". (٢)

ويضرب لنا ابن باديس مثلا في ذلك بأبي ذرّ الغفاري ـ بعد أن سرد حياته وبيّن ما فيها من صور حية رائعة ـ حيث يقول : "هكذا تربى أبو ذر بهذه التربية النبوية المراعى فيها طبعه وحاله فكان بعيدا عن الإمارة وما إليها زاهدا في الدنيا زهدا أبعده عن جميع أسبابها وأبنائها حتى لقي الله رحمه الله" (٣).

وابن باديس نفسه سبق أن أشار إلى أثر تربية شيوخه له، الذين لم يبخسوا استعداده حقه (٤).

بعد هذا يتضح لنا جليا ما مقدار الخسارة التي تصيب الأمّة التي تهمل تربية أبنائها أو تربيهم ولكن تغفل عن هذا الجانب وهو الاستعداد الفطري لكل فرد فيضيع عملها سدى، ولأهمية هذه المسألة أمرنا شرعا بمراعاتها في تربية أبنائنا وأفراد شعوبنا، "فسبحان

---

(١) ـ مجالس التذكير من حديث البشير النذير، ص ١٣١ .
(٢) ـ عمار الطالبي ، ابن باديس حياته وآثاره ، ج ٤ ، ص ٩٥ .
(٣) ـ المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٩٧ .
(٤) ـ انظر ص (٥٢)

من قسم الأخلاق والأرزاق ،والعلوم والفهوم، ثم أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ،ونوجه كلا لما هو أهل له وله مقدرة عليه "(١)

القاعدة الثانية : الطريقة التربوية الصحيحة

إذا عرفنا أن النفس البشرية فيها استعداد للخير والشر علمنا أنه بالتربية الصحيحة يمكن أن يوصل بالفرد إلى أقصى حد من الكمال الذي هيء له وعلمنا كذلك أهمية التزام الطريقة الصحيحة في التربية وخطر الميل عنها إلى غيرها . ومن هذا المنطلق بيّن ابن باديس الطريقة الصحيحة لتربية النفس البشرية وهي طريقة القرآن لأنها ـ كما قال ـ "أنجع الطرق" (٢) وهذه بعض النقاط المهمة فيها :

١ ـ البدء بما تعين الفطرة على قبوله :

يقول الإمام رحمه الله : " من حكمة التربية أن يبدأ من الأوامر بما تعين فطرة النفوس الإنسانية على قبوله ببداهة الفكرة أو بشعور العاطفة" (٣)

٢ ـ التنشيط والتشجيع لا التحقير والتقنيط :

يقول ابن باديس رحمه الله : "هذا الحديث (٤) أصل عظيم في التربية المبنية على علم النفس البشرية . فإن النفوس عندما تشعر بحرمتها وقدرتها على الكمال تنبعث بقوة ورغبة وعزيمة لنيل المطلوب، وعندما تشعر بحقارتها وعجزها تقعد عن العمل، وترجع إلى أحط دركات السقوط، فجاء هذا الحديث الشريف يحذر من تحقير الناس وتقنيطهم، وذلك يقتضي أن المطلوب هو احترامهم وتنشيطهم وهذا الأصل العظيم الذي دلّ عليه هذا الحديث الشريف يحتاج إليه كلّ مرب سواء أكان مربيا للصغار أم للكبار، وللأفراد أم للأمم، إذ التحقير والتقنيط

---

(١) ـ عمار الطالبي ـ ابن باديس حياته وآثاره ـ ج ٤ ـ ص١٠٢

(٢) ـ تفسير ابن باديس ص ٢٧٦

(٣) ـ المصدر السابق ص ١٠٣

(٤) ـ قوله صلّى الله عليه وسلّم "اذا سمعت الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم" سبق تخريجه في ص٢٩٧.

وقطع حبل الرجاء قتل لنفوس الأفراد والجماعات، وذلك ضد التربية والاحترام والتنشيط وبعث الرجاء إحياء لها وذلك هو غرض كل مرب ناصح في تربيته. » (١)

الحقيقة الثانية : الباطن أساس الظاهر

أي أن كل ما يقوم به الإنسان من أعمال و ما يصدر عنه من تصرفات إنما هو انعكاس لما في داخله وصورة صادقة عما في نفسه من عقائد وأفكار ولهذا قال ابن باديس " كل واحد تبنى أعماله على مذهبه وطريقته التي هي خلقه وطبيعته" (٢) ويقول أيضا : "الظواهر دلائل البواطن، فالمرء يعرف من سبحات وجهه وفلتات لسانه، وكثير ما تدل كلماته على مهنته أو فكرته وعقيدته . . . " (٣)

هذه الحقيقة النفسية تبنى عليها قواعد تربوية هامة ومنها :

البدء بتطهير الباطن :

ينبغي لمن يريد إصلاح نفسه أو إصلاح غيره أن يبدأ بتطهير الباطن وتزكيته وبه يستقيم الظاهر وهذا ما يقرره الإمام ابن باديس رحمه الله "ونأخذ من هذا (أي ما تفيده الحقيقة النفسية من أن الباطن أساس الظاهر) أن الذي نوجه إليه الاهتمام الأعظم في تربية أنفسنا وتربية غيرنا هو تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق فالباطن أساس الظاهر، وفي الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله" (٤)

الحقيقة الثالثة : الظاهر له تأثير على الباطن

يشرح لنا ابن باديس هذا بقوله : "ما يباشره المرء تنطبع به نفسه ويصطبغ به خياله" (٥) وقوله : "لكل كلمة تسمعها أو فعلة تشهدها أثر في حياتك" (٦)

أي مثل ما للباطن من تأثير على الظاهر فكذلك للظاهر تأثير على الباطن لكن ليس

---

(١) ـ مجالس التذكير في حديث البشير النذير ص٨٢
(٢) ـ تفسير ابن باديس ص١٩٦
(٣) ـ المصدر السابق ص٣٥٢
(٤) ـ المصدر السابق ص١٩٦
(٥) ـ تفسير ابن باديس ص٣٥٢
(٦) ـ المصدر السابق ص٢٨٩

بنفس الدرجة ، فإن ما يفعله الإنسان بجوارحه وما يقوم به من أعمال في واقع الحياة تحدث منه هزات في النفس وترتسم له صور في الداخل ، ويترك انطباعات على نفس الإنسان ، فالتأثير متبادل من الداخل والخارج وهذه الحقيقة تستخلص منها :

قاعدة : بالطاعات تزكو النفس

إذا كان هذا هو تأثير الظاهر على الباطن فعلى من يريد تزكية نفسه أكثر وتطهيرها أن لا يعرض حواسه إلا على الخير ويسد عنها أبواب الشر ولا يمارس بجوارحه إلا الأعمال الصالحة حتى يحصل له ذلك وإلى هذا يشير الإمام ابن باديس "وأمر الله بالعمل الصالح الذي فيه زكاء للنفس" (١) والمداومة على الطاعات من عوامل إزالة أسباب الشر كما يقول : "إن من راض نفسه على الطاعة ودانت نفسه بالإخبات والانقياد للأوامر الشرعية ضعفت منه أو زالت دواعي الشر والفساد فانكف عن المعصية" (٢).

هذه بعض الحقائق النفسية التي تنبني عليها قواعد تربوية ذكرناها بهدف بيان ما للأستاذ الإمام ابن باديس من فقه عميق في العلوم النفسية والتربوية ، واكتفينا بما ذكرنا عما تركنا ، ومن أراد المزيد فعليه بآثاره في التفسير وشرح الحديث وغيرهما .

٥ - طريقة تربية النفس

تربية النفس تكون بالتزكية وهي العمل على صفاء الروح وتطهير النفس وتنوير العقل وهذا لا يعني التبتل وقتل الغرائز والشهوات بل المراد هو تنظيمها بضبطها والحد منها بما يتناسب مع أوامر الشرع ومصلحة الإنسان .

حقيقة البدن

يراد بالبدن جانبان :

الأول : صورته المادية أي الجانب الفسيولوجي من لحم وعظم وما إلى ذلك من مكونات لجسد

---

(١) - المصدر السابق ، ص ٤٥٦ .
(٢) - المصدر السابق ، ص ٢٧٣ .

الإنســـان.

<u>الثاني</u> : ما يتصل بهذا البدن من دوافع فطرية وغرائز وشهوات وقد يسمى هذا الجانب بالنفس.

أما الجانب الاول : فإن ابن باديس وضح كيف تتمّ تربية الإنسان لصالحه بقوله : "ويقوي بدنه بتنظيم الغذاء وتوقي الأذى والتريض على العمل " (١) ويقول أيضا : "على الإنسان أن يغذي بدنه بما ينميه وما يصلحه وما يقويه، ويحفظه من كل ما يفسده أو ينهكه أو يؤذيه". (٢)

ويبين أهمية هذا البدن وأثر سلامته في صلاح نفس الفرد بقوله : "لم يخلق الإنسان للأرض وإنما خلق منها، وإنما خلق للسماء وللملأ الأعلى ... وإنما ينتهي إلى هذا بصفاء روحه واستنارة عقله. وما البدن الترابي الا آلة لهما، لاستكمال قوتهما، ومظهر لتلك الاستنارة وذلك الصفاء، وعيار على ما فيهما من قوة وضعف بما يكسبانه ويكتسبانه في طريق الاختبار والابتلاء ...

فالجسد آلة بديعة للروح لازمة لها في الدنيا وملازمة لها في الأخرى ... فمن العدل الواجب على الإنسان أن يعطيها - كما يعطي للروح - حقها من الاعتناء ..." (٣)

ويقول أيضا " العمل المفيد من البدن السليم" (٤)، ويوصي تلميذه بقوله : "حافظ على صحتك فهي أساس سعادتك وشرط قيامك بالأعمال النافعة لنفسك ولغيرك" (٥).

وأما الجانب الثاني وهي النفس صاحبة الغرائز والدوافع والشهوات : فهي والروح هما السبب في ارتفاع الإنسان تارة إلى سماء الفضيلة وانحطاطه تارة أخرى إلى أرض الرذيلة (٦)

ولن يستطيع الإنسان أن يتخلص نهائيا من هذه الغرائز والشهوات وليس ذلك من منهج الإسلام في شيء (٧)، بل جعلها الله في الإنسان لحكمة وهي أن تكون دافعا للحفاظ على النفس والحياة وسببا في عمارة الأرض، ووضع الإسلام لها ضوابط حتى لا تنفلت وتنطلق إلى مـــا

---

(١) - تفسير ابن باديس، ص ٢٥٧ .
(٢) - مجالس التذكير من حديث البشير النذير ، ص ١٤٢ .
(٣) - المصدر السابق ، ص ١٤٢ .
(٤) - تفسير ابن باديس ، ص ٢٥٧ .
(٥) - عمار الطالبي ، ابن باديس حياته وآثاره ، ج ٣ ، ص ١٧٧ .
(٦) - انظـــر ص (٢٨٠)
(٧) - انظـــر ص (٢٧٨)

لا نهاية ، وبتلك الضوابط تنظم هذه الغرائز والشهوات وتهذب ويحدد لها مجالها الذي إذا عملت في إطاره أثمرت ما يعود على الإنسان بالصلاح والخير دنيا وأخرى .

فالحب ــ مثلا ــ غريزة في الإنسان فإذا تركت ولم تضبط أدت بصاحبها إلى ما لا تحمد عقباه وأما إذا استعملها صاحبها في ما أذن به الشرع حصل له منافع كثيرة، ويشير الإمام ابن باديس إلى هذه المسألة المهمة بقوله: " محبة الإنسان نفسه غريزة من غرائزه ،وهو محتاج إليها ليجلب لنفسه حاجتها ويدفع عنها ما يضر بها ، ويسعى في تكميلها، هذه هي الناحية النافعة والمفيدة من هذه الغريزة ولكنها من جهة أخرى هي مدخل من أعظم مداخل الشيطان على الإنسان فيحسن له أعماله وهو لمحبة نفسه يحب أعماله ويغتر بها فيذهب مع هواه في تلك الأعمال على غير هدى ولا بيان فيهلك هلاكا بعيدا ،فاستحسان المرء لأعماله هو أصل ضلاله وتزين الشيطان لتلك الأعمال هو أحد أسلحة الشيطان " (١).

فالغريزة موجودة في النفس البشرية ،وهي صالحة لأن تصبح سببا للخير أو سببا للشر ،وإنما يكون ذلك على حسب السابق لها ،فإذا سبق إليها الشيطان.فاستغل تلك الغريزة في النفس فزين لها عملها ،فإنها تنطلق وراء شهوتها بلا حدود وإذا سبق إليها الواعظ انقلبت تلك الغريزة عاملا للخير ، " فعلى المرء أن يتهم نفسه في كل ما تدعوه إليه وأن يزن جميع أعماله بميزان الشرع الدقيق خصوصا ما تشتد رغبته فيه ويعظم حسنه في عينه " (٢) فإذا فعل ذلك عرف " كيف يجعل حدا لأهوائه وشهواته وكيف يضبطها بنطاق الشرع وزمامه وكيف يدفع عنه كيد شيطانه " (٣).

وشرع الله للإنسان طاعات يضبط بها غرائزه وشهواته ، مثل الصلاة والصوم .

١ــ الصلاة : يبخل الإنسان بماله لأنه مجبول على محبة نفسه فيظن أن الإنفاق يتلفها فيحرص على قبضه، وإنسان آخر يسرف في النفقة إظهارا لنفسه وإعجابا بها وهو أيضا

---

(١) ــ تفسير ابن باديس ، ص ٣٤٧ ، ٣٤٨ .
(٢) ــ المصدر السابق ، ص ٣٤٨ .
(٣) ــ المصدر نفسه ، ص ٤٦٥ .

من محبته لنفسه ، فالصلاة من العبادات التي تنضبط بها هذه الغريزة ، ويعتدل بها هذا الخلق وهو خلق البذل فلا يكون بخلا ولا إسرافا ، وهذا ما نصت عليه آية : "والذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوامًا " (١) وبين ذلك ابن باديس فقال : " مضى وصفهم بأنهم يبيتون لربهم سجدا وقياما ، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وتربي النفس على استصغار الدنيا وما فيها ، وعلى تعظيم الرب و الوقوف عند حدوده ، فلا يعظم شيء من الدنيا عند أهل الصلاة فيمسكوا عن بذله في الحق ، ولا يستهويهم شيء منها فينتهكوا لأجله حدود الله و حرماته . ولما كان المال هو أعز شيء من هذه الدنيا ، وهو أعظم سبب لنيل مبتغياتها وصفوا بأنهم في تصرفهم فيه على أكمل حال ، وهي حالة العدل التي أثمرتها لهم الصلاة فلا يمسكونه عن حق ولا يبذلونه في باطل " (٢)

٢ ـ الصوم : إن شهوة الأكل غريزة في الإنسان ليحفظ بها حياته فهي بهذا القصد نافعة ولكن إذا زادت عن حدها أصبح ضررها أكثر من نفعها فلا بدّ إذا من كبح جماحها وتقييدها في إطار حدودها ، ومن الطاعات التي تؤدي هذه المهمة الصوم كما أوضح ذلك ابن باديس بقوله : "إن الإنسان إذا كان هكذا تغلبه الشهوة وتقوده اللذة فإنه بمظنة أن يتجاوز ـ ولو في بعض الأحيان ـ العدل إلى الامتلاء . فشرع له الصوم ليقاوم شرّ ذلك بما فيه من راحة للمعدة ونقاء وتربية على امتلاك زمام نفسه عن الشهوات والملذات وعلى استطاعة حملها على الجوع والعطش عند الاقتضاء ...

فالصوم ضرورة لنظام الغذاء وحفظ الصحة البدنية وعون الإنسان على حسن استعماله لآلته الترابية الأرضية للترقي إلى آفاقه الروحية النورانية وكمالاته العلوية " (٣)

لعله ـ بهذا ـ قد اتضح الآنَ رأي ابن باديس في الطريقة التي تعالج بها غرائز و شهوات النفس البشرية ، ودوافعها الفطرية وهي أنها لا تكبت حتى تقتل ولا يطلق لها

---

(١) ـ تفسير ابن باديس ص ٢٦٨

(٢) ـ المصدر السابق ص ٢٦٨ .

(٣) ـ مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص ١٤٢ ـ ١٤٣

عنانها بلا حدود بل تنظم وتهذب حسب ما أرشد إليه الشرع الشريف.

٦ـ بعض وسائل التربية

القرآن الذي ربى جيل الصحابة هو الذي ينبغي أن يعتمد عليه الدعاة دائما في كل زمان ومكان لتربية الأجيال، وهذا ما فعله ابن باديس رحمه الله تعالى لأنه آمن "أن القرآن الذي كون رجال السلف لا يكثر عليه أن يكون رجالا في الخلف..."

لكن بشرط...

١ ـ "...لو أحسن فهمه وتدبره..."

٢ ـ "...وحملت الأنفس على منهاجه." (١)

ما أعظمها كلمات...

أما حسن الفهم فقد تولى هو تفهيمه لتلاميذه ومن كان يحضر دروس تفسيره من أفراد الشعب الجزائري، وقد مرّ بنا المنهج الذي اعتمده في تفسير القرآن الكريم ليفهمه الناس.

وأما حمل الأنفس على منهاجه، فقد يقوم بهذا الشخص نفسه في تربية نفسه إذا كانت له إرادة قوية وعزيمة صارمة، فيجرد التوحيد ويزكي النفس ويقوم الأعمال ويصحح النية ويحاسب النفس ويراقب الله تعالى في جميع الأعمال ويزهد في الدنيا ويعمل للآخرة ويبالغ في العبادات المشروعة ويعتصم بالورع ويزن ذلك كله بالكتاب والسنّة وما كان عليه أهل القرون الثلاثة الصحابة والتابعون وأتباع التابعين رضي الله عنهم أجمعين (٢) ونستطيع إجمال هذا كلّه في (طاعة الله) التي بها تتم تزكية النفس.

ويرشد ابن باديس تلاميذه إلى هذه الطريق، وهي طريق الطاعات (٣) مبينا ما لكل نوع من أثر في تزكية النفس وتربيتها : وأكتفي بذكر بعضها كنموذج على ما بقي ومنها:

---

(١) ـ عمار الطالبي ، ابن باديس حياته وآثاره مج ٢ ، ص ١٤٢

(٢) ـ المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٩٨

(٣) ـ انظر ص (٣٨٥)

١- الذكـــــر :-

الذكر عند ابن باديس هو " الدين كله "(١) لأن الغاية من زكاة النفس هي ربــط العبد بربه والذكر من أعظم الوسائل لذلك إن لم يكن أعظمها ، لأن بالذكر والخشــوع والحضور والانقطاع الى الله تعالى والتوجه إليه ومناجاته بكل هذا تعرج النفس فــي درجات الكمال(٢) ، لذلك يرى ابن باديس أن للعبد حالتين : حالة يمارس فيها شئون حياته وأخرى يخلو فيها الى ربه فيذكره ويعبده ، ويرى أن أشرف هاتين الحالتين الثانية وهي أساس الاستقامة في الأولى - التي هو مأجور فيها كذلك ان التزم بحدود الشرع - مستدلا في ذلك بحديث " نافق حنظلة "(٣) حيث يقول " فقوله صلى الله عليه وســلم : " ساعة وساعة " بيان للحالتين وتقرير لهما ، وقوله : " والذى نفسي بيده لوتدومون علــى ماتكونون عندى فى الذكر لصافحتكم الملائكة " . بيان لفضلاهما(٤) ".

أقســامه :-

ويقسم ابن باديس الذكر الى ثلاثة أقسام : ذكر القلب ، وذكر اللسان ، وذكر الجوارح .

أ - ذكر القلب : وهو على ثلاثة أنواع :-

النوع الأول : التفكر فى عظمة الله وجلاله ، وآياته وأنعمه بما يوجب الأيمان بوحدانيتــه فى ربوبيته والوهيته .

وهذا النوع يعتبره ابن باديس أعظم الأذكار لأن العقائد التي تبنى عليهــا الأعمال لا تثبت الا به وبه تنجلي فى العقول وترسخ في النفوس وتحصل للناظر طمأنينة اليقين مستشهدا بقوله تعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُـوبُ ﴾(٥) وقوله : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾(٦).

---

(١) الشهاب ج ٢ - م ٥ - ص ١ - شوال ١٣٤٧ هـ - مارس ١٩٢٩ م

(٢) تفسير ابن باديس : ص ٩٧ .

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووى ١٧/ ٦٥ ـ ٦٦ ك: التوبة ب: فضل دوام الذكر .

(٤) الشهاب ج ٣ - م ٥ ص ١-٢ - ذي القعدة ١٣٤٧ هـ - ابريل ١٩٢٩ م

(٥) الرعد : ٣٠ .

(٦) العنكبوت : ٤٥ .

النوع الثاني : العقد الجازم بعقائد الإسلام عن فهم صحيح وإدراك راسخ تنتج عنه بإرادة قوية مثمرة للأعمال ، وهذا النوع متفرع عن الأول .

النوع الثالث: استحضار عظمة الرب وإنعامه وما يستحقه من القيام بحقه عند كل فعل وترك ، ولا يدوم هذا الاستحضار إلا برسوخ العقيدة ودوام الفكرة ، ولهذا فهو متفرع عن النوعين السابقين .

ويعتبر ابن باديس أن هذا النوع هو أساس التقوى وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تفلحُونَ ﴾[1] لأنه هو المناسب في مواطن الحرب خصوصا بعد أن طلب الشارع الصمت عند القتال[2] .

ب ـ ذكر اللسان : وهو على نوعين :-

النوع الأول : ذكر الله تعالى بالثناء عليه والاعتراف بنعمه وإظهار الفقر إليه بأنواع الأذكار والدعوات ، ويشير ابن باديس إلى أنه لا يعتد بهذا النوع إلا بحضور القلب عنده .

النوع الثاني : ذكره تعالى بدعوة الخلق إليه .

ثم ينصح بالإقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم في طريقة الذكر لأنه هو المبلغ وهو المثل الأعلى في أقسام الذكر كلها ، ويحذر من الغلو في نوع من أنواع الذكر مع إهمال غيره ، ويأمر بالاعتدال في ذلك فيقول : " فليحذر المؤمن من هذا كله ومن مثله وليتمسك بما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من الإتيان بضروب الذكر الثلاثة كلها منزلا لها في منازلها متعبدا الله تعالى بجميعها "[3] .

٢ ـ قراءة القرآن :-

بين ابن باديس حاجة المسلم إلى تلاوة القرآن لاصلاح نفسه بقوله : " فإن القلب هو المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ، فكل

---

(١) الانفال ٤٥

(٢) عند أبي داود " باب فيما يؤمر به من الصمت عند اللقاء " أي القتال ٣/٥٠ دار الجيل بيروت

(٣) الشهاب ج ٢ ـ م ٥ ص ٧ شوال ١٣٤٧هـ ـ مارس ١٩٢٩م

معصية يأتي بها الجسد هي من فساد في القلب ومرض به ، وإن الله تعالى قد جعل دواء أمراض القلب تلاوة القرآن ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) (٢).

ويبين أن أمراض القلب كثيرة وملازمة له ولذا لا بد من المداومة على قراءة القرآن :

" إن القلوب تعتريها الغفلة والقسوة والشكوك والأوهام والجهالات، وقد تتراكم عليها هذه الأدران كما تتراكم الأوساخ على المرآة فتطمسها وتبطل منفعتها ، وقد يصيبها القليل منها أو من بعضها ، ولا تسلم القلوب على كل حال من إصابتها فهي محتاجة دائما وأبدا إلى صقل وتنظيف بتلاوة القرآن " (٣).

القصد من التلاوة :-

يجمع ابن باديس مقاصد التلاوة في : التقرب إلى الله ، تليين القلب ، شفاء لأدواء النفس ، الاهتداء به ، استنزال الرحمة به بإفاضة علوم القرآن على قلبه ، وتوفيقه إلى القيام بمقتضى هدايته ، جلاء قلبه والتوفيق للتوبة من ذنبه (٤).

محاذير :-

يحذر ابن باديس - في تلاوة القرآن - من الأمور التالية :-

أ- السرعة التي تؤدي إلى تخليط الكلمات وتذهب بحلاوته ، وتمنع من بقاء أثره في النفس .

ب- الاسترسال مع الخواطر التي تصرف عن التدبر والتذكر : " فلنكن عند قراءته في انتباه وإقبال على استيعاب لفظه وتفهم معناه ، فإن التالي للقرآن والسامع له في حضرة الرب على بساط القرب ، والغفلة في هذا المقام من قلة الأدب ، ومن قل أدبه

---

(١) يونس : ٥٧ .

(٢) الشهاب ج٤ - م٥ - ص٣ - ذي الحجة ١٣٤٧هـ - ماي ١٩٢٩م

(٣) نفس المصدر السابق ص ٤ .

(٤) نفس المصدر ص ٢

في مقام الإحسان والكرامة، استوجب أضعاف ما يستوجبه غيره من العتب والملامة، وتعرض لموجبات الحسرة والندامة"[(١)]

جـ - الاستمرار على ما عند القارئ من مخالفة لأوامر ونواهي الكتاب، وعدم الخوف والوجل عند المرور بآيات الوعيد والتقريع على ذلك الذنب.

تأثير قراءة القرآن في النفوس :-

يبين لنا ابن باديس هذه الحقيقة بقوله : "وأما حظ التجربة فوالله الذي لا إله إلا هو ما رأيت - وأنا ذو النفس الملأى بالذنوب والعيوب - أعظم إلانة للقلب، واستدرارا للدمع، واحضارا للخشية، وأبعث على التوبة من تلاوة القرآن وسماع القرآن"[(٢)]

مقدار التلاوة :-

بعد ما بين سنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في المقدار الذي كان يقرأه ويتخذه وردا، وكذلك بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم قال : "ولا شك أن أحوال حملة القرآن تختلف في التفرغ للتلاوة والاشتغال بغيرها، وأحوال الشخص الواحد في نفسه تختلف كذلك، فيرتب حامل القرآن حزبه من الشهر إلى السابع على حسب حاله. فإذا لم يكن من حملة القرآن فلا يُخْلِ ليله ولا نهاره من تلاوة شيء مما معه حسب استطاعته، ولا يكن من الغافلين"[(٣)]

بين الذكر وقراءة القرآن :-

بعد أن توسع في بحث أيهما أفضل الذكر أم قراءة القرآن؟ قال : "لهذه الأدلة الأثرية والنظرية المذكورة وغيرها ذهب الأئمة من السلف والخلف إلى أن قراءة القرآن أفضل من الذكر"[(٤)]

---

(١) تفسير ابن باديس : ص ٣٦٤.
(٢) الشهاب ج٤ - م٥ - ص٦ ذي الحجة ١٣٤٧هـ ماي ١٩٢٩م
(٣) المصدر السابق : ص٢
(٤) الشهاب ج٣ - م٥ - ص٦ ذي القعدة ١٣٤٧هـ - ابريل ١٩٢٩م

هذه بعض المسائل تتعلق بقراءة القرآن اكتفينا بذكرها عن الإتيان بكل ما قاله ابن باديس في بحث طويل عن أهمية قراءة القرآن في تزكية النفس وأفضليته عن بقية الأذكار لعلها تعطينا دلالة على منهج ابن باديس التربوي الذي سلكه مع تلامذته .

٣- العبادة عموما وبعض الطاعات خصوصا :-

للطاعات أثر على تربية النفس من جهتين مختلفتين :-

- تثبت فيه أصول الخير.
- وتقلع منه أصول الشر.

يبين هذا ابن باديس بقوله : "على المسلم الذي يعمل لتزكية نفسه أن يواظب على الطاعات بأنواعها وأن يجتهد في حصول الأنس بها والخشوع فيها فإن ذلك زيادة على ما يثبت فيه من أصول الخير يقلع منه أصول الشر ويميت منه بواعثه".(١)

ونفهم من كلامه هذا أن العبادة بمعناها الواسع هي نفسها أداة لتربية النفس وقد مرت أقوال له تنص على هذا(٢).

وهناك نوع خاص من الطاعات له تأثير خاص في تزكية النفس وتربيتها كالصلاة مثلا ، ولأهمية هذه الشعيرة في تأدية هذه المهمة نجد أنه - في بعض الأحيان - إذا ورد الحديث عنها في القرآن ورد بطريقة خاصة في النظم كل ذلك للفت الإنتباه إلى هذه النكتة ، يقول ابن باديس رحمه الله : "قوله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾(٣) جاءت هذه الآية أثناء آيات أحكام الزوجية آمرة بالمحافظة على الصلوات تنبيها للعباد على أن المحافظة عليها على وجهها يسهل القيام بأعباء تكاليف تلك الآيات لأنها تزكي النفس بما فيها من ذكر وخشوع وحضور وانقطاع إلى الله تعالى وتوجه إليه ومناجاة له وهذا كله تعرج به النفس في درجات الكمال ، والنفوس الزكية الكاملة تجد في طاعة خالقها لذة وأنسا تهون معهما أعباء التكاليف".(٤)

---

(١) تفسير ابن باديس : ص ٢٧٣ .
(٢) انظر ص : (٣٨٥) .
(٣) البقرة : ٢٣٨ .
(٤) تفسير ابن باديس : ص ٩٧ .

والصيام زيادة على تزكيته للنفس وتطهيرها من أدران الجسد يعالج ناحية من أعظم النواحي التي من أجلها أرسل الله الرسل وأنزل الكتب وهي :

إن الإنسان إذا لم يكن عبداً لله فهو عبد لغيره حتما إما لصنم أو بشر أو فكرة أو شهوة النفس ، فالإسلام جاء ليحرر الإنسان من عبودية غير الله تعالى ولا يصير الإنسان عبدا لله تعالى خالصا إلا إذا تحرر من كل أنواع العبودية لغير الله ومنها العبودية للنفس فشرع الله الصوم من بين العبادات التي تخدم هذه النقطة .

يقول الإمام : " ومما شرعه الله لتحصيل حرية الروح صوم هذا الشهر المبارك شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ، يترك فيه المؤمن طعامه وشرابه وشهوات بدنه ويقبل على التهليل والتحميد والتسبيح فيحرر روحه من سلطة الشهوة وسلطان المادة ويسمو بها إلى عالم علوي ملكي من الطهر والكمال ثم يقبل على تلاوة القرآن - بتدبر - فينير قلبه وروحه ويحرر عقله من ربقة الجهل وقيود الأوهام والخرافات فما يأتي عليه الشهر إلا وقد ذاق طعم الحرية الروحية العقلية وخرج بحيوية قوية وحرية نيرة ".(١)

هذه بعض الوسائل التي يستعملها الفرد نفسه لتزكية نفسه وتربيتها قد بينت اعتبار ابن باديس لها وحث تلامذته على الأخذ بها والآن أنتقل إلى الحديث عن الوسائل التي يستعملها الداعية المرشد والمعلم المربي في تكوين أفراده .

من بين هذه الوسائل : القدوة والموعظة وغيرهما

١- القدوة :-

القدوة في الدعوة عامة وفي التربية خاصة هي أفعل الوسائل جميعا وأقربها إلى النجاح(٢)، لأن الناس لا تؤثر فيهم الأقوال مثلما تؤثر فيهم الأعمال لأن أكثر ما يرد الناس عن اتباع الداعي الشك في صدقه ، ولا شيء أدل على صدقه من عمله بما يقول وبهذا يكون قدوة يدعو بعمله مثلما يدعو بقوله ، والدعوة بالعمل - كما يقول ابن باديس - " أبلغ من الدعوة بالقول ".(٣)

---

(١) عمار الطالبي - ابن باديس ، حياته وآثاره : ٣/ ٤٨١ .

(٢) محمد قطب - منهج التربية الاسلامية : ١/ ١٨٠ .

(٣) تفسير ابن باديس : ص ٢٩٨ .

ولذا -كما يقول ابن باديس- " ما انتشر الإسلام أول أمره بين الأمم إلا لأن الداعين إليه كانوا يدعون بالأعمال كما يدعون بالقول "(١).

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يدعو بأقواله فحسب بل " بأقواله وأفعاله وتقريراته وجميع مواقفه في سائر مشاهده ...

كان يدعو إلى دين الله ويبين هو ذلك الدين ويمثله. يدعو إلى عبادة الله وتوحيده وطاعته ، ويشاهد الناس تلك العبادة والتوحيد والطاعة فكان - صلى الله عليه وسلم - كله دعوة إلى الله ..."(٢).

وابن باديس نفسه - لمعرفته بما للقدوة من أثر في الدعوة والتربية - كان يحرص على بيان ذلك في دروسه ، ويحرص أيضا على أن يكون هو نفسه قدوة .

بعض أقواله :-

أ - عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾(٣) الآية ، وبعد أن تطرق لعدة مسائل لها علاقة بالآية قال :

" تأييد واقتداء :

وجاء بحديث كعب بن مالك رضي الله عنه - وهو أحد الثلاثة الذين خلفوا في غزوة تبوك - في تصدقه ببستانه تعبيرا عن فرحته بتوبة الله عليه(٤)، ثم قال : " فهذا الصحابي الجليل رأى أن من توبته أن يعمل هذا العمل الصالح ليكون دليلا على صدق توبته ، كما اقتضته الآية فتأيد بفهمه ما قدمنا ، وكان خير قدوة للتائبين "(٥).

ب - عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾(٦) وبعد أن فصّل في مباحث تتعلق بمعاني الآية قال رحمه الله " اقتداء ورجاء :

---

(١) تفسير ابن باديس : ص ٤٠١ .

(٢) المصدر السابق : ص ٣٩٩ .

(٣) الفرقان : ٧٠ .

(٤) الفتح : ٨/ ١١٣-١١٦ .

(٥) تفسير ابن باديس : ص ٢٨٠ .

(٦) الفرقان : ٧٥ .

هؤلاء هم السالكون ، وماذكر من أعمالهم وأحوالهم هو سلوكهم ، ولما سلكوا الصراط المستقيم بالعمل المستقيم انتهى بهم السير الى أحسن قرار ومقام ، الى دار النعيم المقيم فى جوار الرحمن الرحيم. فاذا اشتقت الى نهايتهم فتمسك ببدايتهم وزن أعمالك بأعمالهم ، وأحوالك بأحوالهم ، فاذا جعلت ذلك من همك ، وحملت عليه نفسك بصادق عزمك وصبرت كما صبروا رجوت أن تظفر بما ظفروا .

فالله نسأل لنا ولك وللمسلمين صحة الاقتداء ، وصدق الرجاء ، وحسن الجزاء :

* مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . . . * (١) (٢)

جـ - ويحث تلامذته على الاقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيقول :-

" الأنبياء والمرسلون أكمل النوع الانساني وهم المثل الأعلى فى كماله وقد كان أصل كمالهم بطهر أرواحهم وكمالها ، فأقبل على روحك بالتزكية والتطهير والترقية والتكميل ولا سبيل الى ذلك الا بالاقتداء بهم والاهتداء بهديهم وقد قال الله تعالى لنبينا عليه وعليهم الصلاة والسلام : * أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده * (٣) فاقرأ ماقصه القرآن الكريم من أقوالهم وأعمالهم وأحوالهم وسيرهم وتفقه فيه وتمسك به تكن - ان شاء الله تعالى - من الكاملين (٤) ".

والمتصفح لما تركه من تفسير وشرح للحديث كثيرا مايعترض طريقه مثل هذه العناوين البارزة " اقتداء " " اقتداء وتأس " " تعليم وقدوة " " أدب واقتداء " " للعبرة والقدوة " " اهتداء واقتداء (٥) " مما يدل على اهتمام ابن باديس بهذه الوسيلة ومعرفته بتأثيرها العظيم .

---

(١) النحل : ٩٧ .

(٢) تفسيرابن باديس : ص ٣٠٣ .

(٣) الأنعام : ٩٠ .

(٤) تفسير ابن باديس : ص ٢١٩ .

(٥) انظرالتفسير : ص ٢٢٣ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٨٣ ، ٣٣٥ ، ٣٤٢ ، ٣٥١ ، ٣٧٥ .

ووقف مرة يودع تلامذته الذين انهوا سنتهم الدراسية في مسجده وأزمعوا على الرجوع إلى بلدانهم فحثهم على أن يمثلوا الأخلاق الإسلامية الفاضلة بين أقوامهم حتى تظهر عليهم آثار ماكانوا فيه من غربة للتربية والتعليم فيحببوا الناس في العلم ويكونوا لهم قدوة فيه وفي العمل به.(١)

هذا عن ماورد من نصائح وإرشادات عن ابن باديس فيما يخص القدوة ، والآن أتطرق إلى كيف كان هو نفسه قدوة تتمثل فيه أخلاق الإسلام وآدابه . إذ كان ممتثلا لما يعتقد ويقول وكيف لا يكون كذلك وهو الذي كان يقول " لا يكون الإمام إلا تقيا فاق غيره في التقوى"(٢) وكان يدعو " اللهم وفقنا واهدنا إلى سنة نبينا إذا اقتدينا وإذا اقتدى بنا آمين يارب العالمين".(٣)

والاقتداء يكون على طريقتين :-

الأولى : أن يخبر المقتدى به عن فعل فعله أو قول قاله أو موقف وقفه قصد الإقتداء به.

الثانية : أن يصدر عنه ذلك أمام أصحابه وتلامذته وهذا غالبا مايحدث في خروجه للدعوة فيصحب معه بعض تلامذته فيقع التأثر به من صحبه وممن قصده .

نماذج :-

أ- قد مر قوله : - وهو يتحدث عن تأثره بقراءة القرآن - : " وأما حظ التجربة، فوالله الذي لا إله إلا هو، مارأيت وأنا ذو النفس الملأى بالذنوب والعيوب - أعظم إلانة للقلب واستدرارا للدمع ، واحضارا للخشية ، وأبعث على التوبة من تلاوة القرآن وسماع القرآن".(٤)

فلينظر إلى كلمته هذه فهي تدل على تواضعه بجعل نفسه ملأى بالذنوب، وفيها إخبار عن نفسه بأنه كان إذا تلا القرآن أو تُلي عليه لان قلبه وذرفت عينه وحضرته

---

(١) الشهاب ج ٤ -م١١ ربيع الثاني ١٣٥٤ هـ جويليت ١٩٣٥م - ص ٢٦٥

(٢) تفسير ابن باديس : ص ٢٩٨.

(٣) المصدر السابق : ص ٢٩٩.

(٤) انظر ص ٣٩٣

الخشية وانبعث للتوبة ، وهذه حالة من أعز الحالات وطاعة من أعظم الطاعات حصلت للإمام لأنه قال : "عن تجربة" ، فلا شك أن لكلمته هذه تأثيرا في نفوس تلاميذه فيقتدون به .

ب - قال رحمه الله - وهو في معرض بيانه لأثر طاعة الله في حفظ العبد من كل مكروه - « "نعرف في حياتنا مواطن مانجونا فيها إلا بدفع الله وبطل كيد الكائدين فيها بمحض صنع الله ، وقد كنا فيها - فيما نرى - على شيء من العمل لله . فكيف بمن كانت أعمالهم كلها لله ، وهذه المشاهدة التي شاهدنا - ولا نشك أن من غيرنا من شاهد مثلنا أو أكثر منا - توجب علينا أن نوصي بالإيمان بالله والمحافظة على العهد والثقة به ، فإن ذلك يحقق وعد الله بالدفع وينيل أهله العزة والحفظ ، فعلى المسلم أن يعمل لذلك ويعتقد بمثقة بالله وصادق وعده ، والله لا يخلف الميعاد"(1) » .

فلينظر إليه - وهو يقص علينا بعض كرامات الله له نتيجة طاعته ، يحدثنا عنها بتواضع بعيد وتحفظ شديد يشعرنا أنه لا يرغب في كشفها والتصريح بها وأنه مافعل ذلك إلا ليدلل بالعمل والتجربة على أن الله تعالى يدافع عن الذين آمنوا - وهو منهم إن شاء الله - فيندفع الناس للعمل بوصيته اقتداء بالآية أولا ثم به .

جـ - مر بنا أن شيخه (حمدان الونيسي) أوصاه ألا يقرب الوظيف ، فها هو يحدثنا كيف نفذ هذه الوصية : « عشرون سنة مضت ونحن ننشر العلم . .

مضت عشرون سنة والناس يشكرون الحكومة توظيفها مدرسا يقضي سحابة نهاره وشطرا من ليله في خدمة العلم الديني واللساني ونشره ظنا منهم أنني أتقاضى مرتبا كسائر الموظفين ، وأنا لم أرزق فلسا واحدا - والفضل لله - وماكنت إلا مدرسا متطوعا مكتفيا بالإذن لي في التعليم"(2) .

---

(١) تفسير ابن باديس : ص ٤٥٣ ، ٤٥٤ .

(٢) عمار الطالبي ، ابن باديس حياته وآثاره : ٣ / ١٩٠ .

د - كان الشيخ الطيب العقبي - وهو الرجل الثالث في جمعية العلماء من حيث العلم والعمل - يقيم في العاصمة ومكلفا من جهة ابن باديس بنشر الدعوة في عمالة (ولاية) العاصمة ، فدبرت له فرنسا - بالاتفاق مع أعوانها - مكيدة وهي اتهامه بقتل مفتي الجزائر العاصمة (ابن دالي عمر) وسيق إلى السجن حتى يحاكم ، فكان ابن باديس كلما وقف الطيب العقبي للمحاكمة سافر من قسنطينة التي تبعد عن مدينة الجزائر بنحو ٥٠٠ كلم ليحضر تلك الجلسة ، مع قلة وسائل النقل في ذلك العصر (١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م) وبسبب هذه الأسفار توقف ابن باديس عن الدروس في الجامع الأخضر وعن الكتابة في مجلة "الشهاب" فترة ثم كتب اعتذارا هذا نصه : « وفي صبيحة هذه الثلاثاء ابتدئت المحاكمة في قضية مقتل المفتي ابن دالي عمر التي اتهم الشيخ الطيب العقبي والسيد عباس التركي باطلا ظلما عدوانا ، فكان من واجبي أن أحضر جميع الجلسات ، فانشغل بالي عن تتميم مجالس التذكير . ولقد مات ابني الوحيد (١) ومات أخ لي عزيز فما شغل ذلك بالي مثل اليوم ولا منعني عن دروسي وأعمالي . ذلك لأن هذه القضية اليوم قضية الإسلام والعربية والجزائر ، لا قضية فرد أو جماعة ، فمعذرة يا قرائي الأعزة ، والله نسأل أن يظهر الحق ويدحض الباطل » (٢) .

فمن يقدر على قطع المسافات البعيدة لأجل حضور محاكمة شخص ؟ هذا شيء عظيم ، وأعظم منه مواصلة الدروس والأعمال مع موت الابن الشاب الوحيد (٣) ، ولكنها الإمامة التي تقتضي أن يكون - من شهدت له الأمة بها - " تقيا فاق غيره في التقوى " (٤) ، ولكنها الرئاسة وما يلزم لها - كما قال هو بمناسبة تعيينه رئيسا للجمعية - : " من التضحية التي هي أول شروط الرئاسة " ثم أردفه :

---

(١) مات وعمره ١٧ سنة ، انظر : ابن باديس حياته وآثاره : ١/ ٧٤ ، ٧٥ .

(٢) الشهاب ج ٦ م ١٥ جمادي الثانية ١٣٥٨ هـ جويلية ١٩٣٩ م ص ٢٥٤

(٣) حكى أحد تلامذته (الشيخ علي شنتير) : أن ولده هذا توفي برصاصة أطلقها على نفسه خطأ وهو يمسك البندقية فأسرع عم الولد إلى الجامع الأخضر ليخبر عبد الحميد بن باديس فلما أسرَّ إليه بالخبر أمره بأن يقوموا مقامه في تجهيز الميت وبقي في المسجد حتى أتم دروسه المقررة ذلك اليوم .

(٤) انظر ص (٢٩٨) من تفسيره

ولقد قال الهذلي[(١)] : -

« وإنَّ سِيَادَةَ الأَقْوَامِ فَاعْلَمْ :: لَهَا صَعْدَاءُ مَطْلَعُهَا طَوِيلُ[(٢)]

وإن هذا العبد الضعيف لثقته في الله وقوته بالله واعتزازه بقومه ، واعتماده - بعد الله - على إخوانه لمستعد لهذه الصعداء وإن طال مطلعها وطال»[(٣)].

وفي الحادثة السابقة صورة رائعة لعمل القائل بما يقول إذ كان ينصح تلاميذه بقوله :

« لنجعل المصلحة العامة غايتنا ، والمقدمة عندنا حتى لا يكون - إن شاء الله - في مصالحنا الخاصة مايصرفنا أو يشغلنا عنها ، راجين من الله تعالى أن يعيننا على ماقصدنا ، وأن يوفقنا إلى استعمال كل مصلحة خاصة لنا في مصلحة عامة لنا ولإخواننا إنه نعم الموفق ونعم المعين»[(٤)].

فاستجاب الله له ، فوفقه إلى امتثال ماقال ونصح به الناس فكان قدوة لهم ونعم القدوة هو .

هـ - قال رحمه الله تعالى : « بعد ماانتهينا من دروس السنة الماضية ، وقبل انعقاد مجلس إدارة جمعية العلماء في شهر ربيع الأول رأينا أن نعقد رحلة من العاصمة الجزائر إلى وهران فما بينهما من البلدان ، فاخترت للرفقة من أبنائي التلامذة السيد الفضيل آل الشيخ الحسين الورتلاني[(٥)] ، والسيد محمد آل الصادق الجندلي فأممنا من قسنطينة العاصمة فأقمنا بضعة أيام ثم شرعنا في رحلتنا فأتممناها في نحو عشرين يوما»[(٦)].

---

(١) حبيب الأعلم ، انظر ديوان الهذليين : ٢ / ٨٧ .

(٢) رواية البيت في اللسان : ٣ / ٢٥١ : « وإن سياسة الأقوام » وصعداء : أكمة ذات صعداء : يشتد صعودها على الراقي ، وقال أيضا : الصعداء : العقبة الشاقة .

(٣) عمار الطالبي ، ابن باديس حياته وآثاره : ٣ / ٥٥٣ .

(٤) تفسير ابن باديس : ص ٤٢٩ ، ٤٣٠ .

(٥) سبقت ترجمته ، انظر ص (٧٢) .

(٦) عمار الطالبي ، ابن باديس حياته وآثاره : ٤ / ٣٠٨ .

فرحلة مثل هذه ومايكون فيها - من الشيخ الإمام - من دروس ومواقف ، ومايظهر منه عند تعامله مع الناس أو انفراده أو مع رفاقه ،كل هذا لابد أن يترك أثرا في نفوس أصحابه بسبب هذه الصحبة والرفقة ، ولا شك أن هذه وسيلة من أعظم وسائل التربية والتكوين والتعليم.

و - خرج الإمام من مقصورته بجامع «سيدي قموش» بقسنطينة وطلب من السيد «زواوي مولود» - وهو من التجار المحبين للشيخ - أن يبحث عمن يشتري له نصف لتر من اللبن وأعطاه آنية ،فرآها فرصة لإكرام الإمام ،فذهب بنفسه إلى شواء واشترى له صحنا من اللحم المختار وعاد إلى الشيخ وهو يكاد يطير من شدة الفرح ولما قدمه إليه ظهر على وجه الإمام الغضب وقال له في لهجة شديدة صارمة : «ألا تعلم أنني ابن مصطفى بن باديس ، وأن أنواعا مختلفة من الطعام اللذيذ تعد كل يوم في بيته لو أردت التمتع بالطعام؟ ولكن نفسي لا تسمح لي بذلك وطلبتي يسيفون الخبز بالزيت وقد يأكله بعضهم بالماء»!(١)

ن - في إحدى الليالي وبعد أن انصرف الإمام من درس التفسير متجها إلى بيته - وكان الظلام دامسا والطريق ضيقة ووعرة - فوجئ بعصا غليظة تهوي عليه من شخص قوي ! فأصابه بضربتين على رأسه فأدماه وأراد أن يخرج سكينا للإجهاز عليه فمد ابن باديس يديه وأمسكه ثم دفعه حتى أخرجه إلى الشارع العام فاستصرخ الناس وماكادوا يصلون حتى انفلت الظالم واختفى في الظلام ، ورؤي ابن باديس مضرجا بالدماء ،فهاج الناس وبحثوا عن الجاني فعثروا عليه وأمسكوا به وأرادوا أن يبطشوا به فقال لهم ابن باديس : «دعوه لا تمسوه بسوء فليس الذنب ذنبه فما هو إلا صخرة مرسلة وآلة مستعملة»!(٢)

فياله من خلق عظيم! خلق العفو عند المقدرة .

---

(١) محمد الصالح الصديق ،ابن باديس من مواقفه وآرائه : ص ٤٢ .

(٢) أحمد حماني ، صراع بين السنة والبدعة: ١/ ٩٩-١٠٠ .

كان الإمام ابن باديس رحمه الله تعالى معروفا بالأخلاق النبيلة والشمائل الكريمة لا يسعنا المجال لذكر نماذج عنها، هذه الأخلاق هي السبب الأعظم في نجاح دعوته وانتشارها بين ربوع القطر الجزائري فلم تخل منها مدينة ولا قرية ولا حي ولا بيت.

٢- الموعظة :-

كانت دروس الإمام ابن باديس ومحاضراته ونصائحه وإرشاداته وخطبه التي كان يقدمها لتلامذته ومستمعيه وقرائه كلها مواعظ يريد بها تعريف الناس بدينهم وتربيتهم عليه، وقد سبق قوله : " ومن الدعوة إلى الله مجالس الوعظ والتذكير : لتعريف المسلمين بدينهم، وتربيتهم في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم على ما جاء به..." (١)، وقد عقد هو نفسه هذه المجالس في الجامع الأخضر بقسنطينة منذ رجوعه من الحجاز وقضاها ثماني وعشرين سنة لتكوين نشئ صالح (٢): وكان تفسير القرآن وشرح الحديث هما أساس هذه الدروس ومحورها، وكان أعظم قصد من تدريسهما هو تربية الفرد والجماعة كما صرح بذلك :" فإننا - والحمد لله - نربي تلامذتنا على القرآن من أول يوم ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم وغايتنا التي ستتحقق أن يكون القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها ..." (٣).

كان ابن باديس رحمه الله - بما رزقه الله من فهم عجيب لكتابه - حتى شهد له الإبراهيمي بقوله :" كان إماما فيه، دقيق الفهم لأسرار كتاب الله ..." (٤) - الذي كان يلقيه على تلامذته ببيانه الناصع وأسلوبه الخطابي القوي مع ما كان يظهر على الشيخ - من خلال سمته وهيئته - من تعبد وتقوى واستقامة - يؤثر في مستمعيه حتى يسود جو من الخشوع والوقار وتنزل على النفوس السكينة والاطمئنان، وتمتلأ باليقين والإيمان.

---

(١) تفسير ابن باديس : ص ٤٠٠.

(٢) عمار الطالبي - ابن باديس حياته وآثاره : ٣/ ٢٧.

(٣) نفس المصدر : ٢/ ١٤٢.

(٤) الابراهيمي - مجلة مجمع اللغة العربية، عدد ٢١ - سنة ١٩٦٤م - ص ١٤١.

وكان أكثر مايركز على تصحيح العقائد ، وإصلاح القلوب : وتقويم الأخلاق ، داعيا تلامذته إلى تطبيق مايسمعونه من معاني القرآن على أنفسهم حتى يصبحوا دعاة تتمثل فيهم القدوة لغيرهم ، كقوله - في أحد دروسه التفسيرية - : « سلوك واقتداء :

" كان الأعرابي الجاهل المشرك يأتي للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فيؤمن به ويصحبه يتعلم منه الدين ، ويأخذ عنه الهدى ، فيستنير عقله بعقائد الحق ، وتتزكى نفسه بصفات الفضل ، وتستقيم أعماله على طريق الهدى ، فيرجع إلى قومه هاديا مهديا ، إماما يقتدى به ، ويؤخذ عنه كما اقتدى هو بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وأخذ عنه .

" فعلى كل مؤمن أن يسلك هذا السلوك فيحضر مجالس العلم التي تذكره بآيات الله وأحاديث رسوله مايصحح عقده ويزكي نفسه ويقوم عمله وليطبق مايسمعه على نفسه وليجاهد في تنفيذه على ظاهره وباطنه وليداوم على هذا حتى يبلغ إلى ماقدرله من كمال فيه فيرجع وهو قد صار قدوة لغيره في حاله وسلوكه .

وطلبة العلم الذين وهبوا نفوسهم لله وقصروا أعمارهم على طلب العلم لدعوة الخلق إلى الله هم المطالبون على الأخص بهذا السلوك ليصلوا إلى إمامة الحق ، وهداية الخلق ، على أكمل حالة ومن أقرب طريق . . .» (١)

والمطلع على تفسيره وشرحه للحديث وبقية آثاره التي كان يكتبها في مجلته " الشهاب" - وهي صورة صادقة لما كان يلقيه على تلامذته في الجامع الأخضر - يرى مصداق قوله : « فإننا والحمد لله نربي تلامذتنا على القرآن . . .» (٢) فمن آثاره :

أ- تفسير القرآن الكريم .

ب - شرح الحديث الشريف .

كان يدرسهما ويكتبهما تحت عنوان "مجالس التذكير" مقتديا في ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان يتخول أصحابه بالموعظة (٣) .

---

(١) تفسير ابن باديس : ص ٢٩٩ .

(٢) انظر : ص (١٠٤) .

(٣) عمار الطالبي - ابن باديس حياته وآثاره : ١/ ١٢٨ .

ولم يسلك في تفسيره وشرحه للحديث طريق أي من المفسرين ، بل له طريقة تتناسب مع غاية التذكير: فإذا استعرض أحد شرحه لنوعي الوحي يلفت انتباهه كثرة العناوين البارزة من مثل :

" العجب أصل الهلاك " " استنتاج " " تطبيق " " تحذير وإرشاد " " عبرة وتحذير " " توجيه " " إرشاد واستنهاض " " رجاء وتفاؤل " " ترغيب وترهيب " " تعليم " " تنبيه وإلحاق " " تنظير " " شفاء العقائد والأخلاق " " سلوك " " تبصير وتحذير " " توحيد " " تطبيق وتحاكم " " عقيدة " " اقتداء " " اهتداء " " تنزيل " " سبيل النجاة " " بشارة " " حظنا من العمل بهذه الحكمة " " ميزان " " نعمة ومنقبة " " موعظة " " فقه لغوي " " فقه شرعي " " فقه قرآني " " تمييز " " بيان ورد " تمثيل واستدلال " " نصيحة " " مزيد بيان لتوحيد الرحمن " " تذكر " " نظر وإيمان " " بناء العمل على هذا العلم " " الفائدة العملية " وغير هذا كثير مما يدل على براعة الإمام في وضع العناوين حتى شهد له الإبراهيمي فقال : « وإننا نعرف لأخينا الأستاذ باديس ذوقا دقيقا في وضع الأسماء وصوغ العناوين ، وإنه يكاد يكون ملهما في هذا الباب ».(١)

جـ - وكان له باب في المجلة بعنوان « رجال السلف ونساؤه » قال عنه : « هذا باب جديد فتحناه في " الشهاب " أردنا منه أن يطلع القراء على تراجم بعض رجالنا ونسائنا من سلفنا الصالح وما لهم من صفات أكسبهموها الإسلام وما كان منهم من أعمال في سبيله ، ففي ذلك ما يثبت القلوب ، ويعين على التهذيب ، ويبعث على القدوة ، وينفخ روح الحياة ، وما حيي خلف إلا بحياة سلف ، وما حياة السلف إلا بحياة تاريخهم ودوام ذكرهم . . . »(٢)

وليأخذ القارئ الكريم فكرة على طريقته التربوية المتبعة في هذا الباب يحسن بي أن أقدم بعض النماذج مبينا كيف كان يقتصر في الترجمة على نواح معينة وكيف كان يشير إلى محل القدوة منها :

---

(١) الابراهيمي - سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين : ص ٥٥ .

(٢) عمار الطالبي - ابن باديس حياته وآثاره : ٤ / ٧٩ .

النموذج الأول : عبادة بن الصامت :-

من النواحي التي أشار إليها في حياة هذا الصحابي الجليل : فقهه في الكتاب والسنة ، وصلابته في دين الله ، قال عن الأولى : « ممن جمع القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه - صلى الله عليه وسلم - كثيرا فكان بما حفظ من كتاب الله وروى من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيها في دين الله » ثم أخذ العبرة فقال : « ولا والله ما فقه الإسلام من لم يفقه الكتاب والسنة ، وما كان فقه الصحابة والتابعين وأئمة الدين إلا بالفقه فيهما ». وقال عن الثانية : « كان صلبا في دينه يوالي في الله ويعادي فيه » وبعد أن ذكر قصة براءته من موالاة اليهود وما نزل في شأنه من قرآن ، قال : « فكان عبادة بن الصامت أول من سن سنة رفض ولاية مواليه لما رأى منهم الشر وتولى الله ورسوله ، ومن سن سنة حسنة في الإسلام كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، فرحمه الله رحمة الهادين المهتدين ».(1)

النموذج الثاني : سعد بن الربيع :-

تعرض لذكر ناحيتين اثنتين من حياته :

الأولى : نزوله لأخيه في الله عبد الرحمن بن عوف عن شطر ماله وإحدى زوجتيه ، ثم قال معلقا على هذه الصورة الأخلاقية الفريدة : « فلم يكتف سعد بالنزول لأخيه عن شطر ماله حتى أراد النزول له عن إحدى زوجتيه لأنه يعلم أن الأخوة ليست وصفا يكفي أن يثبت بالألسنة بل هي رابطة وعقيدة لا تحققها إلا الأفعال ». ثم نبه إلى الفائدة العملية بقوله : « وهذه حقيقة الأخوة خاصة كانت أو عامة ، فالمسلم الذي يشعر بأخوة الإسلام شعورا صحيحا ، ويعتقدها اعتقادا صادقا هو الذي يشاطر المسلمين في سرائهم وضرائهم ويشركهم معه فيما عنده من خير بقدر ما استطاع ، فأما من لم يهتم بأمورهم وقبض يده عن مواساتهم وشح بالفرض والمستحب من الصدقة عليهم فهو كاذب في أخوته جاهل بحقيقة الأخوة وقد قال الله تعالى :

---

(1) عمار الطالبي - ابن باديس حياته وآثاره : ٤/ ٨٠

﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ (١) وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ وَيَكْرَهُ لَهُ مَا يَكْرَهُ لَهَا » (٢).

الثانية : إبلاغ سلامه يوم أحد - وهو في آخر لحظة من حياته - للنبي صلى الله عليه وسلم ، ونصح قومه بحفظه وحمايته من كل مكروه . ثم علق بقوله « فالنبي صلى الله عليه وسلم لم ينسه ماهو فيه من مصاب عظيم في ذلك اليوم من تفقد أصحابه ، وهذا السيد الجليل لم ينسه مافيه من ألم الجراح وحالة الاحتضار من إبلاغ سلامه للنبي - صلى الله عليه وسلم - ومن النصح لقومه بما عليهم من حفظ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى آخر واحد منهم وفاء بما عاهدوه عليه ليلة العقبة »

ثم قال - مبينا الفائدة العملية من هذه القصة - : « فالمسلم لا ينسيه ألم يصيبه في سبيل الله مابقي عليه من الواجبات لدينه ولا يترك النصح حتى في أشد الأحوال ويبذل في سبيل الوفاء على ماعاهد الله عليه نفسه راضيا مغتبطا .

هكذا كان الصحابة يبذلون في حفظ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أرواحهم . والتابعون لهم من المسلمين هم الذين يبذلون في حفظ دينه من بعده كل عزيز فحياته - صلى الله عليه وسلم - في أمته ببقاء دينه فيهم قائما . والحمد لله أنه لا تزال طائفة قائمة على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون » (٣)

النموذج الثالث : سمية بنت خباط (زوجة ياسر وأم عمار) :-

ذكر قصة تعذيبها واستشهادها رضي الله عنها وألمح إلى تعذر قيام الحياة إلا على النوعين اللذين يتوقف العمران عليهما وهما الرجال والنساء ، ودلل على ذلك بما في تاريخ الإسلام من أنباء ووقائع مثل خديجة رضي الله عنها وسمية صاحبة الترجمة إلى أن

---

(١) التوبة : ١١.

(٢) الفتح : ١/ ٥٦، ٥٧.

(٣) عمار الطالبي - ابن باديس حياته وآثاره : ٤/ ٨٣، ٨٥.

يقول : «فلن ينهض المسلمون نهضة حقيقية إسلامية إلا إذا شاركهم المسلمات في نهضتهم في نطاق عملهن الذي حدده الإسلام وعلى مافرضه عليهن من صون واحتشام»

ثم أبرز محل القدوة من هذه القصة فقال :

« الأسوة : هي سنة الله عرفناها في تاريخ البشرية ، لابد في سبيل الحق من ضحايا .

ولقد كانت هذه العجوز الضعيفة مثلا رائعا في الصبر والثبات واليقين ، حتى فازت بتلك الأولِيَّة . وكانت في ذلك أحسن قدوة - لا لخصوص النسوة - بل لأهل الرجولة والقوة.

فاللهم إيمانا كإيمان هذه العجوز وصبرا كصبرها ، وشهادة كشهادتها آمين يارب العالمين».(١)

النموذج الرابع : هند بنت عتبة :-

تحدث عن إسلامها ومادار بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث عند مبايعتها له ،ثم قال : « صدق إسلامها :».

وأورد شكواها بخل أبي سفيان وسؤالها عن حكم ماتأخذه من ماله بغير علمه وإذنه صلى الله عليه وسلم لها في الأخذ بالمعروف مايكفيها وولدها وعلق على هذا بقوله :

« فماكانت تفعله قبل إسلامها ولا تتحرج منه أصبحت بعده متحرجة تسأل عن حكم الله فيه ، وماذلك إلا من صدق إسلامها وإخلاصها فيما آمنت به » وبعد هذا ذكر شيئا من أخلاقها مثل الأنفة والصراحة والجرأة والاعتداد بالنفس ثم علق بقوله : «وأهل هذه الأخلاق إذا كفروا كفروا وإذا أسلموا أسلموا بصدق وكذلك كانت هند في جاهليتها وإسلامها .» ثم استخلص العبرة فقال : « عبرةوقدوة :»

« انظر إلى الإسلام الصادق كيف تظهر آثاره في الحين على أهله وكيف يقلب الشخص سريعا من حال إلى حال وبه تعرف إسلاما من إسلام»(٢)

---

(١) عمار الطالبي - ابن باديس حياته وآثاره : ٤ / ١١٦-١١٧٠

(٢) عمار الطالبي - ابن باديس حياته وآثاره : ٤ / ١١٨-١١٩٠

النموذج الخامس : بلال الحبشي

بعد ذكر اسمه ونسبه ساق قصة إسلامه وما لاقى من التعذيب في سبيل الله ، وكيف أعتقه أبو بكر رضي الله عنه ، وأشار إلى جهاده ، ووظيفة التأذين التي اختص بها ، ثم قال :

« جزاء الحكيم :

كان بلال - وهو يقاسي العذاب الشديد - يلهج باسمه تعالى "أحد" فيخفف مايلقاه من ألم التنكيل بلذة التوحيد فكان من جزاء الله الحكيم له أن جعله مؤذن نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - وأول من رفع عقيرته بكلمة التوحيد في الأذان . عرف الله في الشدة ، فعرفه الله في الرخاء ، لم يترك اسم "أحد" في أصعب أوقات حياته فألزمه الله التعبد بالجهرية على الناس معظم حياته . فكان الجزاء من جنس العمل من الحكيم العليم» (١)

وله مقالات سياسية واجتماعية ، وخطب ومحاضرات منوعة إلى جانب معالجتها لموضوعاتها الأساسية التي قيلت من أجلها فهي لا تخلوا مما يخدم ناحية التربية والتكوين .

هاتان الوسيلتان (القدوة والموعظة) هما أهم الوسائل التي استعملها ابن باديس في تربية الأفراد ، وهناك وسائل أخرى لا تبلغ درجتهما في الأهمية أكتفي بالإشارة إلى كل منها - عدا الأولى - إشارة خفيفة .

أولا : القصة :-

الإنسان له ميل فطري نحو القصة ، ومن هنا كان لها تأثير ساحر على القلوب ، ونجد القرآن الكريم والسنة الشريفة قد اعتبراها من وسائل التربية ، وتنبه ابن باديس لهذا فاتخذها هو أيضا أداة لتربية أفراده . ففتح في مجلته "الشهاب" بابا للقصص شعاره قوله تعالى : ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢) ، وكان يجعل عنوان هذه القصص

---

(١) عمار الطالبي - ابن باديس حياته وآثاره ٤/١٠٥-١٠٧ .

(٢) الأعراف : ١٧٦ .

تارة "القصص الديني" وأخرى "قصة الشهر"(١)، وهذه القصص مختلفة، أكثرها مأخوذ من السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، وطريقته الغالبة في كتابتها أنه يقدم للقصة بكلمة ويختمها بأخرى مع الفوائد التي يذكرها في ثناياها.

وهذه بعض النماذج توضح ذلك :-

١- القصة الأولى بعنوان : "محاورة الرشيد مع محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة"(٢)

قدم لها ابن باديس بتمهيد يشير فيه إلى مواطن العبرة منها. قال رحمه الله: "نروي هذه القصة ليرى القارئ كيف كان علماء السلف يعتزون بعلمهم أمام ذوي القوة والسلطان، وكيف كان الخلفاء يستشيرون أهل العلم عملا بأصل الشورى الذي قرره الإسلام، ونرى التسامح الديني في علماء المسلمين الذين يمتازون به في أيام دولتهم عن جميع علماء الملل، فقد أنقذ محمد بن الحسن نصارى بني تغلب بإشارته من بطش الرشيد وقرر لهم حريتهم الدينية في تعميد أبنائهم. هذا أيام كانت الأمم الأخرى لا ترى لمخالفيها - بتدبير أحبارها ورهبانها - إلا السيف والنار"(٣).

٢- القصة الثانية: قصة الخنساء مع أبنائها الأربعة الذين قتلوا في حرب القادسية ووصيتها لهم قبل ذهابهم إلى أرض القتال(٤).

قدم ابن باديس لها بكلمة قارن فيها بين خنساء الجاهلية التي كاد أن يهلكها الجزع على أخيها صخر، وبين خنساء الإسلام التي قدمت أفلاذ كبدها إلى الموت، ويتساءل: "... ما الذي قلب طباع هذه النفس من جزوعة مضطربة إلى مطمئنة راضية؟" ثم يجيب بما يبين ما من أجله سيقت القصة: "هو - والله - الإسلام، الإسلام الصحيح كما جاء به محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - دينا فطريا، فأثر في فطر معتنقيه من العرب الأميين. وإذا لم يؤثر في أقوام مثل هذا التأثير فلأنهم فهموه فهما معكوسا، أو لبسوه

---

(١) عمار الطالبي - ابن باديس حياته وآثاره : ٤ ص ٢١٩.

(٢) انظر القصة في أحكام القرآن للجصاص : جـ٣ ص ٩٥ عند قوله تعالى: ﴿حتى يعطوا الجزية ...﴾ الآية ٢٩ سورة التوبة.

(٣) عمار الطالبي - ابن باديس حياته وآثاره : ج ٤ ص ٢٢١.

(٤) ابن حجر العسقلاني - الاصابة : ج ٤ - ص ٢٨٧-٢٨٨.

لبسا مقلوبا . ولا وربك لا تتأثر به فطر معتنقيه في كل عهد إلا إذا تناولوه على فطرته في ذلك العهد كما تناوله سلفهم الأولون"(١).

٣- القصة الثالثة : بعنوان "بئس حامل القرآن أنا إذاً"(٢) وهي كلمة قالها سالم مولى أبي حذيفة لما أعطي الراية يوم اليمامة وقاتل حتى قتل رضي الله عنه. ساق ابن باديس قصة استشهاده بأسلوبه الخاص ثم قال :

"العبرة :

"القرآن راية الإسلام، فحامل القرآن حامل راية الإسلام، فلذلك كان يتقدم حملته لحمل الرايات تحت بارقة السيوف ، يجودون بأنفسهم، والجود بالنفس أقصى غاية الجود ، ففي جميع مواطن البلاء والشدة ومواقف الفزع والمحنة ، هم أهل التقدم إلى الأمام . هؤلاء هم حملة القرآن الذين حملوه حمل فهم وعلم وعمل ، فاعتزوا به وأعزوا به الإسلام فأعزهم الله . وخلفت من بعد هم خلوف اتخذوه حرفة وتجارة ، وجاءوا بقراءته على الأموات بوجوه من البشاعة والمهانة والحقارة فأذلوا أنفسهم وأذلوا اسم حامل القرآن بقبيح أعمالهم فأذلهم الله على أن الله - ولله الحمد - لا يخلي الأرض من قائم لله بحجة ، ومستجيب لداعي الله في سلوك المحجة ، فقد أخذ كثير من حملة القرآن يعرفون قيمة ما حملوا ، وينهضون بما حملوا ، ويعملون لعز الإسلام ورفع راية القرآن ، راية الحق والعدل والأخوة والإحسان لبني الإنسان ، أيدهم الله وأنقذ بهم الإنسانية ومد بهم رواق السلام"(٣).

اكتفيت بهذه الأمثلة عن غيرها في بيان طريقة ابن باديس في القصة الهادفة التي اتخذها وسيلة لتعليم الناس دينهم وتكوينهم وتربيتهم على مبادئه : ولولا خوف الإطالة لأكثرت من الأمثلة الرائعة .

ونلاحظ أنه كان يختار من القصص ما يخدم أهداف دعوته .

---

(١) عمار الطالبي - ابن باديس حياته وآثاره - ج ٤ - ص ٢٢٣ .

(٢) ابن حجر العسقلاني - الاصابة : ج ٢ ص ٦ - ٨ .

(٣) عمار الطالبي - ابن باديس حياته وآثاره - ج ٤ ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .

ثانيا : العـــادة :-

يشير ابن باديس إلى أثر العادة في تربية النفس وتزكيتها بقوله :

« فإذا سخت النفوس بإيتاء حق القريب ، ومرنت عليه ، اعتادت الإيتاء وصـــار من ملكاتها فسهل عليها إيتاء كل حق . ولو كان لأبعد الناس » (١)

ويقول أيضا - بعد أن أنهى تفسير آية بر الوالدين التي في سورة الاســـراء (٢) - : « هذا ، وإن من راض نفسه على هذه الأخلاق الكريمة والمعاملة الحسنة والأقـــوال الطيبة التي أمر بها مع والديه يحصل له من الارتياض عليها كمال أخلاقي مع النـــاس أجمعين ، وكان ذلك من ثمرات امتثال أمر الله وطاعة الوالدين » (٣).

ثالثـا : الابتـلاء :-

أبرز ابن باديس أهمية الابتلاء في تربية النفس بقوله :

« إن مايصيب المؤمنين من البلاء في أفرادهم وجماعتهم هو ابتلاء يكسبهم القـوة والجلد ويقوي فيهم خلق الصبر والثبات ، وينبههم إلى مواطن الضعف فيهم أو ناحيـــة التقصير منهم فيتداركوا أمرهم بالإصلاح والمتاب فإذا هم بعد ذلك الابتلاء أصلب عودا وأطهر قلوبا وأكثر خبرة وأمنع جانبا ، وإن في صبر الصابر منهم - وقد نزل به البــــلاء الذي لا يقدر على دفعه والظلم الذي لا يقدر على إزالته - لبعثا للقوة في نفس غــــيره ممن يتأسى به ، وضعفا في قلب ظالمه وفي كليهما دفع من الله عن المؤمنين » (٤)

رابعا : التكليــف :-

إن قسطا كبيرا من التربية لا يأخذه المسلم إلا بعد ممارسته للعمل في واقــــع الناس والحياة ، لأنه قبل هذا كان يأخذ المسائل مجردة عن ملابستها للواقع ، وهـــي

---

(١) تفسير ابن باديس : ص ١٠٣ .

(٢) الاسراء : ٢٣ .

(٣) تفسير ابن باديس : ص ٩٤ .

(٤) تفسير ابن باديس : ص ٤٥٣ .

لا تتضح إلا بعد تنزيلها على واقع الناس ، والنفس البشرية كذلك لا تظهر حقيقتها من التحمل والصبر والحلم إلا بعد التجربة في الميدان ، فالحياة هي أعظم مدرسة لتعليم الإنسان .

لكل هذا كان ابن باديس عند نهاية كل سنة دراسية يجمع تلاميذه الذين أوقف حياته على تعليمهم وتربيتهم ليلقي عليهم كلمة يوصيهم فيها أن يعطوا بالعلم الذي أخذوه برفق ولطف وأن يكونوا مظاهر محبة ورحمة على ما قد يلقونه من جفوة من بعض الناس ، وأن لا يقابلوا ذلك إلا بالتسامح دون أدنى شيء من المكروه ، وقال لهم - في أحد هذه اللقاءات - : « اتقوا الله ، ارحموا عباد الله ، اخدموا العلم بتعلمه ونشره ، وتحملوا كل بلاء ومشقة في سبيله ، وليهن عليكم كل عزيز ولتهن عليكم أرواحكم من أجله ، أما الأمور الحكومية ومايتصل بها فدعوها لأهلها وإياكم أن تتعرضوا لها بشيء » (١) .

هذا تكليف عام ، وكان كلما تخرجت طبقة من تلاميذه اختار منها النجباء وعينهم في مدن مختلفة للدعوة والتربية والتعليم مثلما فعل مع مبارك الميلي الذي أرسله إلى مدينة " الأغواط " (٢)

ثانيا : تربية العقل :-

تتم التربية العقلية - عند ابن باديس - بالأمور التالية :-

١- تحديد مجال النظر العقلي .

٢- وضع المنهج الصحيح للنظر العقلي .

٣- وضع المنهج الصحيح للتعلم .

هذه هي الوسائل الثلاث التي بها تتم التربية العقلية ، ويحسن أن نخص كل واحدة من هذه الوسائل بشيء من الشرح .

تحديد مجال النظر العقلي :

إن تحديد مجال العقل أمر مهم لأن الانحراف يقع إما من إدخال العقل في غير

---

(١) انظر ص ٣٩٨ هامش ١

(٢) انظر ص (٦٩) .

مجاله أو السير به سيرا غير سليم ولو كان داخل مجاله. فمجال العقل يحدده ابن باديس ويبين أنه لا يجوز له الخروج عنه ولا تعديه فقد «كان من لطف الله بالإنسان أن جعل لعقله حدا يقف عنده، وينتهي إليه...»(١) حتى لا يقع في خطر الإعجاب بنفسه(٢).

فمما ليس من مجال العقل عالم الغيب سواء كان هذا الغيب من أحوال ما بعد الموت أو ما هو موجود في الدنيا لكنه غائب عنا ، يبين هذا ابن باديس فيقول :

« أحوال ما بعد الموت كلها من الغيب فلا نقول فيها إلا ما كان لنا به علم: بما جاء في القرآن العظيم أو ثبت في الحديث الصحيح ومثل هذا كل ما كان من عالم الغيب مثل الملائكة والجن والعرش والكرسي واللوح والقلم وأشراط الساعة ومالم يصل إليه علم البشر»(٣).

وإذا كان ذلك كذلك «فيجب فيما يرد من الأخبار عن اليوم الآخر أن يحمل على ظاهره ولو كان غير معتاد في الدنيا لأن أحوال العالم الآخر لا تقاس على أحوال هذا العالم»(٤).

ومما يلحق بتلك الغيبيات أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله، فالطريق الحق إلى فهمها هو أن: « نثبت لله تعالى ما أثبته لنفسه على لسان رسوله من ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله، وننتهي عند ذلك لا نزيد عليه وننزهه في ذلك عن مماثلة أو مشابهة شيء من مخلوقاته»(٥).

ومن هذا القبيل معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ،فهي خارقة للعادة التي ألفها العقل ولذا لا طريق لها إلا النقل الصحيح(٦).

ومثل هذا ما قصه علينا القرآن من حوادث تاريخية فهي كذلك لا تخضع للعقل بل نصدق بها على حقيقتها بمجرد ورودها في الكتاب الحكيم لأن: « القرآن كما يسلك في أدلته العقلية أقرب طريق وأوضحه كذلك يسلك في تذكيره أصدق المواعظ وأبلغها..»(٧).

---

(١) تفسير ابن باديس : ص ٣٥٩.

(٢) انظر: ص ١٩٩-٢٠٠ من هذه الرسالة .

(٣) تفسير ابن باديس : ص ١٣٨.

(٤) المصدر السابق : ص ٢٤٧.

(٥) عبد الحميد بن باديس- العقائد الاسلامية : ص ٧٣.

(٦) مجالس التذكير من حديث البشير النذير: ص ٣٢-٣٤.

(٧) الشهاب ج ٢ م ١٦ [illegible] ١٩٤٠م ص ١٦٦

فكل هذا ـ ومايشبهه ـ ممالا يدخل في مجال العقل .

أما مجاله فهو النظر والتأمل في آيات الله المسطورة وآيات الله المنظورة وسننه في الكون والإجتماع ، وينبغي أن يعلم مسبقا أنه حتى في هذه المجالات له حد يقف عنده وينتهي إليه كما قال ابن باديس.(١)

فعمل العقل في كتاب الله: « هو التفهم والتدبر لآياته والتفطن لتنبيهاته ووجوه دلالاته واستثارة علومه من منطوقه ومفهومه على مادلت عليه لغة العرب في منظومها ومنثورها ، وماجاء من التفاسير المأثورة ، ومانقل من فهوم الأئمة الموثوق بعلمهم وأمانتهم المشهود لهم بذلك من أمثالهم. »(٢)

وعمل العقل في الكون هو النظر والاستفادة والعمل(٣) كما كان السلف ينظرون إلى الجانب الكوني نظرات مسددة لوصحبها بحث مسدد ممن أتى بعدهم.(٤)

إلا أن عملية النظر والتدبر هذه لاتؤتي ثمارها الطيبة إلا لمن اتبع المنهج الصحيح في النظر العقلي ، وقد بين ابن باديس هذا المنهج غاية البيان .

المنهج الصحيح للنظر العقلي :

يرى ابن باديس أن النظر الصحيح ماتوفرت فيه ثلاثة شروط :-

الشرط الأول : الإدراك الصحيح لحقائق الأشياء.

الشرط الثاني : الإدراك الصحيح للنسب التي بين هذه الحقائق إيجابا وسلبا ، وارتباط بعضها ببعض نفيا وثبوتا .

الشرط الثالث : ترتيب تلك المعلومات بمقتضى ذلك الإرتباط على صورة مخصوصة ليتوصل بها إلى إدراك أمر مجهول .

فإذا لم يصح إدراكه للحقائق أو لنسبها أو لم يستقم تنظيمه لها كان مايتوصل إليه بنظره خطأ في خطأ وفسادا في فساد .

---

(١) انظر: ص ١٩٩-٢٠٠ من هذه الرسالة.

(٢) تفسير ابن باديس : ص ٣٦٢ .

(٣) تفسير ابن باديس : ص ٢٣٢ .

(٤) نفس المصدر : ص ٣٠ .

ولأهمية هذه المسألة وخطورتها تعرض لها ابن باديس في تفسيره وشرحه للحديث كثيرا وسأكتفي بنقل ماجاء في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (١).

قال رحمه الله تعالى : « يمتاز الحيوان عن الجماد بالإدراك ، ويمتاز الإنسان عن سائر الحيوان بالعقل ، وعقله هو القوة الروحية التي يكون بها التفكير وتفكيره هو نظره في معلوماته التي أدرك حقائقها ، وأدرك نسب بعضها لبعض إيجابا وسلبا . وارتباط بعضها ببعض نفيا وثبوتا ، وترتيب تلك المعلومات بمقتضى ذلك الإرتباط على صورة مخصوصة ، ليتوصل بها إلى إدراك أمر مجهول . فالتفكير اكتشاف المجولات من طريق المعلومات ، والمفكر مكتشف مادام مفكرا .

ولما امتاز الإنسان عن سائر الحيوان بالعقل والتفكير امتاز عنه بالتنقل والتحول في أطوار حياته ، ونظم معيشته بمكتشفاته ومستنبطاته . فمن المشي على الأقدام إلى التحليق في الجو مثلا . وبقي سائر الحيوان على الحال التي خلق عليها دون أي انتقال .

وبقدر ماتكثر معلومات الإنسان ، ويصح إدراكه لحقائقها ولنسبها ، ويستقيم تنظيمه لها تكثر اكتشافاته واستنباطاته في عالمي المحسوس والمعقول ، وقسمي العلوم والآداب .

وهذا كما كان العرب والمسلمون أيام ، بل قرون مدنيتهم : عربوا كتب الأمم إلى ماعندهم ، ونظروا وصححوا واستدركوا واكتشفوا ، فأحيوا عصور علم من كانوا قبلهم ، وأناروا بالعلم عصرهم ، ومهدوا الطريق ووضعوا الأسس لما جاء بعدهم . فأدوا للنوع الإنسان بالعلم والمدنية أعظم خدمة تؤديها له أمة في حالها وماضيها ومستقبلها . وكما نرى الغرب في مدنيته اليوم : ترجم كتب المسلمين فعرف علوم الأمم الخالية التي حفظتها العربية وأدتها بأمانة ، وعرف علوم المسلمين ومكتشفاتهم ، فجاء هو أيضا بمكتشفاته العجيبة التي هي ثمرة علوم الإنسانية من أيامها الأولى إلى عهده وثمرة تفكيره ونظره فيها .

---

(١) الاسراء : ٣٧.

وقد كانت مكتشافته أكثر من مكتشفات جميع من تقدمه ـ كما كانت مكتشفات صدر هذا القرن أكثر من مكتشفات عجز القرن الماضي ـ لتكاثر المعلومات . فإن المكتشفات تضم إلى المعلومات ، فتكثر المعلومات فيكثر ما يعقبها من المكتشفات على نسبة كثرتها. وهكذا يكون كل قرن ـ مادام التفكير عَمَّالاً ـ أكثر معلومات ومكتشفات من الذي قبله .

فإذا قلت معلوماته قلت اكتشافاته . وهذا كما كان النوع الإنساني في أطواره الأولى .

وإذا كثرت معلوماته وأهمل النظر فيها ، بقي حيث هو جامدا ، ثم لا يلبث أن تتلاشى من ذهنه تلك المعلومات المهملة حتى تقل أو تضمحل ، لأن المعلومات إذا لم تتعاهد بالنظر زالت من الحافظة شيئا فشيئا ، وهذا هو طور الجمود الذي يصيب الأمم المتعلمة في أيامها الأخيرة ، عندما تتوافر الأسباب العمرانية القاضية ـ بسنة الله ـ بسقوطها .

وإذا لم يصح ادراكه للحقائق ، أو لنسبها ، أو لم يستقم تنظيمه لها كان ما يتوصل إليه بنظره خطأ في خطأ وفسادا في فساد . ولا ينشأ عن هذين إلا الضرر في المحسوس ، والضلال في المعقول ، وفي هذين هلاك الفرد والنوع جزئيا وكليا من قريب أو من بعيد .

وهذا هو طور انحطاط الأمم الانحطاط التام ، وذلك عندما يرتفع منها العلم ، ويفشو الجهل ، وتنتشر فيها الفوضى بأنواعها ، فتتخذ رؤوسا جهالا لأمور دينها وأمور دنياها ، فيقودونها بغير علم ، فيضلون ويضلون ويهلكون ويهلكون ، ويفسدون ولا يصلحون . وما أكثر هذا ـ على أخذه في الزوال بإذن الله ـ في أمم الشرق والإسلام اليوم .(١)

من كلام ابن باديس السابق يتبين لنا أن التفكير الصحيح هو الموصل إلى المعلومات الصحيحة عن طريق إدراك حقائقها والنسب والارتباطات التى بينها إدراكا صحيحا ثم تنظيمها وفق ذلك الارتباط تنظيما صحيحا ، والعقل الذي يفكر هذا التفكير هو العقل السليم .

وهذا التفكير الصحيح يتطلب نبذ كل ما بني على مجرد الظن والتقليد ، ويستلزم التثبت من كل أمر قبل اعتقاده أو قوله أو فعله وهذا ما يصرح به ابن باديس بقوله :

---

(١) تفسير ابن باديس : ص ١٣١-١٣٢ .

« ولما كان الإنسان - بما فطر عليه من الضعف والاستعجال - كثيرا مايبني أقواله وأفعاله واعتقاداته على شكوكه وأوهامه ، وعلى ظنونه حيث لا يكتفي بالظن ، وفي هذا البناء الضرر والضلال بيّن الله تعالى لعباده في محكم كتابه أنه لا يجوز لهم ولا يصح منهم البناء لأقوالهم وأعمالهم واعتقاداتهم إلا على إدراك واحد ، وهو العلم فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (١) أي لا تتبع مالا علم لك به فلا يكن منك اتباع بالقول ، أو بالفعل ، أو بالقلب ، لما لا تعلم. فنهانا عن أن نعتقد إلا عن علم أو نفعل إلا عن علم أو نقول إلا عن علم .

فما كل مانسمعه وماكل مانراه نطوي عليه عقد قلوبنا ، بل علينا أن ننظر فيه ، ونفكر فإذا عرفناه عن بينة اعتقدناه ، وإلا تركناه حيث هو ، في دائرة الشكوك والأوهام ، أو الظنون التي لا تعتبر .

ولا كل مانسمعه أو نراه أو نتخيله نقوله ، . فكفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ماسمع كما جاء في الصحيح (٢) . بل علينا أن نعرضه على محك الفكر فإن صرنا منه على علم قلناه - مراعين فيه آداب القول الشرعية ومقتضيات الزمان ، والمكان ، والحال فقد أمرنا أن نحدث الناس بما يفهمون ، (٣) وماحدث قوم بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان عليهم فتنة - (٤) وإلا طرحناه .

ولا كل فعل ظهر لنا نفعله ، بل حتى نعلم حكم الله تعالى فيه لنكون على بينة من خيره وشره ، ونفعه وضره .

فما أمر تعالى إلا بما هو خير وصلاح لعباده ، ومانهى تعالى إلا عما هو شر وفساد لهم ، أو مؤد إلى ذلك ، وإذا كان من المباحات نظرنا في نتائجه وعواقبه ووازنا بينها ، فإذا علمنا بعد هذا كله من أمر ذلك الفعل مايقتضي فعله فعلناه وإلا تركناه .

---

(١) الاسراء : ٣٧ .

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة ، انظر مجلد ١ ص ١٠ ، تحقيق فؤاد عبد الباقي (مقدمة مسلم)

(٣) رواه البخارى موقوفا عن علي ك : العلم ب : من خص بالعلم قوما دون قوم ، الفتح : ج ١ / ٢٢٧ .

(٤) صحيح مسلم ج١ ص١١ محمد فؤاد عبد الباقي (انظر: مقدمة صحيح مسلم) وهو حديث موقوف على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

فلا تكون عقائدنا - إذا تمسكنا بهذا الأصل الإسلامي العظيم - إلا حقا .

ولا تكون أقوالنا إلا صدقا .

ولا تكون أفعالنا إلا سدادا .

ولعمر الله إنه ما دخل الضلال في عقائد الناس ، ولا جرى الباطل والزور على ألسنتهم ، ولا كان الفساد والشر في أفعالهم ، إلا بإهمالهم أو تساهلهم في هذا الأصل العظيم"(١).

ومع هذا لا يكمل للإنسان التفكير الصحيح إلا بالعلم الصحيح إذ "التفكير الصحيح من العقل الصحيح" كما نص عليه ابن باديس ثم بين الطريق إلى ذلك فقال : "يثقف العقل بالعلم"(٢).

ومفهوم العلم عند ابن باديس واسع يشمل علم الدين والدنيا لأنه : "لما كان القرآن كتاب الإنسان من جميع نواحي الإنسان وكتاب الأكوان بما فيها من نعم وعبر، وكتاب العمران بما يحتاج إليه العمران مما يصلح أحوال البشر وما يتصل بالبشر، وكتاب السعادتين الدنيوية والأخروية ، كانت العلوم التي تخدم ذلك كله من علوم الإسلام ومن علوم المساجد ، ولذا كانت مساجد الأمصار الإسلامية من أيام البصرة والكوفة إلى يومنا هذا مفتحة الأبواب ، معمورة الأركان ، بجميع العلوم ، وإذا خلت في العصر الأخير من بعضها ، فذلك للتأخر العام وضعف المسلمين في أسباب الحياة"(٣).

والعلوم الدنيوية ما هي إلا "تراث الإنسانية كلها لا تستقل فيها أمة عن أمة" إلا أن "أكمل الأمم إزاءها التي تحسن كيف تحافظ على حسنها وتستفيد من حسن غيرها"(٤)

وبهذا يكون ابن باديس قد أعطانا جزءا من المنهج الذي تؤخذ به العلوم الكونية وهو ألا نأخذ كل ما عند الغرب بل ما حسن منه فقط، أما الجزء الآخر من هذا المنهج فهو: أن نأخذ منهم ما لا يناقض ديننا ، فالمدنية الغربية "مدنية مادية في نهجها وغايتها ونتائجها"(٥).

---

(١) تفسير ابن باديس : ص ١٣٣-١٣٥ .

(٢) المصدر السابق : ص ٢٥٧ .

(٣) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة ١٣٥٤هـ ص ١٠٤-١٠٥

(٤) المصدر السابق : جـ٣ - ص ١٢٩ .

(٥) تفسير ابن باديس : ص ٤٤٨ .

المنهج الصحيح للتعليم :

ويوضح أكثر الطريقة التي تؤخذ بها العلوم الدنيوية فيقول :

" إن طلاب العلم عندنا ثلاثة أقسام : قسم طلبوا العلم من الغير فنالوه إلا أن الغير طبعهم بطبعه فهو عوض أن يأتونا به مطبوعا بطابعنا الفطري الذي هو حبل الاتصال بين أفراد أمتنا وبين جامعتهم القومية أصبحوا متأثرين بطابع الغير.

وقسم نالوا العلم ولم يحسنوا التصرف فيه لنفع مجتمعهم ووسطهم .

وقسم نالوا العلم من الغير وأحسنوا التصرف فيه ونفعوا به بلادهم وقومهم فهذا الفريق هو الذي نحتاجه اليوم وعلى يديه يكون رقي البلاد وخيرها .

فأرجوكم أيها الشبان الحازمون أن تأخذوا العلم بأي لسان كان وعن أي شخص وجدتموه وأن تطبعوه بطابعنا لننتفع به الانتفاع المطلوب كما أخذه الأوروبيون من أجدادنا وطبعوه بطابعهم النصراني وانتفعوا به ".(١)

وأما المنهج الذي تؤخذ به العلوم الدينية واللسانية ومايسمى اليوم بالعلوم الإنسانية فهو الطريقة النبوية وطريقة السلف من الصحابة والتابعين ،فهو يرى أنه لن يصلح هذا التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله وموضوعه في مادته وصورته ، ويرى أن التعلم والتعليم كانا في القرون الفضلى مبناهما على التفقه في القرآن والسنة ، ويضرب لنا مثلا بطريقة الإمام مالك في موطئه حيث اعتمد في بيان الدين على الآيات القرآنية وماصح عنده من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته وماكان من عمل الصحابة رضي الله عنهم،وأشار أيضا إلى طريقة الإمام الشافعي في كتابه الأم، وأخص مواصفات هذا المنهج عند ابن باديس هي التفقه في الكتاب والسنة وربط الفروع بالأصول ونبذ كل المناهج الكلامية والطرق الملتوية .

وكانت له انتقادات على طرق التدريس المتبعة في تلك الفترة بالمعاهد المشهورة كالأزهر والزيتونة،(٢) وأرسل بنصائح واقتراحات إلى المشرفين على جامع الزيتونة بشأن إصلاح التعليم ، وتتضمن هذه الاقتراحات خلاصة آرائه في التربية والتعليم.(٣)

---

(١) عمار الطالبي - ابن باديس حياته وآثاره - ج ٤ - ص ٣٤٠ .

(٢) الشهاب ج ١٢ م ١٠ شعبان ١٣٥٣ نوفمبر ١٩٣٤م ص ٥١٨ - ٥٢١

(٣) الشهاب ج ١٠ - م ٧ - جمادى الثانية ١٣٥٠ هـ اكتوبر ١٩٣١م ص ٦٠١ - ٦٠٥

ويولي ابن باديس اهتماما ملحوظا بالمؤسسات التربوية التي يحصرها في ثلاث ، يشملها بالحديث وأولاها : البيت أو الأسرة ، فالأبوان يهوّدان الطفل أو ينصرانه أو يمجسانه ، والأم أشد تأثيرا من الأب لأنها أكثر ملازمة لأطفالها من والدهم ، ولخطورة هذه المؤسسة لم يفت ابن باديس الإشارة إليها بقوله: « البيت هو المدرسة الأولى والمصنع الأصلي لتكوين الرجال . وتدين الأم هو أساس حفظ الدين والخلق . والضعف الذي نجده من ناحيتهما في رجالنا معظمه نشأ من عدم التربية الإسلامية في البيوت بسبب جهل الأمهات وقلة تدينهن » ثم يبين السبيل إلى تكوين الرجال فيقول : « فإذا أردنا أن نكون رجالا فعلينا أن نكون أمهات دينيات ولا سبيل لذلك إلا بتعليم البنات تعليما دينيا وتربيتهن تربية إسلامية وإذا تركناهن على ماهن عليه من الجهل بالدين فمحال أن نرجو منهن أن يكون لنا عظماء الرجال ، وشر من تركهن جاهلات بالدين إلقاؤهن حيث يُرَبَّين تربية تنفرهن من الدين أو تحقره في أعينهن فيصبحن ممسوخات لا يلدن إلا مثلهن ولأن تكون الأم جاهلة بالدين محبة له بالفطرة تلد للأمة من يمكن تعليمه وتداركه خير بكثير من أن تكون محتقرة للدين تلد للأمة من يكون بلاء عليها وحربا لدينها ، فنوع تعليم البنات هو دليل من سيكون من أجيال الأمة في مستقبلها ، وقد تفطنت لهذا بعض الأمم المالكة لزمام غيرها فأخذت تعلم بناتهم تعليما يوافق غايتها ، فمن الواجب علينا - ولنا كل الحق في المحافظة على ديننا ومقوماتنا - أن نعنى بتعليم بناتنا تعليما يحفظ علينا مستقبلنا ويكون لنا الرجال العظماء والنساء العظيمات ، وإلا فالمستقبل ليس كالماضي فقط بل شر منه لا قدر الله »(١).

وثاني هذه المؤسسات المدرسة الابتدائية التي يقدم ابن باديس للمعلمين فيها هذه النصيحة: « على المربين لأبنائنا وبناتنا أن يعلموهم ويعلموهن هذه الحقائق الشرعية ليتزودوا وليتزودن بها وبما يطبعونهم ويطبعونهن عليه من التربية الإسلامية العالية لميادين الحياة »(٢).

---

(١) عمار الطالبي ، ابن باديس حياته وآثاره ، ج ٤ - ص ٢٠١-٢٠٢ .

(٢) تركي رابح - الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم ص : ٢٥٠-٢٥١ .

وسنرى في فصل " وسائل دعوته "كيف أنشأ المدارس الابتدائية لتربية وتعليم الناشئة .

وثالث هذه المؤسسات التربوية المسجد الذي كان في تلك الفترة يقوم مقام المتوسطة والثانوية والجامعة ، لاحظ ابن باديس - ماعليه تلك المعاهد الاسلامية من فساد في عدة نواح وأعظمها الناحية التربوية فالمعلم فيها لا يعدو أن يكون ملقنا للمعلومات ولا أثر له في تربية التلميذ وتكوينه وإعداده ، فأعطانا - ابن باديس - رأيه فقال: « أغلب المعلمين في المعاهد الإسلامية الكبرى كالأزهر لا يتصلون بتلامذتهم إلا اتصالا عاما لا يتجاوز أوقات التعليم فيتخرج التلامذة في العلوم والفنون ولكن بدون تلك الروح الخاصة التي ينفخها المعلم في تلميذه - إذا كانت للمعلم روح - ويكون لها الأثر البارز في أعماله العلمية في سائر حياته ».

ثم يبين طريقة معاملة المعلم لتلميذه بقوله :

« فعلى المعلم الذي يريد أن يكوّن من تلامذته رجالا أن يشعرهم - واحدا واحدا - أنه متصل بكل واحد منهم اتصالا خاصا زيادة على الاتصال العام وأن يصدق لهم هذا بعنايته خارج الدرس بكل واحد منهم عناية خاصة في سائر نواحي حياته حتى يشعر كل واحد منهم أنه في طور تربية وتعليم في كفالة أب روحي يعطف عليه ويعتني به مثل أبيه أو أكثر »(١).

ونجده هو يطبق هذا المنهج بعينه مع تلامذته ، حيث كان لا يقطع صلته بهم لا في المسجد ولا في غيره من محل نومهم أو نواديهم وها هي مجلة الشهاب تحدثنا عن معاملته لطلابه في آخر كل سنة دراسية مما يعطينا صورة عن بقية اتصالاته بهم. قالت الشهاب: « في أوائل هذا الشهر ختمت الدروس العلمية بالجامع الأخضر فجمع الأستاذ عبد الحميد بن باديس طبقات التلامذة الثلاث - وهم ينيفون على مائتي تلميذ - ليلقي عليهم كلمة الوداع ويزودهم بالوصايا النافعة ... » إلى أن تقول: « وختم الاجتماع بالدعاء والابتهال ، بما فيه صلاح الحال والمآل إن شاء الله تعالى .

---

(١) عمار الطالبي - ابن باديس حياته وآثاره : ج ٤ - ص ٢٠٢ .

ثم في المساء ودعهم الأستاذ واحدا واحدا فرجعوا إلى بلدانهم مزودين بالخير دعاة إليه فتح الله عليهم وفتح بهم إنه الفتاح العليم " .

ولما وصل الطلبة إلى بلدانهم كتبوا له الرسائل فأجابهم بقوله : " تحية وشكرا إلى أبنائي الطلبة .

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

جاءتني كتبكم وأفادتني مايسرني ويسر كل محب للعلم من استمراركم على الجد في مراجعته والترغيب فيه ونشر الهداية - كل بما استطاع - بين قومه وعشيرته وقد ضاق وقتي عن مكاتبتكم واحدا واحدا فكاتبتكم بهذا على صفحات مجلتكم شاكرا لكم حسن عهدكم وصدق مودتكم سائلا من الله تعالى أن يجمع قلوبنا على الحق وأعمالنا على الخير .

وسيكون افتتاح الدروس في منتصف شهر اكتوبر إن شاء الله كالمعتاد سهل الله لنا ولكم أسباب العلم النافع . ووفقنا وإياكم إلى العمل الصالح .

والسلام من أبيكم : عبد الحميد بن باديس ". (١)

ثالثا : تربية البدن : وقد سبق الحديث عن ذلك سواء أريد بالبدن الجانب الفسيولوجي أو الجانب النفسي (٢).

وبعد أن بينت منهج ابن باديس في تربية الفرد انتقل الآن الى بيان منهجه في تربية الجماعة وهو موضوع المطلب القادم .

---

(١) ـ عمار الطالبي ـ ابن باديس حياته وآثاره ج ٣ / ١٢٣ ـ ١٢٤ .
(٢) ـ انظر : ص ٣٨٦ .

- المطلب الثاني -

* ربط الأفراد بعضهم ببعض *

سعى ابن باديس إلى هذه الغاية بالوسائل التالية :-

الأولى: وحدة الفكرة :-

حرص ابن باديس على أن تكون فكرة أفراد جماعته واحدة : وقد بلغ ذلك بإذن الله تعالى .

الثانية : الأخوة المبنية على وحدة الفكرة وتآلف القلوب :

وقد اتخذ كل وسيلة من أجل تأليف القلوب ، وأرشد إلى كل طريق موصل لذلك .

يبين ابن باديس أثر وحدة الفكرة في اتحاد أفراد الجماعة فيقول : " ينبغي لكل قوم جمعهم عمل أن يفهم بعضهم بعضا كما ينبغي أن يفهموا العمل الذى هم متعاونون عليه ليكونوا في سيرهم على بصيرة من أنفسهم وعملهم. فقد يجتمع قوم على عمل مع اختلاف منازعهم فيأخذ كل واحد ليجذب إلى ناحية فتقع الخصومة ما بينهم وينقطع حبل عملهم وربما انتهى بهم الأمر إلى افتراق وعدوان . ولو أنهم في أول الأمر تفاهموا لما تخاصموا ".(١)

وكان هذا هو المنهج الذى اتفق ابن باديس مع الابراهيمي على السير عليه في تربية الأفراد كما ينص عليه الابراهيمي بقوله : "كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا بالمدينة في تربية النشء هي ألا نتوسع له في العلم وإنما نربيه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلامذتنا" هذا الجيش الذي أصبح " يحمل فكرتنا وعقيدتنا مسلح بالخطباء والكتاب والشعراء يلتف به مئات الآلاف من أنصار الفكرة وحملة العقيدة يجمعهم كلهم إيمان واحد ، وفكرة واحدة ، وحماس متأجج ، وغضب حاد على الإستعمار".(٢)

---

(١) عمار الطالبي - ابن باديس حياته وآثاره - ج ٣ - ص ٢٣٣ .

(٢) الابراهيمي - مجلة مجمع اللغة العربية المصرية عدد ٢١ - سنة ١٩٦٤م ص ١٤٣ .

ولما حان وقت تأسيس الجمعية وطلب الرجال الذين يتولون عضوية مجلسها الإداري (شبه مجلس الشورى) وجدت مجموعة من العلماء يقول عنهم الإبراهيمي « رجال أكفاء جمعتهم وحدة المشرب ووحدة الفكرة ووحدة المنازع الاجتماعية والسياسية ، ووحدة المناهضة للإستعمار » (١).

وحرص ابن باديس في دعوته على تمتين الأخوة بين الأفراد وتأليف قلوبهم وتبيين العوامل المثمرة لذلك ، كان يفعل ذلك في دروسه المسجدية أو المحاضرات أو المواعظ والارشادات التي يلقيها في خروجه للمدن والقرى أو كتاباته التي يسجلها على صفحات مجلته ، ففي أحد دروسه التفسيرية قال - عن أثر اللسان - : « فإذا حسن قويت روابط الألفة ، وتمكنت أسباب المحبة » (٢) .. إلخ كلامه .

وقال مرة أمام أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بمناسبة اجتماعهم بالجزائر العاصمة: « إن هذا العبد له فكرة معروفة وهو لن يحيد عنها ولكنه يبلغها بالتي هي أحسن فمن قبلها فهو أخ في الله ومن ردها فهو أخ في الله فالأخوة في الله فوق مايقبل ومايرد فأردتم أن ترمزوا بانتخابي إلى هذا الأصل : وهو أن الاختلاف في الشيء الخاص لا يمس روح الأخوة في الأمر العام ، فماذا تقولون أيها الإخوان ؟ فأجابوا كلهم بالوفاق والاستحسان » (٣).

ويحدثنا عن دروسه ونصائحه التي كان يلقيها على الناس عند مايخرج إلى مختلف أنحاء القطر فيقول: « ماكنت أدعوهم في جميع مجالسي إلا لتوحيد الله والتفقه في الدين والرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ورفع الأمية والجد في أسباب الحياة من فلاحة وتجارة وصناعة وإلى اعتبار الأخوة الإسلامية فوق كل مذهب وطريقة وجنس وبلد ... » (٤) ويقول أيضا :

---

(١) المصدر السابق : ص ١٤٤ .

(٢) انظر النص بأكمله فى ص (255) .

(٣) عمار الطالبي - ابن باديس حياته وآثاره - ج ٣ - ص ٤٢٠ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٤ - ص ٢٩٧ .

« وألخص لهم وصايا الجمعية في هذه الكلمات الثلاث : تعلموا - تحابوا - تسامحوا - وأشرحها لهم وأذكر لهم فوائدها »[١].

الثالثة : الارتباط العضوي بين الأفراد في شكل جماعة منظمة :

هذه هي الوسيلة الثالثة من وسائل ربط الأفراد بعضهم ببعض ويبين لنا ابن باديس أهمية هذه الوسيلة فيقول : « إنما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله إذا كانت لهم قوة ، وإنما تكون لهم قوة إذا كانت لهم جماعة منظمة تفكر وتدبر وتتشاور وتتآزر وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرة متساندة في العمل عن فكر وعزيمة ... »[٢]

وقام بتأسيس هذه الجماعة بالفعل - كما سيأتي بيانه إن شاء الله[٣] - ويعلن هذا بكل افتخار فيقول : « لم تقم في أمة إسلامية هيئة علمية منظمة - تعلن الدعوة إعلانا عاما وتصمد للمقاومة غير مبالية بما يؤيد البدع والضلالات من سلطان ديني وسلطان دنيوي - غير الأمة الجزائرية فكان من علمائها الأحرار المستقلين الذين لا يعيشون على الوظيف أولئك الذين نهضوا بالدعوة الإصلاحية منذ بضع عشرة سنة وجاهدوا فيها لله وصابروا وأسسوا لها أعظم مؤسسة دينية - جمعية العلماء المسلمين الجزائريين - حتى أصبحت الدعوة الإصلاحية - والفضل لله والحمد لله - ثابتة الأركان مشيدة البنيان باسقة الأفنان دانية الثمار وارفة الظلال - لا على الجزائر وحدها بل على الشمال الإفريقي كله »[٤].

---

(١) عمار الطالبي - ابن باديس حياته وآثاره : ص ٣١٨ .
(٢) تفسير ابن باديس : ص ٤٢٨ .
(٣) انظر ص (٤٤٥) .
(٤) عمار الطالبي - ابن باديس حياته وآثاره : ج ٣ ص ٦٧ .

الفصل الثالث
وسائل دعوته

تمهيد

تحتاج الدعوة الى نوعين من الوسائل :-

- وسائل حمايتها والحفاظ على بقائها .
- ووسائل تبليغها وتكوين رجالها .

وسأتكلم الآن على كل نوع بما يوضحه .

- المبحث الأول -

* وسائل حمايتها *

استعمل ابن باديس لحماية دعوته عدة وسائل منها :-

أولاً- التدرج في الجهر بالمبادئ وإظهار المقاصد :

لحماية الدعوة وحفظها مما يقضي عليها أو يؤدي بها إلى الفشل والركود لا بد من الحيطة التامة والحذر الشديد خصوصا في بدايتها ، وهذه سنة الله تعالى في تاريخ الدعوات ،لأن أكثر الناس يعارضونها ويحاربونها ، ولا يتبع الداعي إلا القليل ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾(١) ولا يكتفي الأعداء بالإعراض بل يصدون الناس عن الدعوة ، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾(٢) ويحاولون الفتك بأهلها والدعاة إليها ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾(٣) مما يجعل الدعاة يلجأون إلى أساليب وطرق في الدعوة تضمن لهم سيرها مع الأمن على أنفسهم وأتباعهم وأعمالهم في بداية دعوتهم حتى يطمئنوا إلى انتشارها وفشوها في أوساط الناس بحيث يستحيل على الأعداء ردها ، ولو بقتل رجالها الأوائل ، ومن هذه الطرق " السرية " مثل ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بداية دعوته . وبقيت هذه السنة متبعة عند اقتضاء الحال لها . وهكذا فعل ابن باديس ، فبالرغم من أن خطة الدعوة كانت واضحة في ذهنه منذ لقائه بالإبراهيمي في المدينة المنورة سنة ١٩١٣م ، بل قاما بتسطير كل الخطوات ووضع البرامج المفصلة لسير الدعوة كما ينص عليه الإبراهيمي بقوله :

---

(١) هود : ٤٠ .

(٢) فصلت : ٢٦ .

(٣) الأنفال : ٣٠ .

«وأشهد الله على أن تلك الليالي من سنة ١٩١٣م هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي لم تبرز للوجود إلا في سنة ١٩٣١م»(١)، واتفقا على أن يبدآ بمحاربة الطرقية قبل الإستعمار الفرنسي ومع هذا فإن ابن باديس علم أن إظهار النوايا والمقاصد في عمله سيدفع بالإستعمار الفرنسي وأعوانه من الطرقيين والعلماء الرسميين إلى إيقافه ومنعه من العمل من أول يوم ، ولذا عمل على أن يلتزم السرية في دعوته ولا يكشف خطته ولا يظهر أهدافه إلا بعد أن يشعر أنه أثخن في الأرض ، فكان أول عمل بدأ به في مرحلته السرية هو تعليم الشباب لتكوين مجموعة من الرجال يتولون معه العمل وهذا ماصرح به هو حيث يقول : «لما قفلنا من الحجاز وحللنا بقسنطينة عام ١٣٣٢هـ وعزمنا على القيام بالتدريس أدخلنا في برامج دروسنا تعليم اللغة وأدبها والتفسير والحديث والأصول ومبادئ التاريخ ومبادئ الجغرافية ومبادئ الحساب وغير هذا ...» إلى أن يقول : « ونحبب الناس في فهم القرآن وندعو الطلبة إلى الفكر والنظر في الفروع الفقهية والعمل على ربطها بأدلتها الشرعية ونرغبهم في مطالعة كتب الأقدميين ومؤلفات المعاصرين ،لما قمنا بهذا وأعلناه قامت علينا وعلى من وافقنا قيامة أهل الجمود والركود وصاروا يدعوننا - للتنفير والحط منا - "عبداويين" دون أن أكون - والله - يوم جئت قسنطينة قرأت كتب الشيخ محمد عبده إلا القليل فلم نلتفت إلى قولهم ، ولم نكترث لإنكارهم على كثرة سوادهم وشدة مكرهم وعظيم كيدهم . ومضينا على مارسمنا من خطة وصمدنا إلى ماقصدنا من غاية وقضيناها عشر سنوات في الدرس لتكوين نشئ علمي لم نخلط به غيره من عمل آخر ...»(٢)

من هذا النص نستفيد الفوائد التالية :-

---

(١) الابراهيمي - مجلة مجمع اللغة العربية المصرية - عدد ٢١ سنة ١٩٦٤م - ص١٤١ .

(٢) عمار الطالبي - ابن باديس حياته وآثاره - ج ٣ ص ٢٧ .

١- صدق ما ذهبنا إليه من أن الطرقيين كانوا من أعداء دعوة ابن باديس وأنه كان يعمل في بداية دعوته على ألا يثيرهم على نفسه ، ومع حرصه على ذلك لم يسلم منهم .

٢- إن هذه العشر سنوات كانت إحدى المراحل السرية التي يقتضيها سير الدعوة الإصلاحية بدليل قوله : " لم نخلط به غيره من عمل آخر " .

٣- إن هذا العمل كان جزءا من الخطة المرسومة والتي وقع الاتفاق عليها في المدينة بينه وبين الإبراهيمي بدليل قول هذا الأخير « وشرع الشيخ بعد رجوعه من أول يوم في تنفيذ الخطوة الأولى من البرنامج الذى اتفقنا عليه .

ففتح صفوفا لتعليم العلم ، واحتكر مسجدا جامعا من مساجد قسنطينة لإلقاء دروس التفسير . . . »(١) إلخ كلامه وهذه هي المرحلة الأولى من مراحل دعوته .

وبعد ما أكمل هذه العشر من السنين شرع في عمل آخر يتناسب مع المرحلة الثانية للدعوة ، وهذا العمل ما هو إلا تأسيس الصحافة للجهر بالدعوة والإعلان عليها حتى يسمعها القاصي والداني وهذا ما يحدثنا عنه ابن باديس بقوله « فلما كملت العشر وظهرت - بحمد الله - نتيجتها رأينا واجبا علينا أن نقوم بالدعوة العامة إلى الإسلام الخالص والعلم الصحيح إلى الكتاب والسنة وهدي صالح سلف الأمة وطرح البدع والضلالات ومفاسد العادات فكان لزاما أن نؤسس لدعوتنا صحافة تبلغها للناس فكان " المنتقد " وكان " الشهاب " ونهض كتاب القطر ومفكروه في تلك الصحف بالدعوة خير قيام وفتحوا بكتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا ، وكانت هذه المرة غضبة الباطل أشد ونطاق فتنته أوسع وسواد أتباعه أكثر وتمالأ على دعاة الحق أهل الجمود والبدعة وعليهما بنيت صروح من الجاه ، ومنهما جرت أنهار من المال ، وأصبحت الجماعة الداعية إلى الله يُدْعَون من الداعين إلى أنفسهم " الوهابيين " ولا والله ما كنت أملك يومئذ كتابا واحدا لابن عبد الوهاب ولا أعرف من ترجمة حياته إلا القليل

---

(١) الابراهيمي - مجلة مجمع اللغة العربية المصرية - عدد ٢١ - سنة ١٩٦٤م ص ١٤١ .

ووالله ما اشتريت كتابا من كتبه إلى اليوم ، وإنما هي أفيكات قوم يهرفون بما لا يعرفون ويحاولون من إطفاء نور الله مالا يستطيعون ، وسنعرض عنهم اليوم وهم يدعوننا " وهابيين" كما أعرضنا عنهم بالأمس وهم يدعوننا " عبداويين " ولنا أسوة بمواقف أمثالنا مع أمثالهم من الماضين (١) » ، وهذه هي المرحلة الثانية من مراحل دعوته وسار فيها ابن باديس بأسلوب علني عنيف يزلزل سلطان البدع المستحكمة ، ويهدم العادات المتمكنة مخالفا في ذلك زميله البشير الإبراهيمي الذي كان يرى أن السبيل هو توجيه الطاقات والجهود نحو التربية والتعليم وتكوين نخبة من الدعاة مدربة على مناهج الدعوة مسلحة بالعلم والمعرفة مطلعة على أصول الدين وعقائده (٢). وبقدر ماكان أسلوب هذه المرحلة عنيفا شديدا على الطرقيين حتى وفاة الإمام فإنه كان لينا مع المستعمر فيه تقية ومداراة حتى يتمكن من مواصلة عمله ، فكان يطالبه بحقوق جزئية لأفراد الشعب الجزائري مثل المساواة بينه وبين الشعب الفرنسي في الحقوق مثلما هو مساوله في الواجبات ، وكان يستنكر القوانين الجائرة التي تفرض على الشعب الجزائري مثل منعه من تعلم لغته ودينه بمنع العلماء من الدعوة والإرشاد والتعليم ، وكان يتابع كل شبهة أو مغالطة فيرد ويوضح ويكشف الحقائق ويدحض الباطل ، وبالرغم من أنه كان يبين أن الشعب الجزائري شعب عربي مسلم منفصل تمام الإنفصال عن الشعب الفرنسي ومتميز عنه إلا أنه كان يصرح أحيانا - مداراة - أن فرنسا هي دولة هذا الشعب ومن مصلحته الإرتباط بها (٣). ولم يكن يتطرق إلى مسألة الإستقلال أو يسلك سبيل التحريض على معاداة فرنسا ومناصبتها العداء إلا بعد سنة ١٩٣٦م حيث بدأت مرحلة جديدة مع الإستعمار الفرنسي بسبب المؤتمر الإسلامي الجزائري (٤)

---

(١) عمار الطالبي - ابن باديس حياته وآثاره : ج ٣ - ص ٢٧-٢٨ .

(٢) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين : ص ٥٠ - ٥١ .

(٣) عمار الطالبي - ابن باديس حياته وآثاره - ج ٣ - ص ١٧٩ .

(٤) مؤتمر اجتمع فيه ممثلوا جميع الأحزاب بما فيهم الجمعية إلا حزب الشعب واتفقوا على مطالب حملها وفد إلى باريس وكان من بين أعضاء الوفد ابن باديس والابراهيمي والعقبي .

واليأس من وعود فرنسا والجبهة الشعبية بصفة خاصة ،ففيَّر المبدأ الذي كان يضعه على غلاف " الشهاب " وهو " الحق والعدل والمؤاخاة في اعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات " بمبدأ آخر وهو " لنعول على أنفسنا ولنتكل على الله (١) " والمبدأ الأول يتناسب مع مرحلة ماقبل ١٩٣٦م حيث كان ابن باديس يراود حكام فرنسا ليعطوا على الأقل للشعب الجزائري حقوقا مقابل ماقام به من واجبات فرضتها عليه فرنسا كالتجنيد الإجباري مثلا والدفاع عنها في ساحات القتال ضد الألمان وغيره ،لكنه لما علم أن هذه الطريقة لا تجدي بل لما علم أن الشبهة زالت من أذهان الناس الذين كانوا يؤملون في فرنسا الآمال ،ويرجون من بعض رجالها الخير ويفرقون بين رجالها منخدعين بتصريحات بعض زعمائها فيعتقدون أنهم ليسوا سواء في الحقد والظلم واستعباد الناس لما علم ذلك وشعر أن القاعدة اتسعت وانتشر الوعي وعم الحماس وحب التحرر وظهر استعداد الناس للتضحية ، وضعفت سيطرة شيوخ الطرق على الناس لما رأى ابن باديس كل هذا بدأ أسلوبا جديدا في هذه المرحلة وهي الصدع بالحق في وجه المستعمر الكافر ، ولأول مرة تكلم عن الإستقلال بالعبارة الصريحة فقال:« إن الاستقلال حق طبيعي لكل أمة من أمم الدنيا ، وقد استقلت أمم كانت دوننا في القوة والعلم ، والمنعة والحضارة . . . وليس من العسير بل إنه من الممكن أن يأتي يوم تبلغ فيه الجزائر درجة عالية من الرقي المادي والأدبي ، وتتغير فيه السياسة الإستعمارية عامة والفرنسية خاصة . . . وتصبح البلاد الجزائرية مستقلة استقلالا واسعا تعتمد عليها فرنسا اعتماد الحر على الحر (٢)».

بل أصبح يبين أنه لا طريق لهذا الإستقلال إلا الثورة والجهاد يظهر ذلك في مثل كلمته هذه التي يخاطب بها الشعب الجزائري قائلا :« أيها الشعب لقد عملت وأنت في أول عملك فاعمل ودم على العمل وحافظ على النظام ، واعلم أن عملك هذا على جلالته ماهو إلا خطوة ووثبة ووراءه خطوات ووثبات ، وبعدها إما الحياة وإما الممات (٣)».

---

(١) انظر الشهاب .

(٢) عمار الطالبي - ابن باديس حياته وآثاره - ج ٣ - ص ٣٢١ .

(٣) المصدر السابق : ج ٣ ص ٣٢٢ .

ومن خلال مافات يتبين لنا أن ماجاء أحيانا عن ابن باديس من ألفاظ المدح والإطراء للإستعمار الفرنسي ليس ولاء ومهادنة ، لأن موقفه منه كان واضحا من أول يوم وهو الكراهية والمعاداة والمحاربة بدليل مايرويه لنا أحد أقدم وأبرز أعضاء جمعية العلماء بل من المؤسسين الأوائل لها مما سمعه من ابن باديس في أول اجتماعه سنة ١٩٢٥م بنخبة من أصحابه وهو قوله : « أيها العلماء حياكم الله وأمدكم بعونه ونصره ، وبعد : فلاشك أنه قد أصبح من المعلوم لدى كل أحد أن العدو الإستعمار الصليبى ، قد اغتصب أرضنا ودفع شعبنا إلى السكن في الكهوف والمغارات وأصبح شغله الشاغل إضعاف الشخصية الجزائرية سياسيا في طريق القضاء على وجودها ، لتحل محلها الشخصية الفرنسية ... » وبعد استرساله في شرح سياسة الإستعمار وخطته للوصول إلى هذه الغاية قال : « والآن أيها العلماء : لقد شاء الله أن يهيئكم ويدخركم لهذا الظرف الخطير لتتحملوا مسؤوليتكم بكل شجاعة وتضحية ... وإن يومكم هذا لشبيه بذلك اليوم الذي وقف فيه البطل المجاهد (طارق بن زياد) خطيبا في جيش المجاهدين ، على ربوة جبل طارق بعد أن أحرق سفنهم التي حملتهم إلى الأندلس وقال قولته الشهيرة : أيها الناس : أين المفر ؟ البحر وراءكم والعدو أمامكم ، ولم يبق لكم غير الموت أو النصر ! ...

وأنا أقول لكم هذا اليوم : لم يبق لنا إلا أحد أمرين لا ثالث لهما ، إما الموت والشهادة في سبيل الله وانتظار النصر الذي وعد الله به عباده المؤمنين ، أو الاستسلام ومد أيدينا إلى الأغلال ، وإحناء رؤوسنا أمام الأعداء ، - فتكون النتيجة - لا قدر الله - أن يجري علينا ماجرى في بلاد الأندلس [1] وبعض البلاد الإسلامية حين تركت الجهاد واستسلمت للأعداء ».

---

(١) قال حسن البنا عن الجزائر سنة ١٩٤٥م : " لن تكون اندلس ثانية ان شاء الله مهما حاول الغاصبون ، واستكبر في أرض الله المتجبرون ... "
الجزائر الثائرة : ص ٤٨٠ .

قال الراوي : فأجابه العلماء الرواد قائلين : نحن مستعدون للتضحية في سبيل دينا ووطننا والله معنا فقال الرئيس : حياكم الله وأيدكم بنصره ، ثم عرض عليهم خطة عمل مؤلفة من عدة نقاط لتنفيذها وهي كما يلى :

١- تكوين لجنة منكم للتسيير والتنفيذ .

٢- الشروع فورا في إنشاء المدارس الحرة لتعليم العربية والتربية الإسلامية .

٣- الإلتزام بإلقاء دروس الوعظ لعامة المسلمين في المساجد الحرة ثم الجولان في أنحاء الوطن لتبليغ الدعوة الإصلاحية .

٤- الكتابة في الصحف والمجلات لتوعية طبقات الشعب .

٥- إنشاء النوادي العربية للإجتماعات وإلقاء الخطب والمحاضرات .

٦- إنشاء فرق للكشافة الإسلامية للشباب في كافة أنحاء البلاد .

٧- العمل على إذكاء روح النضال في أوساط الشعب لتحرير البلاد من العبودية والخنوع للحكم الأجنبى ... وإن مبدأنا الذي يجب أن نتمسك به ونسير عليه هو اتباع هدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي علم أصحابه عقيدة الإسلام ، ثم سلحهم بالسيوف وأدوات القتال ، فكلا السلاحين لا يغني أحدهما عن الآخر . ثم عين الرئيس لهذه الجماعة من الرواد الأوائل مهامهم وحدد لهم أماكن نشاطهم بالاتفاق معهم »(١).

ومن العبارة الأخيرة في البند السابع من بنود هذه الخطة التي عرضها ابن باديس على أصحابه نعلم أنه كان يعد جيشا مسلحا بالعقيدة أولا ثم بأدوات القتال ثانيا ، ولا يمكن الوصول إلى هذا إلا باتباع المنهج الإسلامي في التغيير الذي عبر عنه - فيما سبق - بالخطة الدينية(٢) وهو منهج التعريف والتوعية ثم التكوين والتربية الذي رأيناه في مامضى من فصول هذه الرسالة ، ومعلوم أنه لا يمكن أن ينجح الداعية في السير على هذا المنهج

---

(١) محمد الطاهر فضلاء : التحريف والتزييف فى كتاب حياة كفاح : ص ٨٢-٨٧ .

(٢) انظر ص: (٣٢٩) من هذه الرسالة .

- في مثل تلك الظروف التي كان يعيشها الشعب الجزائري والتي لم يُر لها مثيل في تاريخ الإستعمار - إلا بشيء من المداراة والليونة وهو مايسمى بالتقية المشروعة وهذا مافعله ابن باديس آخذا بقوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ (١) أي لا تحل الموالاة للأعداء إلا من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرهم ، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته ، قال ابن عباس : « ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان » (٢) وقد سار ابن باديس في تقيته على هذا الشرط إذ لم يعط للإستعمار إلا كلمات براقة في ظاهرها لا يخفى على اللبيب مايقصد بها ، وأما في مجال الأعمال والمواقف فلم يعهد عليه مايدل على الموالاة أو المداهنة بل كانت حياته من أولها إلى آخرها حربا على الإستعمار الفرنسي ولا يكفي المجال لسرد الأمثلة الكثيرة ، ولذا أكتفي بهذين الحدثين :

الأول : أرادت فرنسا أن تحتفل بمرور مائة سنة على احتلالها لمدينة قسنطينة ، وبعد أن هيأت كل الوسائل ودعت كل الناس للحضور حتى ينعموا بلحظات البهجة والسرور ، نشر ابن باديس في مجلته " الشهاب " نداء إلى الأمة يأمرها بمقاطعة هذه الاحتفالات وعدم الاشتراك فيها ، (٣) يقول الابراهيمي بهذه المناسبة : « فاستطعنا بدعايتنا السرية أن نفسد عليها كثيرا من برامجها . . . واستطعنا بدعايتنا العلنية أن نجمع الشعب الجزائري حولنا ونلفت أنظاره إلينا . . » (٤)

الثاني : قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية أرادت فرنسا أن تحصن مؤخرتها وتحصل على تأييد الشعب الجزائري لها في حرب الألمان فأرسلت إلى كل الفئات آنذاك تطلب منهم إرسال برقيات بالتأييد ففعل الإندماجيون ورجال الطرق الصوفية ، والموظفون ورفض العلماء ، وقال ابن باديس : - بهذه المناسبة - قولته المشهورة :

---

(١) آل عمران : ٢٨ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير عند الآية السابقة .

(٣) انظر نص النداء في : الشهاب : ج٩ م ١٣ ص ٤٢٧ ، ٤٢٩ غرة رمضان ١٣٥٦هـ ، نوفمبر ١٩٣٧م .

(٤) مجلة مجمع اللغة العربية : ص ١٤٣ .

« أما أنا فوالله لو قال لي الاستعمار قل: "لا اله الا الله" ماقلتها »[(١)] معبرا عن شدة رفضه لطاعة فرنسا والانقياد لها .

واذا قال قائل : كان ابن باديس في غنى عن هذا الأسلوب من التقية الذي يسعه غيره من ناحية ويلبس أمر الدعوة على أتباعه من ناحية أخرى ، فإننا نقول : من الناحية الأولى لا يمكن لأحد لم يعاصر تلك الفترة ولم يذق مرارتها أن يعطي حكمه في قول أو فعل أحد المصلحين ، إذ فهم الظروف وطبيعة الحياة التي كان يعيش فيها ابن باديس أمر مهم لفهم حركة الرجل وعمله : يقول الاستاذ محمد الميلي : « لا يفوتني هنا أن أشير إلى أن تقييم كتابات ابن باديس ومواقفه يجب - لكي يكون سليما - أن يكون مصحوبا بتحليل شامل للعصر الذي قيلت فيه ، لأنه بدون ذلك لا نستطيع أن نفهم الكثير منها ، وقد يؤدي بنا الأمر إلى عدم انصافه .

وأذكر أني عندما أطلعت على بعض كتابات ابن باديس في عام ١٩٤٦م صدمتني بعض تصريحاته التي يؤكد فيها عمله في الإطار الفرنسي . في حين أن تحليل مجموعة ماكتب بالإضافة إلى دراسة متعمقة للعصر تكشف عن مغزى وحقيقة مثل تلك التصريحات وتضعها في مكانها اللائق ... »

ثم يردف قائلا - مبينا خطأ المقارنة بين مواقف رجلين في بيئتين أو فترتين مختلفين - « إن هذا النوع من المقارنات السطحية التي تغفل إطار العصر وتغفل عن تحليل مجموع الكتابات والمواقف خطر كبير يجب أن نتجنبه في مجال تقييمنا لكل مايتصل بالتراث »[(٢)].

هذا من الناحية الأولى وأما من الناحية الثانية فإنه من تصريحات ابن باديس وبعض زملائه في الجهاد وما أثمرته دعوتهم على مستوى الشعب الجزائري نعلم أنه لم يكن لذلك الأسلوب من التقية أي أثر سلبي على الدعوة بل سارت كما أراد لها ابن باديس

---

(١) انظر محمد الصالح الصديق : الامام الشيخ عبد الحميد بن باديس ، من آرائه ومواقفه ص : ٤٠ .

(٢) محمد الميلي : ابن باديس وعروبة الجزائر ص ٣١ .

وأعوانه ؛ فهل وقف هذا الأسلوب عرضة في طريق فهم الشعب الجزائري لنوايا ابن باديس ومقاصده وهو يصرح في آخر حياته فيقول - عن فهم الأمة له -: « ولكن الله سددها في الفهم وأرشدها إلى صواب الرأي فتبينت قصدي على وجهه وأعمالي على حقيقتها فأعانت ونشطت بأقوالها وأموالها وبفلذات أكبادها ...»[١]؟

وهل يخفى عليه أهمية هذا الأمر - فهم الأتباع لفكرة متبوعهم - وهو القائل: « ينبغي لكل قوم جمعهم عمل أن يفهم بعضهم بعضا ، كما ينبغي أن يفهموا العمل الذي هم متعاونون عليه ليكونوا في سيرهم على بصيرة من أنفسهم وعملهم » قال هذا الكلام أمام جمع من أتباعه ثم أضاف: « وأنا أظن نفسي مفهوما عند من يتصلون بي مثلكم ولو كان ذلك في زمن قليل لأنني مافتئت أعلن عن فكرتي التي أعيش لها وغايتي التي أسعى إليها في كل مناسبة ...» وكان حريصا على تبيين فكرته من حين لآخر خصوصا إذا خاف التباس الأمر على الناس كقوله : « واليوم - وقد كان تباين ما في بعض من يتصلون بي - رأيت من الواجب أن ألقي عليكم هذا البيان مختصرا في سؤال وجواب ثم أقفي عليه بشيء من الشرح والتفصيل .

س: لمن أعيش أنا ؟

ج : أعيش للإسلام والجزائر »

وبعد أن أسهب في شرح هذا الجواب بعبارة دقيقة قال: « والآن - أيها الإخوان - وقد فهمتموني وعرفتم سمو فكرة العيش للإسلام والجزائر فهل تعيشون مثلي للإسلام والجزائر ؟

فقال الحاضرون بصوت واحد : نعم ! نعم.

فقال هو : لنقل كلنا : ليحيى الإسلام ! لتحي الجزائر.»[٢]

وفي الحفل بمناسبة ختمه لتفسير القرآن الكريم قال للجموع الغفيرة التي حضرت:

---

(١) الشهاب ،ج ٤ ، م ١٤ ،ص ٢٨٨ - ٢٩١ غرة جمادى الثانية وربيع الثاني ، ١٣٥٧هـ - جوان وجويلت ١٩٣٨م.

(٢) الشهاب ،ج ١٠ م ١٢ ص ٤٢٤ - ٤٢٨ غرة شوال ١٣٥٥ هـ ، جانفي ١٩٣٧م.

« إنني أعاهدكم على أنني أقضي بياضي على العربية والاسلام كما قضيت سوادى عليهما وانها لواجبات ... وإنني سأقصر حياتي على الاسلام والقرآن ولغة الاسلام والقرآن ، هذا عهدي لكم .

وأطلب منكم شيئا واحدا وهو أن تموتوا على الإسلام والقرآن ولغة الإسلام والقرآن ..» (١)

وبهذا نعلم أن أسلوب التقية الذي أتبعه لم يكن مانعا للناس من فهم مرشدهم .

وهل كان هذا الأسلوب من التقية سببا في إطفاء نار الحقد والكراهية والغضب على الإستعمار من قلوب أفراد الشعب ونفوسهم؟

يقول الابراهيمي : « أصبح لنا جيش من التلامذة يحمل فكرتنا وعقيدتنا مسلح بالخطباء والكتاب والشعراء يلتف به مئات الآلاف من أنصار الفكرة وحملة العقيدة يجمعهم كلهم إيمان واحد ، وفكرة واحدة ، وحماس متأجج ، وغضب حاد على الاستعمار..» (٢)

نعم " حماس متأجج ، وغضب حاد على الاستعمار ... "

هذه هي نتيجة هذا الأسلوب الباديسي .

ومع كل هذا فالسير بهذا الاسلوب لم يكن يمثل إلا مرحلة فقط من مراحل دعوة الشيخ (٣) سرعان ما تحول بعدها إلى أسلوب آخر يتميز بشيء من الصراحة كقوله: « إننا نفرق جيدا بين الروح الإنسانية والروح الإستعمارية في كل أمة ،فنحن بقدر ما نكره هذه ونقاومها ، نوالي تلك ونؤيدها : لأنا نتيقن كل اليقين أن كل بلاء العالم هو من هذه ، وكل خير يرجى للبشرية إنما يكون يوم تسود تلك .

فلتسقط الروح الاستعمارية ولتنتحر .

ولترتفع الروح الإنسانية ولتنتشر ». (٤)

---

(١) الشهاب : ج٧ م ١٥ ص : ٣٤٦ غرة رجب ١٣٥٨هـ - أوت ١٩٣٩م.

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية : ١٤٣ .

(٣) انظر: ص (٤٣٠) .

(٤) الشهاب : ج ١١ م ١٣ - ذى القعدة سنة ١٣٥٦هـ / جانفي ١٩٣٨م.

وقوله : « حذار حذار من نتائج الخيبة واليأس هذه المرة . إن أمتنا ذات حلم وأناة ، وهي أمة تعرف كيف تصبر وكيف ترجو ، لكنها أمة تعرف أيضا إذا نفد صبرها ، وخاب رجاؤها ، كيف تغضب وكيف تزمجر »(١).

وقوله : « اليوم وقد اتحد ماضي الاستعمار وحاضره فينا يجب أن تتحد صفوفنا »(٢).

وقوله : « ونحن - كمسلمين - أضداد للإستعمار بمعناه المعروف وهو استيلاء أمة على أمة لإذلالها ، واستغلالها ، ومنعها من استثمار مواهبها الإنسانية في مصلحتها ومصلحة البشرية جمعاء حتى تبقى أبدا موردا للأمة المستولية عليها »(٣).

وكان كثيرا ما يفضح خطط الإستعمار في مجلته الشهاب بعبارات صريحة لا تحتمل التأويل ، بل أحيانا ينشر المقالات التي فيها ردود على الوالي العام للقطر الجزائري كله مكذبا له فيما يقول ، مفندا لآرائه ، مستخفا بنظرته وأفكاره(٤).

واسمع إليه وهو ينشد من نظمه :

شَعْبُ الجَزائِرِ مُسْلِمٌ :: وإلى العُروبَةِ يَنْتَسِبْ
مَنْ قالَ حادَ عَنْ أصْلِهِ :: أوْ قالَ ماتَ فَقَدْ كَذَبْ
أوْ رامَ إدْماجاً لَهُ :: رامَ المُحالَ مِنَ الطَّلَبْ
يانَشْءُ أنْتَ رَجاؤُنا :: وبِكَ الصَّباحُ قَدِ اقْتَرَبْ
خُذْ لِلْحَياةِ سِلاحَها :: وخُضِ الخُطوبَ ولا تَهَبْ
وارْفَعْ مَنارَ العَدْلِ والإِ :: حْسانِ واصْدِمْ مَنْ غَصَبْ
ياقَوْمُ هَذا نَشْؤُكُمْ :: وإلى المَعالي قَدْ وَثَبْ
كونوا لَهُ يَكُنْ لَكُمْ :: وإلى الأمامِ ابْنَنا وأبْ

---

(١) الشهاب ، ج ٦ م ١٣ جمادى الثانية ١٣٥٦ هـ / أوت ١٩٣٧ م.

(٢) المصدر السابق : ج ٧ م ١٣ رجب ١٣٥٦ سبتمبر ١٩٣٧ م.

(٣) البصائر : العدد ١٦٥ في ٢٢ ربيع الأول ١٣٥٨ هـ ، ١٢ مايو ١٩٣٩ م.

(٤) انظر الصراط السوى ، السنة الأولى العدد ١٥ قسنطينة يوم الاثنين ٨ رمضان ١٣٥٢ هـ الموافق له ٢٥ ديسمبر ١٩٣٣ م أو عمار الطالبي - مصدر سابق ، ٣/ ٢٩٣.

ويعلنها صريحة في بقية القصيدة :

وأذِقْ نفوسَ الظالمين :: السمّ يمزج بالرهب
واخلعْ جذورَ الخائنين :: فمنهم كلّ العطب
واهزز نفوسَ الجامدين :: فربّما حيي الخشب
نحنُ الأُلى عرفَ الزمانُ :: قديمنا الجمّ الحسب
ومعينُ ذاكَ المجد :: في نسلِ العروبة منتسب
مَنْ كانَ يبغي ودّنا :: فعلى الكرامة والرحب
أوْ كانَ يبغي ذلّنا :: فله المهانة والحرب
هذا نظامُ حياتنا :: بالنور خطّ وباللهب
حتّى يعودَ لشعبنا :: من مجده ما قد ذهب
هذا لكمْ عهدي به :: حتّى أوسّد في الترب
فإذا هلكتُ فصيحتي :: تحيا الجزائرُ والعرب (١)

ومما يدل دلالة واضحة على أن ذلك الأسلوب الذي كان يتبعه ابن باديس أحيانا في مخاطبة الساسة الفرنسيين هو مجرد تقيه منه وأنه كان يخالفه بأعماله ومواقفه التي لم تكن في صالح الإستعمار بل كانت حربا عليه أن هذا الأخير لم ينخدع بذلك خصوصا في الفترة الأخيرة من حياة ابن باديس حيث نجده يشدد على جمعية العلماء ويحاربها بتعطيل صحفها (٢) ومنع خطبائها ووعاظها من التدريس في المساجد (٣) وإلقاء علمائها في غياهب السجون (٤) بل في بداية الحرب العالمية الثانية فرضت على ابن باديس الإقامة الجبرية في قسنطينة فمنعته من الخروج عنها ، ونفت البشير الإبراهيمي إلى مدينة (آفلو) حتى توفي ابن باديس ، فبقي الإبراهيمي في المنفى ثلاث سنوات تقريبا ، فلم

---

(١) الشهاب ج٤ - م١٣ ربيع الثاني ١٣٥٦ هـ - جوان ١٩٣٧م ص ٢٠١ - ٢٠٢

(٢) انظر ص (٤٥٤) .

(٣) عمار الطالبي - مصدر سابق : ج ٣/ ٤٤٠-٤٤٣ .

(٤) المصدر السابق والجزء : ص ٥٦٢-٥٦٣ .

يفرج عنه إلا سنة ١٩٤٣م وقبل الحرب قام ابن باديس باتفاق مع الإبراهيمي بتعطيل (البصائر) لسان حال جمعية العلماء و(الشهاب) الخاصة بابن باديس ،كل هذا هروبا من المداهنة والتملق يبين ذلك الابراهيمي بقوله : «عطلناها (أى البصائر) من أول الحرب باختيارنا باتفاق بيني وبين ابن باديس لحكمة ، وهي أننا لا نستطيع تحت القوانين الحربية أن نكتب مانريد ، ولا يرضى لنا ديننا ، وهمتنا ، وشرف العلم ، وسمعة الجمعية في العالم ،أن نكتب حرفا مما يراد منا ، فحكمنا عليها بالتعطيل وقلنا : بيدي لا بيد عمرو(*) وحسنا فعلنا كذلك عطلنا مجلة الشهاب الناشرة لأفكار الجمعية.(١)»

من كل هذا يتضح أنه كان لابن باديس خطة ناجحة في محاربة الإستعمار يلخصها لنا الدكتور محمود قاسم بقوله : «وهكذا نجحت الخطة التي رسمها عبد الحميد بن باديس ونفذها بصبر وأناة ، وهو تخطيط في غاية البراعة ،فقد استطاع أن يعزل المتحالفين ، فبدأ بالطرق الصوفية ، التي أراد في أول الأمر أن يستخلص العناصر السليمة فيها لأن الأخوة في الله فوق أي اعتبار آخر. فلما حاربته بدأ يعزلها عن الشعب ، فلما لجأت إلى المستعمر أظهرها بمظهر الخيانة، ففقدت سلطانها على الشعب ولم تعد ذات نفع للحكومة الفرنسية بالجزائر، بل غدت عبئا عليها ، فلما انتهى من الأذناب ظهرت دولة الباطل على حقيقتها ، إذ أنها كانت تريد أن تمحو الصبغة العربية الإسلامية في الجزائر، غير أنها تنبهت ،بعد فوات الوقت ، إلى أن مصلحا قطع الطريق عليها في رفق ودون تظاهر بالبطولة ،فحاصرها ببعث اللغة العربية ،وتجديد العاطفة الدينية الصادقة ، مما أحيا في الأمة روح المطالبة بحقوقها ،وفي مقدمتها الحرية الدينية التي كانت فرنسا تتظاهر باحترامها ، وهي الحرية التي لا يمكن الحفاظ عليها في الجزائر بصفة خاصة إلا بلسانها العربي . لقد قام الإمام عبد الحميد بن باديس بهذا الحصار بأسلوبه السهل الرقيق الهادئ في الوقت الذي ظن فيه المبشرون أن الحكومة الفرنسية العلمانية بالجزائر قد هيأت لهم كل الوسائل في هذا القطر الإسلامي فما عليهم إلا أن يدخلوه بجحافلهم.(٢)»

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية : ص ٤٨١ .

(٢) الامام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية : ص ٦١ .

(*) مثل يضرب للرجل ينزل بنفسه المكروه مخافة أن ينزله به عدوه انظر جمهرة الامثال لابى هلال العسكري ١/٢٢٦

وبعد هذا هل كان ابن باديس يعد العدة لمواجهة الإستعمار الفرنسي بالسلاح ؟

هناك ما يدل على ذلك من مثل قوله - في اجتماع خاص بأصحابه المقربين إليه - : « والله لو وجدت عشرة من عقلاء الأمة الجزائرية يوافقونني على إعلان الثورة لأعلنتها »(١) ، وعندما انفجرت الحرب العالمية الثانية اجتمع به جماعة من أنصار حركته فقال : " عاهدوني " فلما أعطي له العهد بالمصافحة قال : « إني سأعلن الثورة على فرنسا عندما تشهر عليها إيطاليا الحرب »(٢) ، وأنا شخصيا قص علي أحد تلاميذ ابن باديس وهو الشيخ محمد الصالح بن عتيق أن في هذه الظروف وفي ذات ليلة بينما هو في بيته الواقع في منطقة جبلية وعرة إذ طرق عليه الباب ولما فتحه وجد شخصا يقول له : إن الامام ابن باديس يريدك ، فدهش وأسرع مع الشخص حيث تقف السيارة قريبا فإذا بها عدة أشخاص من بينهم ابن باديس الذي بادره بقوله : " هل أنت على استعداد ؟ " فأجابه " نعم " فصافحه مودعا وهو يقول " كن يقظا " وانطلقت به السيارة إلى حيث لا يدري(٣).

وقعت هذه القصة في السنة التي توفي فيها ابن باديس رحمه الله ، مما يدل على أنه كان عازما على الثورة لو لم يعاجله الموت.

كان هذا مزيد توضيح لموقف ابن باديس من فرنسا.

ثانيا - الاستعانة بالمال والرجال :-

أ - الاستعانة بالمال :-

كان ابن باديس يقوم بأعمال كثيرة تحتاج إلى المال اللازم مثل النفقة على المعلمين والطلاب وطبع الصحف والمجلات وبناء المدارس والمساجد وفي المناسبات المختلفة كالاجتماعات والمؤتمرات ، وكانت الأموال ترد الى ابن باديس من جهتين :

---

(١) نقلها عمار الطالبي (ج ١/ ٨٩) عن علي مرحوم أحد تلامذة ابن باديس.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) مقابلة شخصية معه بداره الواقعة بحي القبة بالعاصمة.

الأولى : أموال تجمع بانتظام من موارد معينة مثل مايدفعه المشتركون في المجلات والصحف التابعة للجمعية ، ومايدفعه أعضاء جمعية العلماء من اشتراكات [١].

الثانية: أموال تجمع من المتبرعين المتطوعين وقد نص الفصل الخامس من القانون الأساسي للجمعية أن التبرعات تقبل حتى من الحكام المحليين بل وتلتمس منهم ذلك [٢]، وكانت بعض الأموال تأتيه في صورة تمر أو خبز أو كسوة لطلاب العلم .

ب : الاستعانة بالرجال :-

وأقصد بالرجال أولئك الذين لا ينضمون إلى صفوف الجماعة بل يبقون بعيدا عنها ، سواء كانوا معها في الفكرة أو مخالفين لها مثل ماكان يفعله أبوطالب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من النصرة والتأييد والحماية ، وقد هيأ الله لابن باديس من يحميه من كيد فرنسا مما مكنه من مواصلة دعوته ، وهو والده الذي كان له مكانة محترمة عند فرنسا فسكتت عن الابن احتراما للأب ، يخبرنا بهذا البشير الابراهيمي القائل : « وكان له من وجود والده درع وقاية من بطش فرنسا التي لا تصبر على أقل من هذه الحركات وكان لوالده مقام محترم عند حكومة الجزائر (أي فرنسا) فسكتت عن الابن احتراما لشخصية الوالد [٣]».

وفعلا فقد استغل ابن باديس هذا الوضع الإمتيازي الذي يتمتع به والده واستخدمه بذكاء إلى أن توفاه الله ، ويدل على ذلك حرصه على أن يظل " الشهاب " ملكا له أي مجلة مستقلة عن جمعية العلماء ، حتى يستطيع أن ينشر فيه من الآراء والنداءات التي لا يمكن نشرها في صحف جمعية العلماء خوفا من مصادرة الإستعمار لها ، فمثلا كان ابن باديس قد ارتأى بمناسبة الاحتفالات التي أعدتها الإدارة الفرنسية بمناسبة مرور قرن على سقوط قسنطينة ١٩٣٧م أن ينشر نداء إلى الشعب في صحيفة الجمعية يطالب

---

(١) انظر: ملحق : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين : قانونها الأساسي وأصول دعوتها .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الابراهيمي - مجلة مجمع اللغة العربية : ص ٤١ .

فيه الجماهير بمقاطعة تلك الاحتفالات لكن أغلب أعضاء الجمعية خافوا مغبة ذلك على مصير الجمعية فعارضوا نشر النداء في " البصائر " لسان حال الجمعية . آنذاك قرر ابن باديس نشر النداء في الشهاب وقال لهم مامعناه : " الشهاب ليست مجلة الجمعية ولا تنطق باسمها فإذا نشرت النداء بها فسأحكم باسمي الشخصي وليس بوصفي رئيسا للجمعية "(١).

وقد مر بنا كيف أنه توسط بوالده لدى الحاكم الفرنسي حتى تحصل على رخصة التدريس لما منعه ابن الموهوب (٢).

ثالثا- النظام :-

كثير من الجهود والطاقات يبذلها الشخص في عمل ما ولكنه لا يجني من وراء ذلك إلا القليل الذي لا يتكافأ مع ما بذل لأنه لم يتقيد في عمله هذا بنظام يضبط به جهوده حتى يحسن استخدامها وتوجيهها على نحو مثمر في مجال هذا العمل .

فالجهود تتبعثر والطاقات تتشتت ويحس الإنسان أنه يبذل الكثير ولا يأخذ إلا القليل إذا فقد النظام ولهذا كان الإسلام دين النظام وحث عليه في كل الأعمال وشرع لنا من العبادات ما به نتعلم النظام والانضباط ونبعد عن العفوية والإهمال . فمثلا : " في ربط الصلاة بالأوقات تعليم لنا لنربط أمورنا بالأوقات ونجعل لكل عمل وقته ، فللنوم وقته ، وللأكل وقته ، وللراحة وقتها ، ولكل شيء وقته ، وبذلك ينضبط للإنسان أمر حياته وتطرد له أعماله ، ويسهل عليه القيام بالكثير من الأعمال . أما إذا ترك أعماله مهملة غير مرتبطة بوقت فإنه لابد أن يضطرب عليه أمره ويتشوش باله ولا يأتي إلا بالعمل القليل ويحرم لذة العمل ، وإذا حرم لذة العمل أصابه الكسل والضجر فقل سعيه ، وكان ما يأتي به من عمل - على قلته وتشويشه - بعيدا عن أي إتقان "(٣).

---

(١) محمد الميلي - ابن باديس وعروبة الجزائر - ص : ١٥ .

(٢) انظر : ص ٢٢ ، ٣٠٦ .

(٣) تفسير ابن باديس : ص ١٧٧ .

وإذا كانت حاجة الفرد إلى النظام شديدة لما سبق ذكره فإن حاجة الجماعة اليه أشد ، وبدونه لا يمكن أبدا لأي عمل جماعي أن ينجح ويؤتي ثماره المرجوة منه ، بل إذا اشترك عدة أفراد في عمل ما دون نظام يجمعهم ويحدد لكل مهمته ويبين نوع العلاقات التي تربط بينهم ، ومَن الأمير والمأمور فيهم . . . إلخ فإن لم يقع الصدام بينهم ثم النزاع والخصام ، فلا يحصلون من عملهم هذا - مهما كثر عددهم وعظمت قوتهم - إلا على القليل القليل مما كانوا ينتظرون ويرجون ، وهذا ما يلخصه الإمام فيقول : « إن النظام أساس كل مجتمع واجتماع ، وإن القوة والكثرة وحدهما لا يغنيان بدون نظام »(١).

هذه أهمية النظام في أي عمل جماعي كان ، فما بالنا بالدعوة إلى الله وهي أعظم عمل يقوم به الانسان ، إن النظام في الدعوة إلى الله أمر ضروري وما بنيت دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا على التنظيم وتبعه في ذلك الدعاة والمصلحون ومن بينهم ابن باديس الذي يجعل الجماعة المنظمة هي سبب القوة التي بها يضطلع المسلمون بما كلفوا به من الايمان ومقتضياته(٢) ويبين خطر أمر الاجتماع ونظامه بقوله : « ولهذا قرن الله في هذه الآية(٣) بين الإيمان بالله ورسوله والحديث عن الجماعة وما يتعلق بالاجتماع فيرشدنا هذا إلى خطر أمر الاجتماع ونظامه ولزوم الحرص والمحافظة عليه كأصل لازم للقيام بمقتضيات الإيمان وحفظ عمود الاسلام »(٤).

ويرجع ابن باديس ما لحق المسلمين من ذل وهوان وانحطاط في القرون الأخيرة إلى إهمالهم لهذا الأمر وهو الاجتماع المنظم كوسيلة لحفظ الدين والدفاع عنه ، والنهوض بجلائل الأعمال التي كلفت بها هذه الأمة حتى استبد بهم الفجار وغزوهم الكفار ، وخدعهم أهل البدع والانحراف والضلال عندما يقول : « ما أصيب المسلمون في أعظم

---

(١) تفسير ابن باديس : ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ .

(٢) انظر ص (٤٢٦) .

(٣) سورة النور : ٦٢ ، ٦٣ وهي قوله تعالى : ﴿ انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله . . . ﴾ الآية .

(٤) تفسير ابن باديس : ص ٤٢٨ .

ماأصيبوا به إلا بإهمالهم لأمر الاجتماع ونظامه » ، ويبين أن ترك هذا الأمر المهم ناتج: «إما من استبداد أئمتهم وقاداتهم وإما من انتشار جماعتهم بضعف روح الدين فيهم وجهلهم بما يفرضه عليهم » ويوضح كذلك أن هذا العرض سببه: «سكوت العلماء وقعود هم عن القيام بواجبهم في مقاومة المستبدين ، وتعليم الجاهلين وبث روح الإسلام الإنساني السامي في المسلمين ، فلم ينفخوا في المسلمين روح الاجتماع الشوري في كل مايهمهم من أمر دينهم ودنياهم حتى لا يستبد بهم مستبد ، ولا يتخلف منهم متوان ، وحتى يظهر الخاذل لهم ، ممن ينتسب إليهم فينبذ ويطرح ويستغنى عنه بالله وبالمؤمنين »(١).

هذا ما سعى إليه ابن باديس في الجزائر وحققه - بتوفيق الله تعالى - فأسس جماعة منظمة باسم: " جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ".

ويحدثنا البشير الإبراهيمي رحمه الله عن هذه الجمعية وكيف تكونت فيقول: «في هذه الفترة مابين سنة ١٩٢٠م - ١٩٣٠م كانت الصلة بيني وبين ابن باديس قوية ، وكنا نتلاقى في كل أسبوعين أو كل شهر على الأكثر ، يزورني في بلدي (أسطيف) أو أزوره في قسنطينة ، فنزن أعمالنا بالقسط ونزن آثارها في الشعب بالعدل ، ونبني على ذلك أمرنا ، ونضع على الورق برامجنا للمستقبل بميزان لا يختل أبدا ، وكنا نقرأ للحوادث والمفاجآت حسابها ، فكانت هذه السنوات العشر كلها إرهاصات لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

كملت لنا على هذه الحالة عشر سنوات كانت كلها إعدادا وتهيئة للحدث الأعظم وهو إخراج جمعية العلماء من حيز القوة إلى حيز الفعل . . . .

تكامل العدد وتلاحق المدد . . العدد الذي نستطيع أن نعلن به تأسيس الجمعية ، والمدد من إخوان لنا كانوا بالشرق العربي مهاجرين أو طلاب علم ، فأعلنا تأسيس الجمعية في شهر مايو سنة ١٩٣١م بعد أن أحضرنا لها قانونا أساسيا مختصرا من وضعي أدرته على قواعد من العلم والدين لا تثير شكا ولا تخيف .

---

(١) تفسير ابن باديس ، ص: ٤٢٩ .

دعونا فقهاء الوطن كلهم ، وكانت الدعوة التي وجهناها إليهم صادرة باسم الأمة كلها ، ليس فيها اسمي ولا اسم ابن باديس لأن أولئك الفقهاء كانوا يخافوننا لما سبق لنا من الحملات الصادقة على جمودهم ، ووصفنا إياهم بأنهم بلاء على الأمة وعلى الدين لسكوتهم على المنكرات الدينية ، وبأنهم مطايا للإستعمار يذل الأمة ويستعبدها باسمهم فاستجابوا جميعا للدعوة ، واجتمعوا في يومها المقرر، ودام اجتماعنا في نادي الترقي بالجزائر أربعة أيام كانت من الأيام المشهودة في تاريخ الجزائر، ولما تراءت الوجوه وتعالت أصوات الحق أيقن أولئك الفقهاء أنهم مازالوا في دور التلمذة وخضعوا خضوع المسلم للحق ،فأسلموا القيادة لنا ،فانتخب المجلس الإداري من رجال أكفاء جمعتهم وحدة المشرب ووحدة الفكرة ووحدة المنازع الإجتماعية والسياسية ووحدة المناهضة للإستعمار ، وقد وكل المجتمعون ترشيحهم إلينا فانتخبوهم بالإجماع وانتخبوا ابن باديس رئيسا ، وكاتب هذه الأسطر وكيلا نائبا عنه وأصبحت الجمعية حقيقة واقعة قانونية... (١) »

ومن خلال كلام الإبراهيمي نلاحظ أن هذه الجمعية وجدت قبل هذا التاريخ ١٩٣١م لكنها كانت سرية ويصرح هو بهذا فيقول : « وأشهد الله على أن تلك الليالي من سنة ١٩١٣م هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي لم تبرز للوجود إلا في سنة ١٩٣١م » (٢).

ومن هنا نستطيع أن نقول إن جمعية العلماء في الجزائر هي أول عمل جماعي منظم ظهر في القرنين التاسع عشر والعشرين والتي نستطيع أن نطلق عليها اسم " حركة " كبقية الحركات الإسلامية اليوم وقبل اليوم ، ويعرف الابراهيمي هذا المصطلح بقوله : «لا يطلق - في هذا المقام - لفظ حركة في العرف العصري العام إلا على كل مبدأ تعتنقه جماعة وتتساند لنصرته ونشره والدعاية والعمل له عن عقيدة ، وتهيئ له نظاما محددا وخطة مرسومة وغاية مقصودة » ثم يضيف قائلا : « وبهذا الاعتبار فان الحركة الإصلاحية لم

---

(١) الابراهيمي ، مجلة مجمع اللغة العربية - ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤١ .

تنشأ في الجزائر إلا بعد الحرب العالمية »(١)

ويوجز ابن باديس غاية الجمعية في هذه الأمور فيقول : «أما غاية الجمعية فهي إصلاح الفاسد ، وتقويم المعوج ، وإرشاد الضال بالهداية والحكمة ، في دائرة المحبة والوئام ، وإصلاح شؤون أهل العلم ، ولم شعثهم ، وتنظيم هدايتهم ، فهي تسعى في إزالة كل شر يحرمه الشرع والقانون ، مما هو منتشر فينا ، ويضيق المقام عن تعداده ، ونشر كل نفع وخير ...»(٢).

وسأكتفي - لبيان قوانين هذه الجماعة التي تسير عليها - بإثبات ملحق في آخر الرسالة يضم وثيقتين : القانون الأساسي للجمعية وأصول دعوتها

أما أعمال الجمعية فكثيرة لكنها ترجع إلى الأصول الآتية التي لخصها الابراهيمي بقوله :

١- تنظيم حملة جارفة على البدع والخرافات والضلال في الدين بواسطة الخطب والمحاضرات ودروس الوعظ والإرشاد في المساجد والأندية والأماكن العامة والخاصة حتى في الأسواق والمقالات في جرائدنا الخاصة التي أنشأناها لخدمة الفكرة الإصلاحية .

٢- الشروع العاجل في التعليم العربى للصغار في ما تصل إليه أيدينا من الأماكن وفي بيوت الآباء ، ربحا للوقت قبل بناء المدارس.

٣- تجنيد المئات من تلامذتنا المتخرجين ، ودعوة الشبان المتخرجين من جامع الزيتونة للعمل في تعليم أبناء الشعب .

٤- العمل على تعميم التعليم العربي للشبان على النمط الذي بدأ به ابن باديس.

٥- مطالبة الحكومة برفع يدها على مساجدنا ومعاهدنا التي استولت عليها ، لتستخدمها في تعليم الأمة دينها ، وتعليم أبنائها لغتهم .

---

(١) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين : ص ٤٧ .

(٢) علي مرحوم : الثقافة عدد ٥٦ ، (مارس - ابريل) ١٩٨٠م - ص ٢٨ - ٢٩ .

٦- مطالبة الحكومة بتسليم أوقاف الإسلام التي احتجنتها ووزعتها على معمريها ، لتصرف في مصارفها التي وقفت عليها (وكانت من الكثرة بحيث تساوي ميزانية دولة متوسطة) .

٧- مطالبة الحكومة باستقلال القضاء الإسلامي في الأحوال الشخصية مبدئيا .

٨- مطالبة الحكومة بعدم تدخلها في تعيين الموظفين الدينيين .(٢)

عمل ابن باديس من خلال الجمعية :-

يعتبر ابن باديس هو الجمعية نفسها ، إذ كانت شخصيته بارزة في سير الجمعية ، وأثره واضحا في أعمالها ولو لم يهيئ الله تعالى للجمعية ابن باديس لما كان لها ذلك الشأن ، ولهذا حاولت فرنسا أن تبعده عن رئاسة الجمعية فضغطت على والده ليرغم ولده على التخلي عن الجمعية ، وحدث هذا في مجلس مدير الشؤون الأهلية (ميرانت) الذي استدعى أولا الأب ثم الابن وعرض عليه مناصب عديدة يختار منها مايشاء وأن تقدم لوالده إعانة مالية لإصلاح حالته الاقتصادية المتدهورة ، ولكن عبد الحميد طلب مهلة للتفكير وخرج من مكتب ميرانت وأرسل إليه رسالة يرفض فيها ما طلب.(٣)

فابن باديس كان هو عقل الجمعية وفكرها ، كان هو دليلها الذي وهبه الله تعالى معرفة بتسيير الحركة الإصلاحية بأسلوب حكيم هادئ دون أن يتنازل عن حقه أو يترك منه شيئا ، ولذا فإن أعظم أعماله في الجمعية هو قيادتها وكفى بها ، وأما الأعمال الأخرى فإنه كان يتولى منها قبل تأسيسها ما تعجز عن حمله الجبال وبقي كذلك بعد تأسيسها ومما زيد له من الأعمال الخاصة به :

---

(١) قال في الصحاح (٥/ ٢٠٩٧)[ومنه قول قيس بن عاصم في وصيته: "وعليكم بالمال واحتجانه" وهو ضَمُّكَهُ إلى نفسك وامساكك إياه] وعلى هذا فالمعنى أن فرنسا ضمت الاوقاف اليها

(٢) الابراهيمي - مجلة مجمع اللغة العربية - ص : ١٤٥.

(٣) مازن صلاح حامد مطبقاني - جمعية العلماء المسلمين الجزائريين : ص ٩٥ .

١- الدعوة إلى الاجتماعات ورئاستها وإلقاء الخطاب الافتتاحي .(١)

٢- الإفتاء.(٢)

٣- إرسال البرقيات إلى القادة والزعماء والرؤساء وأعيان الناس.(٣)

٤- التفقد لأعمال العلماء مثل الشيخ الطيب العقبي في الجزائر والشيخ الابراهيمي في تلمسان .

---

(١) ملحق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين - قانونها الآساسى .

(٢) عمار الطالبي - ابن باديس حياته وآثاره - ج٤ - ص ١٤١ .

(٣) المصدر السابق : ج٣ - ص ٤٢٣ - ٤٣٠ .

- المبحث الثانـــــي -

* وســائل تبليــغ الدعـــــــوة *

اتخذ ابن باديس لتبليغ دعوته وسيلتين هما :-

الأولى : الكلمة المسموعة :- وهي عبارة عن الدروس والمحاضرات والخطب ونحوها .

وكان ابن باديس يلقي دروسه هذه في أماكن متعددة أهمها المسجد الذي قضى أكثر من نصف عمره مدرسا في رحابه ويبين لنا أهميته بقوله «المسجد والتعليم صـــنوان في الإسلام من يوم ظهر الإسلام فما بنى النبي صلى الله عليه وسلم يوم استقر في دار الإسلام بيته حتى بنى المسجد ولما بنى المسجد كان يقيم الصلاة فيه ويجلس لتعليم أصحابه فارتباط المسجد بالتعليم كارتباطه بالصلاة فكما لا مسجد بدون صلاة كذلك لا مسجد بدون تعليم وحاجة الإسلام إليه كحاجته إلى الصلاة فلا إسلام بدون صلاة ولا إسلام بدون تعلـيم. [1] »

كانت معظم المساجد بقبضة الاستعمار الفرنسي يوظف فيها من يخدم سياسته ويمنع العلماء الأحرار من التدريس فيها والوعظ والإرشاد مما دفع بالأمة إلى بناء المساجـــد الحرة حتى أنها - في سنة واحدة - أنشأت بمالها بضعة وتسعين مسجدا حرا في مختلف المدن والقرى. [2]

كان ابن باديس يلقي دروسه الشرعية واللسانية - التي تعرف الناس بدينهـــــم وتربيهم على مبادئه - في عدة مساجد في قسنطينة وهي : المسجد الكبير، ومسجد سيدى قموش ، ومسجد سيدي عبد المؤمن ، ومسجد سيدي بومعزة [3] إلا أن الجامع الأخضـــر هو الذي اتخذه محلا دائما لدروسه المنظمة والمتسلسلة .

---

(١) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين : ص ١٠٤ .

(٢) الابراهيمي - مجلة مجمع اللغة العربية : ص ١٤٦ .

(٣) عمار الطالبي - ابن باديس حياته وآثاره - ج ١ - ص ١١٤ .

وكان كلما حل بقرية أو مدينة ـ أثناء تجوله للدعوة والإرشاد ـ قصد المسجد فألقى فيه موعظته على جموع الحاضرين (١).

إلا أنه لما كان التعليم المسجدي قاصرا على الكبار ولم يكن للصغار إلا الكتاتيب القرآنية (٢) فكر ابن باديس في مصير أطفال الشعب الجزائري الذين ليس لهم حظ من العلم إلا مايحفظونه من قرآن في الكتاتيب وبعضهم يدرسون في المدارس الفرنسية التي تغير لغتهم ودينهم، وأما المدارس العربية الإبتدائية فلم يكن لها وجود في تلك الفترة، فكان يعطي لصغار الكتاتيب بعد خروجهم منها في الصباح والمساء دروسا في مبادئ الدين والعربية، ثم بعد فترة وجد من أهل الخير من يعينه على تأسيس مكتب يكون أساسا للتعليم الابتدائي العربي فأسسه، ثم تطور هذا المكتب فأصبح بعد مدة مدرسة ابتدائية متكاملة تشرف عليها جمعية يرأسها الشيخ عبد الحميد بن باديس، حدثت هذه المبادرة أول ماحدثت في قسنطينة ثم انتشرت في مدن القطر وقراه (٣).

إلى جنب هذه المساجد والمدارس التي كانت ميدانا لتعليم الناس وتربيتهم كانت هناك أماكن أخرى تسمى "بالنوادي" أسست في الداخل وفي الخارج بفرنسا، لأن في الجزائر مئات الآلاف من الشبان العرب المسلمين، فاتهم التعليم الديني والعربي، ولا يلتقي بهم رجال الجمعية في المساجد ولا في المدارس، والاعتناء بهم واجب، فأنشأت لهم الجمعية عشرات من النوادي المنظمة الجذابة، تلقي عليهم فيها المحاضرات العلمية والدينية والاجتماعية، وأدت هذه النوادي أكثر مما تؤديه المدارس والمساجد من التربية والتوجيه.

ولما كان في فرنسا عدد كبير من الجزائريين المغتربين الذين يكدون من أجل لقمة العيش أنشأت لهم الجمعية في باريس وغيرها من مدن فرنسا عشرات من النوادي وزودتها بطائفة من الوعاظ والمعلمين من رجالها، يتعلم فيها أولئك العمال ضروريات دينهم

---

(١) انظر ص (٣٦٩).

(٢) عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره: ج ٣ - ص ٢٦٨.

(٣) المصدر السابق: ج ٣ ص ٢٦٨-٢٧٠.

ودنياهم ، ويتعلم فيها أبناؤهم اللغة العربية تكلما وكتابة ، ويتربون على الدين والوطنية وقد استفحل أمر هذه النوادي وآتت ثمراتها قبل الحرب الأخيرة ، ثم قضت عليها الحرب ...(١)

هذه أهم الأماكن التي كان يستغلها ابن باديس لدعوته بالكلمة المسموعة .

الثانية : الكلمة المقروءة :-

من أهم الوسائل التى اهتم بها ابن باديس في نشر دعوته " الصحافة "(٢) فأنشأ أول ما أنشأ جريدة " المنتقد " سنة ١٩٢٥م التي يصفها بأنها لسان حال الشباب الناهض في القطر الجزائري(٣) إلا أن هذه الجريدة لم تعش طويلا حيث أوقفتها الإدارة الاستعمارية بعد صدور ثمانية عشر عددا فقط منها ، وكان شعارها الذي يتصدر صفحتها الأولى هو " الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء " وبعدها أصدر ابن باديس جريدة أخرى تسمى " الشهاب " التي تحولت فيما بعد الى مجلة شهرية وذلك ابتداء من شهر فبراير ١٩٢٩م وظلت تعيش حتى وفاته .

كتب على رأس صفحة العدد الأول من " الشهاب " الشهرى الشعار التالي " تستطيع الظروف أن تكيفنا ولا تستطيع باذن الله اتلافنا " .

وتعتبر " الشهاب " من حيث المحتوى والعقيدة والاتجاه الإصلاحي والسياسي ثاني مجلة في العالم الاسلامي بعد " المنار " للسيد رشيد رضا ولا أدل على هذا من ذكر الشيخ حسن البنا لهما بهذا الترتيب مبينا قدرها ومعلنا اقتفاء شهابه لأثرهما(٤) هذا من جهة ومن جهة أخرى نستفيد ذلك بالتأمل في شعارات المجلة وأبوابها :

إذ كتب على الغلاف من أعلى :

---

(١) الفضيل الورتلاني : الجزائر الثائرة : ص ٢٠٢ .

(٢) انظر ص (٣٧١) تجد بيان ابن باديس لغايتها وأهميتها .

(٣) تركي رابح - الشيخ عبد الحميد بن باديس - فلسفة وجهوده في التربية والتعليم ، ص : ١٨٦ .

(٤) انظر : ص (٤٧) .

«مجلة إسلامية جزائرية - شهرية

تبحث في كل مايرقي المسلم الجزائري »

ومن أسفل كتب

«مبدؤنا في الإصلاح الديني والدنيوى

" لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها "

مالك بن أنس

لنعول على أنفسنا ، ولنتكل على الله

منشيء المجلة »

وكتب في أعلى الركن الأيمن من الصفحة الأولى قوله تعالى : ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ الآية (١) وفي أعلى الركن الأيسر قوله تعالى : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾ الآية (٢).

ثم الافتتاحية تبدأ من وسط الصفحة الأولى

أما أبوابها فغالبا ماتكون كالتالي :

الافتتاحية : " مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير وحديث البشير النذير " ويتولاها ابن باديس فيفسر فيها شيئا من كتاب الله أو يشرح فيها شيئا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكثيرا مايجمع بينهما فيبدأ بالآية فيفسرها ثم يأتي بحديث ويشرحه .

الباب التالي : رجال السلف ونساؤه ، ويكتب تحت هذا العنوان : " وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف " (٣) ثم تحته : " خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم "" (٤) وبعد هذا يتناول إحدى شخصيات السلف الصالح ويترجم لها (٥)

---

(١) يوسف : ١٠٨ .　　(٢) النحل : ١٢٥ .

(٣) البيت الـ (٤٨٤) من جوهرة التوحيد للشيخ ابراهيم اللقاني . انظر شرح الجوهرة ، للباجوري : ص ٢٠٢ .

(٤) رواه البخاري عن عمران بن حصين كتاب فضائل الصحابة . انظر فتح الباري : ٨ / ٥ .

(٥) انظر ص (٤٠٥ - ٤٠٦) .

الباب الآخر : قصة الشهر : وتحته مباشرة ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١)
ويتعرض في هذا الباب لقصة معينة من السيرة أو التاريخ الإسلامي .

هذه الأبواب يحررها ابن باديس بنفسه وهناك أبواب أخرى تشترك فيها معه أقلام العلماء والمفكرين مثل :-

- المجتنيات من الجرائد والمجلات .
- حديقة الأدب من المنثور والمنظوم اليوم وقبل اليوم .
- المقالات معرض آراء وأفكار .
- الشهر السياسي في عالمي الشرق والغرب .
- صفحة القراء . (٢)

وكانت هناك صحف أخرى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين مثل " السنة " و " الشريعة " و " الصراط " (٣) وكلها أوقفتها الحكومة الفرنسية بعد فترة وجيزة من صدورها فخلفتها " البصائر " التي طال عمرها وعاشت حتى بعد وفاة ابن باديس ، هذه الجرائد التي كانت هي لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كان يشارك ابن باديس من حين لآخر في نشر مقالات له على صفحاتها ، وتارة تنقل له كلمات من الشهاب إلى البصائر وهكذا مما يجعل هذه الصحف هي الأخرى من جملة الوسائل التي استعملها ابن باديس وسيلة لنشر دعوته ، وإن كانت كل أعمال رجال الجمعية هي في الحقيقة من عمله لأنه هو سببها .

---

(١) الاعراف : ١٧٦ .

(٢) انظر الشهاب : ج ٣ مجلد ١٥ ربيع الأول ١٣٥٨ هـ افريل ١٩٣٩ م .

(٣) انظر عمار طالبي - ابن باديس حياته وآثاره - ج ١ - ص ٨٧ .

(٤) أي بعد أن أوقفها ابن باديس والابراهيمي قبل الحرب العالمية الثانية ثم أعادها الابراهيمي بعد الحرب .

- الخاتمـــــة -

الحمد لله تعالى حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه على ما هيأ ويسر من إتمام هذه الرسالة وتهيئة أسباب ذلك ، فسبحان الله لا نحصي ثناء على الله ، وبعد : فهذه خاتمة تشتمل على النتائج التي ظهرت لي أثناء البحث والدراسة ولا أدعي أنها كل النتائج ، فالفهم لا يدعي كماله أحد ، ولكنه عطاء الله تعالى لعباده كل على قدر ما يسر له من هذا الأمر . ومن هذه النتائج :

١- أمراض العالم الاسلامي واحدة ، وأعراضه متشابهة رغم البعد الذي بين أقطاره ، وأبرز ما فيه الفكر الارجائي والانحراف الصوفي .(١)

٢- كان الاستعمار الفرنسي يرمي إلى سلخ الشعب الجزائري من شخصيته الإسلامية واعتمد في ذلك على نشر التصوف والاستغراب.(٢)

٣- لوحظ وجود عدة نقاط بارزة ومشتركة في حياة الدعاة وهي :-

أ- الأصل العريق : فغالبا ما يكون المصلح من ذوي الشرف أو على الأقل ممن عرف نسبه عند العام والخاص .

ب- التربية التي تلقوها من الأسرة أو الشيوخ الذين تتلمذوا عليهم في أول حياتهم غالبا ما تكون تربية خاصة .

ج- الاستعداد الفطري : يلاحظ على كثير من المصلحين أنه كان لهم استعداد فطري لأن يصبحوا كذلك وهذا فضل من الله تعالى .

د- الرحلة والاحتكاك : لا نكاد نجد عالما مصلحا لم يرحل من بلده إلى بعض أقطار العالم الإسلامي للاطلاع على أوضاع الناس والاستفادة من آراء العلماء الآخرين وخبراتهم كما فعل ابن باديس في رحلته لمصر والحجاز.

---

(١) انظر ص : (٢٢٤)

(٢) انظر ص : (٢٢٥)

هـ- تنظيم الوقت : مسألة تنظيم الوقت والحرص الشديد على استغلاله وعدم تضييعه نجدها كذلك عند الذين نبغوا في العلم أوضَحّوا من أجل تغيير المنكر وإصلاح المجتمع ، يقول الشيخ أحمد حماني - وهو أحد تلاميذ ابن باديس -: " والذي نفع استاذنا رحمه الله كما نعرفه عنه النشاط الوافر ، مع تنظيم وقته تنظيما محكما صارما لا يتسامح في اختلاله ولا يضيع منه هنيهة .

يعطي طلبته حظهم في دروسهم ، يبكر في القيام ، ويتأخر في المنام وللمطالعة العلمية والأدبية من وقته - كل يوم - نصيب ، يحضر دروسه باهتمام ، ولمطالعة البريد من رسائل وجرائد ومجلات وقتا ، وللكتابة والتحرير - في جرائد الجمعية أو مجلة الشهاب - وقت ، لا يخل بموعد رحلة يقررها ، أو بحضور اجتماع أو إلقاء محاضرة تعينت عليه ، ولا يقصر في تلبية دعوة وجهت إليه ، ثم لاستقبال زواره ، ومجالس المؤانسة مع أخصائه وقت - وهذا يقع - غالبا - مرة واحدة في نهاية الأسبوع .

وهو في كل أوقات العمل جد وحزم ، فإذا جاء وقت المباسطة والمؤانسة تغير إلى شخص آخر لا صلة بينه وبين الأول "(١) .

و- الجهد الجبار والعمل المتواصل : يلاحظ على الرجال المُصْطَفَيْن أن حياتهم كلها جهاد وعمل ، إذ كانوا يعطون للدعوة كل حياتهم ، يقول الدكتور أبو مدين الشافعي الجزائري : " لا يمكن لإنسان تقدير الجهود التي كان يبذلها الشيخ عبد الحميد بن باديس "(٢) ، ويقول هو عن نفسه : " مضت عشرون سنة والناس يشكرون الحكومة توظيفها مدرسا يقضي سحابة نهاره

---

(١) محاضرة ألقاها بمناسبة الملتقى الثالث عشر للفكر الاسلامي بالجزائر بتاريخ ، ١-٧ /٩/ ١٩٨١م . مصورة عندي : ص ٩ .

(٢) الشهاب المصرية التي أسسها الامام حسن البنا - السنة الأولى ، الجزء الأول ص٨٣ .

وشطرا من ليله في خدمة العلم الديني واللساني ونشره ظنا منهم أنني أتقاضى مرتبا كسائر الموظفين وأنا لم أرزق من الحكومة فلسا واحدا - والفضل لله - وماكنت إلا مدرسا متطوعا . . . "(١)

٤- من خلال هذا البحث توصلت إلى أن ابن باديس كان من الراسخين في العلم سلفي العقيدة متحرر في الفقه مجاهدا وفق منهج الكتاب والسنة لا كما يتصوره بعض الناس من داخل الجزائر وخارجها .

٥- نظرة بعض الناس الخاطئة لابن باديس نتجت - بالنسبة لمن هم خارج الجزائر - من الحصار الذي ضربته فرنسا على الجزائر عامة ودعوة جمعية العلماء خاصة ، ومن تشويه النظام الذي خلف الاستعمار لحقيقة هذا الرجل ودعوته ، وهذا بالنسبة لأبناء الجزائر أنفسهم .

٦- من خلال البحث في منهج تفسير ابن باديس تبين لي أنه كان صاحب مدرسة مستقلة في التفسير نستطيع أن نطلق عليها " المدرسة الباديسية " ، وهي وإن كانت لا تخرج عن التفسير الذي يجمع بين العقل والنقل إلا أننا عند التأمل لما تركه ابن باديس نجد أن تفسيره يختلف عن الذين سبقوه ممن جمعوا بين هذين النوعين من التفسير ، ولخص الشيخ البشير الابراهيمي سمات هذه المدرسة في كلمة حينما قال : "كان للأخ الصديق عبد الحميد بن باديس رحمه الله ذوق خاص في فهم القرآن كأنه حاسة زائدة خص بها . . . " وسماها " طريقة ابن باديس في التفسير ".(٢)

٧- الشائع بين كثير من الناس أن ابن باديس متأثر بمدرسة " المنار " وهذا شيء صحيح لكن ليس على إطلاقه ، إذ أن هذا التأثر لم يكن إلا في أمور عامة أو مجملة أو خطوط عريضة وبمعنى آخر الجوانب المحمودة في مدرسة المنار استفاد بها ابن باديس ، فمثلا : " الدعوة إلى التفكير ونبذ الجمود والتقليد " هذه المسألة دعا إليها الشيخ

---

(١) انظر ص (٣٩٩) .

(٢) انظر ص (٢٢٨) .

محمد عبده وتلاميذه ، ودعا إليها ابن باديس كذلك ، هذا من الناحية الإجمالية لكن عند التفصيل نجد الغلو عند الأول والاعتدال عند الثاني وهكذا في المسائل الكثيرة التي وقع فيها التأثر .

٨- من خلال هذا البحث وجدت ابن باديس بصيرا بمظاهر الفساد في المجتمعات الإسلامية ،مدركا لخط الانحراف عبر التاريخ ،فاهما لعلل الأمراض وأسبابها عارفا بعلاجها ودوائها .

٩- خلاصة منهجه في التغيير هي : بناء القاعدة الشعبية المتناسبة انتشارا وعمقا بواسطة المراحل التي هي : التعريف والتربية والتكوين ثم التنفيذ .

١٠- يلاحظ أن بين دعوة الشيخ ابن باديس وحسن البنا تقاربا شديدا ، وجدته أنا في بحثي هذا مثلما سبقني إليه كل من الدكتور راجح الكردي والأستاذ مصطفى محمد طحان ،يقول الأول :" وأبرز هذه الحركات التي تحركت في أزمنة متقاربة من غير تنسيق بينها ، ومع ذلك تشابهت في مفهومها الحلول التي طرحتها للمشاكل الواحدة في العالم الاسلامي - هي بإجمال :-

أ - حركة الاخوان المسلمين .

ب - الجماعة الاسلامية .

جـ - عبد الحميد بن باديس"(١).

ويقول الثاني :- " الدارسون لسيرة عبد الحميد بن باديس يدركون مقدار التقارب بين أسلوبه ومنهاجه فى الدعوة وأسلوب الإمام حسن البنا ومنهاج دعوة الإخوان المسلمين .

وعلى الرغم من أني لم أعثر على صلة مباشرة واضحة بين الرجلين ، إلا أن التشابه كبير بين منهجي الرجلين ولا يعد ذلك غريبا فكلاهما نهل من معين واحد . كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم"(٢).

---

(١) ندوة اتجاهات الفكر الاسلامي :البحرين ٣-٦/٦/١٤٠٥هـ ٢٢-٢٥/٢/١٩٨٥م ص ٢٤٠ ،مكتب التربية العربي لدول الخليج .

(٢) القيادة في العمل الاسلامي - ج٢ ص ١٣٢ .

١١- إن دعوة الشيخ عبد الحميد بن باديس دعوة مكتملة بشمولها لجوانب ثلاثة :-

١- الجانب السلفي : أي أنها كانت دعوة سلفية بما في هذه الكلمة من معنى ، فمن خصائص الدعوة السلفية أنها :-

أ ـ تركز على العقيدة وتفهمها كما فهمها السلف الصالح .

ب ـ وتأمر بالبحث عن الدليل في الفروع لمن له قدرة على ذلك وتمقت التقليد الأعمى على من تبين له مرجوحية ما هو عليه ورجاحة ما يخالفه فيبقى على ما وجد عليه أباه أو قومه ، وتدعو إلى اتباع الراجح .

جـ ـ وفي باب تزكية النفس لا تقر كل ما تذهب إليه الصوفية المنحرفة بل لا تقبل إلا ما وافق الكتاب والسنة وعمل أصحاب القرون الثلاثة المفضلة .

د ـ ومحاربة البدع والمحدثات.

هـ ـ والتثبت في رواية الأحاديث والعمل بها ، فلا يحتج إلا بالصحيح والحسن في مشروعية الأحكام وأما الضعيف فيعمل به في فضائل الأعمال ، هذه أهم المسائل التي بالاستقامة عليها يكون الشخص سائرا على طريق السلف.(١)

وإذا رجعنا إلى دعوة ابن باديس نجده قد فصل القول في كل هذه المسائل فهو يقول عن العقيدة والأحكام الفقهية : «أدلة العقائد مبسوطة كلها في القرآن العظيم بغاية البيان ونهاية التيسير وأدلة الأحكام أصولها مذكورة كلها فيه ، وبيانها وتفاصيلها في سنة النبي صلى الله عليه وسلم الذي أرسل ليبين للناس ما نزل إليهم ، فحق على أهل العلم أن يقوموا بتعليم العامة لعقائدها الدينية ، وأدلة تلك العقائد من القرآن العظيم إذ يجب على كل مكلف أن يكون في كل عقيدة من عقائده الدينية على علم ، ولن يجد العامي الأدلة لعقائد سهلة قريبة إلا في كتاب الله فهو الذي يجب على أهل العلم أن يرجعوا في تعليم العقائد للمسلمين إليه . أما الإعراض عن أدلة القرآن والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الإصطلاحية ، فإنه من الهجر لكتاب الله ، وتصعيب طريق العلم إلى عباده ، وهم في أشد الحاجة إليه .

---

(١) ندوة اتجاهات الفكر الاسلامي المعاصر ـ البحرين ٣-٦/٦/١٤٠٥هـ ، ٢٢-٢٥/٢/١٩٨٥ ص : ٢١٦ .

ومما ينبغي لأهل العلم أيضا - إذا أفتوا أو أرشدوا - أن يذكروا أدلة القرآن والسنة لفتاويهم ومواعظهم ،ليقربوا المسلمين إلى أصل دينهم ويذيقوهم حلاوته ، ويعرفوهم منزلته ، ويجعلوه منهم دائما على ذكر. وينيلوهم العلم والحكمة من قريب ، ويكون لفتاواهم ومواعظهم رسوخ من القلوب وأثر في النفوس فإلى القرآن والسنة أيها العلماء إن كنتم للخير تريدون »(١).

قد يوهم قول ابن باديس:« أدلة العقائد مبسوطة كلها في القرآن . . . »وإغفاله لذكر السنة أنه لا يعمل بالسنة في العقائد ،ويزول هذا الوهم عندما نسمع قوله : «لا نعتمد في إثبات العقائد والأحكام على ماينسب للنبي صلى الله عليه وسلم من الحديث الضعيف »(٢).

ويقول عن التزكية:« بيّن القرآن مكارم الأخلاق ومنافعها ومساوئ الأخلاق ومضارها ، وبين السبيل للتخلي عن هذه والتحلي بتلك ، مما يحصل به الفلاح بتزكية النفس والسلامة من الخيبة بتدسيتها ،فهجرنا ذلك كله ، ووضعنا أوضاعا من عند أنفسنا واصطلاحات من اختراعاتنا خرجنا في أكثرها عن الحنيفية السمحة إلى الغلو والتنطع وعن السنة البيضاء إلى الإحداث والبدع وأدخلنا فيها من النسك الأعجمي ، والتخيل الفلسفي ماأبعدها غاية البعد عن روح الإسلام. . . »(٣) ويحدد التصوف الصحيح بأنه هو:« تجريد التوحيد وتزكية النفس وتقويم الأعمال وتصحيح النية ومحاسبة النفس ومراقبة الله في جميع الأعمال والزهد في الدنيا والعمل للآخرة والمبالغة في العبادات المشروعة والاعتصام بالورع موزونا ذلك كله ومضبوطا بالكتاب والسنة وماكان عليه أهل القرون الثلاثة الصحابة والتابعون وأتباع التابعين رضي الله عنهم أجمعين . وهذا هو الذى يراد بالتصوف إذا جاء اسم التصوف في كلام علماء السنة والأثر »(٤).

---

(١) تفسير ابن باديس : ص ١٣٦ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٣٧ .

(٣) المصدر السابق : ص ٢٣١ .

(٤) عمار الطالبي : ابن باديس حياته وآثاره - ج ٤ - م ١٩٨ .

ويقول عن البدع: «رأينا واجبا علينا أن نقوم بالدعوة العامة إلى الإسلام الخالص والعلم الصحيح إلى الكتاب والسنة وهدي صالح سلف الأمة وطرح البدع والضلالات ومفاسد العادات ...»(١)

وقد سبق قوله بخصوص التثبت في الحديث في آخر كلامنا عن العقيدة(٢) وتمام كلامه:

« فإذا كان الحكم ثابتا بالحديث الصحيح مثل قيام الليل ثم وجدنا حديثا في فضل قيام الليل بذكر ثواب عليه مما يرغب فيه جاز عند الأكثر أن نذكره مع التنبيه على ضعفه الذي لم يكن شديدا على وجه الترغيب ولو لم يكن الحكم قد ثبت لما جاز الإلتفات إليه وهذا هو معنى قولهم: «الحديث الضعيف يعمل به في فضائل الأعمال» أي في ذكر فضائلها المرغبة فيها لا في أصل ثبوتها.

فما لم يثبت بالدليل الصحيح في نفسه لا يثبت بما جاء من الحديث الضعيف في ذكر فضائله باتفاق من أهل العلم أجمعين »(٣).

وبهذا التتبع لهذه المسائل الخمس تأكد لدينا أن دعوة ابن باديس دعوة سلفية حقيقة لا زعما.

٢- <u>الجانب الحركي</u> :-

أي أنه أسس حركة إصلاحية بأن كون جماعة منظمة تعتنق مبدأ وتتساند لنصرته ونشره والدعاية والعمل له عن عقيدة، وهيأ لذلك نظاما محددا وخطة مرسومة وغاية مقصودة، وكانت هذه الدعوة التي تحملها هذه الجماعة شاملة كاملة وقد سبق توضيح هذه الأمور في مواطنها(٤).

---

(١) المصدر السابق : جـ٣ ص ٢٨.

(٢) انظر ص (٤٥٩).

(٣) تفسير ابن باديس : ص ١٣٧-١٣٨.

(٤) انظر ص (٤٤٣).

٣- الجانب العلمي :-

اهتم بتعليم العلم وقام هو نفسه بذلك مدة ثمان وعشرين سنة وكان يدرس كل العلوم الإسلامية واللغوية وكان فارسا في كلها وكان يرى أن أفضل طريقة لكسب العلم هي الطريقة النبوية وقد عمل على الإلتزام بها ، ومر بنا في فصول الرسالة بيان ذلك.(١)

بهذا يكون قد اتضح لنا أن دعوة ابن باديس قد اشتملت على كل الجوانب التي تفرقت في الناس اليوم إذ منهم العلماء الذين لا استقامة لهم على نهج السلف مثل كثير من الأزهريين وغيرهم، ومنهم السلفيون الذين ليسوا حركيين ، ومنهم الحركيون الذين قد ينقصهم العلم أو التمسك بما كان عليه السلف ، ولذا أستطيع أن أقول إن دعوة ابن باديس من ضمن الدعوات الكاملة لاشتمالها على هذه الجوانب الثلاثة والله تعالى أعلم .

١٢- يكاد ينفرد ابن باديس بين المصلحين المعاصرين في بعض الميادين التي طرقها وبرع فيها مثل " التعليم " الذي وضع أصوله من الناحية النظرية وطبقه عمليا طيلة ثمان وعشرين سنة حتى تخرجت عليه أفواج من العلماء والمفكرين والدعاة منهم من قضى نحبه في جهاد الفرنسيين ، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا".(٢)

١٣- كان موقف ابن باديس واضحا من فرنسا وهو المعاداة والحرب لكن بالمنهج الذي اختاره هو،(٣) وكل ما جاء عنه من كلام يوهم بالولاء والمهادنة أو وصايا لتلاميذه بعدم التعرض للإستعمار فإنما ذلك من باب المداراة والتقية وأن يتولى هو نفسه مبارزة العدو، لما يتميز به من حنكة سياسية وفق الشريعة المحمدية .

١٤- هناك أمور كان هو أول من تكلم عنها وأسسها في العصر الحديث مثل : العمل الجماعي المنظم ، المنهج الصحيح للتغيير، أهمية التربية ، التصور الصحيح لكثير من قضايا الدين كشمولية الإسلام ، والمرأة ، والحضارة الغربية .. الخ

هذا ما عن لي من نتائج استخلصتها من هذا البحث بفضل الله وعونه، وبها تختتم هذه الرسالة المتواضعة والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) انظر ص (٤٢٠) .

(٢) انظر ص(٤١٩-٤٢٠) من هذه الرسالة وانظر كذلك كلا من : تركي رابح ، الشيخ عبد الحميد ابن باديس ، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم ، ومصطفى محمد الطحان ، القيادة في العمل الاسلامي .

(٣) انظر ص(٤٣٢) .

الملاحق

القانون الاساسي
لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين

القسم الاول : الجمعية

الفصل الاول — تأسست في عاصمة الجزائر جمعية ارشادية تهذيبية تحت اسم « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » مركزها الاجتماعي بنادي الترقي الكائن ببطحاء الحكومة عدد 9 بمدينة الجزائر .

الفصل الثاني — هذه الجمعية مؤسسة حسب نظام وقواعد الجمعيات المبينة بالقانون الفرنسوي المؤرخ بغرة جويلية سنة 1901 .

الفصل الثالث — لا يسوغ لهذه الجمعية بأي حال من الاحوال أن تخوض أو تتداخل في المسائل السياسية .

القسم الثاني : غاية الجمعية

الفصل الرابع — القصد من هذه الجمعية هو محاربة الآفات الاجتماعية كالخمر والميسر والبطالة والجهل وكل مايحرمه صريح الشرع وينكره العقل وتحجره القوانين الجاري بها العمل .

الفصل الخامس — تتذرع الجمعية للوصول الى غايتها بكل ما تراه صالحا نافعا لها غير مخالف للقوانين المعمول بها ومنها انها تقوم بجولات في القطر في الاوقات المناسبة .

الفصل السادس — للجمعية أن تؤسس شعبا في القطر وان تفتح نوادي ومكاتب حرة للتعليم الابتدائي .

القسم الثالث : أعضاء الجمعية

الفصل السابع — أعضاء الجمعية على ثلاثة أقسام :
مؤيدون وقيمة اشتراكهم عشرون فرنكا
عاملون وقيمة اشتراكهم عشرة فرنكات
مساعدون وقيمة اشتراكهم خمسة فرنكات

الفصل الثامن — يتألف المجلس الاداري من الاعضاء العاملين فقط .

الفصل التاسع — الاعضاء العاملون فقط هم الذين ينتخبون كل سنة اعضاء المجلس الاداري المتألف من رئيس ونائب له وكاتب عام ونائب له وأمين مال ونائب له ومراقب واحدعشر عضوا مستشارا .

الفصل العاشر — للجمعية أن تنشيء بمركزها بالجزائر مكتبا يكون على رأسه مدير مكلف بادارة شؤونها ومصالحها

الفصل الحادي عشر — وللجمعية أيضا ان تحدث مكاتب عمالية في كل من العمالات الثلاث وعلى رأس كل مكتب منها كاتب مكلف بادارة شؤون الجمعية وهذه المكاتب كلها تكون مرتبطة أتم الارتباط بالمكتب المركزي .

الفصل الثاني عشر — الاعضاء العاملون هم الذين يصح أن يطلق عليهم لقب عالم بالقطر الجزائري بدون تفريق بين الذين تعلموا ونالوا الاجازات بالمدارس الرسمية الجزائرية والذين تعلموا بالمعاهد العلمية الاسلامية الاخرى .

الفصل الثالث عشر — الاعضاء المؤيدون والاعضاء المساعدون يشملون كل من راق له مشروع الجمعية من غير الطبقة المبينة بالفصل المتقدم وأراد ان يساعدها بماله وأعماله على نشر دعوتها الاصلاحية .

القسم الرابع : مالية الجمعية

الفصل الرابع عشر — مالية الجمعية تتألف من معلوم اشتراكات الاعضاء بكافة انواعهم المبينة في الفصول المتقدمة .

الفصل الخامس عشر — للجمعية أن تلتمس وتقبل من الحكام المحليين اعانات مالية .

الفصل السادس عشر — مبلغ الاشتراكات والاعانات يقبضه أمين المال ويسلم فيه وصلا .

الفصل السابع عشر — مال الجمعية يوضع باسمها في احدي البنوك المحلية ولا يبقي امين المال منه تحت يده أكثر من خمسمائة فرنك .

الفصل الثامن عشر — لا يجوز اخراج شيء من المال بقصد صرفه الا بامر كتابي ممضي من الرئيس والكاتب العام أمين المال . وذلك تنفيذا لمايقرره المجلس الاداري .

الفصل التاسع عشر — يصرف مال الجمعية فيما تقتضيه مصلحتها ويوجبه الوصول الى غايتها المبينة بالفصل الرابع من هذا القانون الاساسي .

القسم الخامس : الاجتماعات الادارية والعامة

الفصل العشرون — المجلس الاداري يجتمع في الاوقات التي يراها مناسبة ويجب ان تكون جلساته كتبا مسجلة في دفتر محاضر الجلسات وكل قرار يقرره المجلس ولا يكون مسجلا بالدفتر المعد لذلك يعتبر لغوا عمل عليه ويجب ان يمضي المحضر رئيس الجلسة وكاتبها .

الفصل الحادي والعشرون — ينعقد الاجتماع العام لسائر الاعضاء مرة في السنة وينعقد هذا الاجتماع بمدينة الجزائر اثر استدعاء من الرئيس وزيادة على هذا الاجتماع السنوي يجوز عقد اجتماع آخر في اثناء السنة في الزمان والمكان الذين يعينهما الرئيس وبعد أن يتفاوض أعضاء الجمعية في اثناء الاجتماع العمومي العادي في برنامج الجمعية وتعرض عليهم اعمال الجمعية في السنة السابقة تنعقد جلسة ثانية يحضرها الاعضاء العاملون والمؤيدون والمساعدون فقط

الفصل الثاني والعشرون — اذا شجر خلاف بين عضوين أو اكثر من أعضاء الجمعية أو تغيرت سيرة أحد الاعضاء بما تراه الجمعية ماسا بحياتها فلمجلس الادارة ان يعين لجنة بحث وتحكيم تشمل خمسة من الاعضاء العاملين وخمسة من الاعضاء المؤيدين وهذه اللجنة تعرض نتيجة بحثها وما تراه في القضية على المجلس الاداري وهذا الاخير يطبق العقوبات والاحكام المنصوص عليها في اللائحة الداخلية التي ستوضع للجمعية .

الفصل الثالث والعشرون — لا ينظر في طلب متعلق بحل الجمعية الا اذا كان صادرا من ثلث الاعضاء على الاقل ولا يعمل به ولا ينفذ الا اذا صادق عليه أربعة أخماس الاعضاء العاملين واذا انحلت الجمعية — لا قدر الله — يسلم أثاثها ومالها الى جمعية خيرية اسلامية يعينها المجلس الاداري .

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وآله وسلم

دعــــوة

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

وأصــولهـــا

1 ـ الاسلام هو دين الله الذي وضعه لهدايـــة عبــاده ، وأرسل به جميع رسله ، وكمله على يد نبيه محمد الذي لا نبي من بعده .

2 ـ الاسلام هو دين البشرية الذي لا تسعد الا بـــه وذلك لانه :

اولا : كما يدعو الى الاخوة الاسلامية بين جميع المسلمين . يذكر بالاخوة الانسانية بين البشر اجمعين .

ثانيا : يسوي في الكرامة البشرية والحقوق الانسانيـــة بين جميع الاجناس والالوان .

ثالثا : لانه يفرض العدل فرضا عاما بين جميع الناس بلا أدنى تمييز .

رابعا : يدعو الى الاحسان العام .

خامسا : يحرم الظلم بجميع وجوهه وبأقل قليله من أي احد على اي احد من الناس .

سادسا : يمجد العقل ويدعــو الى بناء الحيــاة كلها على التفكير .

سابعا : ينشر دعوته بالحجة والاقناع لا بالختل والاكراه

ثامنا : يترك لاهل كل دين دينهم يفهمونه ويطبقونه كما يشاؤن .

تاسعا : شرك الفقراء مع الاغنياء في الاموال وشرع مثل القراض والمزارعة والمغارسة مما يظهر به التعاون العادل بين العمال وارباب الاراضي والاموال .

عاشرا : يدعو الى رحمة الضعيف فيكفي العاجز ويعلم الجاهل ويرشد الضــال ويعان المضــطر ويغاث الملهــوف وينصر المظلوم ويوخذ على يد الظالم .

حادي عشر : يحرم الاستعباد والجبروت بجميع وجوهه

ثاني عشر يجعل الحكم شوري ليس فيه الستبداد ولو لاعدل الناس .

3 ـ القرآن هو كتاب الاسلام .

4 ـ السنة ، القولية والفعلية ، الصحيحة تفسير وبيان للقرآن .

5 ـ سلوك السلف الصالح ، الصحابة والتابعين واتباع التابعين ، تطبيق صحيح لهذي الاسلام .

6 ـ فهوم ائمة السلف الصالح اصدق الفهوم لحقائق الاسلام ونصوص الكتاب والسنة .

7 ـ البدعة كل ما احدث على انه عبادة وقربة ولم يثبت عن النبي صل الله عليه وآله وسلم فعله وكل بدعة ضلالة .

8 ـ المصلحة كل ما اقتضته حاجة الناس في امر دنياهم ونظام معيشتهم وضبط شؤونهم وتقدم عمرانهم مما تقره اصول الشريعة .

9 ـ افضل الخلق هو محمد صلى الله عليه وسلم لانه :

اولا : اختاره الله لتبليغ اكمل شريعة الى الناس عامة .

ثانيا : كان على اكمل اخلاق البشرية .

ثالثا : بلغ الرسالة ومثل كمالها بذاته وسيرته .

رابعا : عاش مجاهدا في كل لحظة من حياتــه في سبيل سعادة البشرية جمعة حتى خرج من الدنيا ودرعــه مرهونة

10 ـ افضل امتــه بعده هم السلف الصالح لكمـــال اتباعهم له .

11 ـ افضل المؤمنين هم الذين آمنوا وكانوا يتقون وهم الاولياء والصالحون فحظ كل مؤمن من ولاية الله على قدر حظه من تقوى الله .

12 ـ التوحيد اساس الدين فكل شرك ، في الاعتقاد او في القول او في الفعل ، فهو باطل مردود على صاحبه .

13 ـ العمل الصالح المبني على التوحيد ، به وحده النجاة والسعادة عند الله فلا النسب ولا الحسب ولا الحظ بالذي يغني عن الظالم شيئا .

14 ـ اعتقاد تصرف احد من الخلق مع الله في شيء ما ، شرك وضلال ومنه اعتقاد الغوث والديوان .

15 ـ بناء القباب على القبور ووقد السرج عليها والذبح عندها لاجلها والاستغاثة باهلها ضلال من اعمال الجاهلية ومضاهات لاعمال المشركين فمن فعله جهلا يعلم ومن اقره ممن ينتسب الى العلم فهو ضال مضل .

16 ـ الاوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السلف ومبناها كلها على الغلو في الشيخ والتحيز لاتباع الشيخ وخدمة دار الشيخ واولاد الشيخ الى ما هنالك من استغـــلال واذلال واعانة لاهل الاذلال ... والاستغلال ... ومن تجميد للعقول واماتة للهمم وقتل للشعور وغير ذلك من الشرور ...

17 ـ ندعو الى مادعا اليه الاسلام وما بيناه منه مـن الاحكام بالكتاب والسنـة وهدي السلف الصـالح من الايمـة مع الرحمة والاحسان دون عداوة او عدوان .

18 ـ الجاهلون والمغرورون أحق الناس بالرحمة .

19 ـ المعاندون المستغلون احق الناس بكل مشروع من الشدة والقسوة .

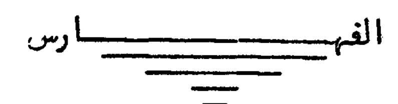
20 ـ عند المصلحة العامة من مصالح الامة ، يجـب تناسي كل خلاف يفرق الكلمة ويصدع الوحدة ويوجد للشر الثغرة . ويتحتم التآزر والتكاتف حتى تنفرج الازمة وتزول الشدة باذن الله ثم بقوة الحق وادراع الصبر وسلاح العلم والعمل والحكمة .

قل هذه سبيلي : ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني ، وسبحن الله ، وما انا من المشركين .

عبد الحميد باديس

بقسنطينة بالجامع الاخضر اثر صلاة

الجمعة 4 ربيع الاول 1356



أولا : فهرس الآيات .

ثانيا : فهرس الأحاديث .

ثالثا : فهرس الأعلام

رابعا : فهرس المصادر والمراجع .

خامسا : فهرس الموضوعات .

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث

فهرس الأعلام (١)

---

١ ـ اقتصرت على ذكر الأعلام المترجم لهم مع الاشارة الى موضع الترجمة فحسب وعدم مراعاة (أل) التعريف وابن وأبو في الترتيب .

فهرس المصادر والمراجع

ـ الابراهيمي : محمد البشير : آثاره الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ط١ ـ ١٩٨١

: سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين دار الكتب الجزائر ـ ١٩٨٢ م ٠

: عيون البصائر ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ٠

: مجلة مجمع اللغة العربية ـ ١٩٦٤ ـ القاهرة ٠

ـ الأبي : إكمال إكمال المعلم مع حاشية السنوسي ٠

ـ أرسلان : الأمير شكيب ـ لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ـ ط ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨٨ المركز السلفي للكتاب ـ القاهرة ٠

ـ الأعلم : حبيب ـ ديوان الهذليين ٠ الدار القومية للطباعة ـ القاهرة . ١٣٨٥هـ

ـ الألوسي : روح المعاني ٠

ـ الأنصاري : عبد القدوس : السيد أحمد الفيض آبادي ٠

ـ ابن باديس : عبد الحميد : جريدة البصائر الجزائر ـ ١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٦م ٠

: الشهاب ـ ١٩٣٧ م ٠

: العقائد الاسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ـ رواية وتعليق محمد الصالح رمضان ـ الشركة الجزائرية مرازقة بوداود وشركاؤهما ـ الجزائر ٠

: مجالس التذكير ـ جمع وترتيب محمد الصالح رمضان وتوفيق شاهين الناشر دار الكتاب الجزائري مطبعة الكيلاني الصغير ـ القاهرة ٠

ـ الباجوري : شرح جوهرة التوحيد ٠

ـ البقاعي : نظم الدرر في تناسب الآي والسور ٠

ـ البنا : الامام الشهيد حسن : مجموعة الرسائل ٠ دار الشهاب

ـ البيهقي : الاعتقاد : تصحيح أحمد محمد مرسي ـ الناشر : حديث آكاديمي ـ نشاط آباد فيصل آباد ـ باكستان ٠

ـ أبو تمام : الديوان بشرح الخطيب التبريزي ٠ دار المعارف ط ٤/ ١٩٧٦م

ـ ابن تيمية : أحمد ـ مجموع الفتاوى جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي ـ طبع بادارة المساحة العسكرية بالقاهرة ١٤٠٤ هـ ٠

- ابن الجزري: النشر في القراءات العشر . ط دار الفكر
- الجصاص: أحكام القرآن - دار الكتاب العربي بيروت - مصور عن الطبعة الأولى ١٣٣٥ هـ .
- الجوهري: الصحاح .
- الحاكم: المستدرك
- ابن حبان: صحيح ابن حبان .
- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري - مطبعة مصطفى البابي الحلبي - ١٩٥٩ م -
- الحجوي: محمد بن الحسن الثعالبي الفاسي - الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي - طبع على نفقة المكتبة العلمية لصاحبها الشيخ محمد سلطان النمنكاني - المدينة المنورة - ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .
- الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف . مؤسسة الرسالة . المكتبة العتيقة تونس. ط ١/ ١٩٨٢م
- حماني: أحمد: صراع بين السنة والبدعة . دار البعث قسنطينة - ط ١/ ١٩٨٤م
: محاضرة مصورة من أعمال الملتقى الثالث عشر للفكر الاسلامي بالجزائر - ١٩٨١ م .
- أبو حيان: البحر المحيط . دار الفكر. ط ٢/ ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
- خرفي: صالح: المدخل الى الأدب الجزائري الحديث .(ش.و.ن.ت) الجزائر - ١٩٨٣م
- خطاب: اللواء الركن محمود شيت: قادة الفتح المغرب العربي - دار الفتح للطباعة والنشر .
- ابن خلدون: تاريخه - طبعة بولاق .
- دبوز: محمد علي: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة - دمشق - ١٩٦٥ م .
- دنيا: سليمان: الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين - تحقيق . الحلبي. ط ١/ ١٩٥٨م
- الذهبي: محمد حسين: التفسير والمفسرون - دار الكتب الحديثة ط ٢ - ١٩٧٦م .
- رابح: تركي: الشيخ عبد الحميد بن باديس - فلسفته وجهوده .(ش.و.ن.ت) الجزائر ١٩٦٩م
- الرازي - التفسير الكبير .
- رضا: الرشيد - تفسير المنار . دار المنار - ط ٢ - ١٣٦٧هـ .
- الزرقاني: شرح الزرقاني - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م
- الزركلي: الأعلام .
- الزمخشري: الكشاف .
- ستودارد: لوثروب: حاضر العالم الاسلامي - نقله الى العربية الاستاذ عجاج نويهض - علق عليه الامير شكيب أرسلان - دار الفكر الطبعة الرابعة ١٩٧٣ م .

- السنوسي : محمد : الرحلة الحجازية ت : علي الشنوفي ـ الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٨ م .
- السيوطي : الاتقان . ط . الحلبي . ١٩٢٩م
: تدريب الراوي .
- الشاطبي : الامام ـ الموافقات . دار المعرفة . بيروت بشرح دراز
- شحاتة : عبد الله محمود : منهج الامام محمد عبده . نشر الرسائل الجامعية ٣/القاهرة ١٩٦٣ م
- شلتوت : تفسير القرآن الكريم . دار القلم . القاهرة . ط ٣/١٩٦٥م
- الشوكاني : فتح القدير . الحلبي . ١٣٤٩هـ
- الصاوي : حاشية على الجلالين .
- الضياف : أحمد بن أبي الضياف : اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان : ت لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار ـ الدار التونسية للنشر . ١٩٧٦ م .
- الطالبي : عمار : ابن باديس حياته وآثاره ٤ أجزاء ـ دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر الطبعة الأولى ـ عام ١٩٦٨ .
- الطبراني : المعجم الكبير ت حمدي عبد المجيد السلفي ـ مطبعة الوطن العربي العراق .
- الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ـ مصطفى البابي الحلبي ط ٢ ـ ١٩٥٤م
- الطحان : مصطفى : القيادة في العمل الاسلامي .
- ابن عاشور : الفاضل : الحركة الأدبية والفكرية في تونس . معهد الدراسات العربية القاهرة ط١/١٩٥٥م
: محمد الطاهر : تفسير التحرير والتنوير ـ الدار التونسية للنشر تونس والمؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر ـ ١٩٨٤م
- عباس : فرحات : ليل الاستعمار ـ ترجمة أبي بكر رحال .
- ابن العربي ـ أحكام القرآن ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه ط٢ ١٩٦٨ م .
: العواصم من القواصم ـ ت الشيخ عبد الحميد بن باديس .
- العياشي : سالم : الرحلة العياشية . الرباط ـ ١٩٧٧ م .
- الغماري : الامام الشوكاني مفسرا .
- ابن فرحون المالكي : الديباج المذهب .
فضلاء : محمد الطاهر : التحريف والتزييف في كتاب حياة كفاح . دار البعث ط١/١٩٨٢م
قاسم : الدكتور محمود : الامام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٨ م .

- القرطبي : الجامع لأحكام القرآن - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر - القاهرة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .
- القسطلاني : ارشاد الساري بشرح صحيح البخاري . ط: الحلبي . ١٣٠٤ هـ
- قطب : السيد : خصائص التصور الاسلامي ومقوماته .
: في ظلال القرآن . ط ٧ . دار الشروق ١٩٧٨ م
- قطب : محمد : منهج التربية الاسلامية . دار الشروق
: واقعنا المعاصر . مؤسسة المدينة . ط: ١/ ١٩٨٧ م
- ابن القيم الجوزية : أعلام الموقعين نشره طه عبد الرؤوف سعد - مكتبة الكليات الأزهرية .
- ابن كثير : تفسيره . الحلبي
- القزويني : ابن ماجه : السنن - ت محمد مصطفى الأعظمي .
- الامام مالك - الموطأ - بترتيب محمد فؤاد عبد الباقي .
- المباركفوري : شرح الترمذي - (تحفة الأحوذي) .
- المدني : أحمد توفيق : حياة كفاح - ٤ أجزاء - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ١٩٨٢ م .
: مجلة الأصالة ١٩٧٧ - الجزائر .
- مرحوم : علي : مجلة الأصالة - الجزائر . ١٩٧٥ م .
: مجلة الثقافة - ١٩٨٠ م .
- مطبقاني : مازن صلاح حامد : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين . دار القلم ط: ١/ ١٩٨٨ م
- المنذري : الترغيب والترهيب .
: مختصر سنن أبي داود .
- ابن منظور : لسان العرب .
- مواعدة : محمد : محمد الخضر حسين : حياته وآثاره - الدار التونسية للنشر ١٩٧٤ م
- المودودي : أبو الأعلى : موجز تاريخ تجديد الدين واحيائه .
- الميداني : عبد الرحمن حسن حبنكة : قواعد التدبر الأمثل . دار القلم - ط: ١/ ١٩٨٠ م
- الميلي : محمد : ابن باديس وعروبة الجزائر (ش. و. ن. ت) الجزائر ط ٢/ ١٩٨٠ م
- ناصر : محمد : المقالة الصحفية الجزائرية . (ش. و. ن. ت) الجزائر ط / ١٩٧٨ م
- بن نبي : مالك : شروط النهضة - ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين دار الفكر الطبعة الثالثة ١٩٦٩ م .
- النسائي : السنن .

- النووي : شرح مسلم .
- نويهض : عادل : معجم أعلام الجزائر - المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٧١ م .
- الورثلاني : الفضيل : الجزائر الثائرة . منشورات عباد الرحمن ١٩٥٦م

:-:-:-:-:-:-:-:-:-:-:-:-:-

فهـــرس الموضوعـــات